آية الله محمد رضا مهدوي كني

البداية في الأخلاق العملية



دار الهادي

بيروت - لبنان

البداية
في الأخلاق العملية

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

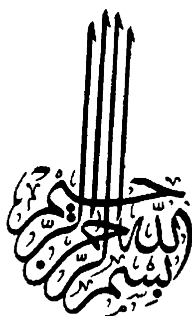
البداية في الأخلاق العملية

تأليف

آية الله محمد رضا مهدوي كني



دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا شك في ان الناس جميعاً ينشدون السعادة، ولا شك ايضاً في أن هذا الهدف الكبير لا يتحقق إلّا من خلال تزكية النفس وتهذيبها، أي عن طريق اكتساب المكارم وتلقي الفضائل، وتفادي الرذائل الاخلاقية. وقد سلك الأنبياء العظام والاولياء الكرام عليهم السلام هذه الطريقة، ودعوا اليها طلاب الحقيقة. وأشار القرآن الكريم الى هذا الامر وأكد عليه حينما قال:

﴿والشّمس وضُحاها... قد أفْلَحَ مَنْ زَكّاها. وقد خابَ مَن دَسّاها﴾[1].

ومع ان الله تعالى ليس بحاجة الى القَسَم، إلّا انه أقسم أحد عشر قسماً[2] رائعاً لكي يؤكد لنا من خلال ذلك على أهمية هذا الموضوع وضرورته. كما أفصح في موضع آخر من القرآن الكريم عن الهدف من بعثة خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وآله والمتمثل في تعليم الناس وتربيتهم وتزكية نفوسهم وتهذيبها:

﴿هو الذي بَعَثَ في الاميينَ رسولاً مِنهم يتلو عَلَيْهِم آياتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ

---

(١) الشمس / ١ ـ ١٠.

(٢) أقسم الله: بالشمس، وضحاها، والقمر اذا تلاها، والنهار اذا جلاها، والليل اذا يغشاها، والسماء، وما بناها، والأرض، وما طحاها، ونفس، وما سواها.

الكتابَ والحكمةَ وانْ كانوا مِنْ قَبْلُ لفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾[١].

وقال الرسول ﷺ:

«انما بُعِثتُ لاتمم مكارمَ الاخلاق»[٢].

وقال الامام علي بن الحسين عليه السلام ان رسول الله ﷺ قال:

«بُعِثتُ بمكارم الاخلاق ومحاسِنها»[٣].

وأوصى الامام علي عليه السلام بتهذيب النفس وحثّ على مكارم الاخلاق وعدّها السبيل الى النجاح بقوله:

«لو كنا لا نرجو جَنّةً ولا نخشى ناراً ولا ثَواباً ولا عقاباً لكانَ ينبغي لنا أنْ نطالب بمكارم الاخلاق فانها مما تدل على سبيل النجاح»[٤].

وصفوة القول هي ان الهدف الاول الذي يحظى باهتمام الدين الاسلامي ويلعب دوراً جوهرياً في بلوغ الكمالات والفضائل الانسانية، هو تهذيب النفس وتربية الروح، والذي يُعدّ أمراً حياتياً وضرورياً لا غنى عنه قط.

وشبّه الامام علي عليه السلام نفس الانسان بالزرع، إذ انها تفقد نضارتها وتجدب كما يجدب الزرع الظامئ، ما لم تُسْقَ بالفضائل وتُروَ بالأدب:

«انّ بذوي العقولِ من الحاجةِ الى الأدبِ كما يظمأُ الزرعُ الى المَطَرِ»[٥].

تعريف الاخلاق

كلمة «الاخلاق»، جمع خُلق. والخُلق هو الشكل الباطني للانسان، مثلما يمثل الخَلق الشكل الظاهري والصوري للأشياء. وتُدعى الغرائز والملكات والصفات النفسية والباطنية القائمة في الانسان، بالاخلاق. كما يُطلق اصطلاح الاخلاق

---

(١) الجمعة/٢.

(٢) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٢٨٢؛ سفينة البحار، ج١ ص ٤١٠.

(٣) مشكاة الانوار، ص ٢٤٣؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج٦٦، ص٤٠٥.

(٤) آداب النفس، العيناثي، ج١، ص٢٦؛ مستدرك الوسائل، ج٢، ص٢٨٣.

(٥) غرر الحكم، ج١، ص ٢٤٤؛ الفهرست الموضوعي للغرر، ص ١١.

ايضاً على الاعمال والسلوكيات الناشئة من تلك الخلقيات.

مفردتا «الخَلق» والخُلق»، ترجعان الى أصل واحد، إلّا انهما تختلفان من حيث المعنى. ويعرّف ابن منظور «الخُلق» بقوله:

«الخُلق ـ بضم اللام وسكونها ـ وهو الدين والطبع والسجية. وحقيقته انه لصورة الانسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. ولها اوصاف حسنة وقَبيحة»[١].

ويقسّم علماء الاخلاق الخُلقيات والصفات الروحية والنفسية للانسان الى نوعين:

١ ـ فطرية وطبيعية.

٢ ـ مكتسبة واختيارية.

والصفات الفطرية هي الغرائز والاستعدادات المخلوقة في طبيعة الانسان، ولا تأثير للاختيار والعمل في الحصول عليها قط، كالشعور العرفاني، والحس الماورائي، وحب الاستطلاع، ومشاعر طلب العدل، والرفعة والسمو، والشخصية والاستقلال، والتحررية، وغريزة حب البقاء وحب الكمال، وقوى العقل والشهوة والغضب، وغيرها. وهذه القوى والصفات، هي العامل الذي يميز الانسان عن سائر الحيوانات والكائنات الحية في مرحلة ذاته وطبيعته، والتي مُنحت له في نظام الخلقة الأحسن. اما الصفات المكتسبة فهي الصفات التي تحصل للانسان من خلال العمل والاختيار بشكل تدريجي، اعتماداً على طبيعة استخدامه للصفات الفطرية. فلو أساء الانسان استخدام الاستعدادات والمواهب التي خلقها الله في طبيعته، فمن البديهي ان ينعكس ذلك سلباً على صفاته المكتسبة. والصفات والملكات اذا كانت حميدة تسمى: الفضائل ومكارم الاخلاق. وإذا كانت قبيحة تسمى: الرذائل الاخلاقية. واذا كان سلوك الانسان متأثراً بالملكات الفاضلة سُمي ذلك السلوك بمحاسن الاخلاق والآداب، اما اذا تأثر بالملكات الرذيلة،

---

(١) لسان العرب، ج ٤، ص ١٩٤.

أُطلِق عليه اسم السيئات أو مساوئ الاخلاق.

اذن لابد من الرياضات العلمية والعملية، من اجل بلوغ الفضائل والملكات الفاضلة. وتبرز في المرحلة الاولى ضرورة معرفة الفضائل والرذائل، والوقوف على الشخصية الحقيقية للانسان ومكانته الطبيعية، ثم تأتي مرحلة مجاهدة النفس؛ اذ بدون هذه المجاهدة، يتعذّر على المرء التغلب على الاهواء النفسية. ومن لا يخرج من هذا الميدان ظافراً مرفوع الرأس، فلن يبلغ مرحلة الفضيلة وكرامة النفس وسلامتها. ومن لم يبلغ مرحلة سلامة النفس، كان في يوم الجزاء من المذنبين الخاسرين ذوي الحسرة. وقد قال القرآن المجيد:

﴿يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلّا منْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ﴾[1].

وقال: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الأمر﴾[2].

علم الاخلاق من مختلف وجهات النظر

بالامكان دراسة القضايا الاخلاقية من مختلف وجهات النظر بحيث تكتسب عنواناً خاصاً بما ينسجم مع كل وجهة نظر. ولابد لنا من الاشارة الى أهم هذه العناوين:

١ ـ الاخلاق النظرية أو فلسفة الاخلاق.

٢ ـ الاخلاق التطبيقية أو الاخلاق المقارنة.

٣ ـ الاخلاق العملية أو الاسلوب الاخلاقي[3].

في الاخلاق النظرية تُبحث فلسفة الاخلاق، اي مبادئ الاخلاق واسسها ومعايير الحسن والقبح. وتولى اهمية على هذا الصعيد لنسبية الاخلاق أو مطلقيتها، والحسن والقبح الذاتيين، والمصالح والمفاسد.

---

(١) الشعراء / ٨٨ و ٨٩.

(٢) مريم / ٣٩.

(٣) لا شك في ان لعلم الاخلاق تبويبات اخرى وفقاً للمهام والمسؤوليات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، وغيرها مما لا علاقة له بدراستنا.

وفي الاخلاق التطبيقية أو المقارنة، يتم اجراء قياس ومقارنة بين مختلف المذاهب ووجهات النظر. فبعد الوقوف على مختلف الرؤى والافكار ووجهات النظر، تجري عملية انتخاب الأفضل على ضوء ما لدى هذه المذاهب من قواعد ومعايير. ورغم انّ اجراء مثل هذه الدراسة، ذو انعكاسات مفيدة بل وضرورية، غير اننا لسنا بصددها في هذا الكتاب، وقد تسنح فرصة اخرى للقيام بهذه المهمة اذا حالفنا التوفيق الالهي.

والاخلاق العملية، هي الاخلاق التي ينهض هذا الكتاب بدراستها، رغم ان ضرورة التوضيح تستدعي أحياناً الاشارة الى بحوث اخرى. والمراد بالاخلاق العملية، تلك الآداب والأحكام الخاصة التي من الضروري الالتزام بها خلال حركة التزكية والتهذيب والتي تقرّب الى الهدف عن طريق ممارستها والعمل بها، سواء كان هذا العمل قلبياً كالنية، والحب، والبغض، وسوء الظن، والحسد، والحقد، والتواضع، والتكبر، أو بدنياً.

البُعد القيمي في الاخلاق العملية

يُبحث العمل على صعيد علم الاخلاق، نظراً لما يتميز به من ثقل قيمي، ولأنه يكشف عن خصيصة خلقية. بتعبير آخر: تُقيّم الآداب والاحكام العملية في علم الاخلاق من حيث انها خالقة للقيم ومتأثرة بها لا على أساس الجانب الحقوقي والتكليفي. فالعمل الصادر عن شخص ما بشكل نادر والذي يُنسب اليه كحركة عرضية، يُعدّ خارجاً عن دائرة علم الاخلاق، وانْ كان محكوماً من الناحية الفقهية والتكليفية بأحد الاحكام الخمسة، أي: الوجوب، والحرمة، والاستحباب، والكراهة، والاباحة. اما العمل الذي يؤلف موضوع البحث والدراسة في علم الاخلاق فهو ذلك العمل المستند الى خلق الانسان وطبعه، أو انه يترك أثراً على خلق الانسان وطبعه. والنقطة الجديرة بالاهتمام هي ان الكثير من الآداب والسنن تُبحث عادةً بشكل مشترك في حقلي الفقه والاخلاق، غير ان مثل هذا الاشتراك لا يمكن ان يُعدّ دليلاً على التداخل والتكرار، وذلك للتباين القائم في طبيعة البحث

بين هذين العلمين. فموضوع الفقه يتمثل في افعال المكلفين من حيث التكليف وتحديد الواجبات وتعيين الحدود والحقوق. في حين تؤلف القيم الاخلاقية السامية والفضائل الانسانية، الموضوع الجوهري في علم الاخلاق.

ويحظى عمل الانسان باهتمام علم الاخلاق نظراً لما لديه من ثقل أخلاقي. ولو رفعنا هذا الثقل ـ مثبتاً كان أو سلبياً ـ عن كاهله، لخرجنا عن دائرة علم الاخلاق ووجدنا انفسنا في واد آخر.

ويشترك علم الاخلاق حتى مع بعض العلوم التجريبية. والفارق بينهما هو هذا الجانب القيمي والاخلاقي للبحث. ففي علم الاخلاق ـ مثلاً ـ هناك بحوث كثيرة ـ وبما يتناسب مع الحاجة ـ في مضمار القوى الروحية والغرائز والعواطف والاحساسات وطبيعة التأثير والتأثر فيما بينها. وبما ان هذه البحوث ذات طابع نفسي، فهي تتصل بعلم النفس أيضاً، إلّا ان استعراضها في علم الاخلاق يتّسم بطابع قيمي نظراً لتأثير فعل الغرائز وانفعالها على بلورة هوية الانسان وشخصيته المعنوية. وصفوة القول هي ان الجانب القيمي للغرائز، هو الذي يحظى باهتمام علم الاخلاق وليس البعد العلمي أو الفلسفي، وانْ كان بامكان العلم والفلسفة الانضواء تحت لواء خدمة الاخلاق والقيم الخلقية. والنتائج والآثار الحقوقية والالزامية للعمل، ترتبط عموماً بعلم الحقوق وعلم الفقه، بينما يرتبط الفعل والانفعالات النفسية التي تشهدها غرائز الانسان، بشؤون علم النفس. وترتبط الدراسات المتصلة بالتأثير المتبادل بين الجسم والروح، والحركة الجوهرية التكاملية للنفس، والموضوعات التي تُعنى ببقاء الروح وخلودها، بعلم الفلسفة، فيما يبدو طرحها مبرّراً في علم الاخلاق كمقدمة، ومن حيث كونها أساساً للدراسات القيمية والاخلاقية أيضاً.

الاستنتاج

ان الثقل القيمي هو الذي يضفي الطابع الأخلاقي على العمل وليس الجانب الغيبي أو العلمي. ومن هنا قد يتحلى فرد ما بالكثير من الفضائل دون ان يكون

بامكانه تقديم تعريف منطقي للفضيلة والكرامة من وجهة النظر العلمية، وبالعكس ايضاً، قد يكون بمقدور شخص ما معرفة الاصطلاحات العلمية على الوجه الصحيح، دون ان يتّسم بشيء من الفضيلة والورع.

ويقول الامام علي عليه السلام:

﴿رُبَّ عالمٍ قد قتلهُ جهلُهُ وعِلمهُ معهُ لا ينفعهُ﴾[1].

فهذا الجهل هو ذلك الفقر الأخلاقي والانساني الذي يدمّر العالم. ومن هنا تُعد الأخلاق محكّ الفضيلة والرذيلة معاً. فالعدل انما يُبحث في علم الاخلاق لأنه قيمة لا لأنه واجب أو تكليف. اي انّ علم الأخلاق ينظر الى العدل كفضيلة وكرامة، في حين يهتم به علم الفقه والحقوق كواجب حقوقي واجتماعي. ويُعد قبول العدل من وجهة نظر الاخلاق نوعاً من الانتخاب، فيما يُعَدّ نوعاً من الالزام على صعيد علم الحقوق. ومن البديهي ان التزام الفرد بالعدل خوفاً من العقاب، يعني نهوضه بواجبه القانوني، ولا يعني انه قدم عملاً مفيداً ومؤثراً من الناحية الاخلاقية، لأنّ انتخاب العدل لا يُعدّ قيّماً إلّا اذا اقترن بدافع طلب الفضيلة.

فالاطاعة عادة ما تكون مقترنة بالخوف والرجاء واستخدام القوة، على العكس من الاختيار الذي يقترن بالميل والرغبة، والحب والايثار. وقد اطلق امير المؤمنين علي عليه السلام على العبادة القائمة على الحب اسم عبادة الأحرار، فيما اطلق على العبادة التي تندفع عن الخوف والرجاء اسم عبادة التجار وعبادة العبيد.

فالفضائل الخلقية لها اساس فطري. فما أكثر اولئك الذين لا يستطيعون تحمل الالزام والتكليف والواجب، ولكن قلما نجد من بامكانه ان يحيا في الدنيا بدون اخلاق أو التزام خلقي. وحتى اولئك الذين ينكرون الاخلاق في ظاهر الأمر، نراهم يدافعون عن حريتهم وكرامتهم بشدة، ويمتعضون من الاعتداء عليهما. وهم وان كانوا غير أوفياء للعهود والمواثيق التي يبرمونها مع الآخرين، إلّا انهم يتوقعون من الآخرين الايفاء بعهودهم ومواثيقهم. فهؤلاء ورغم رفضهم

---

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ١٠٤.

للأخلاق والفضائل الاخلاقية، إلّا انهم لا يقبلون قط ان يفرض أحد سيطرته عليهم، فهم بودهم لو نشأ ابناؤهم نشأة حسنة، وعُرِفوا في الاوساط الاجتماعية. ويميلون ان تتسم الحكومة التي تحكمهم بالعدل، وان يكون لديهم جيران صلحاء ورحماء وأمناء. وتُعد مثل هذه النزعات، من افضل الأدلة على فطرية القيم الأخلاقية. ثم هل يشك أحد في ان الشهوات النفسانية لو استولت على مجتمع ما لقادته الى مصير أسود، وان الفضائل الاخلاقية والانسانية لو سادت بين افراد المجتمع لعاشوا في ظل الهدوء والسعادة والحياة الكريمة؟

فالدراسة الاخلاقية اذن دراسة للقيم، والسلوك الاخلاقي سلوك ذو مردود قيمي، والتعاليم الاخلاقية تعاليم ناشئة من القيم.

ولابد من الاشارة الى ان هناك نوعين من القضايا يُدرسان على صعيد العلوم الانسانية: حقيقية، واعتبارية. والقضايا الاعتبارية هي الاخرى نوعان: قيمية، وغير قيمية.

وتلك الفئة من القضايا الاعتبارية ذات الثقل القيمي والتي تُبحث في ضوئها حالات الانسان النفسية والانسانية، تُعدّ جزءاً من مفردات علم الاخلاق، وكل ما كان غير ذلك خرج عن نطاق هذا العلم.

فمن الممكن على سبيل المثال ان يكون عملاً ما غير ممنوع من وجهة النظر الحقوقية، إلّا انه يُعد عملاً قبيحاً وغير مطلوب في اطار القيم الاخلاقية، كما هو الحال في النية السيئة. فمن وجهة النظر الفقهية والحقوقية لا يترتب اي جزاء على مجرد النية السيئة. غير ان الامر يختلف تماماً في علم الاخلاق حيث للنية اصالة من وجهة نظره، والناس يتميز بعضهم عن البعض الآخر بنواياهم. كذلك قد يبدو عملاً ما مباحاً من وجهة النظر الفقهية، ولكن ليس بالامكان تجاهل ما يمكن ان يفرزه من آثار سيئة على المصالح الاجتماعية أو الفردية. فقد يجب على المرء ان يكذب أو يغتاب في بعض الاحيان، ولكن هل يمكن نكران آثار السوء التي لابد وأن تنعكس عن هذا التصرف لاسيما على الصعيد الروحي؟ فاذا كان بمقدور الانسان ان لا يكذب حتى عند الضرورة، فالأولى به ان لا يكذب،

ولذلك نرى علماء الاخلاق طالما اوصوا بعدم الكذب مادام بالامكان اللجوء الى التورية.

وهناك من الاعمال والممارسات ما اتفق الفقه والاخلاق على منعها كـالغيبة، والكذب، والتهمة، غير انّ ملاك البحث يختلف في كل منهما. فـعلم الفـقه يهـتم بالجانب الحقوقي للموضوع[1]، بينما يسلط علم الاخـلاق الضـوء عـلى الابـعاد القيمية وغير القيمية. ففي الغيبة مثلاً هناك جهتان: الاولى انها تهتك حرمة المؤمن وتلحق الأذى به، وهو ما يعبَّر عنه في الفقه بالشغل الحرام والكبيرة؛ والثانية انها نوع من المرض النفسي الذي يتعارض مع القيم الانسانية السامية، ويبعث على مسخ حقيقة الانسان حال تكراره ويحوله الى حيوان وحشي. وتتصل هذه الجهة بعلم الاخلاق. فالجهة الاولى بالامكان تداركها مـن خـلال اسـتحصال رضـا الشخص المستغاب، اما الجهة الثانية فليس بالامكان تداركها عن هذا الطـريق وانما عن طريق الرياضة والعبادة والدعاء والاستغفار كي يمكـن ازاحـة الأدران والنقاط السوداء عن لوحة القلب. فالفقه يقتصر على تبيان الأحكام، في حـين تسلط الاخلاق الضوء على اسلوب الوقاية مـن المـعاصي والآثـام والأمـراض النفسية.

فلو أُريد دراسة لماذا يعتبر القرآن الغيبة بمثابة أكل لحـم الأخ الديـني وهـو ميت، فان هذا البحث يقع ضمن نطاق علم الاخلاق. اي ان دراسة لماذا يهبط

---

(١) لم يكن هناك انفصـال في صدر الاسلام بين علم الفقه وعلم الاخلاق وسائر المـعارف الديـنية. ثم حصل انفكاك بعضها عن البعض الآخر على يد علماء الدين والمفكرين المسلمين. بل ان مفردة الفقه تعني في الثقافة القرآنية معرفة جميع الشؤون والمـعارف الديـنية كـالاصول والفـروع والاخـلاق والتفسير، وغيرها. ويرجع هذا الفصل بـين المـعارف الاسـلامية الى كـثرة المسـائل المسـتنبطة والمستحدثة في الازمنة المتأخرة، وتوخياً للتنظيم والتبويب وتسهيل عملية المراجعة. فلو اخذنا آية الغيبة على سبيل المثال، للاحظنا اجتماع جانبها الفقهي وهو حرمة الغـيبة الى جـانب جـانبها القيمي والاخلاقي، اذ قال تعالى ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب احدكم ...﴾ (الحجرات، الآية ١٢)، لأنّ هذا الجمع بين الجانبين الفقهي والاخلاقي مهم على الصعيد التربوي بمستوى اهمية الجمع بين التعليم والتربية، ولذلك يحرص المعلمون التربويون والمربون على ان يقترن التعليم بالتربية دائماً.

هذا الانسان مع ما لديه من عظمة وكرامة، بواسطة الغيبة والكذب الى الحد الذي يبدو فيه وكأنه حيوان ضار آكل للجيف[١]، أو جسدٍ ميّتٍ متعفن[٢]، دراسة خاصة بعلم الاخلاق.

الغرائز التي لا تعرف الحدود

لا شك في وجود الغرائز في الناس كافة، حيث تنشأ منها جميع الحركات والنشاطات الباطنية والخارجية وتتأثر بها.

وأهم هذه الغرائز هي: حب الاستطلاع، وطلب الحق، والعرفان، والبحث عن الله، والحس الماورائي، وطلب الكمال، والحس الجمالي، والتطلع للعدل، ومشاعر الفداء والتضحية، وحس المنفعة، والأنانية، وحب النفس، وحب البقاء، وحب الشخصية، وحب المال والثروة، وحب الجاه والمقام والشهوة، والغضب الخ.

وتتميز هذه الغرائز بجانبين: ايجابي وسلبي، يلعبان دوراً مهماً في خلق البواعث وانقسامها الى صالحة وطالحة. ومن الضروري معرفة هذه الغرائز ومدى تأثيرها وتأثرها، لأجل توجيهها والسيطرة عليها. ويعتمد تمييز البواعث الحسنة عن السيئة ومعرفة الاهداف العليا عن الاهداف الدنيا على معرفة النفس. فكيف بامكان الانسان الانطلاق في طريق التكامل في حين لا تتوفر لديه معرفة بالآليات والأسباب والوسائل التي يستخدمها بشكل صحيح لبلوغ هذا الهدف؟

ويُعد علم الاخلاق، مرشداً جيّداً على هذا الصعيد لسالكي طريق الحق وطالبيه.

فعلم الاخلاق ينبري لتسليط الضوء على القيم وأسباب استحصالها، ويكشف

---

(١) اشارة للآية الكريمة: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ الحجرات، ١٢.

(٢) اشارة الى كلام الامام علي (ع): «الكذاب والميت سواء فان فضيلة الحي على الميت الثقة به فاذا لم يوثق بكلامه بطلت حياته». (شرح غرر الحكم، ج ٢، ص ١٣٩).

عن العوائق والعقبات التي تعترض الطريق.

فحبّ النفس ـ على سبيل المثال ـ يُعد احدى الغرائـز الانسـانية، ومـصدراً للكثير من النشاطات الانسانية. ولأنّ الانسان منشد الى الحياة ويسعى للبقاء، لهذا يبذل ما لديه من جهود لبلوغ هذا الهدف. فغريزة حب النفس هي التي تدفع الانسان للدفاع عن نفسه بكل ما لديه من طاقات وامكانات حينما يهدد العـدو حياته. وبذلك يُعد وجود الغرائز لدى الانسان منطلقاً للعمل والحركة. ومع ذلك كله لابد من توجيه هذا الحب الغريزي الى الأهداف العالية والسامية، والحذر من أن يؤدي الى سقوط الإنسان واخلاده الى الارض وانقلابه على عقبيه.

تنويه ضروري

لابد أن نعلم بأنّ طبيعة العلم وقيمته الحقيقية، تعتمدان في الاخلاق الاسلامية على نوع الدافع والأهداف العامة. ولا يُعدّ الشكل الظاهري للعمل معياراً وحيداً للقيم بنوعيها الحسن والقبيح. فالنية مهمة الى درجة بحيث يمكن عـلى ضـوئها التكهن بمـصير الانسـان. بل ان مصائر الافراد والامم تعتمد بالأساس عـلى مـا لديهم من نوايا ومقاصد. وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿إن الله لا يُغيرُ ما بِقوم حتّى يُغيّروا ما بِأنفسِهِم﴾[1].

ومما يجلب الانتباه هو انّ العوامل الخارجية وان كانت ذات تأثير على بـناء دوافع الانسان وبواعثه، ولكن لابد ان نعلم بأنّ العوامل الباطنية هي العوامـل ذات التأثير الجوهري على تبلور اهداف الانسان وتحقق تطلعاته. وكلنا يعلم انّ العوامل الباطنية نوعان: طبيعية، ومكتسبة.

فالعوامل الطبيعية عبارة عن الغـرائـز والاحـسـاسات المـوجودة في وجـود الانسان بشكل طبيعي، والعوامل المكتسبة هي الصفات والملكات النفسانية التي تظهر في الانـسان بفعل ما يقوم به من اعمال وما يمارسه من سلوك. وتعد هـذه

---

(١) الرعد، الآية ١١.

العوامل، ممهدة لقراراته وحركاته وخطواته، كما ان استعداداته تنطلق الى الواقع العملي في ظل هذا الاطار ايضاً. وينطلق كل هذا الاصرار على معرفة النفس وتوجيه الغرائز والسيطرة عليها، وكذلك كل هذا التأكيد على تهذيب النفس وتزكيتها، من الدور الذي تلعبه هذه العوامل في الاعمال والسلوك. وفي المقابل تترك أعمال الانسان وسلوكياته اثراً على بناء نفسه وروحه، وليس بامكان الانسان ان يتخلص من هذا المعترك، وذلك لاستمرار هذه العملية من التأثير والتأثر. فالانسان النهم والشهواني، ليس لديه من دافع سوى الطعام والشراب والشهوة. في حين يتمثل دافع الانسان الالهي في عبادة الله وخدمة الناس. فالجبان والرعديد لا يرى حين مجابهة العدو سوى الهروب أو الاستسلام طريقاً لنجاته، بينما يضع الشجاع الأبي، الدفاع والمقاومة نصب عينه دائماً، وهذا يعود بطبيعة الحال الى العوامل النفسية والغرائز الطبيعية ومن ينتصر منها خلال ذلك المعترك ويمسك بزمام امور الانسان في آخر المطاف.

وهكذا لابد من بناء الانسان، اي ان تكون لديه قابلية السيطرة على نفسه كي يتحكم في العالم لا ان يتحكم العالم فيه.

توجيه الغرائز

اتضح لنا حتى الآن مثلما لم يُخلق في الجسم الانساني عضو زائد بلا عمل، كذلك هناك دور لابد وأن تلعبه على صعيد الروح، كل غريزة وباعث ورغبة. غير انّ هذه الغرائز لو تُركت لحالها ولم تخضع لاشراف دقيق وتوجيه مدروس، لشكّلت عوامل خطورة وضرر على الانسان، ولابد على هذا الصعيد من ذكر بعض الأمثلة:

١ ـ الغريزة الجنسية

ليس بامكان أحد ان ينكر وجود هذه الغريزة المتمردة الطاغية التي لا تعرف الحدود، لا سيا في مرحلة الشباب والتي تعد مرحلة أزمة الغرائز. فالأهواء الجامحة والرغبات الحيوانية تضغط على المرء وتدفعه باتجاه النزوانية والشهوانية

الخ. ولو لم يسيطر على نفسه من خلال قوة العقل والايمان، ولم تكن لديه القابلية على تهدئة غرائزه المدمرة، فلابد أن يسقط معنوياً بحيث يهبط في مستواه حتى عن الحيوان، لأنه ليس مثل مخلوقات الله الاخرى، اي الملائكة والحيوانات، اذ قال امير المؤمنين عليه السلام : «انّ الله خصَّ المَلَكَ بالعقلِ دونَ الشهوةِ والغضبِ، وخصَّ الحيواناتِ بهما دونَه، وشرفَ الانسانَ باعطاءِ الجميع. فانِ انقادت شهوتهُ وغضبهُ لعقلِهِ صارَ أفضلَ منَ الملائكةِ لوصولِهِ الى هذهِ المرتبةِ معَ وجودِ المنازِعِ، والملائكةُ ليس لَهُم مزاحمٌ»[1]. ومن الواضح انه لو انقاد عقلُه لشهوته وغضبه، صار أسوأ من الحيوانات أيضاً.

٢ـ اكتناز الثروة

غريزة حب المال والثروة، هي الغريزة الاخرى التي لابد وأن تخضع للاشراف والتوجيه والسيطرة. وأشار القرآن الكريم والروايات الواردة عن ائمة الدين اشارات حسنة الى المال والثروة.

والانسان في حقيقة الأمر يميل بطبعه نحو الثروة، وهو ميل مطلوب وضروري غالباً، لكن لابد من الاشارة الى انه لو نزع نحو الاكتناز والادخار بما يفوق الحد الطبيعي، فلا شك في انّ هذه الممارسة ستُفرز الكثير من الاضرار والنتائج غير المحمودة.

ومن الضروري الاشارة باختصار الى كلا الجانبين الايجابي والسلبي للمال والثروة:

---

(١) جامع السعادات، ص ٣٤.

وللامام الصادق حديث مماثل جاء فيه: «عن عبد الله بن سنان قال سألتُ ابا عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) فقلتُ: الملائكةُ أفضل أم بنو آدم، فقال: قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع): ان الله ركّبَ في الملائكةِ عقلاً بلا شهوةٍ وركّبَ في البهائم شهوةً بلا عقلٍ وركّبَ في بني آدم كلتيهما، فمن غلبَ عقلُهُ شهوتَهُ فهو خيرٌ من الملائكة ومن غلبت شهوتُهُ عقلَهُ فهو شرٌ من البهائم». (وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٦٤؛ بحار الانوار، ج ٥٧، ص ٢٩٩؛ علل الشرائع، ط النجف، ص ٤).

الجانب الايجابي:

عبّر القرآن الكريم في عدد من آياته عن المال بالخير فقال:

﴿كُتِب عليكُم اذا حضرَ أحدكُمُ الموتُ ان تركَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ بالمعروفِ حقاً على المُتقينَ﴾[١].

ويقول العلامة الطباطبائي: «... والمراد بالخير المال»[٢].

ويكتب العلامة الطباطبائي أيضاً في ذيل الآية ﴿وانهُ لحبِّ الخيرِ لشديد﴾[٣] قائلاً: «الخيرُ المالُ».

وعبّر القرآن الكريم في آية اخرى عن المال بزينة الحياة الدنيا فقال:

﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا...﴾[٤].

ووصفه في اخرى بالقيام:

﴿ولا تؤتُوا السفهاءَ أموالكمُ التي جعل الله لكُم قياماً﴾[٥].

وصفوة الكلام هي انّ المال لو تم الحصول عليه عن طريق مشروع وأُنفق بما يخدم الناس، فهو عمل قيّم ومقوّم.

الجانب السلبي

يرى القرآن على صعيد آخر انّ الاموال تبعث على الغفلة عن ذكر الله:

﴿يا أيها الذينَ آمنُوا لا تُلهكُم أموالكُم ولا أولادكُم عن ذكرِ الله ...﴾[٦].

كما يحذر سبحانه في موضع آخر اولئك الذين يكتنزون الاموال، ويعتبر هذه الاموال واسطة عذابهم في يوم القيامة:

---

(١) البقرة / ١٧٩.

(٢) تفسير الميزان، ج ١، ص ٤٤٩.

(٣) العاديات / ٨.

(٤) الكهف / ٤٦.

(٥) النساء / ٥.

(٦) المنافقون، الآية ٩.

﴿والذين يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونَها في سبيلِ الله فبشرهُم بعذابٍ أليم. يومَ يُحمى عليها في نارِ جهنمَ فتكوى بها جباههُم وجنوبهُم وظهورهُم هذا ما كنزتُم لأنفسكُم فذوقوا ما كنتُم تكنزونَ﴾[١].

ويقول في آية اخرى:

﴿وما أموالكُم ولا أولادكُم بالتي تقربكُم عندَنا زُلفَى ...﴾[٢].

ويقول ايضاً:

﴿انما أموالكُم فتنةٌ ...﴾[٣].

ويقول ايضاً:

﴿يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلّا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ﴾[٤].

وذمت بعض الروايات والأحاديث المال أيضاً، ومنها قول الامام علي عليه السلام:

«المالُ مادةُ الشهواتِ»[٥].

وقوله ايضاً:

«المالُ داعيةُ التعبِ ومطيةُ النَّصَبِ»[٦].

وقوله أيضاً:

«المالُ وبالٌ على صاحبِهِ إلّا ما قدَّم منهُ»[٧].

وقوله أيضاً:

«المالُ يفسدُ المآلَ ويوسّعُ الآمالَ»[٨].

---

(١) التوبة، الآيتان ٣٤و٣٥.

(٢) سبأ، الآية ٣٧.

(٣) التغابن، الآية ١٥.

(٤) الشعراء، الآيتان ٨٨و٨٩.

(٥) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٥.

(٦) فهرست الغرر، ص ٣٧٥، رقم ١٤٤٩.

(٧) المصدر السابق، رقم ١٩٥٧.

(٨) المصدر السابق، رقم ١٤٢٧.

٣ـ الآمال التي لا تُحصى

تلعب الآمال والتطلعات دوراً مهماً في حياة الانسان، بحيث لو فقد الانسان الأمل بالمستقبل لتوقفت عجلة حياته. ولذلك اكدت آيات القرآن الكريم والأحاديث على ضرورة وجود الامل لدى الانسان وعدّته عاملاً يدفعه نحو الاستمرار في الحياة، والعمل، وشق طريق التكامل. وعبّر الرسول محمد ﷺ عن الأمل بأنه رحمة للامة:

«الأملُ رحمةٌ لأُمتي ولولا الأملُ ما رضعَت والدةٌ ولدَها ولا غرسَ غارسٌ شجراً»[١].

الجانب السلبي للأمل:

عد بعض الأحاديث الأمل عدواً للانسان ومبعثاً لشقائه وهلاكه، وشبهه البعض الآخر بالسراب:

قال علي عليه السلام:

«الأملُ كالسراب يغرُّ من رآهُ ويَخْلِفُ من رجاهُ»[٢].

ولو تجاوزت الآمال حد الاعتدال واستولى الهوى على الانسان وسيطر عليه، فانه حينئذ يصبح كما قال علي عليه السلام:

«عبدُ الشهوةِ أسيرٌ لا ينفكُّ أسرهُ»[٣].

وتُعد هذه العبودية من وجهة نظر الامام علي عليه السلام من أحط انواع العبودية، اذ قال:

«عبدُ الشهوةِ أذلُّ من عبدِ الرقِّ»[٤].

ولا ينسجم اتّباع الهوى مع الايمان. وهذا ما عبّر عنه الرسول ﷺ حينما قال:

---

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فهرست الغرر، ص ١٨٧، الرقم ٦٣٠٠.

(٤) نفس المصدر، الرقم ٦٢٩٨؛ نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ٢٠، ص ٣٤٢، الحكمة ٩٢٨.

«لا يُؤمنُ احدكُم حتى يكونَ هواهُ تبعاً لما جئتُ بهِ»[١].

وقالﷺ في موضع آخر:

«انّ اخوفَ ما أخافُ على أمتي حُكمٌ جائرٌ، وزلّةُ عالمٍ، وهوىً متبعٌ»[٢].

وقال أمير المؤمنين عليؑ:

«أيُّها الناسُ ان أخوفَ ما أخافُ عليكمُ اثنانِ اتباعُ الهوى وطولُ الاملِ، فأما اتباعُ الهوى فيصدُّ عن الحقّ وأما طولُ الأملِ فيُنسي الآخرةَ»[٣].

وقال في حديث آخر:

«انما بدءُ وقوعِ الفتنِ أهواءٌ تُتّبعُ وأحكامٌ تبتدَع»[٤].

الاستنتاج

لاشك في وجود الغرائز والميول لدى الانسان، وهي ضرورية من حيث المبدأ لاستمرار حياته، لكن الذي لابد من الالتفات اليه هو انّ هذه الغرائز لو تجاوزت حدودها وتحكّمت في وجود الانسان وأمسكت بزمام اموره، لكان ذلك نوعاً من الصنمية بل وأخطر الوان عبادة الأصنام. وقال الله سبحانه في ذلك:

﴿أرأيتَ منِ اتخذَ الههُ هواهُ أفأنتَ تكونُ عليهِ وكيلاً﴾[٥].

﴿... ومن أضلُّ ممنِ اتبعَ هواهُ بغيرِ هدىً منَ الله ...﴾[٦].

فاتباع هوى النفس لا يؤدي سوى الى الضلال والانحراف. وقد أشار تعالى الى هذه الحقيقة بقوله:

---

(١) ذم الهوى، ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ص ١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الخطبة ٤٢. (وأُشير الى ذلك في الخطبة ٢٨ أيضاً).

(٤) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الخطبة ٥٠.

(٥) الفرقان / ٤٣.

(٦) القصص / ٥٠.

﴿... ولا تتبعِ الهوَى فيضلكَ عن سبيلِ الله ...﴾[١].

وقال الرسول محمدﷺ:

«ما تحتَ ظلِّ السماءِ من الهٍ يُعبدُ مِن دونِ الله أعظمُ عند الله مِن هوىً متَّبعٍ»[٢].

وقال امير المؤمنين عليعليه السلام:

«والشقيُّ منِ انخدعَ لهواهُ وغُرورهِ»[٣].

وقال ايضاً:

«الهوى ضدُّ العقلِ»[٤].

وعبّرعليه السلام في حديث آخر عن اعتقاده بأنّ الهوى مصدر المحن والمصائب حين قال:

«الهوى أُسُّ المحن»[٥].

وخلاصة الكلام هي انّ عبادة الهوى لا تواكب الدين ولا ترافق العقل. وأشار الامام عليعليه السلام الى ذلك بقوله:

«لا دينَ مع هوىً»[٦].

«ولا عقلَ مع هوىً»[٧].

---

(١) ص / ٢٦.

ونظم جلال الدين الرومي هذه الآية قائلاً:

(با هوى وآرزو كم باش دوست ـ چون «يضلك عن سبيل الله» اوست)

(المثنوي المعنوي، دفتر ١، ص ١٥١)

(٢) تفسير الميزان، ط بيروت، ج ١٥، ص ٢٣٧. ووردت هذه الرواية في كتاب «ذم الهوى، ص ١٩» هكذا: «ما تحت ظل السماء الهٌ يُعبدُ أعظمُ عند الله من هوىً متّبعٍ».

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الخطبة ٨٦، ص ١١٧.

(٤) فهرست الغرر، ص ٤٢٥، رقم ١٠٢٩.

(٥) نفس المصدر، رقم ١٠٤٨.

(٦) نفس المصدر، ص ٤٢٩، رقم ١٠٥٣١.

(٧) نفس المصدر، رقم ١٠٥٤١.

وهكذا لابد للانسان من اخضاع آماله وطموحاته للسيطرة والتوجيه، وأن يعلم بوجود حدّ لكل شيء بحيث لو تجاوز هذا الحد، عُدّ ذلك أمراً مذموماً من قبل الاسلام ومداناً.

يقول الامام جعفر الصادق عليه السلام:

«ما مِن شيءٍ إلّا ولهُ حدٌّ»[1].

دور الأخلاق في توجيه الغرائز

الغرائز التي اشرنا اليها كانت نموذجاً فقط، وإلّا فهي بأسرها ضرورية للانسان من حيث الأساس وجيدة بطبعها، لكن لابد من الحيلولة دون استفحالها وتمردها.

ولذلك نحن بحاجة الى علم الأخلاق لأنه يعلمنا كيف نوجه الغرائز ونسيطر عليها ونذللها. فغريزة حب الذات على سبيل المثال، ضرورية من أجل استمرار الحياة، غير ان علم الأخلاق يوصينا بأن هذا الحب يجب ان تكون لديه حدود واضحة، لو تجاوزها أُصيب المرء بداء الغرور والأنانية، بحيث يصل به الأمر في بعض الأحيان الى تصور انّ الآخرين يجب ان ينخرطوا في خدمته ويقعوا تحت نفوذه، وأن لا يعملوا إلّا له!

وهكذا نلاحظ ان حبّ الذات أو النفس قد يبلغ عند عدم السيطرة عليه، مرحلة الطغيان، ويقود صاحبه نحو الاستكبار الذي يُعد صفة من صفات الشياطين والجبابرة. وقد ذمّ الاسلام هذه الظاهرة وأوصى بالحدّ منها وتشذيبها من خلال الترويض والمجاهدة.

وفي مثل هذه الأوضاع، تبرز اهمية علم الأخلاق، اذ يهب لارشاد الانسان وهدايته نحو الطريقة التي تتيح له معالجة هذه الظواهر والامساك بزمام الغرائز وتوجيهها وفق ما هو مطلوب وضروري، والحيلولة دون تمردها من خلال

---

(١) تحف العقول، ص ٢٦٩.

تسليط الضوء على القيم الحقيقية واحيائها.

نعم لتوجيه الغرائز وكلّا لقمعها

يعتقد بعض اتباع الديانات الاخرى انه ومن أجل بلوغ الكمال فلابد من قمع الغرائز نهائياً، بينما يوصي الاسلام بتوجيهها والتحكم فيها، لأنّ قمعها ـ لا سيما الغريزة الجنسية ـ يعمل على ايجاد الكثير من الأخطار والأضرار.

فاذا كان لابد من قمع الغرائز وكبتها وعدم تلبيتها بشكل ايجابي، فلماذا خلقها الله تعالى؟ نحن نعتقد ان الله لم يخلق شيئاً عبثاً. واذا كنا جاهلين بفلسفة الشيء فلا يعني انه مخلوق عبثاً:

﴿أفحسبتُم أنّما خلقناكُم عبثاً وأنكُم الينا لا تُرجعونَ﴾[١].

﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقهُ ثمَّ هدى﴾[٢].

اذن فالغرائز التي اودعها الله تعالى في فطرة الانسان، كل واحدة منها لازمة وضرورية في موضعها، ولكن لابد من استخدامها في مسارها الصحيح، لأنها لو لم تُلبَّ بشكل صحيح، فانها ستجمح في يوم ما وتنفجر وتُخضع المرء لارادتها بحيث تسلب عن العقل قابليته على التفكير وتُرغم الانسان على فعل كل شيء من أجل اشباعها.

وهنا تبرز الحاجة لكي يقوم الانسان بتلبية الغرائز واشباعها عن طريق مشروع وبالاسلوب الصحيح كي يحول بذلك دون تفرعنها ويغلق بوجهها طريق الطغيان. والانسان بامكانه ان ينهض بهذه المهمة لأنّ البارئ تعالى قد منحه الارادة والاختيار وكشف له عن كلا السبيلين: سبيل الخير، وسبيل الشر:

﴿وهديناهُ النجدينِ﴾[٣].

---

(١) المؤمنون / ١١٥.

(٢) السجدة / ٧.

(٣) البلد / ١٠.

﴿انّا هديناهُ السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً﴾[1].

بكلمة، الغرائز ومهما كانت عنيفة وقوية، إلّا انها لا تُعد شيئاً أمام ارادة الانسان واختياره، فهو بامكانه التصدي لهوى النفس وتوجيه الغرائز كما ينبغي، شريطة ان تتوفر لديه الارادة والعزم.

اذن لاشك في انّ النفس الأمارة تضغط على الانسان وتدفعه لممارسة بعض الأعمال القبيحة. وقد نقل القرآن الكريم عن لسان النبي يوسف عليه السلام قوله:

﴿وما أُبَرِّئُ نفسي انَّ النفسَ لأمارةٌ بالسوءِ إلّا ما رحِمَ ربي﴾[2].

وقال علي عليه السلام في ذلك ايضاً:

«ان النفس لأمارةٌ بالسوءِ والفحشاءِ فمن ائتمنَها خانتهُ، ومنِ استنامَ اليها أهلكتهُ، ومن رضيَ عنها أوردتهُ شرَّ الموارِدِ»[3].

ورغم هذا كله، يجب ان لا نتجاهل ما لدى الانسان من ارادة واختيار وقابلية على الانتخاب. فالقرآن الكريم اذا كان قد وصف النفس بالامارة بالسوء، فانه قد وصفها في موضع آخر بـ«اللوامة»:

﴿لا أُقسمُ بيومِ القيامةِ ولا أُقسمُ بالنفسِ اللوامة﴾[4].

كما عبّر عنها في موضع آخر بـ«النفس المطمئنة»:

﴿يا أيتُها النفسُ المطمئنةُ ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيَّةً﴾[5].

وفي هذه المرحلة ـ اي مرحلة الاطمئنان ـ يتم ترويض الغرائز الجامحة واخضاعها لارادة الانسان واختياره، وهذا دليل على ان الانسان اذا اراد فبامكانه السيطرة على زمام نفسه، بل ان ما يميّز الانسان بشكل عام هو قدرته على الانتخاب. كما ان الثواب والعقاب، والمدح، والذم، امور تدلّ اساساً على

(١) الدهر / ٣.

(٢) يوسف، الآية ٥٣.

(٣) فهرست الغرر، ص ٣٩١، رقم ٣٤٩١.

(٤) القيامة، الآيتان ١ و٢.

(٥) الفجر، الآيتان ٢٧ و٢٨.

قدرة الانسان على القيام بأعمال الخير وأعمال الشر. اي انه اذا كان يُكافأ على عمل الخير ويُعاقَب على عمل الشر، فهذا دليل على انه كائن مختار ويتمتع بحرية الارادة.

فنعمة حرية الارادة والاختيار هي التي تتيح للانسان استخدام العلم والايمان والأخلاق للتحكم في الغرائز وتوجيهها نحو اهداف الخلقة العليا.

اذن علم الاخلاق عبارة عن معرفة الغرائز والبواعث، واسلوب ترويضها وتوجيهها نحو اهداف الخلقة العليا بشكل عام واهداف خلقة الانسان بشكل خاص. وبما اننا قد ذكرنا في مطلع هذه الدراسة ان هدفنا من هذا الكتاب تسليط الضوء على أهمية الاخلاق العملية والتي يعمل الالتزام بها على التقريب من الهدف والايصال الى المطلوب، لهذا حينما أُوكلت اليَّ مهمة تدريس الأخلاق في جامعة الامام الصادقعليه السلام، انبريتُ لانتخاب هذا الاسلوب في المرحلة الاولى، اي الاسلوب العملي، وحاولتُ تفادي استعراض المبادئ النظرية إلّا عند الضرورة، شعوراً مني بأن مجتمعنا بحاجة الى الأخلاق على الصعيد العملي أكثر من أي شيء آخر، وتعطش الطلبة فضلاً عن الآخرين اليها.

طبعاً هذا لا يعني تجاهل القضايا النظرية المتعلقة بالأخلاق، بل لابد من تناولها في موقعها المناسب، ولابد من تعزيز الجانب النظري واغناء الطلبة من حيث المباني والمعاني، غير انّ ما يبدو أكثر ضرورة من غيره وأشد الحاحاً من سواه، هو الجانب العملي، على اعتبار ان سلامة الروح تتحقق في ظل سلامة العمل. ولا يُستحصل ذلك إلّا عن طريق الاخلاق العملية المستقاة من الوحي.

الاستناد الى الكتاب والسنة

وعلى هذا الأساس، سعينا للاستعانة بالكتاب الالهي والسنة النبوية في استعراضنا لفقرات هذه الدراسة وموضوعاتها، وتوجيه هذا البحث بهذين المصدرين العظيمين المتدفقين بنور الهداية والولاية، والتدليل على ما ورد في هذا الكتاب من أفكار ورؤى، بالقرآن الكريم والسنة. وهل هناك كلام أروع وأسمى

من كلام الله؟ وهل هناك حديث افضل من أحاديث اولياء الله الكرام الذين يعرفون حقائق العالم كما هي، ويعرفون الانسان المجهول أكثر مما يعرف نفسه، ويعلمون بالأمراض والعلل وعلاجها وأساليب مكافحتها، ويتحدثون مع هذا الانسان بلغة الفطرة؟

بتعبير آخر: تقوم دراستنا هذه على آيات القرآن الكريم والأحاديث المأثورة، مع الاستعانة أحياناً بكلمات العلماء والفقهاء والفلاسفة والمفسرين والمؤرخين واللغويين بهدف التوضيح والتأكيد وتسليط مزيد من الضوء، وهي لا تخلو من فائدة في مواقعها المناسبة.

وأشرنا أولاً في هذا الكتاب الى طبيعة هذا العمل وكيفية البدء به، ثم انبرينا للحديث عن البدايات والنقاط الاولى التي لابد للسالك الى الله ان يلتزم بها، مع تقديمنا لما يشبه الفهرس في هذين المحورين متوخين التأكيد والتذكير. اما التفاصيل والتوضيحات، فهي مهمة قد أنيطت بفصول الكتاب.

ونحن وقبل ان نلج صلب الموضوع، نتضرع الى الله تعالى ان يعيننا على انجاز هذه المهمة الخطيرة ويقينا من الزلل والخطأ، آمين.

محمد رضا مهدوي كني

المدخل

طبيعة العمل

للاجابة على السؤال التالي: كيف بامكان الانسان ان يهذب نفسه؟ لابد من الاهتمام بالنقاط الأساسية التالية:

١ ـ مثلما ان الرياضة ضرورية في تربية البدن وسلامته، كذلك الرياضة وجهاد النفس أمر ضروري في صقل النفس وتهذيبها[١].

٢ ـ مثلما يُبدأ في تربية البدن بالشيء البسيط ثم يتم التصاعد بعد ذلك شيئاً فشيئاً، كذلك في تربية الروح لابد من البدء بالقليل ثم الارتقاء شيئاً فشيئاً الى المراحل الأعلى.

وقد قال الرسول محمد ﷺ:

«انّ هذا الدينَ متينٌ فأوغلوا فيه برفقٍ ولا تُكرّهوا عبادةَ الله الى عبادِ الله فتكونُوا كالراكبِ المُنْبَتِّ الذي لا سَفَراً قطعَ ولا ظهراً أبقى»[٢].

---

(١) لمزيد من المعلومات، راجع: بحث «رياضة النفس ومجاهدتها».

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٦، باب الاقتصاد في العبادة. يمكن الرجوع ايضاً الى بحار الانوار، ج ٦٨، ص ٢٠٩.

وقال الامام جعفر الصادق عليه السلام:

«اجتهدتُ في العبادةِ وأنا شابٌّ فقالَ لي أبي يا بُنيّ دونَ ما أراكَ تصنعُ فانّ الله عزّ وجلّ اذا أحبَّ عبداً رضيَ عنهُ باليسيرِ»(١).

٣ ـ مثلما يجب الاستمرار والتداوم في الرياضة البدنية، كذلك يُشترط هذا الاستمرار في الرياضة النفسية، وقد قال سبحانه:

﴿انَّ الذينَ قالوا ربُّنا الله ثُمّ استقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ ألا تخافوا ولا تحزنوا ...﴾(٢).

وقال سبحانه ايضاً:

﴿إلّا المصلينَ الذينَ هُم على صلاتِهم دائمونَ﴾(٣).

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«قليلٌ مَدومٌ عليه خيرٌ من كثيرٍ مملولٍ منه»(٤).

وقال عليه السلام أيضاً في وصيته لولده الحسن عليه السلام:

«واقصُد يا بُنيَّ في معيشتِك واقتصِد في عبادتِك وعليكَ بالأمرِ الدائمِ الذي تُطيقُه»(٥).

وقال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«أحبُّ الاعمالِ الى الله عزَّ وجلّ ما داوم عليه العبدُ وان قلّ»(٦).

ويُستشف من بعض الأحاديث انّ أقل فترات المداومة هي عام واحد. وقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام أنّه قال:

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٦.

(٢) فصلت / ٣٠.

(٣) المعارج / ٢٢.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٤٤٤.

(٥) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢١٤ نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي، ج ٢.

(٦) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٢، باب استواء العمل والمداومة فيه.

«اذا كانَ الرجلُ على عملٍ فليُدِمْ عليه سنة»[1].

٤ ـ مثلما يؤثر الفعل والترك كلاهما في سلامة الجسم، يؤثران كذلك في سلامة الروح وتهذيبها، كأداء الواجبات وترك المحرمات، والحب والبغض في الله، والعمل بالمستحبات وترك المكروهات وغيرها. ولابد من استمرار هذا الفعل والترك في جميع المراحل، اذ لا يُقبل أي عمل بدونهما. اما اولئك الذين يخلطون الصالح بالطالح والجيد بالسيئ فلن يصلوا الى نتيجة، اذ قال الله تعالى:

﴿انما يتقبلُ الله مِنَ المتقينَ﴾[2].

٥ ـ ان ما يجب مراعاته في جميع المراحل يتمثّل في حضور القلب والاخلاص. فمثلما يُعدّ تمركز الارادة مؤثراً في الرياضة البدنية، يلعب تمركز الارادة والاخلاص في النية وحضور القلب دوراً أساسياً في العبادات الشرعية والرياضات النفسية. وطالما اكد البارئ تعالى على ذلك في القرآن الكريم، كقوله:

﴿وما أُمِروا إلّا ليعبُدوا اللهَ مُخلصينَ لهُ الدينَ ...﴾[3].

وسنوضح فيما بعد انّ النية، هي العنصر الذي يكشف عن شخصية الانسان، والفصل المميز له عن الآخرين، فالاخلاص في النية يمثل نقطة عروج الانسان الوحيدة نحو الحقيقة والهدف الأعلى، كما قال تعالى:

﴿وأنَّ الى ربِّكَ المُنتهى﴾[4].

والجميع في حالة حركة نحو الله شاؤوا ام أبوا:

﴿يا أيُّها الانسانُ انك كادحٌ الى ربكَ كدحاً فمُلاقيهِ﴾[5].

اي ان الانسان لابد و ان يلتقي بالله تعالى في نهاية المطاف، وهذا اللقاء انما

---

(١) نفس المصدر.
(٢) المائدة / ٢٧.
(٣) البينة / ٥.
(٤) النجم / ٤٢.
(٥) الانشقاق / ٦.

يكون مفيداً اذا كان مزيجاً بالحب والاخلاص. فالمهم هو ان نطوي هذا الطريق عن رضا ورغبة، وان لا يكون لدينا من هدف سوى رضا الله وأن لا نفكر إلّا بمشيئته وارادته طبقاً للآية الكريمة: ﴿وما تشاؤونَ إلّا أن يشاءَ الله﴾[1]، وأن نتحمل لوعة الهجران أملاً في لقائه. ولو ثبتت أقدامنا في هذه المرحلة وبقينا في مأمن من الأخطار، فلابد أن نبلغ درجة الولاية والكرامة، ومن الممكن ان نرى أشياء أو نقوم بأعمال قد لا يقبلها البعض، أو تبدو غريبة للبعض الآخر، وقد تكون باعثة لتنبه وهداية آخرين. ولو شمل اللطف الالهي الحال في هذه المرحلة، لانقشعت الحجب واحداً بعد آخر وسطعت الانوار الالهية على طريق السالك، حتى يبلغ مرحلة «الفناء في الله»[2]، اي انه يترك كل ما عداه، حتى يصل مقام «المحو والصحو»، اي انه يُمحى في جمال الله وجلاله ولا يرى احداً غيره، ويُصبح نفسه مظهر صفات الجمال والجلال الالهية، ولا يشاهد في عمق وجدانه إلّا الله تعالى بدايةً ونهايةً وظاهراً وباطناً. وتملأ الحقيقةُ الكريمة ﴿هو الاولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ﴾[3] سائرَ أرجاء وجوده، ويرى جميعَ العالم مظاهرَ ومجاليَ حضرة الحق سبحانه، اذ قال:

---

(١) التكوير / ٢٩.

(٢) مرحلة الفناء هي مرحلة ترك الأغيار. ومرتبة المحو والصحو مرتبة محو الغير ونفي الغيرية. اي لا يُرى في هذه المرتبة شيء كي يُترك، ولا يُرى فيها إلّا الله. وتُسمى هذه المرتبة بـ«حق اليقين» فيما تسمى مرتبة الفناء بـ«عين اليقين». ولاشك في ان بلوغ هذه المقامات لا يُتاح لكل أحد، ولم يبلغ الكثير من ادعياء الوصول حتى مفهومها ناهيك عن حقيقتها. وعلى حد تعبير الشاعر:

مَن علّموهُ أسرارَ الحق

ختموا على فمه وخاطوه

اذن حذار من الانخداع بادعاءات البعض، لأنّ رجال الله مجهولون ومختوم على شفاههم. كما لابد من الرجوع الى اهل الفن في تفسير هذه المقامات وتجاهل تفسير الجهلاء، لأن تفسير الجهلاء كفر والحاد، ونعوذ بالله من الكفر والالحاد والفسوق والعصيان.

(٣) الحديد / ٣.

﴿... فأينما تولُّوا فثمَّ وجهُ الله ...﴾[١].

نقاط البداية

ولابد لنا بعد ذلك من استعراض الجزء الثاني من البحث، اي البدايات أو نقاط البداية والتي أهمها:

١ ـ معرفة النفس.

٢ ـ اليقظة.

٣ ـ التذكر.

٤ ـ التفكير والتدبّر (السير في الآفاق والأنفس).

٥ ـ الحب والبغض في الله.

٦ ـ العلم بالشرائع والأحكام.

٧ ـ انتخاب الرفيق الوفي والابتعاد عن غير الصالحين.

٨ ـ الابتعاد عن المحرمات.

٩ ـ التوبة والاستغفار.

١٠ ـ أداء الفرائض والواجبات.

١١ ـ الالتزام العملي بالنوافل والمستحبات وترك المكروهات.

١٢ ـ المرابطة، والمراقبة، والمحاسبة، والمعاقبة.

١٣ ـ النية، والاخلاص، وتجنب الشرك والرياء والنفاق.

١٤ ـ الرياضة ومجاهدة النفس.

١٥ ـ النظام، والانضباط، وتقسيم الأوقات.

١٦ ـ اغتنام الفرص.

١٧ ـ خدمة عباد الله.

١٨ ـ التوكل على الله.

---

(١) البقرة / ١١٥.

١٩ ـ حُسن السلوك مع الناس.

٢٠ ـ الزهد.

٢١ ـ القناعة.

ولاشك في ان لكل نقطة من هذه النقاط مراتب ومراحل تشتد وتضعف اعتماداً على الافراد انفسهم والظروف. ولا يتسنى لنا ان نتحدث عن ذلك بالتفصيل، ولكن لابد من القول بأنّ مصاديق الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح ليست واحدة للجميع، اذ قد يكون عمل ما مستحباً لشخص وواجباً على شخص آخر كالتهجد وقيام الليل، اذ هما مستحبان مؤكدان على عامة الناس، وواجبان على الرسول محمد (ص). ولابد من الانتباه ايضاً الى ان تلك النقاط التي اشرنا اليها انما اوردناها بهذا الشكل ووفق هذا الترتيب انطلاقاً مما لدينا من استقراء وملاحظات، وقد تأخذ طابعاً آخر وترتيباً آخر وفق ملاحظات اخرى. من البديهي انّ التحديد في الامور المعنوية والحركة المستمرة للكيفيات الباطنية والاخلاقية، امر في منتهى الصعوبة. وربما يرجع الاختلاف في وجهات النظر على هذا الصعيد، الى هذه الحقيقة بالذات. ويبقى هذا الترتيب والتبويب، مجرد كشف عن الأهم والمهم، وإلّا فمن الممكن ان يجتمع بعض هذه النقاط في مكان واحد وزمان واحد، وقد يكون اجتماعها ضرورياً ولازماً في بعض الاحيان، وقد يكون بعضها ممهّداً للمراحل اللاحقة. والأمر المتفق عليه هو انّ هذه النقاط، نقاط مشتركة لدى كل سالك، ولابد له من قطع هذه المراحل من اجل بلوغ مراحل اسمى، ونيل مرتبة النفس المطمئنة توكلاً على الله ومن خلال الرياضة والمجاهدة النفسيتين، كي يخاطَب بدون واسطة بخطاب ﴿يا أيتُها النفسُ المطمئنةُ ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيةً﴾[1]، ليتبوّأ مقام القرب الى جوار المقربين من الله.

---

(١) الفجر، الآيتان ٢٧ و٢٨.

(١)

معرفة النفس ومعرفة الله

لما كان علماء علم الأخلاق يرون انّ الهدف النهائي لهذا العلم هو تهذيب النفس وسعادة الانسان، وتعذر بلوغ هذا الهدف إلّا عن طريق معرفة النفس، لهذا لابد من جلب الأنظار لأهمية هذا الموضوع من وجهة النظر الاسلامية.

وقبل الانطلاق الى البحث، لابد من اثارة السؤال التالي: ما هي النفس التي تُعد معرفتها مقدمة للتهذيب والتزكية، وواسطة لمعرفة الخالق المتعال؟

فهل هي تلك النفحة الالهية التي تُعد ملاك تفوق الانسان على الملائكة والتي يُعبَّر عنها بـ«روح الله»؟[١]

هل هي النفس المُلهَمة[٢] التي أقسم بها الله تعالى، اي تلك التي الهمها الفجور والتقوى؟

هل هي النفس الأمّارة بالسوء[٣] التي تدعو الانسان الى السوء والعمل

---

(١) اشارة الى الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ سواهُ ونفخ فيه من روحه...﴾ (السجدة، ٩). ويقول تعالى ايضاً: ﴿فاذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي...﴾ (الحجر، ٢٩؛ ص، ٧٢).

(٢) اشارة الى الآيتين ٧ و٨ من سورة الشمس: ﴿ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورَها وتقواها﴾.

(٣) اشارة الى الآية: ﴿وما أُبرِّئُ نفسي انَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلّا ما رحِمَ ربي انَّ ربي غفورٌ

الطالح؟

هل هي النفس اللوّامة(١) التي تلوم الانسان الفاسد وتحول دون توغّل الانسان في الفساد؟

هل هي النفس المطمئنة(٢) التي تفتخر بنداء: ﴿ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيةً﴾؟

هل هي النفس الفانية(٣) التي تذوق طعم الموت آخر المطاف؟

هل هي فطرة الله(٤) التي فطر الانسان عليها؟

الاجابة:

المراد هو هذه النفوس جميعاً، اي تلك المجموعة التي تصنع شخصية الانسان وتجعله جامعاً للنشأتين (الملكوت والناسوت) معاً، وحاوياً للعالَمَين (عالم الغيب وعالم الشهادة).

فالنفس الانسانية هي نفحةٌ الهية من حيث بُعدها الملكوتي، ثم تصل في مسارها التصاعدي الى مقام النفس المطمئنة والراضية المرضية، ثم تتسامى ايضاً فتتشرف بدرجة «قابَ قوسينِ أو أدنى»، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ثمَّ دنا فتدلّى فكانَ قابَ قوسينِ أو أدنى﴾(٥).

والنفس على الصعيد الناسوتي قد تسقط بحيث يعبّر القرآن الكريم عن أصحاب هذه النفس قائلاً:

← رحيمٌ﴾ (يوسف، ٥٣).

(١) اشارة الى الآية الكريمة: ﴿لا أُقسمُ بيومِ القيامةِ ولا أُقسمُ بالنفسِ اللوامةِ﴾ (القيامة، ١ و ٢).

(٢) اشارة الى الآيات التالية: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيةً فادخُلي في عبادي وادخُلي جنتي﴾ (الفجر / ٢٧ ـ ٣٠).

(٣) اشارة الى الآية الكريمة: ﴿... كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ﴾ (آل عمران / ١٨٥).

(٤) اشارة الى الآية: ﴿... فطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها ...﴾ (الروم / ٣٠).

(٥) النجم / ٨ و ٩. وهذا التعبير من باب تشبيه المعقول بالمحسوس لتجسيد درجة القرب، وإلّا فالله لا يحيط به مكان، ولا وجود للبعد المكاني عنده.

﴿... أُولئك كالأنعامِ بل هُم أضلُّ أولئك همُ الغافلونَ﴾[١].

وقد تسقط هذه النفس وتسقط حتى تبلغ أسفل سافلين:

﴿ثمَّ رددناهُ أسفلَ سافلينَ﴾[٢].

وصفوة القول هي انّ هذه المجموعة التي تبدو صغيرة في ظاهرها، هي كبيرة وواسعة بحيث أحاطت بجميع عوالم الوجود. وهذا ما تعبر عنه الأبيات التالية المنسوبة الى الامام علي عليه السلام:

دواؤكَ فيكَ وما تشعرُ وداؤكَ منكَ وما تُبصرُ
وتحسبُ أنكَ جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ
وانتَ الكتابُ المبينُ الذي بأحرفهِ يَظهرُ المضمرُ
فلا حاجةَ لكَ في خارجٍ يخبِّرُ عنكَ بما سطَّروا[٣]

وما اروع ما قال الشاعر شهريار:

كلُّ الأدواءِ منكَ وأنت لا ترى
وكلُّ الوصفات فيك وأنت لا تقرأ
انت لفظٌ واحد، ولكنك طلسم العجائب
وا أسفاه انكَ لا تعرف معناك
انطوى في هذه الذرة كونٌ عظيم
كانطواء الأغاني في وتَر المغنّي
انت ذلك الكتابُ المقدس الذي فيه
كُتبَتْ جميعُ الأسرار الخفية
فكِّر في كنز الخلقة
فهل تجد كنزاً بهذه العظمة؟!

---

(١) الاعراف / ٥.

(٢) التين / ٥.

(٣) الديوان المنسوب للامام علي (ع)، طبعة حجرية، تبريز، ١٢٧٠ هـ، ص ٣٩.

ليس في خارجك الارضُ والزمانُ
انتَ روحُ الكون والخلود
انت انسانٌ اختفى فيك الله،
وامتحى فيك المُلك، وفني فيك الفلك[١]

وعلى ضوء ما أشرنا اليه ومعرفة كل هذه الاستعدادات الظاهرة والخفية التي لدى الانسان، فبالامكان جعل مرآة القلب ومن خلال التزكية والصقل، مظهراً لجلوات غيب الغيوب، والتحول الى مصداق للآية الكريمة:

﴿ما كذبَ الفؤادُ ما رأى﴾[٢].

تنويه ضروري

لابد من التنويه على هذا الصعيد الى انّ الانسان ليس جاهلاً في لا شعوره بمعرفة النفس، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها﴾[٣]، لكن أكثر الناس غافلون في شعورهم عن هذه المعرفة: ﴿ولكنّ اكثرهم لا يعلمون﴾[٤]، أي انّ اغلب الناس لا معرفة لهم بضميرهم الفطري، أو لا علم لهم بالعلم. من البديهي انّ المعرفة التفصيلية الواعية هي التي تؤلف موضوع التكليف والواجب ومنشأ الثواب والعقاب. بتعبير آخر: ما يهم هو ان يضع المرء قدمه في هذا الطريق عن وعي والعثور على ذاته ومعرفة نفسه، كي يتمكن عبر ذلك من معرفة الله والوقوف على ما عليه من مهام ومسؤوليات انسانية والهية. ومثل هذه المعرفة، هي المعرفة التي تؤكد الآيات والروايات على ضرورة تحصيلها وتتحدث عن الخسران الأبدي الذي لابد وأن يجنيه الغافلون عنها. فالعبادة المقبولة المفيدة، هي العبادة التي تقترن بالعرفان والمعرفة والوعي، وهي العبادة التي ينفرد بها

(١) ترجمة لقصيدة فارسية للشاعر شهريار، كليات ديوان شهريار، ج ٥، ص ٢٤٦.
(٢) النجم / ١١.
(٣) الروم / ٣٠.
(٤) الأعراف / ١٨٧، وآيات اخرى.

الانسان والموجودات العاقلة. اما العبادة التكوينية، فهي موجودة في كل شيء، حيث قال سبحانه:

﴿ولله يسجدُ ما في السموات والأرض ...﴾[1].

وقال كذلك:

﴿... وإنْ من شيءٍ إلّا يسبّحُ بحمدهِ ولكن لا تفقهونَ تسبيحهُم...﴾[2].

اذن وبعد اتضاح الموضوع أعلاه الى حد ما، لابد من الانطلاق الى جوهر البحث.

أحاديث معرفة النفس

كما سبق ان اشرنا، فانّ هناك الكثير من التعبيرات والجمل الرائعة المثيرة عن الرسول ﷺ والأئمة المعصومين ﵈ حول اهمية معرفة النفس، ومنها:

قال الرسول الأكرم ﷺ:

«من عرفَ نفسه فقد عرَف ربَّه»[3].

وقال الامام علي ؑ:

«أفضلُ المعرفةِ معرفةُ الانسانِ نفسهُ»[4].

وجاء في الانجيل ان الله قال:

---

(١) النحل / ٤٩.

(٢) الاسراء / ٤٤.

(٣) المحجة البيضاء، ج ١، ص ٦٨؛ الجواهر السنية، ط الهند، عام ١٣٠٢، ص ٩٤. ونُقلت هذه الرواية مع اختلاف يسير عن علي (ع) في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ط مصر، ج ٢، ص ٢٩٢) وفهرست الغرر (ص ٣٨٧، رقم ٧٩٤٦). وأخطأ البعض في تفسيرها وقالوا ان قول الرسول (ص) في معرفة الله بمثابة التعليق على المحال، اي انّ مراد الرسول (ص) هو: بما انّ معرفة النفس غير ممكنة، فمعرفة الله غير ممكنة ايضاً. غير انّ المضامين المتكررة على هذا الصعيد تكشف بوضوح عن خطأ هذا التفسير والفهم، مثل «اعرف نفسكَ تعرف ربك» أو «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه».

(٤) فهرست الغرر، ص ٣٨٧، رقم ٢٩٣٥.

«اعرف نفسكَ أيها الانسانُ تعرف ربكَ»(١).

وقد اختار كل شخص مساراً لنفسه في هذه المعرفة: فالفلاسفة قد انطلقوا في ميدان المعرفة بعصا الاستدلال والبرهان الفلسفي والعقلي وبلغوا بعض مراحل المعرفة، وعلماء النفس تعرفوا على بعض أبعاد المعرفة عن طريق التجربة، والعرفاء أفلحوا في اكتشاف بعض الحقائق من خلال الرياضة والمكاشفة، والزاهدون والعابدون طووا بعض المدارج بالزهد والعبادة، والمجاهدون والمضحون بلغوا مراتب عليا بواسطة الجهاد والايثار والتضحية، والمحسنون قطعوا أشواطاً في وادي التقرب والمعرفة عن طريق تقديم الخدمات لعباد الله والاحسان اليهم. اي انّ كل واحد من هؤلاء كان يبحث عن ضالته. وقد قال الله تعالى:

﴿... ومَن يؤتَ الحكمةَ فقد أُوتي خيراً كثيراً...﴾(٢).

وروي عن الرسول الاكرم ﷺ قوله:

«أعرفُكُم بنفسِهِ أعرفُكُم بربِّه»(٣).

وروي عنه حديث آخر يقول:

«أعلمُكُم بنفسِهِ أعلمكُم بربِّهِ»(٤).

وقال علي عليه السلام:

«الحكمةُ ضالة المؤمن»(٥).

ومن هنا، يرى أمير المؤمنين علي عليه السلام انّ هؤلاء الذين لا يضعون أقدامهم في هذا الوادي ولا يبادرون الى معرفة أنفسهم، لابد وأن يكون مصيرهم الهلاك:

«هلكَ امرؤٌ لم يعرف قدْرَهُ»(٦).

---

(١) الجواهر السنية، ط الهند، ١٣٠٢، ص ٩٤.

(٢) البقرة / ٢٦٩.

(٣) الجواهر السنية، ط الهند، ١٣٠٢هـ، ص ٩٤.

(٤) أمالي السيد المرتضى، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٥) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٧٧.

(٦) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ١٤٩.

كما قال بهذا الشأن أيضاً:

«من لم يعرف نفسهُ بعُدَ عن سبيلِ النجاةِ وخبطَ في الضلالِ والجهالاتِ»(١).

لذلك، فانّ من لا ينطلق لمعرفة نفسه ولا يأبه لهذه المعرفة، فهو انسان لا يقول بقيمة لنفسه أو قد باع نفسه بثمن بخس على حد تعبير جلال الدين الرومي حينما قال:

لم يعرف نفسه هذا الانسانُ المسكين
جاءَ كبيراً وأصبحَ وضيعاً
باعَ نفسه بثمنٍ بخسٍ
واستبدلَ الحريرَ بخرقةٍ(٢)

ويتحدث الامام علي عليه السلام عن افضل المعرفة فيقول:

«أفضلُ المعرفةِ معرفةُ الانسانِ نفسهُ»(٣).

ويُبدي عليه السلام عجبه ازاء من لا يطلب ضالّة نفسه قائلاً:

«عجبتُ لمن يُنشدُ ضالتَهُ وقد أضلَّ نفسهُ فلا يطلبُها»(٤).

ويقول أيضاً:

«عجبتُ لمن يجهلُ نفسهُ، كيف يعرفُ ربهُ»(٥).

---

(١) فهرست الغرر الموضوعي، ص ٣٨٧.

(٢) المثنوي المعنوي، الدفتر ٣، ص ٤٣٠ (ترجمة عن الفارسية).

(٣) فهرست الغرر الموضوعي، ص ٣٨٧.

(٤) نفس المصدر، ص ٢١٢.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٨٧.

(٢)

اليقظة والشعور بالمسؤولية

الخطوة الثانية التي يخطوها السالك الى الله هي اليقظة، اي الاستيقاظ من نوم الغفلة، والشعور بالمسؤولية وادراك انّ العالم بهذه العظمة التي هو عليها لا يمكن أن يكون قد خُلِق عبثاً. وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة:

﴿أفحسبتُم أنّما خلقناكُم عبثاً وأنكُم الينا لا تُرجعُون﴾[1].

كما جاء في القرآن الكريم ايضاً:

﴿... ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً ...﴾[2].

ولكن الذي يبعث على الأسف انّ أكثر الناس لا يستيقظون من رقاد الغفلة الى آخر لحظة من حياتهم. وهذه حقيقة مرة عبّر عنها الامام عليّ عليه السلام بقوله:

«الناسُ نيامٌ، اذا ماتُوا انتبهُوا»[3].

وما هي فائدة استيقاظ ما بعد الموت؟ فهو استيقاظ لا يحصد صاحبه منه

---

(١) المؤمنون / ١١٥.

(٢) آل عمران / ١٩١.

(٣) لآلئ الاخبار، الشيخ محمد نبي التويسركاني، ١٣١٢، ص ٣٨٦.

سوى الحسرة والندم. ولذلك يحذِّر الله تعالى الناس من مثل ذلك اليوم قائلاً:

﴿وأنذرهُم يومَ الحسرةِ اذ قُضيَ الأمرُ وهُم في غفلةٍ ...﴾(١).

ويقول في موضع آخر:

﴿قُتِلَ الخراصُونَ الذينَ هُم في غمرةٍ ساهُونَ﴾(٢).

وكذلك يقول:

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تُلهِكُم أموالكُم ولا أولادُكم عن ذكرِ الله ومَن يفعَل ذلكَ فأولئكَ همُ الخاسرونَ﴾(٣).

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام ناصحاً واعظاً:

«أما مِن دائكَ بُلولٌ أم ليسَ مِن نومكَ يقظةٌ ... وكيفَ لا يوقظُكَ خوفُ بياتِ نقمةٍ وقد تورطتَ بمعاصيهِ مدارجَ سطواتهِ، فتداوَ مِن داءِ الفترةِ في قلبكَ بعزيمةٍ، ومِن كرى الغفلةِ في ناظركَ بيقظة ...»(٤).

ويقول عليه السلام في موضع آخر:

«فاستَصبحُوا بنورِ يقظةٍ في الأبصارِ والأسماعِ والأفئدةِ يذكِّرونَ بأيامِ الله»(٥).

ويقول أيضاً:

«اليقظةُ نورٌ، اليقظةُ استبصارٌ، التيقظُ في الدينِ نعمةٌ على من رُزِقَهُ»(٦).

ويقول عليه السلام أيضاً على سبيل الوعظ:

«ألا مستيقظٌ من غفلته قبل نفادِ مدتِه»(٧).

---

(١) مريم / ٣٩.

(٢) الذاريات / ١٠ و ١١.

(٣) المنافقون / ٩.

(٤) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الخطبة ٢١٤.

(٥) نفس المصدر، الخطبة ٢١٣.

(٦) فهرست الغرر الموضوعي، ص ٤٣١.

(٧) نفس المصدر.

«ألا مُنتبهٌ من رقدتهِ قبل حين منيته»[١].

ويقول ايضاً:

«اياكَ والغفلةَ ففيها تكونُ قساوةُ القلب»[٢].

ويستجير الامام علي بن الحسين (السجاد)ؑ بالله تعالى من الغفلة قائلاً:

«اللهمَّ اني اعوذُ بكَ مِن الكسلِ والفشلِ والهمِّ والجُبنِ والبُخلِ والغفلةِ...»[٣].

ونقرأ في دعاء الصباح للامام عليؑ العبارة التالية:

«يا من أرقدني في مِهاد أمنهِ وأمانهِ وأيقظني الى ما منحني بهِ من منِّهِ واحسانهِ ...»[٤].

اذن ايها الاخُ المسلم والأختُ المسلمة! استيقظا من رُقادِ الغفلة قبل فواتِ الأوان وانطلقا في طريق الآخرة اليومَ قبل الغد، لأنَّ الغد قد لا يأتي، وقد يسبقه الينا رسولُ الأجلِ والمنيّة.

---

(١) شرح الغرر، ج ٢، ص ٣٢٨، الحديثان ٢٧٥١ و٢٧٥٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٤.

(٣) دعاء ابي حمزة الثمالي، مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دار احياء التراث العربي، ص ١٨٦.

(٤) دعاء الصباح، المصدر السابق، ص ٦٠.

(٣)
التذكُّر

التذكّر يعني انّ على الانسان ان يذكر الله تعالى دائماً و أبداً وألّا ينسى عبوديته لله ومسؤوليته قباله، لأنّ من ينس ربه ينس نفسه، وينسلخ عنها، ولابد ان يتدحرج في آخر المطاف في وادي الغفلة. ولذلك يحذّرنا القرآن الكريم بقوله:

﴿ولا تكونوا كالذين نسُوا الله فأنساهُم أنفسَهُم﴾[١].

ويتحدث القرآن في موضع آخر قائلاً:

﴿الذينَ يذكُرونَ الله قياماً وقُعوداً وعلى جنوبِهِم ...﴾[٢].

وأكدت الأحاديث والروايات على ذكر الله كثيراً. فقد ورد عن عليعليه السلام انه قال:

«أفيضوا في ذكرِ الله فانهُ أحسنُ الذكرِ»[٣].

ويقولعليه السلام ايضاً:

---

(١) الحشر / ١٩.

(٢) آل عمران / ١٩١.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١١٠.

«انّ الله سبحانَه وتعالى جعلَ الذكرَ جلاءً للقلوبِ»[١].

ثم يقول:

«وانَّ للذكر لأهلاً أخذوهُ منَ الدنيا بدلاً فلَم تشغلهُم تجارةٌ ولا بيعٌ عنهُ ..»[٢].

ويقول ﷺ في خطبة همّام:

«... يُصبحُ وهمُّهُ الذكر»[٣].

ويقول في وصف أصحاب رسول الله ﷺ وآله:

«... اذا ذُكرَ الله هملَتْ أعينهُم حتى تبلَّ جيوبهُم ومادوا كما يميدُ الشجرُ يومَ الريحِ العاصفِ خوفاً من العقابِ ورجاءً للثوابِ»[٤].

ويقول في موضع آخر:

«ذكرُ الله دواءُ أغلالِ النفوسِ»[٥].

ويقول أيضاً:

«عليكَ بذكرِ الله فانهُ نورُ القلبِ»[٦].

ويقول ايضاً:

«ذكرُ الله دعامةُ الايمانِ وعصمةٌ منَ الشيطانِ»[٧].

---

(١) المصدر السابق، خ ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق، خ ٢٢٢.

(٣) نفس المصدر، الخطبة ١٩٣.

(٤) نفس المصدر، الخطبة ٩٧.

(٥) غرر الحكم، ج ٤، ص ٣.

(٦) نفس المصدر، ص ٢٨٨.

(٧) نفس المصدر، ص ٣٠.

(٤)

السير في الآفاق والأنفس
(التفكير والتدبّر)

قال الامام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام:

«والفكرةُ مرآةُ الحسناتِ وكفّارةُ السيئاتِ وضياءُ القلوبِ وفسحةُ الخلقِ واصابةٌ في صلاحِ المعادِ واطّلاعٌ على العواقبِ واستزادةٌ في العلم. وهي خصلةٌ لا يُعبدُ الله بمثلِها، قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّم: فكرةُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنةٍ، ولا ينالُ منزلةَ التفكُّرِ إلّا من قد خصّهُ الله بنورِ المعرفةِ والتوحيدِ»[1].

فالتذكر والتفكير يواكب أحدهما الآخر. ولكن قد يكون التذكر مقدمة للتفكير، وقد يمهّد التفكير للتذكر. ولابد من الاستفادة من كلّ ما يدور في اطراف الانسان من اجل اكتساب معلومات جديدة والحصول على معرفة اكبر. وينبغي تحريك الفكر والخروج عن دائرة الجمود، والانتقال من مرحلة التوقف الى مرحلة الحركة. فالتفكير أساس الرقي والتكامل على الصعيدين المادي والمعنوي، وهو الذي يميّز الانسان عن الكثير من الكائنات.

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٨، ص ٣٢٦ نقلاً عن مصباح الشريعة.

التفكير ينقل الانسان من مرحلة الاحساس الى مرحلة التعقل، ومن المرحلة الحيوانية الى المقام الانساني.

التفكير هو الذي يوقظ الروح الماورائية للانسان ويدفعها نحو التحليق والانطلاق.

وقال الله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿الذينَ يذكُرونَ الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكَّرونَ في خلقِ السماواتِ والأرضِ ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سُبحانكَ فقِنا عذابَ النارِ﴾[١].

ونستشف من هذه الآية عدم فائدة الفكر بدون ذكر والذكر بدون فكر. وهما لا يفيدان إلّا اذا كانا معاً. فحينما يرافق أحدهما الآخر، ينتقلان بالانسان من الحضيض الحيواني والطبع الوحشي الى ذروة العرفان. اذن ايها الاخ! اسعَ كي تذكر الله تعالى دائماً، في ذات الوقت الذي تحرك فيه فكرك وتهيئ روحك للانطلاق والتعالي.

قال رسول الله محمد ﷺ:

«على العاقل أن يكونَ لهُ ثلاث[٢] ساعاتٍ: ساعةٌ يناجي فيها ربهُ، وساعةٌ يحاسِبُ فيها نفسهُ، وساعةٌ يتفكرُ في ما صنعَ الله عزَّ وجلَّ اليه، وساعةٌ يخلو فيها بحظِّ نفسهِ من الحلال»[٣].

وقال امير المؤمنين علي عليه السلام:

«نبِّه بالتفكرِ قلبكَ»[٤].

وقال ايضاً:

---

(١) آل عمران / ١٩١.

(٢) يبدو أن «اربع ساعات» هي الصحيحة. لكنها وردت هكذا في البحار.

(٣) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٨، ص ٣٢٣.

(٤) نفس المصدر، ص ٣١٨.

«طُوبى لِمن شغلَ قلبهُ بالفكرِ ولسانَه بالذكرِ»[١].

كما قال:

«مَن أكثرَ الفكرَ فيما تعلَّم أتقنَ علمهُ وفهِمَ ما لم يكُن يفهَم»[٢].

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«التفكُّرُ يدعو الى البِرِّ والعملِ به»[٣].

وقال ايضاً:

«كانَ أكثرُ عبادةِ أبي ذرّ رحمةُ الله عليه، التفكرَ والاعتبارَ»[٤].

وقال الامام علي بن موسى الرضاعليه السلام:

«ليسَ العبادةُ كثرةَ الصلاةِ والصومِ، انَّما العبادةُ التفكّرُ في أمرِ الله عزَّ وجلَّ»[٥].

يبدو انهعليه السلام يقصد انّ حقيقة العبادة تنحصر في التفكر في الاشياء من حيث تعلقها بالله وأمره وارادته. بتعبير آخر: العبادة هي كل شيء يحظى بالاهتمام من حيث انه صنع الله ومظهر ارادته وتجلّي أسمائه وصفاته، وعلى حد تعبير العرفاء ان يكون هدف السالك مما يلي الرب من الأشياء لا مما يلي الخلق. ويُعد مثل هذا التفكر عبادة حقيقية تنفخ في جسم العبادة الروح والحيوية.

---

(١) غرر الحكم، ج ٤، ص ٢٣٩.

(٢) نفس المصدر، ج ٥، ص ٣٧٩.

(٣) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٦٨، ص ٣٢٢.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٢٣.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٢٢.

(٥)

الحبّ والبُغض

(الموالاة والبراءة)

يُعبَّر عن «الحب» و«البغض» في علم الاخـلاق بـ «الشهـوة» و«الغـضب»، ويُعدان من اهم البواعث على كسب الفضائل وتجنب الرذائل. فالانسان ما لم يحب شيئاً لا يتحرك اليه، وما لم يبغض شيئاً لا يصدّ عنه ولا يميل.

ويقول الامام الصادقعليه السلام:

«مَن سرَّتهُ حسنتُهُ وساءتهُ سيئتُهُ فهُوَ مؤمنٌ»[1].

باختصار، تؤلف الرغبات والاعراضات، والمودات والعداوات، والارتياحات والاستياءات، أساس حياة الانسان وثقافته. وبفقدان هذه المشاعر والأحاسيس تصبح الحياة بلا هدف وتفقد بريقها ونشاطها وحماسها.

ولاشك في ان شخصية الانسان مصنوعة من مجموعة هذه الصفات والمشاعر، أو على قول صدر المتألهين انها توجِد لكل انسان فصلاً مميزاً ونوعاً منفصلاً عن

---

(١) اعلام الدين، الديلمي، ط مؤسسة آل البيت، ص ١١٠؛ اصول الكـافي، ج ٢، ص ٢٣٢، بـاب المؤمن وعلاماته وصفاته، الحديث ٦.

الآخرين وها هي الصفات والملكات متبلورة في أحاسيسه وعواطفه وحبّه وبغضه وأعماله[١]. وأشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله:

﴿قُلْ كلٌّ يعملُ على شاكلتِهِ﴾[٢].

ويعتقد البعض انّ معرفة المحاسن وتمييزها عن المساوئ، هو العامل الوحيد الذي يقف خلف نمو الانسان ورقيّه وتساميه، متصورين بالمقابل انّ الجهل هو العامل الفريد لسقوطه وتراجعه الى الوراء. غير انّ هذا الاعتقاد باطل ولاشك لأنّ المعرفة ومهما كانت مفيدة وضرورية، لكنها ليست كافية، اذ لا يتحقق الدافع بدون ارادة. فما أكثر الأخصائيين الذين كتبوا في أضرار المشروبات الكحولية والمخدرات وهم معتادون عليها!

والعلم والمعرفة يجب ان يَصلا الى مرحلة عقد القلب الذي يتبلور فيه الحب والبغض اي حب الجمال والكمال والاجتهاد فيه والابتعاد عن القبح والقبيح والتريض في التشبّه بخالق الجمال والكمال والاشمئزاز من بواعث الشرّ والضلال، لهذا ليس جزافاً لو قيل «انّ الحياة عقيدةٌ وجهاد».

والحياة أساساً لا معنى لها بدون عقيدة، والعقيدة لا معنى لها بدون حب. فمن لم

---

(١) الاسفار، ج ٩، باب التناسخ. يعتقد صدر المتألهين انّ الانسان يتميز عن سائر الحيوانات بناطقيته (قوة التفكر والتعقل)، ولهذا فالناس جميعاً نوع واحد ويتميز بعضهم عن بعض بالفصول الناشئة من صفاتهم وملكاتهم الانسانية. ويعتقد ايضاً انّ هذه الصفات والملكات جوهرية في مرحلة التكامل في كل فرد وليست عارضة. اذن فالتفاوت الحقيقي بين الافراد ليس باللون والشكل والكم والكيف، وانما بالصفات والملكات التي تؤلف حقيقته. وهذه الحقيقة أو الشاكلة تمثل الصورة البرزخية للانسان والتي يظهر بها في عالم الآخرة: يظهر البعض بصورة انسان والبعض الآخر بصورة حيوان كالقرد والخنزير والوحوش والحشرات. ومن الممكن ان تكون للانسان الواحد صور مختلفة خلال مختلف مراحل حياته، فيظهر بها جميعاً في يوم القيامة. ومن هنا نفهم ان صدر المتألهين يؤمن بأنّ للانسان انواعاً مختلفة، اي قد يكون للانسان نوع خاص في كل مرحلة من مراحل وجوده، ويرى ابتدائية وسطحية الاعتقاد بوجود نوع واحد للانسان، وانه رأي قيل من خلال نظرة عامة وبالمقايسة مع سائر الحيوانات، والّا فحقيقة الامر غير هذه.

(٢) الاسراء / ٨٤.

يذق طعم الحب، لا يعرف طعم الايمان.

وقد سأل أحدهم الامام الصادق: هل الحب والبغض من الايمان؟

فأجابه: وهلِ الايمانُ إلّا الحبُّ والبغضُ[1].

وقال الامام محمد الباقر ابن الامام علي بن الحسين عليه السلام:

«الدينُ هو الحبُّ، والحبُّ هو الدينُ»[2].

وللامام الصادق عليه السلام قول طويل في حب الله جاء فيه:

«حبُّ الله اذا أضاءَ على سرِّ عبدٍ أخلاه من كل شاغل. وكلُّ ذكر سوى الله تعالى ظُلمة، والمُحبُّ أخلصُ الناسِ سِرّاً لله تعالى وأصدقهم قولاً وأوفاهم عهداً وأزكاهم عملاً وأصفاهم ذكراً وأعبدهم نفساً. تتباهى الملائكةُ به عند مناجاته وتفتخر برؤيته، وبه يَعمُرُ الله بلادَه، وبكرامته يُكرمُ عبادَه. يُعطيهم اذا سألوا بحقّه، ويدفعُ عنهم البلايا برحمته، فلو علمَ الخلقُ ما محلهُ عند الله ومنزلتهُ لديه، ما تقرّبوا الى الله تعالى إلّا بتُرابِ قدمه»[3].

ولا شك في انّ الانسان عاشق بطبعه للجمال والكمال والمحاسن والملاحات، وماقت للقُبح والبشاعة. ولما كانت ذات الله تعالى، عين الكمال، والجمال، والعلم، والقدرة، والرحمة، وبكلمة عين جميع صفات الكمال والتي يعبَّر عنها بالصفات الثبوتية، اذن يُعدّ حب الله طليعة جميع انواع الحب، ولابد ان يحبه كل من يعشق الجمال والكمال. وكل من يعشقه، لابد وان يعشق مظاهر جماله وجلاله، بالضبط كما قال الشاعر: «انا اعشق العالم كلّه، لأن كلّ العالم منه».

وهذه الجاذبية، جاذبية فطرية. والجميع مجذوبون ـ شاؤوا أم أبوا ـ للحقيقة الصرفة والوجود المطلق، ومأخوذون بجمال الله وحسنه، ومقهورون أمام علمه وقدرته.

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٥، ح ٥؛ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٨٣.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٨٤.

(٣) مصباح الشريعة، الباب ٩٢.

يقول تعالى:

﴿... ولهُ أسلمَ مَن في السماواتِ والأرضِ طَوعاً وكَرهاً ...﴾[١].

ويقول ايضاً:

﴿وللهِ يسجدُ مَن في السماواتِ والأرضِ طَوعاً وكَرهاً ...﴾[٢].

وورد في أحد الأدعية:

«قهرَ بعزتهِ الأعزّاءَ وتواضعَ لعظمتهِ العظماءُ ...»[٣].

ولكن لا يكفي هذا الانجذاب الفطري والاستسلام الطبيعي واللاشعوري، حيث يُشترط الوعي والشعور في ميدان بناء النفس والتزكية والجهاد والرياضة. ولابد على هذا الصعيد من استخدام القوى الفطرية، والاستسلام لارادة الحبيب عن اختيار، لأنّ الحركات الطبيعية والقسرية لا تُعد ذات قيمة في مسار التعالي والسير والسلوك، اذ قال الله تعالى:

﴿قل إن كنتُم تُحبُّونَ الله فاتبعوني يُحببكُمُ الله ...﴾[٤].

فحبُّ الله لا يكون فاعلاً ومؤثراً إلّا اذا تجلّى حين العمل. اي انّ الحبّ الحقيقي هو ذلك الذي يُقدِّم ارادةَ حبيبه على ارادته ورغبتَه على رغبته. فلابد في هذا الوادي من الانقياد والانتخاب والطاعة والتريّض، فقد قال الله تعالى:

﴿انَّ أكرمَكُم عندَ الله أتقاكُم﴾[٥].

وقال علي عليه السلام:

«حبُّ الله نارٌ لا يمرُّ على شيء إلّا احترقَ ...»[٦].

---

(١) آل عمران / ٨٣.

(٢) الرعد / ١٥.

(٣) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دار احياء التراث العربي، ص ١٧٩، دعاء الافتتاح.

(٤) آل عمران / ٣١.

(٥) الحجرات / ١٣.

(٦) مصباح الشريعة، الباب ٩٦.

نقطة البدء

هكذا يتضح كيف يمثّل الحب بداية الطريق ونقطة البدء بالنسبة للسالك. وبكلمة، لولا الحب والارادة لما كانت هناك خطوة الى الأمام. وما لم يرغب الانسان في صلاح نفسه وسدادها، لما بادر الى اصلاحها قط. فلابد اولاً من ظهور هذا الدافع والمحفز لدى الانسان، اي لابد له من التفكير في رفع ما لديه من عيوب واصلاح ما عنده من نواقص. لابد له ان يشعر انّ من الظلم ان يبقى هذا الطائر الملكوتي حبيساً في القفص ولا ينطلق محلقاً نحو السماء. وينبغي للانسان ان يدرك هذه الحقيقة تمام الادراك: لا يليقُ به أن يبدِّد كلَّ هذه الثروة الالهية مجاناً وبلا مقابل.

اذن وكما سبق ان ذكرنا، لا تكفي المعرفة بمفردها، اذ لابد من الطلب والرغبة والحرقة واللوعة أيضاً، وذلك من أجل ان ينطلق الانسان نحو الصلاح ويتهيأ للمجاهدة والتريّض، بالضبط كما ذكر القرآن الكريم:

﴿... فيه رجالٌ يحبُّون أن يتطهروا والله يحبُّ المُطَّهِّرينَ﴾[1].

فالطريق الى الله اذن يبدأ بالحب والطلب وينتهي الى الطهر والأمان.

الايمان والعلم

لابد لنا أن نعلم بأنَّ مقولة الايمان غير مقولة العلم، لأنّ العلم ـ ومهما كان معناه ـ نتاج التجربة والاستدلال. كلاهما من سنخ التصور والتفكر، إلّا انّ الايمان نوع من الوجدان العرفاني والإحساس الماورائي، ويقظة في مقابل الفطرة الالهية. بتعبير آخر: العلم بضاعة مستوردة وانعكاس لما في الخارج، بينما الايمان بارقة ملكوتية وتلبية لنداء الضمير.

وتظهر العلوم الرسمية عادة على شكل تصور وتفكير وانفعال، بينما الايمان نوع من الشعور الوجداني والتصديق والاكتشاف. بتعبير آخر: العلم مجموعة من

---

(١) التوبة / ١٠٨.

التجربة والتحقيق والاستنباط والاستنتاج والمعرفة. اما الايمان فهو نوع من الشعور بالارتباط بموجود أسمى وتكريم هذا الموجود وتقديسه. ومن الممكن ان يتعرض متعلق العلم لبغض الانسان وكراهيته، إلّا انّ متعلق الايمان يحظى دائماً بحبه ووده. فمتى ما كان هناك ايمان، كان هناك خضوع وخشوع وتكريم وتقديس ايضاً. فالايمان بالله ـ على سبيل المثال ـ نوع من الشعور بالحاجة الذاتية والارتباط بالخالق الغني، اي الشعور بالحاجة المطلقة الى الغني المطلق، وهو في الحقيقة شعور بالصغر أمام عظمةٍ ورحمةٍ وقوةٍ لا نهاية لها.

فالقرآن الكريم عبّر عن الايمان بأنه استجابة لنداء الفطرة وتجديد لميثاق يوم «أَلَسْتُ»:

﴿فِطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها ...﴾[1].

وقال تعالى:

﴿واذ أخذَ ربُّكَ مِن بني آدمَ من ظهورِهِم ذُرّيتهُم وأشهدَهُم على أنفسِهِم ألسْتُ بربكُم قالوا بلى شهِدنا ...﴾[2].

ثم تابع الله تلك الآية بقوله:

﴿... أن تقولوا يومَ القيامةِ إنا كُنا عن هذا غافلينَ﴾[3].

فالايمان اذن تأكيد لميثاق الفطرة وتجديد له. ويُحتمل ان يكون ميثاق «ألستُ» تعبيراً عنه. اما العلم فهو نوع من الارتباط الذهني والفكري بين العالم والمعلوم. الايمان بايجاز نوع من الشعور المقرون بالتقديس والتكريم والخضوع ازاء موجود أسمى وأفضل، في حين لا يقتضي العلم مثل هذا الشعور، لأنه واسطة لتلقي واكتشاف المجهولات، حتى وان لم يكن لديها مطلوبية ومحبوبية لدى العالم. فالعلم لا يرافق الايمان دائماً، وهذا ما أشارت اليه الآية الكريمة:

---

(١) الروم / ٣٠.

(٢) الاعراف / ١٧٢.

(٣) الاعراف / ١٧٢.

﴿وجحَدوا بِها واستيقنَتها أنفسهُم ظُلماً وعلوّاً ...﴾[١].

وهكذا يتضح لدينا انّ مُخاطَبي القرآن الكريم ليسوا «الذين علموا» فحسب، بل الذين علموا وآمنوا واطمأنوا بالايمان.

وما تجب الاشارة اليه ايضاً هو انّ الايمان مقرون بالسكينة والاطمئنان دائماً، فيما قد يوجِب العلم التزعزع والاضطراب.

وعبّر القرآن الكريم عن حالة الاطمئنان لدى المؤمنين بقوله:

﴿الذينَ آمنُوا وتطمئِنُّ قلوبهُم بذكرِ الله ألا بذكرِ الله تطمئِنُّ القلوبُ﴾[٢].

العلم مكمّل للايمان

لاشك في انّ العلم يُعد مقدمة للايمان ومكملاً له في كثير من الأحيان. ولهذا السبب نجد القرآن الكريم يثني عليه ويضعه الى جانب الايمان:

﴿يرفَعِ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُم والذينَ أوتُوا العلمَ درجاتٍ﴾[٣].

ورغم هذا كله، فالعلم والايمان مقولتان. ولا نقول جزافاً لو قلنا بأنّ الايمان من مقولة العشق والعرفان.

وهذا ما نقرأه ونترنم به في الدعاء الذي علمه الامام علي عليه السلام لكميل بن زياد:

«وهبني يا الهي وسيّدي ومولاي وربي صبرتُ على عذابِكَ فكيفَ أصبرُ على فراقِكَ ...»[٤].

فهذه، مناجاة العاشق للمعشوق والمحب للحبيب. فاذا كان هناك ايمان، فلابد ان يكون الى جانبه حب ولوعة وحرقة.

وقد قال الله تعالى في وصف أهل الايمان:

﴿واذا سمِعوا ما أُنزلَ الى الرسولِ ترى أعيُنَهُم تفيضُ من الدمعِ ممّا عرَفوا مِن

---

(١) النمل / ١٤.

(٢) الرعد / ٢٨.

(٣) المجادلة / ١١.

(٤) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دار احياء التراث العربي، ص ٦٢.

الحقُّ يقولونَ ربنا آمنّا فاكتُبنا مع الشاهدينَ﴾[١].

فالايمانُ حتى وان كان لا أساس له، إلّا انه يمتزج بالحب، اذ نجد حتى عبدة الأصنام يكنّون الحب لأصنامهم ويعبّرون عن تقديسهم لها واحترامها وعبادتها. ويقول القرآن الكريم في ذلك:

﴿ومِنَ الناسِ مَن يتّخذُ مِن دونِ الله أنداداً يُحبُّونهُم كحبِّ الله والذينَ آمنوا أشدُّ حبّاً لله﴾[٢].

العلاقة الثنائية

يتصور بعض الملحدين والغافلين انّ الايمان بالله وعبادته، نوع من الارتباط الأحادي أو الفردي بين الانسان والخالق. وقد دفعهم هذا التصور الخاطئ لانتحال الأعذار والتذرع بمختلف الذرائع من اجل الهروب من الايمان. غير انّ هذا الفهم، جاهل ومغرض، لأن الايمان علاقة ثنائية بين المخلوق والخالق. وتقوم هذه العلاقة على حقيقة تكوينية (عليّة ومعلولية)، مع وجود جاذبية وحبّ متبادل. اي انّ الله تعالى يحب عباده ولهذا حباهم بكل هذه النعم مثلما يحبه المؤمنون منه. ولاشك في انه تعالى أكثر حباً لعباده المؤمنين المتقين والمحسنين والمطّهّرين:

﴿... فانّ الله يحبّ المتقينَ﴾[٣].

﴿... وأحسِنُوا انّ الله يحبُّ المحسنينَ﴾[٤].

﴿... والله يحبُّ المطّهّرينَ﴾[٥].

ويقول تعالى وأيضاً:

---

(١) المائدة / ٨٣.

(٢) البقرة / ١٦٥.

(٣) آل عمران / ٧٦.

(٤) البقرة / ١٩٥.

(٥) التوبة / ١٠٨.

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا من يرتدَّ منكُم عن دينهِ فسوفَ يأتي الله بقومٍ يُحبّهُم ويحبونَه أذلّةٍ على المؤمنينَ أعزّةٍ على الكافرينَ ...﴾[1].

وهكذا نرى ان هذه الآية تتحدث عن الحب الثنائي الذي ينطلق من الله اولاً ثم من عباده. وهذا ما يُعد بحد ذاته دليلاً على انّ الايمان الحقيقي نوع من العلاقة الثنائية والارتباط المتبادل. بتعبير آخر: الايمان الحقيقي نوع من الحبّ المتبادل بين الخالق والمخلوق. وربما أشار القرآن الكريم الى هذه العلاقة الثنائية حينما وصف الله بصفة «المؤمن» في الآية التالية:

﴿هو الله الذي لا اله إلّا هُوَ الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سُبحانَ الله عما يُشركونَ﴾[2].

وهناك عدة احتمالات أشار اليها المفسرون في تفسير كلمة «المؤمن»[3]:

١ ـ مَن يمنح الاطمئنان والأمن لعباده ويرضى عنهم كما رضوا عنه.

٢ ـ من لا يظلم أحداً من عباده.

٣ ـ من يؤمن بوحدانيته ويشهد بها أكثر من غيره:

﴿شهِدَ اللهُ أنهُ لا الهَ إلّا هُوَ والملائكةُ وأُولُو العلمِ قائماً بالقِسطِ ...﴾[4].

وكما يصف رسوله صلى الله عليه وآله بأنه ﴿يؤمنُ بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ...﴾[5]، فالايمان علاقة ثنائية متقابلة بين الله والمؤمنين وكذلك بين الرسول والمؤمنين.

الجذب والرفض

لابد أن نعلم بأنّ الحب ومثل سائر المشاعر الباطنية ذو قطبين «موجب»

---

(١) المائدة / ٥٤.

(٢) الحشر / ٢٣.

(٣) مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٦٧.

(٤) آل عمران / ١٨.

(٥) التوبة / ٦١.

و«سالب». ولا يمكن للانسان ان يحبّ شيئاً ما ويحب ضدّه في آن واحد. فهو اذا كان طالباً للكمال والجمال فلابد ان يكون كارهاً للوزر والوبال. كذلك اذا كان الايمان مطلوباً لدى أحد من الناس، فلابد ان يكون الكفر والنفاق مبغوضين لديه. وهذا ما أشارت اليه الآية الكريمة:

﴿... ولكنَّ اللهَ حبَّبَ اليكُمُ الايمانَ وزيَّنهُ في قلوبكُم وكرَّهَ اليكُمُ الكُفرَ والفسوقَ والعصيانَ ...﴾[١].

اذن لو جرى الحديث عن الحب، فهذا لا يعني انّ الانسان في صلح مع الجميع وأنه يحب الجميع. فالانسان المؤمن ليس بامكانه ان يتصالح مع كل أحد، كما ليس بامكانه ان يعادي كل أحد. اذن فلاشك انّ المحبّة قيّمة، حينما تكون على صلة بالقيم والجمالات، فترفض ما يتعارض مع هذه القيم: تقبل القريب ولا تقيم علاقة حب مع الغريب. والمحبة المطلقة يمكن ان تفرض بالنسبة للجميع باعتبار انهم عباد الله ومخلوقاته وبهذا نحبهم ونحب ان يكونوا كلهم مهتدين ناجين وناجحين في الحياة ولكن هيهات هيهات....

الموالاة والبراءة

تعد الموالاة والبراءة من اصول الفروع[٢]، ومعناهما انّ الانسان وفي ذات الوقت الذي يجب عليه ان يحب الخير والأخيار، لابد له أيضاً ان يعادي الشر والأشرار. ألم يتحدث الله تعالى عن أصحاب الرسول محمدﷺ الحقيقيين قائلاً:

---

(١) الحجرات / ٧.

(٢) لا تقتصر فروع الدين على الصلاة والصيام والحج والخمس والزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والموالاة والبراءة، لأنّ جميع التعاليم والأحكام العملية ـ عبادات ومعاملات وحدوداً وديات ـ جزء من فروع الدين، مثلما تعد كافة المسائل العقائدية، من اصول الدين. اذن فما هو شائع من انّ فروع الدين عشرة أشياء، المراد به أنّ هذه الاشياء العشرة تمثل اصول الفروع وجميعها من سنخ العبادات، وليس انّ فروع الدين تتلخص في عشرة اشياء.

﴿محمدٌ رسولُ الله والذينَ معهُ أشداءُ على الكفّارِ رحماءُ بينهُم ...﴾[١]؟
كما قال تعالى ايضاً:
﴿لا تجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ من حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهُم أو أبناءَهُم أو اخوانهُم أو عشيرَتهُم أولئكَ كتبَ في قلوبهِمُ الايمانَ وأيدهُم بروحٍ منهُ ...﴾[٢].
وقال ايضاً:
﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تتخذوا عدُوّي وعدوَّكُم أولياءَ تُلقُونَ اليهِم بالمودَّةِ وقد كفَروا بما جاءكُم منَ الحقِّ ...﴾[٣].
لذلك لابد أن تتوفر لدى المؤمن الملتزم حالتا الجذب والرفض. واولئك الذين يسعون للحصول على حبِّ الجميع، فهم منافقون. وهناك العديد من الأحاديث التي تؤكد على هذه الحقيقة، ومنها الحديث التالي الذي هو عبارة عن وصيةٍ أوصى بها الرسولﷺ أحد اصحابه:
«يا عبد الله أحبب في الله وأبغض في الله ووالِ في الله وعادِ في الله فانهُ لا يُنالُ وَلايةُ الله إلّا بذلك، ولا يجدُ رجُلٌ طعمَ الايمانِ وان كثُرَت صلاتُهُ وصيامُهُ حتى يكونَ كذلكَ. وقد صارت مؤاخاةُ الناسِ يومَكُم هذا أكثرُها في الدنيا، عليها يتوادُّونَ وعليها يتباغضُونَ وذلكَ لا يُغني عنهُم مِنَ الله شيئاً.
فقال له ذلك الصحابي: وكيف لي أن اعلم أني قد واليتُ وعاديتُ في الله عزّ وجلّ؟ ومن وليُّ الله عزّ وجلّ حتى أُواليَهُ ومن عدوُّهُ حتى أُعادِيهُ؟
فأشار له رسولُ اللهﷺ الى عليٍّ؈ فقال: أترى هذا؟ فقال: بلى. فقالﷺ: وليُّ هذا وليُّ الله فوالهِ، وعدوُّ هذا عدوُّ الله فعادِهِ. والِ وليَّ هذا ولو أنَّهُ قاتِلُ أبيكَ وولَدِكَ وعادِ عدوَّ هذا ولو أنَّهُ أبوكَ وولَدُكَ»[٤].

(١) الفتح / ٢٩.
(٢) المجادلة / ٢٢.
(٣) الممتحنة / ١.
(٤) بحار الانوار، ج ٦٦، ص ٢٣٦.

فالموالاة والبراءة اذن موقف في منتهى الأهمية حتى انّ بعض الأحاديث عبّرت عنه بأنّه أوثق عُرى الايمان[١].

ومن الخصال التي امتاز بها الأنصار والتي امتدحها القرآن الكريم هي انهم كانوا يحبون المهاجرين لايمانهم، ولم يبخلوا عليهم من اجل ذلك بأيّ شيء حتى انهم فتحوا لهم دورهم بقلوب مفعمة بالايمان والنقاء والاخلاص، وهرعوا لاستقبالهم بصدور مفتوحة، وعبّروا عن احتفائهم الحار بهم. وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك قائلاً:

﴿والذينَ تبّوأوا الدارَ والإيمانَ مِن قبلِهم يُحبُّونَ من هاجرَ اليهِم ولا يجدونَ في صُدُورهِم حاجةً ممّا أُوتُوا ويُؤثِرونَ على أنفُسِهم ولَو كانَ بهِم خصاصةٌ ...﴾[٢].

فاذا لم يكن الحبّ والبغض، في الله ومن اجل الله، فلن يستمر أيّ منهما، وسرعان ما يتحول كل منهما الى نقيضه. ولابد لنا ان نعلم انّ حبّاً من هذا النمط لابد وأن يؤدي الى الخسران الأبدي. كما انّ مثل هؤلاء الأحباء أو الاخلاء، يلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ البعض من البعض الآخر يوم القيامة، ويعلنون عن أسفهم على اتخاذ بعضهم للبعض الآخر خليلاً إلّا المتقين، وهذا ما عبّرت عنه بعضُ الآيات القرآنية مثل:

﴿الأخِلّاءُ يومئِذٍ بعضُهُم لِبعضٍ عدُوٌّ إلّا المتقِينَ ...﴾[٣].

﴿يا ويلتى ليتني لَم أتّخِذْ فُلاناً خليلاً﴾[٤].

اذن عليك ايها الاخ وايتها الاخت في الايمان السعي كي يكون حبكما في الله وبغضكما في الله. أحبّوا الخير والأخيار وجابهوا الشرّ والاشرار، وليدعُ كل منكما الله تعالى: ﴿الهي توفّني مُسلِماً وألحقني بالصالحين﴾[٥].

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٣٩.

(٢) الحشر / ٩.

(٣) الحشر / ٩.

(٤) الزخرف / ٦٧.

(٥) الفرقان / ٢٨.

(٦)

العلم بالشرائع والأحكام

لابد للسالك وقبل قيامه بأيّ عمل ان يعرف ذلك العمل، ويعرف حكم الشرع فيه، كي يعمل على انطباق سلوكه وعمله مع الموازين الشرعية. فمن المتعذر تأدية الوظيفة والتأدب بالآداب، بدون العلم بالوظائف والتعاليم الشرعية.

وهكذا ينبغي على كل أحد معرفة الاحكام الدينية بمقدار الضرورة والحاجة، تقليداً أو اجتهاداً. ويجب على طائفة من المسلمين على الأقل، التفقه في الدين وتعلم المسائل والمعارف الدينية، كي تنهض بمهمة توعية الآخرين بما عليهم من واجبات ووظائف. وقد اشار القرآن الكريم الى هذه الطائفة بقوله:

﴿... فلولا نفرَ مِن كلِّ فرقةٍ مِنهُم طائفةٌ ليتفقهُوا في الدينِ ولينذِروا قومهُم اذا رجَعوا اليهِم لعلهُم يحذرونَ﴾[1].

وورد في الحديث:

«عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن قوله تعالى ﴿فللهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ﴾ فقال: انَّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أكُنتَ عالِماً؟ فان قالَ نعم، قال له: أفلا

---

(١) التوبة / ١٢٢.

عمِلت بما علمتَ، وان كانَ جاهلاً قال له: أفلا تعلّمتَ حتى تعمل ...»[١].

ويمكن القول بايجاز انّ العبادة تتحقق بشرطين: الحب، والطاعة. ولا تتحقق الطاعة بدون العلم بما يريد المعبود وما يرضي المحبوب. وأما اولئك الذين يخترعون أشياء من عند انفسهم وينسجون اموراً بمخيلتهم ثم يمارسونها على اساس انها عبادة وطاعة، فانما هم عباد انفسهم لا عباد الله تعالى. وقد قال الله تعالى في صيغة التساؤل بقصد التوبيخ: ﴿ءَآللهُ أذِنَ لكُم أم على الله تفترونَ﴾[٢].

(١) تفسير الصافي، ط اسلامية، ج ١، ص ٥٥٥، ذيل الآية ١٤٩ سورة الأنعام؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٧٦.

(٢) يونس / ٥٩.

(٧)

انتخاب الرفيق الوفي والابتعاد عن غير الصالحين

مثلما يلعب الرفيق الصالح والصديق الوفي الصادق دوراً حساساً ومفيداً في المساعدة على حلّ المشاكل خلال الأسفار الدنيوية، كذلك تبرز ضرورة وجود الرفيق الصالح خلال السير والسلوك والأسفار المعنوية.

فحينما بُعث موسى عليه السلام الى بني اسرائيل لهدايتهم وانقاذهم من فرعون، سأل الله تعالى قائلاً:

﴿واجعلْ لي وزيراً مِن أهلي، هرونَ أخي، أُشدُدْ بهِ أزرِي، وأشرِكْهُ في أمري، كي نُسبّحَكَ كثيراً ونذكُرَكَ كثيراً﴾[1].

وقال تعالى في آية اخرى:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتقّوا الله وكونُوا مع الصادقينَ﴾[2].

وأوصى الامام علي عليه السلام ولده قائلاً:

---

(١) طه / ٢٩ ـ ٣٤.

(٢) التوبة / ١١٩.

«سَل عن الرفيقِ قبل الطريقِ وعن الجارِ قبلَ الدارِ»[١].

وقال ﷺ أيضاً:

«الغريبُ مَن لم يكن له حبيب»[٢].

وأفضل الاصدقاء، اولئك الذين شملتهم رحمة الله ونعمته، واجتازوا الصراط المستقيم بعناية الله ولطفه، وظلوا بمنأى عن الذنب والمعصية. وهؤلاء أربع فئات، أشارت اليهم الآية التالية:

﴿ومَن يُطعِ الله وَرسولَهُ فأولئكَ مع الذينَ أنعَمَ الله عليهِم مِنَ النبيّينَ والصِّدّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحَسُنَ اولئكَ رفيقاً﴾[٣].

وصفوة الكلام هي: يتضح لنا من مجموع الآيات والروايات ضرورة وجود الرفيق الصادق والصاحب الوفي خلال السير في طريق الحق. ولا تليق الوحدة والانفرادية إلّا بحضرة الحق تعالى.

فيا ايها الاخ!

ان لم تصل يدك الى النبي والصديقين، فكن مع الشهداء والصالحين، ولا تقتطع نفسك منهم أبداً، لأنّ ذلك يؤدي بك الى الضلال.

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٣١.

(٢) نفس المصدر.

(٣) النساء / ٦٩. لمزيد من المعلومات حول انتخاب الرفيق ومن هو الرفيق الذي تلزم معاشرته، راجع: اصول الكافي، ج ٢، كتاب العشرة، وبحار الانوار، ج ٧١.

(٨)

الابتعاد عن المحرّمات

نقطة البداية الثامنة تتمثل في ترك المحرمات. فمثلما يجب تجنب بعض الامور والامتناع عن بعض المأكولات من اجل تربية البدن والمحافظة على سلامته، كذلك لابد من الامتناع عن بعض الاعمال والأغذية في تربية النفس وتهذيبها. ونقل القطب الراوندي عن الامام محمد الباقر عليه السلام قوله:

«عجباً لمن يحتمي عن الطعام مخافةَ الداءِ كيفَ لا يحتمي عنِ المعاصي خَشيَةَ النارِ»[١].

ولاشك في انّ هذا الاحتماء متعارض مع التمايلات والنوازع النفسية، ويبدو صعباً وقاسياً في بادئ الأمر، ولكن الرياضة والمجاهدة والاستمرارية تذلل الصعاب وتمهد الطريق. وقال علي عليه السلام في ذلك:

«غالبوا أنفُسَكُم على تركِ المعاصي يَسهَلْ عليكُم مقادَتُها الى الطّاعاتِ»[٢].

وهذا الكرّ والفرّ يلعب دوراً اساسياً في بناء النفس وتهذيبها، وهو ما يُعبَّر عنه

---

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج ٣، ص ٣٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٦؛ فهرست الغرر، ص ١٢٩، ح ٦٤١٠.

في الثقافة الاسلامية بـ «التقوى» التي تُعدّ اساس جميع القيم الاسلامية والانسانية. ولا قيمة لأي عمل بدون التقوى، ولا يُقبل ايّ عمل عند البارئ تعالى بدونها. وهذا ما عبّر عنه القرآن بشكل صريح:

﴿... انّما يَتقبَّلُ الله مِنَ المتَّقِينَ﴾[١].

ولاشك في انّ العمل ـ أي عمل ـ حينما لا يُقبل عند الله تعالى، فمن المؤكد انه عمل لا يعمل على رقي الروح وصلاح النفس وذلك لأنّ الكلام الطيب والعمل الصالح هما اللذان يصعدان الى الله فقط. ولا يتقرب منه سوى الصلحاء والمتقين. وقد قال تعالى:

﴿... اليه يَصعدُ الكَلِمُ الطيّبُ والعملُ الصالحُ يرفَعُه ...﴾[٢].

يقول الامام الباقر عليه السلام:

«انَّ أشدَّ العبادةِ الورَعُ»[٣].

ويقول الامام الصادق عليه السلام:

«لا ينفعُ اجتهادٌ لا ورَعَ فيه»[٤].

وكتب الامام الصادق الى أحد أتباعه:

«ان أردتَ أن يُختَمَ بخير عملُكَ حتى تُقبضَ وأنتَ في أفضلِ الأعمالِ فعظِّم للهِ حقَّه أن تبذُلَ نعماءَه في معاصيه وأن تغترَّ بحلمِهِ عنك ...»[٥].

وذكر المفضّل بن عمر انه كان في خدمة الامام الصادق عليه السلام حينما دار الحديث حول العمل، وشكا للامام انه ضعيف من حيث العمل، فهدّأه الامام وطلب منه الاستغفار وأن لا ييأس الى هذا الحد، ثم قال له:

---

(١) المائدة / ٢٧.

(٢) فاطر / ١٠.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٧٧، باب الورع.

(٤) نفس المصدر.

(٥) بحار الانوار، ج ٧٠، ص ٣٥١.

«... انّ قليلَ العملِ مع التقوى خيرٌ من كثيرِ العملِ بلا تقوى ...»[١].

ويقول المفضل:

قلت له: كيف يكون كثير بلا تقوى؟

قال: نعم مِثلُ الرجلِ يُطعِمُ طعامَه ويرفُقُ جيرانَهُ ويُوَطِّئ رَحْلَهُ، فاذا ارتفعَ لهُ البابُ مِنَ الحرامِ دخلَ فيهِ، فهذا العملُ بِلا تقوى. ويكونُ الآخرُ ليس عِندَهُ، فاذا ارتفعَ لهُ البابُ من الحرامِ لم يدخل فيهِ»[٢].

عفّة البطن والفرج

قال الله تعالى:

﴿فَلينظُرِ الانسانُ الى طعامِهِ﴾[٣].

وجاء في كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام الى عثمان بن حنيف:

«... فما اشتبهَ عليكَ عِلمُهُ فالفِظهُ ...»[٤].

لذلك فانّ فانّ اهم شيء لابد للمؤمن السالك ان يلتفت اليه في بداية الطريق هو حفظ البطن والفرج من التلوّث بالحرام كالزنا وغيره، لاسيما في عنفوان الشباب حيث تكون الارضية أكثر ملاءمة لطغيان غريزة الشهوة.

فان كنت تريد أن تجالس في نهاية المطاف الرسل والصديقين والشهداء والصالحين[٥] في خلوات اسرارهم فعليك بالحذر من المحرمات والشبهات حتى يبقى القلب والعين نظيفين ونقيين، كي تحلق بروح شفافة وخفيفة في السماء.

فالمتقون، علاوة على تجنبهم لأشكال الحرام البيّن، لابد لهم ايضاً من الابتعاد

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٧٦، باب الطاعة والتقوى، ح ٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) عبس / ٢٤.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٤٥.

(٥) اشارة الى الآية: ﴿ومَن يُطِع اللهَ والرسولَ فأولئكَ مع الذينَ أنعمَ الله عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ﴾ (الانبياء / ٦٩).

عن تناول الأطعمة المشبوهة، وتجنب النظرات المثيرة، حيث قال الشاعر «كلّ ما يراه البصر يتذكّره القلب ويريده».

فاولئك الذين يسعون لتحقيق النجاح في وادي السلوك، ينبغي لهم تجنب الأعمال غير المشروعة والابتعاد عن أصدقاء السوء، مع رعاية كافة الحدود والتعاليم الاسلامية خلال ممارسة الاعمال المشروعة، ومراعاة الحد الأعلى من الاحتياط والحذر في الأموال العامة وبيت المال. ولو كان أحدنا موظفاً حكومياً أو يزاول مهنة يخدم من خلالها الآخرين، فينبغي عليه عدم التلكؤ في انجاز الاعمال التي لابد له من انجازها، وأن يبذل قصارى جهده لخدمة الناس، لاسيا المستضعفين والمحرومين. والأولى به ان يعمل بما هو أكثر من الساعات المقررة، مراعاةً للاحتياط وتفادياً لبعض الساعات الضائعة. وعلى أصحاب المناصب والمهام الكبيرة الحساسة، ان يكونوا أكثر احتياطاً وحذراً من غيرهم وبما ينسجم مع حجم المسؤوليات الملقاة على عاتقهم. وقد يكون الاشتباه في الجهة والقصد لا في العمل ذاته كما في قضية عثمان بن حنيف حيث انّ الدعوة والمأكولات المعدة لم تكن حراماً ومشبوهة ولكن كانت الضيافة والدعوة اليها وكيفية المأدبة مشبوهة ومزيفة(١).

ومما يبعث على الأسف هو أن نشاهد عدم الاهتمام بهذا الأمر وعدم الاكتراث به. فما أكثر المتحمسين في الشعار، إلّا انهم غير ملتزمين على صعيد العمل، وغير مراعين لحدود التقوى، لاسيا في مجال البطن والفرج، اذ قلّما يسيطرون على

---

(١) ما اروع كتاب الامام علي (ع) الى عامله على البصرة عثمان بن حنيف بهذا الشأن:

«أما بعد يا ابن حنيفٍ فقد بلغني أن رجلاً مِن فتيةِ أهلِ البصرةِ دعاكَ الى مأدبةٍ فأسرعتَ اليها تستطابُ لكَ الألوانُ وتنقلُ اليكَ الجِفانُ وما ظننتُ أنكَ تُجيبُ الى طعامِ قومٍ عائلهُم مجفوٌّ وغنيُّهم مدعوٌّ. فانظر الى ما تقضمُهُ من هذا المقضمِ. فما اشتبهَ عليكَ عِلمهُ فالفظهُ وما أيقنتَ بطيبِ وجههِ فنلْ منهُ. ألا وانَّ لكلِّ مأمومٍ اماماً يقتدي بهِ ويستضيءُ بنُورِ علمهِ. ألا وانَّ امامكُم قد اكتفى من دُنياهُ بطمريهِ ومن طُعمهِ بقرصيهِ. ألا وانكُم لا تقدرُونَ على ذلك ولكن أعينُوني بورعٍ واجتهادٍ وعفةٍ وسدادٍ» (ك ٤٥).

انفسهم فيهما.

ويقول أبو بصير انّ شخصاً قال للامام الباقرعليه السلام: اني ضعيفُ العملِ قليلُ الصيامِ (المستحب)، ولكني أرجو أن لا آكل إلّا حلالاً. فقال له الامام محمد الباقرعليه السلام:

«أيُّ الاجتهادِ أفضلُ مِن عِفَّةِ بطنٍ وفرجٍ؟»[١].

وورد عن الامام الباقرعليه السلام أيضاً انه قال:

«ما عُبِد الله بشيءٍ أفضلَ مِن عِفَّةِ بطنٍ وفرجٍ»[٢].

الذنوب الصغيرة والكبيرة

رغم انّ الذنوب بأسرها تعدّ كبيرة[٣] من حيث انها تمرد على التعاليم والأوامر الالهية، لكن ونظراً للخصوصيات الذاتية التي يتّسم بها كل ذنب والآثار التي يخلّفها، يمكن التكهن بأنّ الذنوب ليست بحجم واحد: بعضها كبير جداً، وبعضها صغير جداً، وبعضها متوسط. ولا يشك أحد في انّ جريرة القتل اكبر بكثير من جريرة ضرب الانسان وشتمه، ومعصية الزنا اكبر من معصية النظر الى غير المحارم، واذا ما قبلنا هذا الأمر، فلابد من أن يُثار السؤالان التاليان:

أ ـ نظراً لما تتسم به الذنوب من الشدة والضعف حين قياس بعضها الى البعض الآخر، فهل يُعد تقسيم الذنب الى كبير وصغير، نسبياً ام مطلقاً؟

ب ـ ومع افتراض صحة هذا التقسيم، فما هو معيار الكبير والصغير من الذنوب، وما هو الملاك الذي يمكن على ضوئه تحديد هذا الصغر والكبر؟

وللاجابة لابد من القول انّ الذنوب وان كانت تتميز بالشدة والضعف حين

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٧٩، باب الفقه، ح ٤.

(٢) نفس المصدر، ح ١. وهناك العديد من الاحاديث بهذا الشأن.

(٣) يقول العلامة الطبرسي: «والى هذا ذهب أصحابنا فانهم قالوا المعاصي كلها كبيرة من حيث كانت قبائح لكن بعضها اكبر من بعض وليس في الذنوب صغيرة، وانما يكون صغيراً بالاضافة الى ما هو اكبر منه» (مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٨).

قياس بعضها بالبعض الآخر وهي نسبية من هذا المنظار ـ اي من الممكن ان يُعدّ ذنبٌ ما صغيراً نسبةً الى ذنب اكبر، وكبيراً نسبةً الى ذنب أصغر ـ إلّا انها وعلى ضوء آيات القرآن وروايات المعصومينﷺ تقسّم بشكل عام الى مجموعتين: كبيرة وصغيرة، وتقع كل مجموعة في موقعها الخاص، ولهذا لا يمكن من هذا المنظار ان تُعد الصغائر بمستوى الكبائر، كما لا يقع أي من الكبائر ضمن دائرة الصغائر. ولكن لابد من القول ايضاً بأنّ الذنوب قابلة للوصف من زاويتين اخريين:

الاولى، انها تُعد في منتهى القبح من حيث كونها تمرداً على الأوامر الالهية، ولذلك لا يُعد اي ذنب وفق هذه الرؤية صغيراً. ومن يتصور أنّ معصية الله أمر صغير، انما يرتكب ذنباً عظيماً جداً. ولذلك ورد عن عليﷺ قوله:

«أشدُّ الذنوبِ ما استخَفَّ به صاحبُه»[١].

كما ورد عن الامام محمد الباقرﷺ:

«الذنوبُ كُلُّها شديدةٌ وأشَدُّها ما نبتَ عليه اللحمُ والدمُ، لأنَّهُ إما مرحومٌ وإما مُعذَّبٌ، والجنةُ لا يدخُلُها إلّا طيّبٌ»[٢].

وورد في حديث آخر عنهﷺ:

«اتَّقوا المُحَقَّراتِ مِنَ الذُّنوبِ فانّ لها طالباً. يقولُ أحدُكُم أُذنِبُ وأستغفرُ، انّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿سنكتُبُ ما قدّموا وآثارَهُم وكُلَّ شيءٍ أحصيناهُ في امامٍ مُبينٍ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿إنها إن تكُ مثقالَ حبَّةٍ مِن خردَلٍ فتكُن في صخرةٍ أو في السّماواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ انَّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ﴾»[٣].

الثانية، انّ الذنوب وان كانت تُقسّم بشكل عام الى كبائر وصغائر، لكن لابد أن نعلم بأنّ الذنوب الكبيرة ليست في درجة واحدة، مثلما انّ الصغيرة ليست

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٤٧٧.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق: بحار الانوار، ج ٧٠، ص ٣٢١.

بنفس المستوى أيضاً. فمن الممكن ان تكون المعصية الصغيرة كبيرةً نسبةً الى معصية صغيرة اخرى، ومن الممكن ايضاً ان تُعد المعصية الكبيرة صغيرة بالنسبة الى كبيرة اخرى، وبالعكس، اذ اضافةً الى ذلك المعيار الكلي المشترك الذي يقسّم الذنوب الى صغائر وكبائر، هناك جهات اخرى ايضاً تؤثر في صغر الذنب وكبره.

القبح الفعلي والقبح الفاعلي

تعتمد شدة وضعف الذنب بنوعيه الصغير والكبير على شيئين: القبح الفعلي والقبح الفاعلي، ويتصل القبح الفعلي بالمفاسد والقبائح الموجودة في العمل بغضّ النظر عن السمات الروحية والظروف النفسية للشخص المذنب. اما القبح الفاعلي فيتصل بالظروف النفسية والذهنية للمذنب بصرف النظر عن خصوصيات العمل نفسه. والظروف النفسية والذهنية للمذنب عبارة عن امتلاك روح التمرد والطغيان والتخلف عن القانون وعدم الاهتمام بحقوق الله. ولذلك تُعدّ جميع الذنوب كبيرة وعظيمة من حيث القبح الفاعلي، لأنّ التمرد على أوامر الله تعالى مع العلم والاختيار، أمر في منتهى القبح والبشاعة.

وأورد قطب الدين الراوندي:

«أوحى الله تعالى الى عُزير عليه السلام يا عُزير اذا وقعتَ في معصية فلا تنظر الى صِغَرها ولكن أُنظر من عَصَيْتَ»[1]

ورغم هذا كله، فهذه الحالة ـ أي حالة القبح الفاعلي ـ ليست واحده عند جميع المذنبين، اذ من الممكن ان يرتكب شخص ما ذنباً بفعل طغيان غريزة الشهوة وتمردها، ويرتكب شخص آخر هذا الذنب نفسه بدافع الفساد والافساد والالحاد. وليس هناك شك في ان ذنب الثاني أعظم من الاول، لأنّ الثاني يهدف

---

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٣٣٤.

ومن هنا يمكن ان تتكهن لماذا يُعَدّ الاصرار على الصغيرة، كبيرة، لأن الاصرار على الذنب دليل على روح التمرد والعصيان مما يوجب تزايد القبح الفاعلي وضخامة الذنب، حتى وان كان الذنب نفسه ليس قبيحاً جداً. وورد في الحديث: «أعظمُ الذنوبِ ذنباً ما أصرّ عليه صاحبه». (المصدر اعلاه)

من ذنبه ومعصيته إفساد الآخرين أيضاً. وهذا النوع من الذنب من الضخامة بحيث لو أصر صاحبه عليه ولجأ الى تكراره لَعُدّ مفسداً في الارض، وقد يُحكم عليه بالاعدام في الشريعة الاسلامية، على العكس من الفرد الاول الذي لا يستحق مثل هذا الحكم والتعامل.

إذن هناك شدة وضعف إنْ في القبح الفعلي وإنْ في القبح الفاعلي. وهذه الشدة والضعف هي التي تبعث أحياناً على عدّ الذنب كبيراً أو صغيراً على الصعيدين الفعلي والفاعلي. كما قد يكون الذنب كبيراً من حيث القبح الفعلي وصغيراً من حيث القبح الفاعلي، وبالعكس.

وعلى ضوء هذه المقدمات، نصل الى النتيجتين التاليتين:

الاولى: الذنوب جميعها، أرض حرام لا يحقّ لأيّ أحد دخولها. واولئك الذين قرروا أنْ لا يدخلوا الى هذه المنطقة، عليهم ان لا يقتربوا منها أيضاً، إذ قال الله تعالى:

﴿... تلك حُدودُ الله فلا تَقْربوها﴾[1].

وقال في موضع آخر:

﴿... تلك حُدودُ الله فلا تَعْتَدوها﴾[2].

طبعاً، تعبير «فلا تقربوها» أبلغ في ايصال الفكرة، إذ يعني تحريم حتى الاقتراب من حدود الذنوب. فيما يُعطي التعبير الثاني «فلا تعتدوها» معنى النهي عن اختراق الحدود.

وقال سبحانه في آية اخرى:

﴿والذين لا يشهدونَ الزُّورَ واذا مَرّوا باللَّغوِ مَرُّوا كراماً﴾[3].

وقال أيضاً:

---

(١) البقرة / ١٨٧.

(٢) البقرة / ٢٢٩.

(٣) الفرقان / ٧٢.

﴿ولا تقربوا الزنا انَّهُ كانَ فاحشةً وساءَ سبيلاً﴾[١].

وهكذا نراه سبحانه يحذّر في جميع هذه الآيات من الاقتراب من حدود المعصية والذنب، اذ قد يؤدي الاقتراب من هذه الحدود أو هذه الارض الحرام، الى اجتيازها والتعرض للهلاك.

وهناك العديد من الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام تشير الى هذا المعنى ومنها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«حلالٌ بيّنٌ وحرامٌ بيّنٌ وشُبُهاتٌ بين ذلك، فَمَنْ تَرَكَ الشبهاتِ نجا من المحرّمات ومن أَخَذَ بالشبهات ارتكب المحرماتِ وهَلَكَ من حيثُ لا يعلمُ»[٢].

وقال علي عليه السلام:

«حلالٌ بيّنٌ وحرام بيّنٌ وشُبُهاتٌ بين ذلك، فَمَنْ ترك ما اشتبه عليه فَهوَ لما استبانَ له أتركُ، والمعاصي حِمى الله فَمَنْ رَتَعَ حولها يوشكُ ان يقعَ فيها»[٣].

والجدير بالذكر ان هدفنا من استعراض هذا الموضوع وذكر هذه الآيات والاستشهاد بها، ليس تأييد الرأي الاخباري الداعي الى وجوب الاحتياط في موارد الشبهة الحكمية، بل نريد أن نقول بأنّ من ينشد صيانة نفسه من الذنب والمعصية وعدم ارتكاب الذنب في المصاديق القطعية، لابد له من الاحتياط في الشبهات المصداقية، وعدم الاقتراب من حدود الشبهة حذراً من الوقوع في الذنب بفعل الوساوس الشيطانية والنفسية. ويُعدّ هذا، نوعاً من الاجتهاد والتمرس الذي لابد للسالك من الاهتمام به وتعويد نفسه عليه. ومن لا يروّض نفسه على ذلك فمن المستبعد ان يحقق نجاحاً كاملاً في الاقلاع عن المعاصي وترك الذنوب.

---

(١) الاسراء / ٣٢.

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ٦٨، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث؛ وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١١٤، ح ٩.

(٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٢٥.

الثانية: عدم الاصرار على الذنب، أي ان الذنب ومهما كـان صـغيراً، فـلابد للمؤمن السالك من الابتعاد عنه وتجنّبه. ولو ارتكب ذنـباً تحت تأثـير طـغيان الغريزة أو بفعل استصغار الذنب، فعليه ان يتذكر الله تعالى فوراً ويبادر الى غسل قلبه بدموع الندم وماء التوبة، وهذا ما أشار اليه قوله تعالى:

﴿والذين اذا فعلوا فاحِشَةً أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبِهِم وَمَنْ يغفرُ الذنوبَ إلّا اللهُ ولم يُصِرّوا على ما فعلوا وَهُمْ يعلمونَ﴾[1].

وهكذا، ينبغي للانسان ان لا يستصغر ذنبه قط، وأن ينبري لتداركـه فـوراً بالتوبة. وقد قال علي عليه السلام:

«أشدُّ الذنوبِ ما استَخَفَّ به صاحِبُهُ»[2].

وقال في موضع آخر:

«لا تستصغروا قليلَ الآثامِ فانّ الصغير يُحصى ويَرجِعُ الى الكبير»[3].

وقال عليه السلام ايضاً:

«ان الله تبارك وتعالى أخفى أربعةً في أربعةٍ... وأخفى سَخَطَهُ في معصيته فلا تستصغرنّ شيئاً من معصيته فربما وافق سَخَطُهُ مَعْصِيَتَهُ وأنت لا تعلمُ»[4].

النهاية المشؤومة للاصرار على المعصية

ان الاصرار على المعصية والذنب، قد يقود المرء الى حدود الكفر والالحاد، كما قال تعالى:

﴿ثم كانَ عاقبةَ الذيـن أسـاؤوا السّـوأى أن كـذّبوا بآيـاتِ الله وكـانوا بهـا يَسْتَهزِئونَ﴾[5].

---

(١) آل عمران / ١٣٥.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص٥٥٩.

(٣) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧، ص٣٥١، ح ٤٧.

(٤) خصال الصدوق، ج١، ص١٩٨، ح٢٦.

(٥) الروم / ١٠.

لماذا هي هكذا عاقبة الاصرار على الذنب؟

وذلك لأن الاصرار على الذنب والمعصية يؤدي الى فساد القلب. فالذنب كالسمّ الزعاف الذي لو لم يعالَج فوراً لمزّق أحشاء الانسان بأسرها وأهلكه.

يقول الامام الصادقعليه السلام:

«كان أبيعليه السلام يقول: ما مِن شيء أفسَدَ للقلب من خطيئةٍ. إن القلبَ ليُواقعُ الخطيئةَ فما تزالُ بِهِ حتى تَغْلِب عليه فتُصَيِّرُ أعلاهُ أسْفَلَه»[١].

وهذا معناه ان القلب ملكوتي بالطبع ومقبل على الله، إلاّ انه يتغيّر بفعل المعصية والخطيئة فيصبح ناسوتياً وشيطانياً.

ويقول الامامُ الصادقعليه السلام أيضاً:

«انّ الرجل يُذْنِبُ الذنب فَيُحْرَمُ صلاةَ الليل، وانَّ العمل السيئَ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»[٢].

ويقول المرحوم النراقي: ولا يتوهم أحد انه يمكن ألّا يصل اليه أثر الذنب ووباله، فانّ هذا محال. فانه لم يتجاوز عن الاشياء في تركهم الأولى فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي. نعم كانت سعادتهم في الاولى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا اثماً[٣].

وورد أنّ الامام الصادقعليه السلام قال:

«اذا أراد الله عزَّ وجل بعبدٍ خيراً عجَّلَ له عُقوبتَهُ في الدنيا و اذا ارادَ بعبدٍ سوءاً أمسك عليه ذنوبهُ حتى يوافي بها يوم القيامة»[٤].

ويوحي هذا الكلام بمضمون الآية الكريمة:

﴿ولا يَحسبنَّ الذين كفروا أنما نُملي لهم خَيرٌ لأنْفُسِهم انَّما نُملي لهُم لِيزدادوا اثماً وَلهُم

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص٢٦٨. باب الذنوب، ح ١.

(٢) نفس المصدر، ص٢٧٢، ح١٦.

(٣) جامع السعادات، ج ٣، ص٤٨.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٥.

عذابٌ مُهينٌ﴾[١].

معيار صغر وكبر المعصية

اتّضح لنا مما سبق انّ صغر المعصية أو كبرها متأثر بعاملين: القبح الفعلي، والقبح الفاعلي. كما اتضح لنا انّ جميع الذنوب والمعاصي الكبيرة من حيث كونها كبيرة، ذات مفسدة مشتركة ومتشابهة. كما انّ المعاصي الصغيرة هي الاخرى ذات قدر مشترك ايضاً. ولما كنّا جاهلين الى حد ما بحدود المفاسد والمصالح الموجودة في متعلقات وموضوعات الأحكام، فلابدّ من وجود معيار يمكن على ضوئه تمييز المعصية الكبيرة عن الصغيرة.

وقدّم كل واحد من كبار رجال الفقه والاخلاق معلومات وآراء مفيدة وقيّمة بهذا الشأن جديرة بالاهتمام والدراسة. غير انّ أفضل معيار يمكن التعويل عليه في تحديد المعصية الكبيرة وتمييزها عن الصغيرة هو المعيار الذي قدمه المعصومون عليهم السلام والذي يتلخص في انّ المعصية الكبيرة هي تلك المعصية التي ورد التشديد في منعها، وهُدِّد مرتكبها بنار جهنم على لسان الباريء تعالى أو لسان الرسول صلى الله عليه وآله. فما تُعدّ كل معصية اخرى، صغيرة.

وفضلاً عن هذا المعيار، أوردت بعض الروايات بعض الذنوب والمعاصي بالاسم مشيرةً اليها ككبائر. كما تحدثت روايات اخرى عن الموبقات السبع او الموجبات السبع[٢].

---

(١) آل عمران / ١٧٨.

(٢) عن ابن محبوب قال: كتب معي بعض أصحابنا الى الامام موسى بن جعفر (ع) يسأل عن الكبائر كم هي وما هي، فكتب: «الكبائرُ مَنِ اجتنبَ ما وَعَدَ الله عليه النارَ كفَّرَ عنه سيئاته اذا كان مؤمناً. والسَّبْعُ الموجباتُ: قَتْلُ النفسِ الحرامِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وَأكلُ الرِّبا، والتَّعرُّبُ بَعدَ الهجرةِ، وقَذفُ المُحصَناتِ، وَأكلُ مالِ اليتيمِ، والفرارُ مِنَ الزَّحفِ».. (اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٦).

والتعرب بعد الهجرة معناه العودة الى البداوة والابتعاد عن المراكز الدينية والعلمية بحيث لا يصبح بمقدور المرء أداء واجباته الدينية ويفقد ثقافته واخلاقه الدينية تدريجياً.

وهناك اختلاف حول عدد الكبائر: قال بعضهم انها سبع، وقال آخرون انها سبعون، وذهب غيرهم الى انها سبعمائة.

ويذهب الشهيد الثاني في اللمعة[1] الى انّ المعصية الكبيرة هي تلك التي نُهي عنها في الكتاب او السنة بشكل خاص وهُدِّد مرتكبها بالعذاب. ويرى ايضاً انّ العدد سبعمائة أقرب الى الواقع. ومن الكبائر التي ذكرها بـالاسم هـي: القـتل، والزنا، واللواط، والقيادة، وشرب المسكرات، والسرقة، وقذف المرأة العـفيفة، والفرار من الزحف، وشهادة الكذب، وعقوق الوالدين، والأمن من مكـر الله ، واليأس من رحمة الله، وغصب اموال الناس، والغيبة، وقـسم الكـذب، وقـطع الرحم، وأكل مال اليتيم، والبخس في البيع، وتأخير الصلاة عن وقتها، والكذب لاسيا على الله ورسوله، وضرب المسلم بدون مجوز شرعي، وكـتمان الشهـادة، والرشوة، والسعاية على المسلم لدى الظالم، ومنع الزكاة، وتأخير الحج عن اول استطاعة بدون عذر، وأكل لحم الخنزير والميتة، والمحـاربة وايجـاد اللاأمـن في الشوارع، والسحر. ويؤكد الشهيد الثاني على انّ جميع هـذه الذنـوب، قـد ورد تهديد فيها من قبل الشارع المقدس[2].

وأورد المجلسي صاحب البحار في كتاب مرآة العقول ما يلي:

«أقول: قد أحصى والدي قدس سرُّه في بعض مؤلّفاته ما يستنبط من الاخبار

---

(١) كتاب القضاء والشهادات.

(٢) يمكن الرجوع بهذا الشأن الى كتب الأحاديث والاخلاق والتفاسير، وكذلك الى الكتب الفقهية في باب عدالة امام الجماعة والقاضي والمجتهد والشاهد. مثل: وسائل الشيعة، ج٦، ص ٢٥١؛ بحـار الأنوار، ج ٨٥، ص ٢٥، باب الجماعة: مرآة العقول، ج ١٠، ص ٦٧؛ اصول الكافي، ج ٢؛ جامع أحاديث الشيعة، ج ١٣، ص ٣١٩؛ مجمع البيان، ج ٣و ٤، تفسير سورة النساء؛ تفسير الميزان، ج ٤، ص ٣٤٤؛ تفسير المنار، ج ٥؛ احياء علوم الديـن، ج ٤، ص ١٦؛ المـحجة البـيضاء، ج ٧، ص٢٨؛ جامع السعادات، ج٣، ص ٧٣؛ جواهر الكلام، ج ١٣، ص ٢٧٥، كتاب القضاء، و ج ٤٠، ص ١١١، و ج٤١، ص ٢٥ـ٢٦؛ كتاب القضاء للمرحوم الحاج ملا علي كني، ص ٢٨٤ (تـناول المؤلف هذا الموضوع بشكل تحقيق رائع)؛ شرح اللمعة، ج ١؛ مكاسب الشيخ مرتضى الانصاري؛ مكاسب الامام الخميني قدس سره، وسائر الكتب الفقهية.

المختلفة أنّها من الكبائر فمنها الشرك، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، والقذف، وأكل مال اليتيم بغير حقّ، والفرار من الزحف، والرّبا، والسّحر، والكهانة، والزنا، واللّواط، والسّرقة لاسيّما من الغنيمة، والحلف كاذباً، وترك الفرائض: الصّلاة والزكاة وصوم شهر رمضان وتأخير الحجّ عن سنة الاستطاعة بغير عذر، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وشرب الخمر بل كل مسكر، ونكث الصفقة ونقض العهد مع الله ومع الخلق، وقطع الرحم، والتعرّب بعد الهجرة، والكذب على الله وعلى رسوله وعلى الائمّة عليهم السلام، والغيبة، والبهتان وقيل: ترك جميع السنن[1] ومنع الزيادة من الماء السابلة مع حاجتهم وعدم حاجته، وعدم الاحتراز عن البول، والتسبّب الى سبّ الوالدين، والاضرار في الوصيّة[2]، وسخط قضاء الله والاعتراض على قدره على قول فيهما، والتكبّر والحسد وعداوة المؤمنين والالحاد في الحرم وفي المدينة والنمّ وقطع عضو مؤمن بغير حقّ وأكل الميتة وسائر النجاسات، والقيادة، والاصرار على الصغيرة، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، على احتمال وكذا الكذب، وخلف الوعد والخيانة، ولعن المؤمنين وسبّهم وايذاؤهم بغير سبب، وضرب الخادم زائداً على ما يستحقه، ومانع الماء المباح عن مستحقّه، وسادّ الطريق المسلوك، وتضييع العيال والتعصّب، والظلم والغدر، وكونه ذا لسانين، وتحقير المؤمنين وتجسّس عيوبهم وتعييرهم والافتراء عليهم وسبّهم وسوء الظن بهم وتخويفهم، وبخس المكيال والميزان، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجلوس في مجالس الفسّاق لاسيّما شرب الخمر بغير ضرورة، والبدعة في الدين، والجلوس مع أهلها، وتحقير السيّئة والقمار وأكل الحرام، فمن الأمر بالمنكر الى هنا احتمال كونها كبيرة

---

(١) لأنّ ترك جميع السنن يوجب عدم الاعتداد بها.

(٢) كما لو اوصى بدين او مال لا وجود له في حقيقة الامر، وكان هدفه من ذلك الحاق الضرر بالورثة واضاعة حقوقهم. وهو ما يشير اليه مضمون الآية ٢ من سورة النساء.

والله يعلم[١].

فاذن عدد الكبائر ليس واضحاً، ولعله يراد بهذا الابهام خلق حالة الخوف والحذر من جميع الذنوب، مثلما نلاحظ ما يعكسه غموض ليلة القدر من آثار ايجابية على المسلمين، فنشاهد مبادرتهم الى احياء العديد من ليالي شهر رمضان والانشغال في العبادة بها على امل ادراك ليلة القدر العظيمة.

تنويه:

اعلم ان الطريق الافضل لاكتساب الفضائل النفسانية هي مخالفة الهوى وترك المعاصي والآثام. فالاسلام وفي ذات الوقت الذي منع ارتكاب المعصية، حذّر حتّى من مغبة التفكير فيها أيضاً، لأنّ التفكير في المعصية يكدّر صفاء القلب ونقاءه، ويضغط على الانسان لارتكاب تلك المعصية.

وقال الامام علي عليه السلام في ذلك:

«مَنْ كثُر فِكْرهُ في المعاصي دَعتْهُ اليها»[٢].

وقال كذلك:

«خَوْضُ الناسِ في شَيءٍ مُقَدِّمَةُ الكائِنِ»[٣].

وكان المسيح عليه السلام يخاطب أصحابه:

«ان موسى أمَرَكُم أنْ لا تَزْنُوا وأنا آمُرُكُمْ أنْ لا تُحَدِّثوا أنفُسَكُم بالزِّنا فضلاً عن أن تزْنُوا فانّ مَنْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بالزِّنا كانَ كَمَنْ أوْقَدَ في بيتٍ مُزَوَّقٍ فَأَفْسَدَ التزاويقَ الدخانُ وإنْ لم يحترِقِ البيتُ»[٤].

فالمحرّمات كثيرة، ولابدّ لمن يريد التخلق بالأخلاق الكريمة والسلوك اليه

---

(١) مرآة العقول، ج ١، ص ٦٣ـ ٦٤، ط اسلامية.

(٢) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ١٢٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٣١٤.

(٤) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ١٤، ص ٣٣١.

سبحانه ان يتخلى عنها ويتركها، ونحن في ذات الوقت نكتفي بالاشارة الى بعضها. ولما كان اكثر المعاصي يتم بواسطة اللسان، فلابد لنا أن نستعرض في بادئ الأمر الآفات العامة العارضة للّسان، ثم نسلط الضوء على خصوصيات بعض المعاصي التي يرتكبها الانسان من خلال لسانه كالغيبة، والسخرية، والنميمة، والحسد. مع الاشارة احياناً الى عوامل المعصية بايجاز، ثم نشير فيما بعد الى بعض المحرّمات والمعاصي الاخرى التي لابد للسالك الى الله أن يتجنبها.

جرائم وآفات اللسان

يُعدّ هذا البحث من المباحث المهمة وذلك لأنَّ جرائم اللسان وآفاته تفوق في واقع الأمر فوائده ونعمة بيانه. وكما لا توجد عبادة عند الله أفضل من الكلام الحق، كذلك ليس هناك ذنب أعظم من الكلام الباطل. وهناك الكثير من الموضوعات القيّمة والرائعة في تعاليم السماء وكلمات الحكماء حول آفات اللسان، ليس بوسعنا استعراضها جميعاً، وانما نشير الى بعضها بايجاز.

ولابد لنا وقبل الدخول الى صلب الموضوع، من تقديم كلام موجز عن اهمية نعمة البيان.

نعمة البيان

تعد نعمة البيان جزءاً من أهم النعم الالهية التي حبا الله بها الانسان. ويعتبر الحكماء والفلاسفة المنطق مظهر التفكير والتعقّل، ويعتبرونه الفصل المميز للانسان. ولكننا نعلم انّ المنطق ليس صفة خاصة بالانسان، لأنّ الكثير من الحيوانات تتمتع بهذه النعمة أيضاً، وهي تعبّر عما تريد بالأصوات الخاصة التي لديها. وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة حينما قال:

﴿وَوَرِثَ سليمانُ داوُدَ وقال يا أيُّها الناسُ عُلِّمنا مَنْطِقَ الطيرِ وأوتينا مِنْ كل

شيء انَّ هذا لَهُوَ الفضلُ المبين﴾[١].

وقال علي عليه السلام لابن عباس:

«انَّ الله عَلَّمنا منطقَ الطيرِ كما عَلَّمَ سليمانَ بنَ داوُدَ منطقَ كل دابةٍ في بَرٍّ وبَحرٍ»[٢].

وقد تحدث القرآن الكريم عن منطق النمل قائلاً:

﴿حتّى اذا أَتَوْا على وادِ النَّملِ قالتْ نملةٌ يا أَيُّها النَّملُ ادْخُلُوا مساكِنكمْ لا يَحطِمَنَّكُمْ سُليمانُ وجنودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾[٣].

وبكلمة، كل شيء له نمط من المنطق والكلام، حتى انّ القرآن الكريم يقول بمنطقٍ للموجودات كافة، بل ويصرح بأنّ الأعضاء والجوارح تشهد في يوم القيامة بما ارتكبته من أعمال في الدنيا، فيعترض أصحابها عليها ﴿لم شهدتم علينا؟﴾ فتجيب:

﴿... أَنْطَقَنا الله الذي أنطَقَ كُل شيءٍ...﴾[٤].

المنطق لغوياً

أشارت كتب اللغة الى انّ المنطق ليس خاصاً بالانسان فقط. فيقول ابن منظور:

«... والمنطق الكلام... وكلام كل شيء منطقه ومنه قوله تعالى: ﴿عُلِّمنا منطقَ الطيرِ﴾».

وقال بعد ذلك نقلاً عن «ابن سيده» وهو أحد علماء الأدب:

---

(١) النمل / ١٦.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٨١. لمزيد من الاطلاع حول منطق الحيوانات والطيور، راجع: تفسير القرطبي، ج ١٣، ص ١٦٥و ١٦٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٧ فما بعد. ويشير علم الحيوان الى وجود الاصوات والمنطق لدى الحيوانات.

(٣) النمل / ١٨.

(٤) فصلت / ٢١.

«وقد يُستعمل المنطق في غير الانسان كقوله تعالى: عُلِّمْنا منطقَ الطير»[1].

وصفوة الحديث هي انه وعلى ضوء الآيات والأحاديث والبحوث التي جرت على صعيد الحيوانات، لا مجال للشك في انّ المنطق ليس خاصاً بالانسان، وانما نجده حتى لدى الطيور، والنمل، وبعض الحيوانات من خلال اطلاقها لبعض الألفاظ والأصوات من حناجرها. ويضم العُرف واللغة صوتهما مؤيدين وجود حالة النطق لدى هذه المخلوقات.

ملاحظة:

رغم انّ الفلاسفة يعتبرون المنطق في الانسان مظهر التعقل والتفكير والفصل المميز للانسان، إلّا انّ من الأجدر ان نختار البيان بدلاً من المنطق كما تعلّمنا من مدرسة الوحي اذ قال تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان﴾، اذ توجد في مفردة البيان خصوصية غير موجودة في المنطق. فالبيان بمعنى الاظهار، ولذلك سُمي منطق الانسان بـ«البيان» لأنه قادر على ان يُظْهِر ويعبّر عن كل ما في ضميره وباطنه بواسطة المنطق والكلام. وهذا يكشف عن قوة التعقل والتفكير لديه اذ لولا قوة العقل والتفكير لما أفلح في الكشف عن جميع رغباته وحاجاته، ولما كان بامكانه تنظيم مشاعره وتجاربه بصورة موضوعات مرتبة وقابلة للادراك من قبل الآخرين. وهذا معناه انّ القوة العاقلة تمثل أساس وقاعدة المنطق والبيان في الانسان. وهذه العلاقة هي من التماسك والشدة بحيث لو طرأ ادنى اختلال على جهاز القوة العاقلة ـ أي دماغ الانسان ـ لانعكس ذلك بشكل سريع على قوة النطق والبيان أيضاً. وكلما كانت قوة التفكير اكثر انسجاماً، كانت قوة البيان اكبر ونوعيتها اكثر صقلاً وتنظيماً.

اذن فالبيان يحظى بالأهمية من جانبين:

١ ـ انه كاشف عما في ضمير الانسان. أي بمقدوره ان يترجم ما يدور في باطنه

(١) لسان العرب، ج ١٤، ص ١٨٨.

بواسطة البيان. ومن المؤكّد انَّ الحيوانات تعوزها مثل هذه القابلية.

٢ ـ انه كاشف عن قوة التعقل والتفكير القائمة في الانسان. ولذلك ليس اعتباطاً ان يشير تعالى الى تعليمه للبيان بعد تعليم القرآن وخلق الانسان:

﴿الرحمنُ عَلَّمَ القرآنَ خَلَقَ الانسانَ عَلَّمَهُ البيان﴾[1].

وورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله:

« ألا انّ اللسانَ بِضْعَةٌ من الانسان، فلا يُسعده القول اذا امتنعَ ولا يُمهِلُهُ النطقُ اذا اتَّسَعَ. وانّا لأُمراءُ الكلامِ وفينا تَنَشَّبَتْ عُروقُهُ، وعلينا تَهَدَّلَتْ غصونُه. واعلموا ـ رحمكم الله ـ أنَّكُم في زمانٍ القائلُ فيه بالحق قليلٌ، واللسانُ عن الصدق كليلٌ واللازمُ للحق ذليلٌ...»[2].

وهكذا يتضح أنّ نعمة البيان اعظم النعم بعد تعليم القرآن وخلق الانسان. لذا لابد للانسان أنْ يعلم قدر هذه النعمة ويشكر الله تعالى عليها، رغم انّه عاجز عن شكر هذه النعم لأنها نعم كثيرة لا تُحصى: كما قال تعالى:

﴿وانْ تعُدّوا نعمةَ الله لا تُحصوها﴾[3].

وما أروع ما قيل:

لو تحولتْ كل شعرة لديّ الى فم
ولو كان لكل فمّ سبعمائة لسان
ولو تحدث كل لسان بسبعمائة لغة
شكراً لك وثناءً عليك،
فهل أنا قادر على شكرك
يا مْن انت ما وراء الكم والكيف؟
فما هي النعمة التي أشكرها؟

---

(١) الرحمن / ١ ـ ٤.

(٢) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ٢٢٤.

(٣) ابراهيم / ٣٤؛ النحل / ١٨.

وما هي الرحمة التي أذكرها؟
فهل هناك نَفَس لا يأتيني فيه منك مائة عطاء؟
وهل هناك ساعة لا تصدر فيها مني مائة معصية؟
فأين هو الفم واللسان والكلام
كي أُحصي تلك النعم العظام؟[١]

الجانبان الايجابي والسلبي للّسان

قلنا انّ نعمة اللسان والبيان تتميز بميزة خاصة، ولكن يجب عدم تجاهل انّ اللسان ذو حدّين ايجابي وسلبي، وليس بمقدور أحد أنْ يقول بما أنّ اللسان نعمة الهية عظمى، لهذا لابدّ من استخدامه بكل ما في وسعنا ونتحدث بواسطته كل ما يحلو لنا من حديث. كلا، بل لابد من استخدامه في ما هو ضروري ومفيد.

الكلام أفضل عبادة وأقبح معصية

قال علي عليه السلام:

«... فليس على الجوارح عبادةٌ أخَفَّ مَؤونَةً وأفضلَ منزلةً وأعظمَ قَدراً عند الله من الكلام في رضا الله ولوجهه ونَشرِ آلائهِ ونَعمائِهِ في عبادِهِ. ألا ترى أنَّ الله عزَّ وجل لم يَجعلْ فيما بَينهُ وبينَ رُسُلِهِ مَعنىً يكشفُ ما أسرَّ اليهم من مكنوناتِ عِلمِهِ ومَخزوناتِ وَحيِهِ غَيرَ الكلامِ وكذلك بينَ الرسلِ والامم، فَثبتَ بهذا أنّهُ أفضلُ الوسائل وألطفُ العبادة، وكذلك لا معصيةَ أثقلَ على العبد وأسرعَ عُقوبةً عند الله وأشدّها ملامَةً وأعجَلَها سَأمةً عند الخلقِ مِنهُ»[٢].

أمارة العقل

ومن أمارات الانسان العاقل انه لا يتحدث أساساً عبثاً وبلا معنى، لأنّ

---

(١) ترجمة عن طاقديس، ص ١١٥ و ٣٣١.

(٢) مصباح الشريعة، الباب ٤٦.

اللسان كاشف عن مقدار ما يتمتع به الانسان من عقل. وقد قال أمير المؤمنين عليﷺ:

«تكلّموا تُعرَفُوا، فانّ المرءَ مخبوءٌ تحت لسانه»(١).

وعبّر جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة بلغة الشعر الفارسي، فقال:

الانسانُ مختبئٌ خلف اللسان
اللسانُ ستارةٌ على باب الروح
حينما تُزيحُ الريحُ الستارة
ينكشف كل ما في صحن الدار(٢)

وقال عليﷺ ايضاً: «المرءُ مخبوءٌ تحت لسانِهِ»(٣).

او كما قال الشاعر:

ما لم يتكلم المرء
يبق خافياً عيبُهُ وفنُّه

فالانسان العاقل على أي حال، يفكّر أولاً ثم يتحدث.

وقال امير المؤمنين عليﷺ:

«لسانُ العاقل وراءَ قلبِهِ، وقلبُ الأحمقِ وراء لسانه»(٤).

ويعلق السيد الرضي حين نقله لهذه العبارة في نهج البلاغة بأنها من الكلمات العجيبة والقيّمة للامام عليﷺ، ويريد بها ان الانسان العاقل لا يتحدث قط قبل التفكير والتشاور، بينما ينطلق لسان الأحمق في الحديث قبل أن يفكّر أو يتريّث في الأمر.

وهكذا نرى انّ لسانَ العاقل يجري وراء قلبه ويصدر عنه، بينما يتبعُ قلبُ الأحمقِ لسانَه. ونرى هذا المضمون ايضاً في عبارة اخرى للامام تقول:

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٣٩٢؛ فيض الاسلام، الحكمة ٣٨٤.

(٢) ترجمة عن ابيات لمولانا جلال الدين الرومي.

(٣) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ١٤٠.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٤٧٦، الحكمة ٤٠.

«قلبُ الأحمقِ في فيه ولسانُ العاقِلِ في قلبهِ»[١].

وله كلامٌ مماثلٌ في موضع آخر:

«... وانَّ لسانَ المؤمنِ مِن وراءِ قلبهِ وانَّ قلبَ المنافقِ من وراءِ لسانهِ لأنَّ المؤمنَ اذا أراد أن يتكلمَ بكلامٍ تدبَّرَهُ في نفسه فان كانَ خيراً أبداهُ وان كان شرَّاً واراه، وانّ المنافقَ يتكلمُ بما أتى على لسانهِ لا يدري ماذا لهُ وماذا عليه. ولقد قال رسولُ اللهﷺ: لا يستقيمُ ايمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبهُ ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانهُ ...»[٢].

اذن لابد للانسان من التفكير والتروّي قبل اطلاق العنان للكلام وألّا يتحدث حديثاً اعتباطياً وعقيماً، لأنه لو أطلق العنان للكلام ولم يسيطر عليه، لنجمت عنه عواقب وخيمة وأدى الى حدوث نتائج غير مطلوبة.

ويقول الشاعر سعدي ما مضمونه:

الخطيبُ المتربي والمرشد القديم
يفكّر أولاً ثم يتحدث
فلا تتحدث قبل التفكير
قل خيراً، فما هو الضرر في التأخير؟
فكّر ثم انطق
واصمت قبل أن يقولوا كفى!
بالنطق، الانسانُ أسمى من الدواب
وهي أسمى منك اذا لم تنطق بالصواب[٣]

فالكلام تحت هيمنة الانسان ما لم ينطق به، فاذا نطق به صار تحت هيمنة الكلام، وعبّر الامام عليعليه السلام عن هذه الحقيقة حينما قال:

---

(١) نفس المصدر، الحكمة ٤١.

(٢) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٧٥.

(٣) ترجمة عن «گلستان» سعدي، ص ١٣.

«الكلامُ في وثاقك ما لم تتكلم به فاذا تكلمتَ به صِرتَ في وثاقِهِ، فاخزن لسانكَ كما تخزُن ذهبكَ وورقكَ فرُبَّ كلمةٍ سلبَت نعمةً وجلبَت نقمة»[1].

وقد أوصى لقمانُ ابنه:

«يا بُنيَّ قد ندِمتُ على الكلامِ ولم أندم على السُّكوتِ»[2].

ويقول الشاعر العربي:

ما أن ندمتُ على السكوتِ مرةً ولقد ندمتُ على الكلامِ مِرارا

يقول شاعر آخر:

الكلامُ وان كانَ جذاباً في كل لحظة
إلّا انَّ الصمتَ اكثر جاذبيةً منه
اغلاقُ الفمِ، اغلاقٌ لباب الفتنة
والجميلُ محمَّلٌ بالجميل والقبيح
فما اكثر النادمينَ على الكلام
ولم يندم أحدٌ على الصمت
الصدف أصبح بائعاً للجواهر (أي مرتباً لها في بطنه)
لأنّه صار سمعاً كله (لأنه بصورة الأذن)[3]

ملاحظات حول الصمت

ورد في بعض الأحاديث ان الصمت افضل من الكلام:

١ ـ قال رسول الله ﷺ:

«نجاةُ المؤمنِ في حفظِ لسانهِ»[4].

٢ ـ وقال ﷺ أيضاً:

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٣٨١.

(٢) المحاسن والمساوئ، البيهقي، ج ١، ص ١٦٦.

(٣) كشكول الشيخ البهائي، ج ١، ص ٧٥. (ترجمة عن شعر فارسي).

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١١٤، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ٩.

«مَن صمتَ نجا»[١].

٣ ـ قال الامام الصادقعليه السلام:

«قالَ لقمانُ لابنهِ: يا بُنيَّ! ان كنتَ زعمتَ أنّ الكلامَ مِن فِضةٍ فانَّ السُّكوتَ مِن ذهبٍ»[٢].

٤ ـ قال الرسول محمدصلى الله عليه وآله:

«مَن سرَّهُ أن يسلَمَ فليلزَم الصمتَ»[٣].

٥ ـ سأل أحدهم رسول اللهصلى الله عليه وآله قائلاً: أخبِرني عن الاسلام بأمرٍ لا أسألُ عنه أحداً بعدك؟

فقال الرسولصلى الله عليه وآله: «قل آمنتُ بالله، ثم استقم».

فسأل ذلك الرجل: فما أتّقي؟

فأومأ الرسولُصلى الله عليه وآله بيدهِ الى لسانهِ[٤].

شعارُ أهل التحقيق

تحدث الامام الصادقعليه السلام عن فوائد الصمت قائلاً:

«الصمتُ شعار المحققين بحقائق ما سبق مما جفَّ القلم به ولا يُقرأ في كتاب» ثم عدّ آثاره وهي:

١ ـ مفتاحُ كلِّ راحة من الدنيا والآخرة،

٢ ـ وفيه رضى الله،

٣ ـ وتخفيف الحساب،

٤ ـ والصون من الخطايا والزلل،

٥ ـ وقد جعله الله ستراً على الجاهل وزيناً للعالم،

٦ ـ ومعه عزلُ الهوى،

---

(١) الحقائق في محاسن الأخلاق، ١٣٧٨ هـ، ص ٦٥.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١١٤؛ الحقائق في محاسن الاخلاق، ص ٦٦.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٣.

(٤) نفس المصدر، ص ١٩٢.

٧ ـ ورياضةُ النفس،
٨ ـ وحلاوةُ العبادة،
٩ ـ وزوالُ قسوةِ القلبِ،
١٠ ـ والعَفاف،
١١ ـ والمروءة،
١٢ ـ والظرف.

ومضى الامام الصادق عليه السلام في حديثه الى ان قال:

«... وانما سببُ هلاكِ الخلقِ ونجاتهم: الكلامُ والصمتُ، فطوبى لِمن رُزقَ معرفة عيب الكلامِ وصوابِهِ وعلم الصمتِ وفوائده فانَّ ذلك مِن أخلاقِ الأنبياءِ وشعارِ الأصفياءِ، ومَن علِمَ قدر الكلامِ أحسنَ صُحبةَ الصمتِ، ومَن أشرفَ على ما في لطائف الصمتِ وائتمنه على خزائنه كان كلامُه وصمتُه كلّه عبادة ولا يطّلع على عبادته هذهِ إلّا الملكُ الجبّارُ»[1].

توضيح ضروري وملاحظة هامة

لابد من الاشارة الى انّ الهدف الأساسي من أحاديث الصمت ليس أن يختار المرء الصمت دائماً أو لا يتحدث ببنت شفة، أو يتخذ من الصمت شعاراً حتى حينما يتطلب الأمر احقاق حقّه وحقوق الآخرين، أو يغلق فمه غير مدافع عن نفسه، بل الهدف هو السكوت عن الكلام الفاسد والفضولي. لأننا لو فسّرنا هذه الأحاديث هكذا، فمن الواضح انه تفسير متعارض مع الشرع الاسلامي الذي يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الواجبات، والسكوت أمام الظالم معصية كبرى. فلو كان الصمت اسلوباً في التعامل مع المفاسد وصور الجور والظلم والانتهاك للحرمات والحقوق، لعرّض هذا الاسلوب كيان الاسلام للخطر. ولذلك يأمر الاسلام بكسر طوق الصمت في مثل هذه الاوضاع والصراخ بوجه الظالم ودعوة الناس للتصدي للفساد والظلم، وذلك لأنك:

---

(١) مصباح الشريعة، الباب ٤٦.

لو شاهدتَ الأعمى والبِئرَ
ولم تصرخ ولم تُنبّه فأنتَ مُذنِبٌ

ومن الواضح، انَّ الصامتين في مثل هذه الأحوال، متجاهلون لمبدأ قرآني صريح وثابت، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي يُعد من أهم الفرائض. وأكّدت عليه الآيات القرآنية وأحاديث أهل البيت عليهم السلام، وذمّت التاركين له ووصفتهم بعدم المبالاة بالدين واعتبرتهم مستوجبين للغضب الالهي.

كما قال النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله:

«ان الله عزّ وجل لَيُبغِضُ المؤمنَ الضعيفَ الذي لا دينَ له، فقيل: وما المؤمنُ الضعيفُ الذي لا دينَ له؟ قال: الذي لا يَنهى عن المنكرِ»(١).

فلو كان لابد للانسان أن يصمت دائماً وان لا يعترض على منكر ولا على عمل قبيح، لما قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«ويلٌ لقومٍ لا يَدينُونَ الله بالأمرِ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكرِ»(٢).

فمن المؤكّد لو تعطّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما قامت أية فريضة من الفرائض. وقد قال الامام الباقر عليه السلام:

«انَّ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ فريضةٌ عظيمةٌ بها تُقامُ الفرائضُ»(٣).

ويقول الامام علي عليه السلام حول الأمر بالمعروف ومجابهة المنكرات:

«... وأفضلُ من ذلك كُلِّهِ كلمةُ عدلٍ عند امامٍ جائرٍ»(٤).

وصفوة الكلام هي ان الأحاديث اذا كانت قد تحدثت عن فضيلة الصمت والسكوت، فالمراد به الصمت عن الكلام التافه وغير المناسب، والسكوت عن الغيبة والتهمة والكذب واللغو والزور.

ففي مثل هذه الحالات لابد للانسان من السيطرة على نفسه، واختيار الصمت:

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٩٧.
(٢) نفس المصدر، ص ٣٩٣.
(٣) نفس المصدر، ص ٣٩٥.
(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٣٧٤.

«الصمتُ أليقُ بالفتى من منطقٍ في غيرِ حينِهِ»[١].

وتُرجِّح بعضُ الأحاديث الكلامَ الذي لا آفة له على السكوت:

سُئِل الامام السجادﷺ عن الكلام والسكوت أيهما افضل؟ فقال: «لكل واحد منهما آفاتٌ فاذا سلِما من الآفاتِ فالكلامُ أفضل من السكوتِ. قيل: كيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ما بعثَ الأنبياءَ والأوصياءَ بالسكوتِ انّما بعثَهُم بالكلامِ ولا استُحِقَّتِ الجنةُ بالسكوتِ ولا استُوجبَت ولايةُ الله بالسكوتِ ولا تُوقِّيَتِ النارُ بالسكوتِ انما ذلك كُلّه بالكلامِ، وما كنتُ لأعدِلَ القمرَ بالشمسِ، انك تصفُ فضلَ السكوتِ بالكلامِ ولا تصفُ فضلَ الكلامِ بالسكوتِ»[٢].

وقال رسول اللهﷺ:

«رَحِمَ الله عبدَاً قالَ خيراً فغَنِمَ أو سكتَ عن سوءٍ فسَلِمَ»[٣].

وجاء في حديث عن الامام علي بن موسى الرضاﷺ:

«مِن علامات الفِقهِ الحِلمُ والعلمُ والصمتُ، انَّ الصمتَ بابٌ من أبوابِ الحِكمةِ، انّ الصمتَ يكسِبُ المحبةَ، انه دليلٌ على كلِّ خيرٍ»[٤].

ومن خلال أمارات الصمت الواردة في هذا الحديث يتضح لنا ما المراد بالصمت، اذ ليس بامكان كلّ سكوت أن يتميز بمثل هذه القيم. وانما الصمت، السكوت عن علم وعزم.

الاستنتاج

يمكن ان نستنتج مما سبق انّ نعمة البيان ورغم كل ما تتميز به من قيمة

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة، ص ٩٦.

(٢) الحقائق في محاسن الأخلاق.

(٣) مشكاة الانوار، ص ١٧٥.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١١٣، باب الصمت وحفظ اللسان، الحديث ١١؛ تحف العقول، ص ٣٣٢ مع قليل من الاختلاف.

وأهمية، لها بُعدان: ايجابي وسلبي. وعادةً ما ينصبّ الاهتمام خلال مرحلة بناء النفس على البعد السلبي. وحينما يحقق السالك تقدماً في هذه المرحلة ويسيطر على لسانه، فلن يدور البحث حينئذ حول السكوت، بل حول الصمت، اذ لا يقال للسكوت المطلق صمت، وانما يُطلق الصمت على السكوت ذي المعنى والخاضع للسيطرة والتوجيه. لذا فالمطلوب ليس السكوت المطلق وانما السكوت الصحيح المناسب، اذ قد يجب ـ وكما ذكرنا ـ الكلام والتعبير عن الرأي والأمر والنهي في كثير من الأحيان، ويُصبح السكوتُ حراماً آنذاك.

مسؤولية اللسان

يعتقد علماء الأخلاق انّ السيطرة على اللسان أمر في منتهى الصعوبة، لأنّ في امكان بعض الناس السيطرة على أيديهم ومنعها عن توجيه صفعة للغير، والسيطرة على أرجلهم ومنعها عن الذهاب الى مكان غير مناسب أو الحركة للقيام بعمل غير جائز وهكذا، ولكن من العسير على الكثيرين السيطرة على ألسنتهم. ولذلك انبرى الأئمة المعصومون عليهم السلام للتوصية بشكل مؤكّد وجاد على حفظ اللسان من الخطأ والمعصية، اذ انّ الكثير من المعاصي والخطايا التي يرتكبها الانسان، ناشئ من عدم السيطرة على اللسان.

فقال الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله:

«انَّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»[1].

وقال علي عليه السلام:

«اللسان سَبُعٌ ان خُلِّيَ عنهُ عقرَ»[2].

ووصفه عليه السلام في كلام آخر قائلاً:

«... وليَخزُنِ الرجلُ لسانَه فانَّ هذا اللسانَ جموحٌ بصاحبه، والله ما أرى عبداً

---

(١) احياء علوم الدين، الغزالي، ج ٣، ص ١٠٨؛ كنز العمال، ج ٣، ص ٥٤٩، ح ٧٨٤١.

(٢) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٥٧.

يَتّقي تقوى تنفَعُهُ حتى يخزُنَ لسانَه ...»[١].

كما حذّر ﷺ من مغبّة عدم السيطرة على اللسان لانّها تنتهي بصاحبها الى النار: «... مَن كَثُرَ كلامُه كثُر خطَؤُهُ، ومن كثُرَ خطَؤُهُ قلَّ حياؤُه، ومَن قلَّ حياؤُه قلَّ ورَعُه، ومَن قلَّ ورعُه ماتَ قلبُه، ومَن ماتَ قلبُه دخلَ النارَ ...»[٢].

هذا كلامنا في آفات اللسان العامة، أما الآفات الخاصة فهي:

الغِيبَة

الغِيبَة، تُعَدّ من آفات اللسان ومن الذنوب الكبيرة، وهي ذكر الآخرين بما يسوؤهم في ظهر الغيب.

والغيبة بهذا التعريف العام تشمل انواع الاغتياب، والبهتان، والتهمة، والإفك[٣]، والفُحش، وحتى ذكر العيوب الظاهرة، في حين انّ لكلٍّ من هذه المفاهيم، تعريفه الخاص وأحكامه الشرعية الخاصة، ولا تُعدّ جميعها من مصاديق الغيبة المصطلحة، لذلك يُعدّ مفهوم الغيبة من وجهة النظر اللغوية مفهوماً أعمّ من الغيبة المصطلحة. ونجد الغيبة بهذا المفهوم العام في بعض الأحاديث أيضاً[٤].

الغيبة في عبارات الفقهاء

للفقهاء تعابير متنوعة في تعريف الغيبة، قد يبدو للوهلة الاولى ان ذلك ناجم عن اختلافهم في التعريف، غير انّ دراسة هذا الأمر تكشف عن انّ هذا الاختلاف في التعبير ليس بسبب الاختلاف في المفهوم وانما لتبيينه وتمييزه عن

---

(١) المصدر السابق، خ ١٧٥.

(٢) المصدر السابق، ح ٣٤١.

(٣) التهمة والبهتان أن يُنسب الى أحد ما هو خلاف الواقع، فيما يُطلق الافك على الأكاذيب الكبيرة، ويعني في الاصطلاح الشرعي، الافتراء على الله ورسوله.

(٤) مثل حديث عائشة الذي يكشف عن ادانة بيان العيب الظاهر بصفته من مصاديق الغيبة. ومضمون الحديث انها عابت امرأة بأنها قصيرة فنهاها رسول الله (ص) وقال بأن هذه غيبة لها...

المفاهيم المماثلة. بتعبير آخر: الفقهاء ليسوا في مقام تحديد الغيبة وتعريفها منطقياً كي تؤدي زيادة أو قلة القيد الى احداث تغيير ماهوي، وانما يهدفون من وراء ذكر هذه القيود، التمييز بين مصاديق الغيبة ـ بصفتها تعريفاً لفظياً ـ وبين المفاهيم المماثلة كالتهمة، والافك، والفحش، والاستهزاء، والسخرية، والاهانة، والاحتقار، والايذاء اللساني، واشاعة الفحشاء الخ ـ وهي مفاهيم قد تتداخل فيما بينها في معظم الأحيان ـ كي تتضح الاحكام الخاصة بكل مفهوم وما يترتب عليه من آثار شرعية وحقوقية.

والجدير بالذكر انّ جميع هذه المفردات، تُعَدّ من الذنوب الكبيرة، إلّا أنّ تحريمها، على علاقة بعنوانها وخصوصياتها، وليس لأنها غيبة، وتقع كل واحدة منها في درجة خاصة من المعصية ولديها انعكاساتها المتناسبة معها، فضلاً عن اختلاف كل منها فيما يترتب عليها من كفارة وتعويض. فلو تحدث أحدهم عن عيب ظاهر او معصية ظاهرة لأحد المؤمنين، فانه قد ارتكب معصية لكن ليست بصفتها غيبة وانما كتعييب واشاعة للفحشاء. أو لو لصق أحدهم بآخر ومن ورائه صفةً ليست فيه او تحدث عنه بما لا يليق، فهو مذنب وعاص بسبب ذلك الاتهام او التشنيع، لا لأنّ عمله كان غيبة.

وقد يرتكب المرء أحياناً عدة ذنوب في عمل واحد، كالغيبة، والتهمة، والتعييب، والتشنيع، والشتم، والاهانة، ولاشك في انّ معصيته اكبر ووزره أعظم. ولذلك بادر الفقهاء الى رسم حدود حكم الغيبة بعدة قيود وتعاريف من أجل تمييزها عن المفاهيم المتداخلة الاخرى، لا لتقديم تعريف منطقي كامل.

وهكذا بامكاننا القول انّ الغيبة ذات مفهوم واحد وهو المفهوم اللغوي، وقد أشار الفقهاء الى نفس هذا المفهوم من خلال العناوين والشروط الخاصة. ولكن لابد لنا أن نعلم بأنّ الفقهاء ليس لديهم رأي واحد في قضية حرمة الغيبة بجميع مصاديقها، وربما أضاف البعض قيداً للحرمة في بعض المصاديق او حذف البعض الآخر قيداً.

وتُعدّ هذه القيود من شروط الحكم لا من شروط تحقق الموضوع. أي انّ اولئك الذين اضافوا هذه القيود يعتقدون بأنّ حرمة الغيبة لا تتحقق إلّا بتحقق هذه القيود، حتى وان صدقت الغيبة. كما انها على صعيد آخر لو كانت حراماً من حيث كونها تهمة او فحشاً او ايذاءً، فلا يُعد ذلك من الغيبة.

ويمكن ايجاز القيود والشرائط التي اوردها الفقهاء كما يلي:

أ ـ تتميز الغيبة بطابع الكشف عن السر وافشائه. لذلك لا يُعد ذكر العيوب والذنوب الظاهرة غيبةً ولا يترتب عليه الذنب المترتب على الغيبة، وان كان هذا العمل ممنوعاً وحراماً لما تنعكس عنه من اهانة واشاعة للفحشاء.

ب ـ ان لا يكون العيب المذكور كذباً، أي ان يكون موجوداً لدى الشخص المستغاب، لأنه لو كان غير موجود عُدّ ذلك العمل تهمةً وافتراءً وعُدّ صاحبه مفترياً. ولاشك في انّ ذنب الافتراء أعظم من الغيبة المصطلحة وجزاءه أشد.

ج ـ أن توجد نية التعييب لدى المغتاب. لذلك لو كان الهدف من ذكر عيوب الآخرين هو حفظ مصالحهم، فلا يترتب أي اشكال شرعي عليه، وان لم يكن الجانب الآخر راضياً. فالكشف عن خصوصيات المريض لدى الطبيب، قد يسبب استياءه، إلّا ان ذلك العمل يصبّ في صالحه ويعود عليه بالنفع. كما انّ الكشف عن محاسن بعض الاشخاص للاشادة بهم، لا يُعَدّ غيبة حتى وإنْ بعث ذلك على استيائهم من افشاء ما لديهم من محاسن وخصال حميدة. ولو أدى افشاء المحاسن والكشف عنها الى الحاق الأذى بصاحبها، فلا يُعدّ ذلك العمل حينئذ عملاً صحيحاً، لكنه لا يُعدّ غيبة أيضاً، وانما يُحسب على دائرة ايذاء المؤمن، وهو عمل له حكمه الخاص به.

د ـ ان يكون الشخص المستغاب محدَّداً سواء عن طريق الاسم وسائر الاوصاف المميّزة، او عن طريق الاشارة والتلميح بحيث يفهم المستمع للغيبة هوية المستغاب من خلال ذلك التلميح. لذلك لا يُعدّ القولُ غيبةً اذا كان عامّاً ولا يحدِّد شخصاً بذاته، أو كان المستمع لا يعرفه.

هـ ـ ان يكون المغتاب مسلماً وأخاً في الدين، لذلك لا اشكال في اغتياب الكافرين والمشركين والملحدين.

و ـ ان لا يكون المغتاب متجاهراً بالفسق. وهذا معناه جواز غيبة المتجاهر بالذنب، لأنّ شخصاً كهذا لا يخشى ارتكاب الذنب أو أن يُعرف كمذنب، او أن يطّلع الناس على سلوكه المنحرف. إلّا اذا أدّى ذلك الى شيوع الفاحشة فتكون الغيبة حراماً من هذه الجهة لا من جهة الغيبة.

كان هذا مجموع القيود والشروط الملاحظة في عبارات الفقهاء وعلماء الاخلاق وحتى بعض اللغويين والتي ذكروها تبعاً للشرائط الشرعية. ومع أنّ بعض هذه الشروط لا علاقة له بتحقق المعنى اللغوي، ولكن ونظراً للشرائط الواردة في الأحاديث والمصادر الفقهية، فلابدّ من عدّها ذات تأثير على ترتّب الأحكام الشرعية. ولابد لنا بعد هذا من الاستعانة ببعض الآيات والأحاديث بهذا الشأن:

الغيبة من المنظار القرآني

لاشك في انّ الغيبة، من المعاصي الكبيرة، ويستحق صاحب المعصية الكبيرة النار كما نعلم. فقد فسّر الامام الصادق عليه السلام كلمة «كبائر» الواردة في الآية الكريمة ﴿إنّ تَجتنِبُوا كبائِرَ ما تُنهَونَ عنه نُكَفِّرْ عنكُم سيِّئاتِكُم ونُدخِلكُم مُدخَلاً كريماً﴾[١] بقوله:

«الكبائرُ: التي أوجبَ الله عزَّ وجلَّ عليها النارَ»[٢].

ونهى القرآن الكريم في عدة مواضع، بشدة عن الغيبة وحذّر منها:

﴿ويلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة﴾[٣].

﴿... ولا يَغتب بعضُكُم بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكُم أن يأكُلَ لحمَ أخيهِ ميتاً

---

(١) النساء / ٣١.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٦، باب الكبائر، ح ١.

(٣) الهمزة / ١.

فكَرِهتُمُوهُ...﴾[١].

ونستشف من هاتين الآيتين أنَّ باعث التعييب شرط في الغيبة. فقد ذُمَّت الغيبة في الآية الاولى بصفتها تعييباً وطعناً. في حين مُثِّلَت في الآية الثانية بأكل لحم الاخ في الدين. وهذا التمثيل يعبّر في الحقيقة عن انّ الغيبة قتلٌ لشخصية الآخرين؛ فكأنما يلجأ المُغتاب الى سحق شخصياتهم بالغيبة واقصائهم عن الساحة، ويتغذّى بهذا للحفاظ على توقير نفسه وتعظيمها وتعزيزها. وهكذا فالمُغتاب يقوم بانجاز عملين بواسطة الغيبة: الاول انه يريق ماء وجه الآخر؛ والثاني يحاول عن هذا الطريق كسب الوجهة الاجتماعية والموقع المرموق. أي انه يتّخذ من اغتيال شخصيات الآخرين واسطة للحفاظ على سمعته ومكانته في المجتمع. بمعنى انه يرى شخصيته تعتمد على موت الآخرين وسحقهم وتفتيت شخصياتهم!

والأمر الآخر الذي يمكن استشفافه من الآية الثانية هو حرمة الغيبة اذا كان يراد بها الشخص المسلم فقط، وهذا ما تؤكد عليه بوضوح عبارتا «بعضكم لبعض» و «لحم اخيه»، ولذلك فانها لا تشمل غير المؤمنين.

والأمر الثالث الذي بالامكان استشفافه من الآية الثانية هو انّ الغيبة لا تجد موضوعيتها إلّا اذا كان الطرف الآخر غير حاضر، اذ فضلاً عن انّ مفردة «يغتب» في الآية تدل على عدم الحضور، كذلك مفردة «ميتاً» تدلّ عليه أيضاً، لأنّ المستغاب قد شُبِّه بالميت، فكما أنّ الميت لا يستطيع ان يدافع عن نفسه مهما فُعِل به، كذلك المستغاب غير قادر على الدفاع عن كرامته وشرفه لعدم حضوره.

والأمر الرابع المستشف من تلك الآية هو انّ الكرامة التي تُهدر بواسطة الغيبة لا يمكن استعادتها كما هو الحال بالميت الذي ليس بامكانه ان يستعيد حياته. والله أعلم. فما أكثر اولئك الذين يودّعون هذه الدنيا متألمين ومنكسري الخواطر، ولا ريب في أن الوجوه تلتقي يوم القيامة، ويهبّ المتألّمون بين يدي الله مطالبين

---

(١) الحجرات / ١٢.

بحقوقهم عند الميزان والحساب. نعوذ بالله من شرّ الشيطان ومن غضب الرحمن والله تعالى لا يحب للمؤمن الجهر بالسوء من القول والإهانة بالآخرين اذ قال:

﴿لا يُحبُّ الله الجَهرَ بالسّوءِ مِنَ القولِ إلّا مَن ظُلِمَ وكانَ الله سميعاً عليماً﴾[1].

وندرك من خلال هذه الآيات انه تعالى يكره انكشاف مساوئ الآخرين واتّضاح عيوبهم للناس.

الغيبة من منظار الأحاديث

نهت الأحاديث الاسلامية عن الغيبة ايضاً نهياً جاداً وسلّطت الضوء على آثار السوء التي يمكن ان تنعكس عنها. ولابد لنا من التحدث على هذا الصعيد بشيء من التفصيل لأن الناس ـ وللأسف ـ قلما يولون اهتماماً للغيبة، وكما قال المرحوم الشهيد الثاني فانّ اغلبهم يجتهد في الصلاة، والصوم، والكثير من العبادات وكل ما هو وسيلة لقرب المقام عند الله، ويحرص على عدم ارتكاب الكثير من المحرمات كالزنا، وشرب الخمر وغيرهما، إلّا انه يبدّد معظم وقته في مجالس اللهو والكلام الباطل وينال من كرامة الاخوان في الدين، دون أن يعتبر ذلك ذنباً، وكأنّه لا يخشى مؤاخذة الله تعالى في ارتكاب مثل هذه الاعمال[2].

وصفوة الكلام هي ان عدداً كبيراً من الناس يرتكب الغيبة وكأنّه لا يعتبرها ذنباً، ناسياً انّ الغيبة تأتي على كل الاعمال الصالحة الاخرى وتنسف جميع الحسنات.

هتك حرمة المسلم أسوأ من الربا

قال الرسول محمد ﷺ:

«انّ الدرهم يُصيبُه الرجلُ من الرّبا أعظَمُ عند الله في الخطيئةِ مِن سِتٍّ وثلاثينَ

---

(١) النساء / ١٤٨.

(٢) كشف الريبة، ص ١.

زنيَة يَزنيها الرجُلُ. وأربى الربا عِرضُ الرجلِ المسلمِ»(١).

الغيبة أقبح من الزنا

روى جابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله قوله:

«ايّاكُم والغيبةَ فانَّ الغيبةَ أشدُّ من الزنا. انّ الرجلَ قد يزني فيتوبُ، فيتوبُ الله عليه، وانَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفَرُ له حتى يغفرَ له صاحبُه»(٢).

الغيبة كأكل لحم الميّت

سبق أن علمنا بأنّ القرآن الكريم يشبّه الغيبة بأكل لحم الأخ المؤمن. وقد أشارت الأحاديث الى ذلك أيضاً:

قال الرسول الاكرم محمد صلى الله عليه وآله:

«سبابُ المؤمِنِ فُسوقٌ، وقتالُهُ كُفرٌ، وأكلُ لَحمِهِ معصيةٌ، وحُرمَةُ مالِهِ كحُرمَةِ دمِهِ»(٣).

ان وصف القرآن الكريم والأحاديث للغيبة بأكل لحم الميت، هو في الواقع تأكيد على شدة هذه المعصية وفظاعتها. ولم يرد مثل هذا التعبير إلّا بشأن الغيبة فقط. فقد شُبِّه الذي يتعرض للاغتياب، بالميّت لأنه غير حاضر في مجلس الاغتياب كي يدافع عن نفسه، فتُنتَهك بالتالي حرمتُه وتُسحق شخصيته بين الناس. ولو انتُهكت حرمة شخص ما وأُريق ماء وجهه في المجتمع، فليس بامكان أي شيء ان يتدارك ذلك الانتهاك ويُعيد لذلك الشخص كرامته المهدورة، بل يبقى ناكس الرأس الى الأبد. ولذلك يُعدّ المغتاب كالذي يأكل لحم أخيه المسلم وان

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٣؛ الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٥٠٣؛ مكاشفة القلوب للغزالي، ص ١٥٦؛ الأنوار النعمانية، ص ٢٥٩؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٢٢.

(٢) كشف الريبة، ص ٦؛ المكاسب المحرمة، ص ٤٠؛ الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٥١١، ح ٢٤؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠١؛ الانوار النعمانية، ص ٢٥٩؛ جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٠٢؛ المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥١؛ احياء علوم الدين، ط بيروت، ج ٣، ص ١٤١.

(٣) اصول الكافي، ج ٩، ص ٣٥٩، باب السباب، ح ٢؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦١٠، ح ٣.

كان ميتاً، محاولاً عن هذا الطريق أن يكسب لنفسه كرامةً ومكانةً اجتماعية!

وكتب الشيخ الطبرسي في شأن نزول الآية الكريمة ﴿ولا يغتب بعضُكم بعضاً﴾ ما يلي:

«نزل في رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ اغتابا رفيقهما وهو سلمان بعثاه الى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام فبعثه الى اسامة بن زيد وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله، فقال ما عندي شيء فعاد اليهما، فقالا بخل أُسامة، وقالا لسلمان لو بعثناه الى بئر سميحة[1] لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ، فقال لهما رسول الله ﷺ: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا: يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً. قال: ظَلَلتُم تأكلون لحم سلمان وأُسامة، فنزلت الآية»[2].

وهناك روايات وأحاديث اخرى تصف الغيبة بمثابة أكل لحم المسلم الميت[3].

ونستنتج من هذا التشبيه القرآني الفريد وتأكيد الاحاديث عليه، مدى قبح هذا العمل الذي يُعدّ اسوأ ظلم يمكن ان يلحقه أخ بأخيه في الدين. ويكفي في قُبح هذا السلوك وشناعته أنّ الذئب لا يفعله مع ذئب آخر:

وليس الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ
ويأكُلُ بعضُنا بعضاً عَيانا

تبدد الحسنات

تعمل الغيبة على تبديد الحسنات وذهاب الأعمال الصالحة.

قال الامام الصادق عليه السلام:

---

(١) سميحة: بئر كثيرة الماء.

(٢) مجمع البيان، ط بيروت، ج ٩، ص ١٣٥.

(٣) لمزيد من المعلومات راجع: معراج السعادة، ص ٤٢٩؛ الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٥٠٦ و٥٠٧؛ احياء علوم الدين، ط بيروت، ج ٣، ص ١٤٢؛ كشف الريبة، ص ٣.

«الغيبةُ حرامٌ على كلِّ مسلمٍ وانّها لتأكُلُ الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحطَبَ»[١].

قد يبدد الانسانُ احياناً بغيبة يرتكبها كلَّ ما لديه من حسنات وعمل صالح، وتُكتَب تلك الحسنات في كتاب من اغتابه. وهذه حقيقة يتحدث عنها الحديث التالي:

قال رسول الله ﷺ: «يؤتَى أحَدُكم يومَ القيامة فيوقَفُ بين يدي الله تعالى ويُدفَعُ اليه كتابُهُ، فلا يَرى فيه حسناتِه، فيقولُ: الهي هذا كتابي فانّي لا أرى فيه طاعتي؟ فيقولُ لهُ: انّ ربَّك لا يضلُّ ولا يَنسى وذهب عمَلُكَ باغتيابِ الناس، ثم يؤتَى بآخَر ويُدفَع اليه كتابُه فيرى فيه طاعاتٍ كثيرة، فيقولُ: الهي ما هذا كتابي فاني ما عملتُ هذه الطاعات؟ فيقولُ له: انَّ فُلاناً اغتابَكَ فَدُفِعَت حسناتُهُ اليكَ»[٢].

المغتاب خارجٌ من ولاية الله

قال الامام الصادق عليه السلام:

«مَن روى على مؤمنٍ روايةً يُريدُ بها شَينَهُ وهدمَ مُروَّتِهِ لِيُسقِطَهُ مِن أعيُنِ الناسِ، أخرَجَهُ الله من ولايته الى وِلاية الشيطانِ فلا يقبَلُهُ الشيطانُ»[٣].

الغيبة تُقَوِّضُ دينَ الانسان

قال الرسول محمد ﷺ:

«الغيبةُ أسرعُ في دين الرجل المسلم مِنَ الآكِلَةِ في جَوفِهِ»[٤].

كما قال ﷺ:

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٥؛ كشف الريبة، ص ٩؛ الانوار النعمانية، ص ٢٥٩؛ جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٢) جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٠٦؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٥٨؛ الانوار النعمانية، ص ٢٥٩.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٨؛ كشف الريبة، ص ١١ مع اختلاف يسير.

(٤) جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٠٤.

«الغيبةُ والنميمةُ يَحُتّانِ الايمانَ كما يَعضدُ الراعي الشجرةَ»(١).

جزاء الغيبة

لاشك في انّ عذاباً قاسياً بانتظار المغتاب في يوم القيامة.

قال الرسول محمدﷺ:

«مَن أكلَ لحمَ أخيه في الدنيا قُرِّب اليه يومَ القيامةِ فيُقالُ لَهُ كُلْهُ مَيْتاً كما أكَلتَهُ حَيّاً فيأكُلُهُ ويَكلَحُ ويضِجُّ»(٢).

وقالﷺ أيضاً:

«مرَرتُ ليلَةَ أُسرِيَ بي على قومٍ يَخمِشُونَ وجُوهَهُم بِأظافيرِهِم، فقُلتُ: يا جبرئيل مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابونَ الناسَ ويَقَعُونَ في أعراضِهِم»(٣).

الغيبة وهبوط قيمة العبادات

ورد في حديث آخر انّ مرتكب الغيبة، تقلّ قيمة عبادته. قال رسول اللهﷺ:

«الجلوسُ في المسجدِ انتظاراً للصلاةِ عبادةٌ ما لم يُحدِث، قيلَ: يا رسولَ الله وما يُحدِثُ؟ قالَ: الاغتياب»(٤).

الغيبة تمنع قبول الأعمال

للرسولﷺ حديث يقول بأنّ الملك الموكل بالأعمال يمنع تجاوز أعمال المغتاب الصالحة الى الله قائلاً: «... اضرِبُوا هذا العَملَ وجهَ صاحِبِهِ، أنا صاحبُ

---

(١) الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٥١٤، ح ٢٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٠٨، ح ١٧.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥١؛ معراج السعادة، ص ٤٠٧؛ الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٥١٠، ح ٢٠؛ مكاشفة القلوب، ص ١٥٥؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٢٢.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٧، باب الغيبة والبهت؛ كشف الريبة، ص ٤؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٩٨.

الغيبـةِ أمرَني ربي أن لا أدَعَ عملَ مَن يغتابُ الناسَ يتجاوَزُني الى ربي»[١].

حرمان المغتاب من الجنّة

قال رسول الله ﷺ:

«تحرُمُ الجنةُ على ثلاثةٍ: على النمّامِ وعلى المُغتابِ وعلى مُدمِنِ الخمرِ»[٢].

تنويه

لو تاب المغتاب وقُبِلَت توبته، كان آخر من يدخل الجنة:

«أوحى الله عزَّ وجلّ الى موسى بنِ عمران أنَّ المُغتابَ اذا تاب فهو آخِرُ مَن يدخُلُ الجنّةَ وان لم يَتُب فهوَ أوّلُ مَن يَدخلُ النارَ»[٣].

المغتاب ليس مولوداً من حلال

ورد في بعض الأحاديث انّ المغتاب الذي يقع في أعراض الناس ويُسقطهم من العيون، ليس مولوداً من حلال، لأنّ نطفته لو كانت قد انعقدت من حلال، لما تلوّث بهذا الذنب.

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«كذبَ من زعمَ أنّهُ وُلِدَ مِن حلالٍ وهُوَ يأكلُ لُحومَ الناسِ بالغيبة فانّها إدامُ كلابِ النار»[٤].

وربما المقصود في هذا الحديث هو التغذية والتولّد من الاغذية الحرام. ويُحتمل ان تختص هذه الصفة بمن عمله الغيبة والحاق الأذى بالآخرين

---

(١) كشف الريبة، ص ٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٩٩.

(٣) كشف الريبة، ص ١١؛ المكاسب المحرمة، ص ٤٠؛ الجواهر السنية، ص ٦٦، الباب السابع.

(٤) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٥٨؛ الأنوار النعمانية، ص ٢٥٩؛ المكاسب المحرمة، ص ٤٠ مع الاختلاف التالي «... فاجتنب الغيبة فانها ...»؛ امالي الصدوق، ص ١٧٤، ح ٩، المجلس ٣٧.

باستمرار، اذ تدل على هـذه الاستمرارية عبارةُ «وهـو يأكل» التي استُخـدم فيها الفعـل بصيغة المضارع التي تدلّ على الاستمـرار والتجـدّد. والله أعلم.

المغتاب ليس مؤمناً

وللرسولﷺ حديث آخر يصف فيه المغتاب بعدم الايمان، فقال:

«يا معشَرَ من آمنَ بلسانهِ ولم يؤمن بـقلبه لا تـغتابوا المسـلمينَ ولا تـتَّبِعُوا عوراتِهِم، فانّهُ من تتبَّعَ عورَةَ أخيه تتبَّعَ الله عورتَهُ، ومَن تتبَّعَ الله عورتَهُ يفضَحهُ ولو في جوفِ بيتِهِ»[١].

أنواع الغيبة

يتصور البعض اقتصار الغيبة على اللسان، في حين يُعدّ كل أُسلوب يُستَشفُّ منه عيب شخص آخر ونقصه، غيبة، كالكلام، والكتابة، والاشارة، والكـناية، والرمز، والتلميح، وتقليد المشي أو الحركة أو الصوت الخ. وهذا أمرٌ قد أشارت اليه الأحاديث.

تقول عائشة زوج الرسولﷺ:

«دخلت علينا امرأة فلما ولّت أومأتُ بـيدي أنّهـا قـصيرة فـقالﷺ: قـد اغتبتيها»[٢].

وهكذا لو لم يصرح أحدهم باسم شخص معيّن ولكنه تحدث بطريقة يستشف الآخرون من خلالها من هو المقصود، عُدّ ذلك العمل غيبة أيضاً.

اذن، لو أراد أحد ان لا يقع في شباك الغيبة في مثل هذه الحالة، فلابد له من انتهاج اسلوب الرسولﷺ، اذا انه حينما كان يشاهد عملاً خاطئاً أو تـصرفاً غير مقبول، كان ينبري لنصيحة الناس عموماً ويشير الى ذلك العمل الخـاطئ

(١) احياء علوم الدين، ط بيروت، ج ٣، ص ١٤٢؛ كشف الريبة، ص ١٧؛ تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٣٣٣؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٠٩ مع يسير من الاختلاف.

(٢) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٨.

دون الاشارة او التلميح الى فاعله، فيقول:

«ما بالُ قومٍ يفعلون كذا و كذا؟»[١].

ونُقل عن عائشة قولها:

«كان رسول الله ﷺ اذا بَلَغَهُ عن الرجل شيءٌ لم يقلْ ما بالُ فُلانٍ ولكن يقولُ ما بالُ أقوامٍ يقولون، حتى لا يَفْضَحَ أحداً[٢]».

حُرْمَةُ استماع الغيبة

كما انّ الغيبة حرام، كذلك الاستماع اليها حرام أيضاً. وليس هناك اختلاف في هذه المسألة بين الفقهاء وعلماء الأخلاق. وقد قال صاحب الجواهر والشيخ مرتضى الانصاري وسماحة الامام الخميني قدس سره:

«يحرم استماع الغيبة بلا خلاف»[٣].

وجاء في كتاب مفتاح الكرامة انّ حرمة استماع الغيبة واضح الى درجة بحيث أخذ اكثر الفقهاء بوضوحها، ولم يشيروا اليها بشيء[٤].

أحاديث حرمة استماع الغيبة

هناك العديد من الأحاديث التي استُند اليها في هذا المضمار، ومنها:

أورد الشيخ الصدوق في حديث المناهي:

... ونهى (الرسول) عن الغيبة والاستماع اليها[٥].

وقال الرسول ﷺ:

---

(١) احياء العلوم، ج ٣، ص ١٤٥.

(٢) المستطرف، ج ١، ص ١١٦.

(٣) جواهر الكلام، ج ٢٢، ص ٧١؛ المكاسب المحرمة، ص ٤٦؛ المكاسب المحرمة للامام، ج ١، ص ٢٩٢.

(٤) مفتاح الكرامة، ج ٤، ص ٦٧.

(٥) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤؛ أمالي الصدوق، ص ٣٤٥؛ المجلس ٦٦.

«السامعُ للغيبةِ أحَدُ المغتابَيْن»(١)

وورد عن الرسولﷺ ايضاً:

«المستمعُ للغيبة أَحَدُ المغتابَيْن»(٢)

أي يوجد في مجلس الغيبة مغتابان هما المتحدث بالغيبة والمستمع لها، وكلاهما آثمان باثم الغيبة.

وورد عن الامام جعفر الصادقعليه السلام:

«الغيبةُ كُفْرٌ والمستمعُ لها والراضي بها مُشْرِكٌ(٣)».

مسؤولية الأُذن

لا يحصر القرآن الكريم مسؤولية الانسان ضمن حدود اللسان والكلام، وانما يُشْرِك في هذه المسؤولية ايضاً كلاً من العين والأذن والقلب. فقد قال:

﴿ولا تَقْفُ ما لَيس لَكَ بِهِ عِلْمٌ انَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كُلُّ اولئكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾(٤).

وجاء في الحديث:

«... أنَّ رجلاً جاء اليه (الى الامام الصادق) فقال له انَّ لي جيراناً وَلَهُمْ جَوارٍ يَتَغَنَّيْنَ ويَضْرِبْنَ بالعودِ فربما دخلتُ المخرجَ فأُطيلُ الجلوسَ استماعاً مني لهن. فقال له: لا تفعلْ. فقال: والله ما هو شيء أتيتُهُ بِرجلي انما هو سَماعٌ أسْمَعُهُ بأُذني. فقال الصادقعليه السلام: أما سَمِعْتَ الله عزّ وجل يقولُ «انَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفؤادَ كل اولئك كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً». فقال الرجل: بلى والله فكأنّي لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٢، ص ١٠٨. ونُقل هذا الحديث عن الامام علي (ع) في بحار الانوار(ط بيروت)، ج ٧٢، ص ٢٢٦ والفهرست الموضوعي للغرر، ص ١٦٨، رقم ١٦٠٧.

(٢) كشف الريبة، الشهيد الثاني، الفصل الاول في اقسام الغيبة.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٨. وورد في بحار الانوار (ج ٧٢، ص ٢٢٦): «المستمعُ أحد المغتابَين».

(٤) الاسراء/ ٣٦.

عزّ وجل من عربي ولا عَجَمي، لاجَرَمَ أَني قد تركتُها وأنّي أستغفر الله. فقال له الصادقﷺ: قُمْ فاغْتسلْ وصلِّ ما بدا لك فلقد كنتَ مقيماً على أمرٍ عظيمٍ ما كانَ أَسْوَأَ حالَكَ لَوْ مِتَّ على ذلك، استغفرِ الله وَسَلْهُ التوبةَ مِنْ كل ما يكره ...»[١].

ويقول الشاعر

وسمعك صنْ عن سماع القبيح

كصونِ اللسانِ عن النطقِ به[٢]

ويتحدث الامام السجادﷺ عن حقّ السمع قائلاً:

«وأما حقُّ السَّمعِ فتنزيهه عن أنْ تجعله طريقاً الى قلبِكَ إلّا لِفُوهَةٍ كريمةٍ تُحْدِثُ في قلبِكَ خيراً أو تكسب خُلُقاً كريماً فانَّهُ بابُ الكلامِ الى القلب يُؤدّي اليه ضُروبَ المعاني على ما فيها مِنْ خَيرٍ أو شرٍّ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ[٣]».

ردّ الغيبة والدفاع عن الاخ في الدين

هناك أربعة واجبات على صعيد الغيبة:

١ ـ حرمة الغيبة.

٢ ـ حرمة استماعها.

٣ ـ النهي عنها.

٤ ـ الدفاع عن كرامة الاخ المؤمن وحفظ حُرمته.

فعلى صعيد الغيبة، فضلاً عن وجوب النهي عن المنكر والحيلولة دون وقوع هذه المعصية بشكل مطلق، يجب ايضاً ردّ الغيبة ورفضها والدفاع عن حرمة الاخ في الدين وكرامته. بتعبير آخر: وانْ عُدَّ عدم الاستماع الى الغيبة وعدم الاكتراث بكلام المغتاب، من مصاديق النهي عن المنكر، لكنه لا يُعَدّ كافياً وانما يجب على

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٢١، ح ١١؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦، ص ٣٤، ح ٤٨؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٩٢، ط المكتبة العلمية الاسلامية (مع قليل من الاختلاف).

(٢) الذريعة الى احكام الشريعة، ص ١٥٦.

(٣) تحف العقول، ص ١٨٤، رسالة الحقوق.

كل فرد الدفاع عن اخوته في الدين والعقيدة والسعي لحفظ حرمتهم. أي ينبغي على كل مسلم رفض كلّ ما يوجَّه لاخيه المسلم من انتقادات وما تُلصق به من عيوب، من خلال التبرير الصحيح والاسلوب الذي يرضى به الله، كي يحول دون تمهّد الأرضية لنمو الاشاعات واستفحالها من جهة، وكي لا يجرؤ أحد على انتهاك حرمات الآخرين وبث الدعايات المغرضة حولهم بلا حساب معرّضاً كرامتهم للخطر عن طريق التهمة والافتراء والغيبة، ذلك لانّ الله تعالى يريد عزّة المؤمنين ورفعتهم، ويرى في العوامل التي تهدد هذه القيم، عوامل معادية. ولهذا أمر سبحانه بالوقوف في وجه هذه العوامل والتصدي لها وتحطيم جدار الصمت وعدم السماح لأي احد بتلويث البيئة الاجتماعية وتشويه سمعة المؤمنين بواسطة الفحشاء والغيبة، وزعزعة الشعور العام بالثقة من خلال ترويج الاشاعات والدعايات التي لا تقوم على أساس.

ويتصور البعض انّ ردّ الغيبة هو نفس النهي عن المنكر الذي يجب فيه على الجميع الحيلولة دون وقوع المعصية بكافة انواعها. ولكنّ مسألة الغيبة وكما قلنا، قضية اخرى لا يكفي فيها النهي، وانما لابد من العمل على اعادة حُرمة المستغاب والانتصار لكرامته.

ويقول الشيخ مرتضى الانصاري بهذا الشأن:

«والظاهر أنّ الرد غير النهي عن الغيبة، والمراد به الانتصار للغائب بما يناسب تلك الغيبة فانْ كان عيباً دنيوياً انتصر له بأنّ العيب ليس إلّا ما عاب الله به من المعاصي التي مِنْ أكبرها ذكرك أخاك بما لم يعبه الله به، وانْ كانَ عيباً دينياً وجَّههُ بمحامل تُخرجه عن المعصية»[1].

ثم يقول الشيخ الانصاري في أعقاب ذلك:

«فإن لم يقبل التوجيه انتصر له بأنّ المؤمن قد يُبتلى بالمعصية فينبغي أن يستغفر له ويهتم له لا أن تعيّر عليه، وانّ تعييرك اياه لعلّه أعظم عند الله من

---

(١) المكاسب المحرمة، ص ٤٦.

معصيته ونحو ذلك»[١].

وهكذا لابد للمرء ان يرد الغيبة عن اخيه المسلم ويدافع عنه ما يستطيع.

النتائج الايجابية لردّ الغيبة

نصرة الدنيا والآخرة:

قال الرسول ﷺ:

«مَنِ اغتيبَ عنده أخوهُ المؤمنُ وهو يستطيعُ نَصْرَهُ فَنَصَرَهُ، نَصَرَهُ الله تعالى في الدنيا والآخرة»[٢].

دفع الشرّ والبلايا:

قال الرسول ﷺ:

«مَنْ رَدَّ عن أخيه غيبةً سمعها في مجلس، ردَّ الله عنه ألفَ باب من الشرّ في الدنيا والآخرة»[٣].

الذهاب الى الجنة:

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ ردَّ عن عِرْض أخيه المسلم وَجَبَت له الجنةُ البتة»[٤].

النتائج السلبية لعدم ردّ الغيبة

الخذلانُ في الدنيا والآخرة:

قال رسول الله محمد ﷺ فيمن يخذل المستغاب:

---

(١) نفس المصدر. هناك في كتب الحديث باب عنوانه «باب التعيير»، فيه أحاديث فحواها انّ من يبصر لدى الآخر ذنباً فيعيّره به، عيّره الله تعالى في الدنيا والآخرة. وورد في بعض الأحاديث انّ من يعيّر مؤمناً بشيء فلا يموت حتى يرتكب نفس ذلك الشيء. راجع: اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٢) المكاسب المحرمة، ص ٤٦؛ ثواب الاعمال، ص ١٧٨ مع اختلاف يسير.

(٣) المكاسب المحرمة، ص ٤٦. وورد في كتاب «من لا يحضره الفقيه» ج ٤، ص ٨: «ألا ومن تطول على اخيه في غيبة سمعها فيه...».

(٤) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٦١.

«.... ومَنْ خَذَلَهُ وهو يستطيعُ نَصْرَهُ، خَذَلَهُ الله في الدنيا والآخرة»[١].

تحمُّل سبعين وِزراً

أورد الشيخ الصدوق عن الامام الصادق حديثاً رواه عن رسول الله ﷺ حول ردّ الغيبة يقول:

«.... فإنْ هو لم يَرُدَّها وهو قادرٌ على ردِّها كان عليه كوِزْرِ مَنْ اغتابَهُ سبعينَ مَرَّةً»[٢].

ويُعلِّق الشيخ الانصاري على هذا الحديث قائلاً: «ولعلّ وجه زيادة عقابه انه اذا لم يرده تجرّأ المغتاب على الغيبة فيصر على هذه الغيبة وغيرها»[٣].

وأعتقد انّ سبب تضاعف وزر المستمع حين سكوته وعدم ردّ الغيبة يعود ـ فضلاً الى ما ذكره الشيخ ـ الى انَّ السكوت في مثل هذه الحالات يمهّد الأرضية لازدهار سوق الاشاعة وهتك الحرمات ويخلق حالة سوء الظن وعدم الثقة بين الناس. وما اكثر اولئك الذين كانوا صادقين في خدمة الاسلام والمسلمين وخرجوا من الميدان مظلومين تحت مطرقة مثل تلك الاشاعات دون أن يدافع عنهم أحد. ولا شك في انّ عدم الدفاع عمَّن تصوَّب اليه سهام التهمة والغيبة، يدفع بالمجتمع نحو اليأس والأشخاص الذين يؤدون الخدمات بأمانة واخلاص نحو الشعور بالاحباط.

وفي ظل مثل هذه الأوضاع لن يصبح النهي عن المنكر كافياً ولا مفيداً بمفرده ولا بامكانه استيفاء حقوق هؤلاء المظلومين، بل لابد ـ الى جانب النهي عن المنكر ـ من ردّ كل التهم والاغتيابات التي أُلصقت بهؤلاء. اي لابد من استخدام التبرير الصحيح والدفاع الصائب والمنطقي من اجل مسح التصورات والانطباعات الخاطئة عن الأذهان، وتحويل سوء الظن الى حسن الظن، والانتصار نهائياً لمن

---

(١) المكاسب المحرمة، ص ٤٦.

(٢) مَنْ لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٩.

(٣) المكاسب المحرمة، ص ٤٦.

وقع فريسةً للغيبة.

مصدر الغيبة

وبعد أن أدركنا مدى ضخامة معصية الغيبة وشدة قبحها، وعرفنا ما تفرزه من مردودات سلبية وأضرار خطيرة، من خلال استقراء بعض الآيات والأحاديث، لابد لنا ان نقف ايضاً على مصادر هذه الآفة الخطيرة والعوامل التي تقف خلفها، علّنا نستطيع تحديد اسلوب معالجتها معالجة جوهرية وأساسية.

سوء الظن والتجسس

نستشف من القرآن الكريم انّ سوء الظن وتجسس أحوال الناس وشؤونهم وأسرارهم، من أهم عوامل الغيبة.

ما هو التجسس؟

كتب ابن الأثير قائلاً:

«التجسس... التفتيش عن بواطن الامور، وأكثر ما يقال في الشر، والجاسوس صاحب سرّ الشر»[1].

فحينما يسيء الانسان الظن بشخص ما ويرتّب اثراً عليه، فلابد أن يقوده عمله هذا نحو التجسس.

وقال الشهيد الثاني رحمه الله تعالى:

«ومن ثمرات سوء الظنّ التجسيس، فانّ القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسيس. وهو ايضاً منهي عنه، قال الله تعالى «ولا تجسسوا»، وقد نهى الله سبحانه في هذه الآية الواحدة عن الغيبة وسوء الظن. ومعنى التجسس أنْ لا تترك عباد الله تحت سرّ الله، فتتوصل الى الاطلاع وهتك السر حتى ينكشف لك ما لو كان مستوراً عنك كان أسلم لقلبك ولدينك، فتدبّر ذلك راشداً وبالله

---

(١) النهاية لابن الأثير، ط اسماعيليان، قم، ج ١، ص ٢٧٢.

التوفيق»[١].

فلو كنا نرغب في عدم الاصابة بهذا البلاء العظيم، فعلينا ان نختار الطريق الذي دلّنا الله تعالى عليه:

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا اجْتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ انَّ بعضَ الظنِّ اثمٌ ولا تَجسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بعضُكُمْ بَعْضاً...﴾[٢].

اذا أردت أنْ لا تقع في فَخّ الغيبة، فيجب ألا يكون لديك سوء الظن. واذا أردت ان لا تقع في فخ سوء الظن فعليك انْ لا تتجسس شؤون الناس وامورهم، لأنّ سوء الظن والتجسس يؤثّر كلٌّ منهما في الآخر: قد يبعث التجسس على سوء الظن، وقد يصدر التجسس عن سوء الظن. فينبغي تجنّب الاثنين والابتعاد عن كليهما.

ونهت الأحاديث بدورها عن التجسس ايضاً، نكتفي بذكر نموذج واحد منها.

قال الرسول محمد ﷺ:

«ولا تَحسَّسُوا ولا تجسَّسُوا ولا تَناجَشوا ولا تحاسدوا ولا تباغَضوا ولا تَدابَروا وكونوا عبادَ الله اخواناً»[٣].

ملاحظات

من الضروري الاشارة الى بعض الملاحظات حول سوء الظن من اجل ازالة

---

(١) كشف الريبة، ص ٩.

تجدر الاشارة الى انّ مفردتي «التجسس» و«التحسس» كلتيهما بمعنى البحث والاستقصاء، غير انّ الاولى غالباً ما تُستعمل في امور الشر بينما تستخدم الثانية في امور الخير. وقد نقل القرآن الكريم عن يعقوب (ع) قوله: «يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحسَّسُوا من يوسف وأخيه...» (يوسف/ ٨٧). وللمزيد من المعلومات راجع: تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٢٣٢ و٢٣٣.

(٢) روعي في هذه الآية علم النفس الأخلاقي بشكل كامل. وقد بحث القرآن الكريم هذا الموضوع بدقة وعمق، من خلال تأكيده على ضرورة ازالة العلة من اجل التخلص من المعلول، وحيث ما كانت العلة فالمعلول معها لا ينفك عنها.

(٣) تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٢٣١.

بعض الغموض والالتباس:

أ ـ مما لاشك فيه انه لا يمكن الاعتقاد بحرمة مطلق الظـن، وبـدون قـيد أو شرط، لأنّ الانطباعات الذهنية التي تنطبع في الذهن من خلال تعامل الانسان اليومي مع ما يدور حواليه، أمر قهري وطبيعي، وخـارج عـن دائـرة اخـتيار الانسان. ومثل هذه الانطباعات لا يمكن ان تتصف بالحسن او القـبح التكـليفي والأخلاقي، ولا يتعلق بها الأمر والنهي، ما لم تتدخل ارادة الشـخص نـفسه في ظهورها ويوفّر مقدماتها عن اختياره، وما لم يسع لترتيب أثـر السـوء عـليها، ككون التجسس مقدمة لظهور حالة سوء الظن، أو اتخاذ مجرد الظن واسطة لاتهام الآخرين. ففي مثل هذه الظروف، يعود سوء الظن الى دائرة الاخـتيار، اذ يُـعدّ ظاهرةً اختيارية نظراً لاختيارية المقدمات في الحالة الاولى واخـتيارية تـرتيب الأثر في الحالة الثانية، ولا يُعدّ ظاهرةً قهرية وطبيعية.

وثبُت في العلوم العقلية انّ «الامتناع بالاختيار لا يُـنافي الاخـتيار»، أي انّ اللااختيار اذا كان قائماً على الاختيار فانه لا يتعارض مع الاختيار. فلو ألقى أحد بنفسه من مكان مرتفع ثم مات فانه مجرم حتى وان شعر بالندم في حال السقوط، لأنّه ألقى بنفسه في باديء الأمر عن اختيار وارادة، فتنطبق عليه الاختيارية مـن وجهة نظر العقلاء وبالتالي يُعدّ مذنباً ومرتكباً لأمر حرام. كما يُعدّ مذنباً وعاصياً مَنْ يواصل عملاً غير اختياري بارادته واخـتياره وانْ كـان ذلك العـمل، غـير اختياري في باديء الامر، كما لو وقعت عين أحدهم صدفةً على غير المحارم، فانه غير مذنب في هذه الحالة، إلّا انه لو واصل ذلك النـظر عُـدّ مـذنباً، لأنّ تـلك المواصلة قائمة على الاختيار.

ولذلك يقول الامام الصادقعليه السلام:

«أوّلُ النَّظرِ لَك، والثانيةُ عليك ولا لكَ، والثالثةُ فيها الهلاك»[1].

اذن، لابد من تفادي مقدمات سوء الظن من التجسس واستماع الاشـاعات.

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٩٧.

أما اذا حدث سوء الظن فلابد من تناسيه فوراً وتجنّب ترتيب الأثر عليه او متابعته[١].

ب ـ والملاحظة الاخرى التي تبدو مفيدة على هذا الصعيد هي انّ ترتيب الأثر على سوء الظن نوعان:

١ ـ ترتيب أثر قلبي وقد عبّر عنه علماء الأخلاق بـ «عقد القلب».

٢ ـ ترتيب أثر عملي يتحقق عادة في صورة التهمة والغيبة أو اضاعة حقوق الآخرين.

وترتيب الأثر القلبي عبارة عن اختزان الانسان لانطباعه ـ والذي يكون بسيطاً وخاطفاً في بادئ الأمر ـ في ذهنه، ثم يعمل على تنميته وبلورته على شكل اعتقاد قلبي، بحيث يختلط الأمر عليه، فينظر الى ذلك الانطباع او التصور كأمر يقيني ويرتّب عليه آثار العلم واليقين. وفي مثل هذه الحالة، قد يسيء الانسان الظن حتى بصديقه ويسلب الشعور بالثقة عنه. وتُعدّ هذه الظاهرة مرضاً روحياً وأخلاقياً يعمل على زعزعة أساس الحياة حين استفحاله واتساعه، ويجر المجتمع الى هاوية الفساد.

كلمة للشهيد الثاني:

قال الشهيد الثاني رضوان الله تعالى عليه:

«واعلم انه كما يحرم على الانسان سوء القول في المؤمن وان يحدّث غيره بلسانه بمساوئ الغير، كذلك يحرم عليه سوء الظن وأنْ يُحدِّثَ نفسه بذلك. والمراد من سوء الظن المحرّم عقد القلب وحكمه عليه بالسوء من غير يقين به. وأما الخواطر وحديث النفس فهو معفوّ عنه»[٢].

ثم قال بعد ذلك:

---

(١) اشار العلامة الطباطبائي الى ذلك في تفسير الآية «إنّ بعض الظن اثم...»، لمزيد من المعلومات راجع: تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٣٥١.

(٢) كشف الريبة، ص ٢٠.

«... ومن هنا جاء في الشرع انّ مَنْ علمت في فيه رائحة الخمر لا يجوز ان يحكم عليه بشربها ولا يحده عليه لإمكان ان يكون تمضمض به وَمَجّه أو حُمِل عليه قهراً، وذلك أمر ممكن فلا يجوز اساءة الظن بالمسلم»[1].

وللرسول محمد ﷺ حديث يقول:

«اذا ظَنَنْتَ فلا تُحقِّقْ»[2].

أما ترتيب الأثر العملي فعبارة عن تلقي المرء لتصوره وكأنّه حقيقة قاطعة، فيرتّب عليه نتائج الحقيقة وآثارها. كأن يتحدث للآخرين بظنّه كما لو كان خبراً مفروغاً منه، فيتّهم بهذه الطريقة غيره اعتماداً على الظن والتصور. ولا ينعكس عن هذا النوع من التعامل سوى التهمة والغيبة وهتك العِرض واضاعة الحقوق على الصعيدين الفردي والاجتماعي. فما اكثر الحرمات التي انتُهكت والقابليات والاستعدادات التي تبددت من جراء سوء ظن بسيط لا يقوم على أساس، مما ادى الى حرمان المجتمع من عطاء مثل هذه الطاقات الاجتماعية الالهية، رغم اننا جميعاً نعلم باحترام كرامة المسلم وشرفه وعرضه، وضرورة الحرص على حفظها، ونعلم ايضاً بعدم جواز الافصاح بدون مجوز شرعي حتى عن القضايا القاطعة، اذا كانت تعمل على انتهاك حرمة المسلم، فكيف بالقضايا القائمة على الظن والحدس، والتي لا تدعمها أية وثيقة شرعية او عقلية.

وللرسول الاكرم ﷺ حديث بهذا الشأن يقول:

«انّ الله حَرَّمَ من المسلم دَمَهُ ومالَهُ وعِرضَهُ وأنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السوءِ»[3].

أصل الصحة

بما انّ سوء الظنّ عمل يزعزع الشعور العام بالثقة، وينتزع حالة الاطمئنان من

---

(١) نفس المصدر.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٣٣٢.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٦٨؛ تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٣٣٢.

القلوب، سعت الشريعة لابطال مفعول هذا المرض الخطير من خلال التلقيح بلقاح «اصالة الصحة» في جميع مراحل الحياة. أي لابد من حمل أعمال المؤمنين على الصحة، ولابد لنا من تبرير أعمالهم بقدر الإمكان، ما لم تُغلق طرق التبرير كافة. ويقول الامام علي عليه السلام بهذا الشأن:

«ضَعْ أمرَ اخيكَ على أحْسَنِهِ حتى يأتيك ما يَغْلِبُكَ منه، ولا تَظُنَّنَّ بكلمةٍ خَرَجَتْ من أخيكَ سوءاً وأنتَ تَجِدُ لها في الخَيْرِ مَحْمَلاً»(١).

ويقول العلامة المجلسي في شرح كلام الامام قائلاً:

«ضَعْ أمر اخيك أي احملْ ما صدَرَ من أخيك من قول او فعل على أحسن محتملاته وان كانَ مرجوحاً، من غير تجسس، حتى يأتيكَ منه أمر لا يمكنك تأويله، فانَّ الظنّ قد يُخطئ والتجسس منهيّ عنه»(٢).

ويُعدّ حديث الامام علي عليه السلام هذا معياراً لأصل الصحة في علم اصول الفقه. فلو أمضى شخصان عقداً فلابد للاثنين من العمل وفق هذا الأصل، لأنه لو لم يؤخذ به في العلاقات الاجتماعية والمعاملات، فلا يمكن الوثوق حينئذ بأية معاملة او عقد، ولتزعزعت اوضاع المجتمع، وارتبكت شؤونه، ولبات كل فرد يتساءل: هل انّ المعاملة التي امضاها زيد صحيحة؟ وهل انّ عَمْراً قد عقدها جدّاً او هزلاً؟ وهل أن فلاناً كان صادقاً في ذلك النوع من التعامل والتعاهد؟ وغيرها من التساؤلات المحمَّلة بطابع الشبهة والشك والمعبِّرة عن سوء الظن، وهذا ما يؤدي بطبيعة الحال الى الغاء الرصيد من الثقة الذي يدفع لتنفيذ المعاملات وامضاء العقود والاتفاقيات وانجاز سائر انواع المبادلات والعلاقات بعد رسم علامة الاستفهام على كل شيء.

ولذلك وتحاشياً للوصول الى مثل هذه الاوضاع التي لا تُحمد عقباها، انطلق الاسلام لوضع مبدأ حمل عمل الاخ المسلم على الصحة، وهو ما يُعدّ أحد طرق

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٦١٤؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٢، باب التهمة وسوء الظن؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٩٦؛ امالي الصدوق، ص ٢٥٠، ح ٨، المجلس ٥.

(٢) مرآة العقول، ج ١١، ص ١٥.

وأساليب مكافحة سوء الظن.

سوء الظن، فضلاً عن تلويثه لصاحبه، فانه يلوث المجتمع أيضاً ويجرّه الى الفساد، ذلك لأنه ومثل أي مرض اجتماعي آخر ينتقل عادةً من شخص لآخر ويسري في أوصال المجتمع بشكل تدريجي على شكل اشاعة لا تلبث أن تتحول في نهاية المطاف الى أمر قطعي وحاسم لا غبار عليه!!

وحينما يوجّه السؤال التالي الى صاحب الظن السيئ: لماذا أسأت الظنّ في أخيك المسلم، وأرقتَ ماء وجهه، ونلتَ بهذه الطريقة من كرامته، وسحقت شخصيته، ولم تترك له ما يرفع به رأسه في المجتمع؟ يقول: لقد سمعتُ هذا من فلان! وحينما يوجّه نفس السؤال الى فلان، يقول أيضاً سمعته من فلان الخ. وحينما يجري استقصاء كامل يتضح انّ الأمر لم يكن سوى سوء ظنّ لا يقوم على أساس قط.

ج ـ كما أنّ صفة سوء الظن صفة في منتهى القبح، تُعدّ في المقابل صفة حسن الظن، من الصفات الحميدة ومكارم اخلاق المؤمن. فالأخلاق الاسلامية تحضّنا على امتلاك حسن الظن بالآخرين، وتؤمّن لنا به سلامة الروح، وتبني على أساسه صرح الحياة الاجتماعية.

ويقول القرآن الكريم بهذا الشأن:

﴿لولا اذ سَمِعتُموهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفُسِهِم خيراً وقالوا هذا افكٌ مُبينٌ﴾[1].

الآية أعلاه تتحدث عن الافك الذي أفكه المنافقون حول عائشة زوجة الرسول (ص)، وتلوم المؤمنين والمؤمنات لأنّهم وبدلاً من اللجوء الى سوء الظن، كان المفروض بهم ان يدينوا أصحاب الافك والاشاعة ويكذّبوا بحزم افكهم اعتماداً على ما لديهم من حسن الظن، لأنهم لو فعلوا ذلك لماتت الاشاعة في مهدها وظلت كرامة المسلم سليمةً مصانة.

---

(١) النور / ١٢.

وورد في كتاب مصباح الشريعة: قال النبيﷺ: احسنوا ظنونكم بإخوانكم تغتنموا بها صفاء القلب.

وقال الامام الصادقعليه السلام: حسن الظنّ اصله من حسن ايمان المرء وسلامة صدره. وعلامته ان يرى كلّ ما نظر اليه بعين الطهارة والفضل من حيث ركب فيه وقذف في قلبه من الحياة والامانة والصيانة والصدق[١].

أضرار سوء الظن بلغة الأحاديث

من المناسب الاشارة الى بعض الاحاديث التي تتحدث عن سوء الظن كي نقف على مدى خطورة هذه الآفة الأخلاقية وما هي المفاسد والأضرار التي تفرزها على الصعيدين الفردي والاجتماعي وفي البعدين المادي والمعنوي. فلعلنا نشخص امراضنا من خلال تشخيص هذه الافرازات المدمّرة، ونبادر على وجه السرعة لعلاجها، ان شاء الله تعالى.

الأضرار الفردية

الانزواء

من الأضرار الفردية التي تنجم عن سوء الظن هي أن يعيش صاحب الظن السيئ في ألم واضطراب دائماً بسبب ما لديه من عدم ثقة بالناس، متصوراً انه لن يجد فيهم من يستحق ان يعاشره ويجتمع اليه.

السيئ الظن وانطلاقاً مما لديه من تخوف من الناس وعدم الوثوق بهم، يرى نفسه مرغماً على اختيار العزلة عن افراد المجتمع والانطواء على نفسه وقطع كل علاقة له بالآخرين، اي انه يستوحش من الجميع. وهذا ما عبّر عنه الامام عليعليه السلام بقوله:

«من لم يُحسِن ظَنَّهُ استوحش من كُلِّ أحد»[٢].

---

(١) مصباح الشريعة، الباب ٨٢، ص١٧٣.

(٢) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٢٢٧، الرقم ٩٠٨٤.

سوء الظن غيبة قلبية:

والضرر الفردي الآخر الناجم عن سوء الظن هو انّ الظن السيئ بحد ذاته بمثابة غيبة قلبية. ويعتقد علماء الاخلاق ان سوء الظن، أحد مصاديق الغيبة القلبية. اي لو أساء المرء الظن بأخيه المسلم في قلبه وضميره، فكأنه قد اغتابه في قلبه. وسبق ان اشرنا الى انّ التفكير في المعصية عمل مستقبح في الاسلام فضلاً عن ممنوعية المعصية نفسها.

يقول الامام علي‌عليه‌السلام:

«من كثُرَ فِكرُهُ في المعاصي، دَعتهُ اليها»[1].

فالتفكير في المعصية يؤدي الى تشويش حالة النقاء التي لدى الروح. وينطبق الأمر على سوء الظن أيضاً لأنّ من يسيء الظن باخوته في الدين ويرتّب آثاراً على سوء ظنّه ـ أي يتابعه وينمّيه في قلبه ـ فلابد ان ينتهي سوء الظنّ هذا الى الغيبة القلبية التي عبّر عنها علماء الأخلاق بـ«عقد القلب».

عقدُ القلب في الحقيقة، مقدمة للغيبة اللسانية، والتهمة، والوشاية، والسعاية، والنميمة، وغيرها من المعاصي الاخرى.

الأضرار الاجتماعية

تقطُّع وشائج المودّة

من أخطر الاضرار الناشئة من سوء الظن، هو تقطع وشائج المحبة وانفصام عُرى التوادد والتراحم بين افراد المجتمع وخلق حالة اشاحة البعض بوجهه عن البعض الآخر.

وعبّر الامام علي‌عليه‌السلام عن هذه الحالة حينما قال:

«مَن غلبَ عليه سوءُ الظن، لم يترك بينه وبين خليل صُلحاً»[2].

---

(١) نفس المصدر، ص ١٢٧، رقم ٨٥٦١.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٨، رقم ٨٩٥٠.

الأضرار المعنوية

افساد العبادة:

يُلحق سوء الظن الضرر بالعبادة ويؤدي الى فسادها. ولذلك حذّر الامام عليعليه السلام المرء من مغبّة هذه الآفة الخطيرة التي تطال الأفراد:

«اياكَ أن تُسيءَ الظنَّ فانَّ سوءَ الظنِّ يُفسِدُ العبادةَ ويُعَظِّم الوِزرَ»[1].

وقال ايضاً:

«لا ايمانَ مع سوء الظن»[2].

سوء الظن شرّ الاثم وأقبح الظلم

ورد في حديث آخر للامام عليعليه السلام قوله:

«سوءُ الظنِّ شرُّ الاثمِ وأقبحُ الظُّلمِ»[3].

وهكذا نستنتج انّ سوء الظن يخلِّف الكثير من الأضرار والسلبيات الاجتماعية والفردية ماديةً كانت او معنوية، ولذلك انطلق القرآن الكريم والأئمة المعصومونعليهم السلام للنهي عنه بشدة. وقد قال الامام عليعليه السلام:

«اطرَحوا سوءَ الظنِّ بينكُم فانّ الله عزّ وجلّ نهى عن ذلك»[4].

تنويه

لابد هنا من التنويه الى نقطتين ضروريتين:

الاولى:

يتضح لنا من الآيات والأحاديث انّ سوء الظن حرام اذا بلغ مرحلة عقد القلب وترتُّبَ أثر عملي عليه، لذلك ولكي لا تصل الظنون الى هذه المرحلة، لابد من تجاهل الانطباعات السيئة التي تنطبع في الذهن أحياناً وعدم الاكتراث بها.

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٢٧، رقم ٢٧٠٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٨، رقم ١٠٥٣٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٢٧، رقم ٥٥٧٣.

(٤) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٩٤.

فالقرآن الكريم ورغم اعتقاده بحرمة بعض الظنون إلّا انه يطالب باجتناب الكثير منها لئلا يقع الانسان في هذا البعض الحرام:

﴿... اجتنبوا كثيراً من الظنّ انَّ بعضَ الظنّ اثمٌ﴾[١].

وقال الرسول محمد ﷺ:

«اياكُم والظنَّ فانَّ الظنَّ أكذبُ الحديث»[٢].

ذلك لأنّ سوء الظن نابع من خُبث النفس. ولو كان لدى المرء طوية ناصعة نقية، لما لجأ الى انتهاك كرامات الآخرين وحرماتهم بالظن والتصور، ولما لوّث سمعة غيره ودمَّر شخصيته بذريعة انني سمعتُ فلاناً يقول هذا! ونحن نعتقد انّ الله تعالى علامُ الغيوب، وعلى معرفة دقيقة بما في ضمائر الكائنات كافة وما يدور في نواياها. أليس هو القائل: ﴿بَلِ الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره﴾[٣].

وقال ﴿يعلَمُ خائِنَةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدورُ﴾[٤].

لذلك لابد من الوقوف كثيراً عند الأنباء التي يأتي بها غير الملتزمين وفحصها والبحث عن مدى صحتها او كذبها. فما اكثر مَن يحاول بواسطة ما لديه من سوء الظن ان يغتال شخصيات الآخرين مندفعاً في ذلك عن اغراض شخصية ونزاعات فردية. ولاشك في ان اغتيال الشخصية اسوأ من الاغتيال الجسمي، اذ لا تبقى لصاحب هذا الاغتيال مكانة في المجتمع ويفقد الاحترام الطبيعي. ولذلك يطالب القرآن المسلمين بالتروي والتدقيق فيما ينقله لنا الفاسقون بخاصة:

﴿يا أيها الذين آمنوا ان جاءَكُم فاسقٌ بِنبَإٍ فتبيَّنُوا أن تُصيبُوا قوماً بِجهالَةٍ فتُصبِحُوا على ما فعلتُم نادمينَ﴾[٥].

---

(١) الحجرات / ١٢.

(٢) سنن الترمذي، ج ٤، ص ٣٥٦، الباب ٥٦، ح ١٩٨٨؛ تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٣٣١؛ الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٥٤٥. ووردت هذه الاحاديث في بحار الانوار مع اختلاف طفيف.

(٣) القيامة / ١٤و ١٥.

(٤) غافر / ٩٩.

(٥) الحجرات / ٦.

وهي دعوة واضحة وصريحة الى أن لا نرتِّب اي أثر بمجرد حصول سوء الظن من اخبار الفاسق مثلاً، اذ ما اكثر الفتن والأحقاد والمظالم التي تنتشر بين الناس عن هذا الطريق، ثم يتَّضح فيا بعد انها كاذبة ولا أساس لهـا من الصحة، ولابد للمروّجين لها من الاجابة عنها يوم القيامة.

ويقول الامام علي عليه السلام بهذا الشأن:

«سوءُ الظَّنِّ يُفسِدُ الامورَ ويبعثُ على الشُّرور»[1].

فما لم ير المرء من غيره سلوكاً قبيحاً وتصرفاً مشيناً، فلا ينبغي له أن يسيء الظنّ به، اذ لا يُعد السماع او الظنّ والتكهّن، معياراً كاشفاً عن حُسن الآخـرين وقبحهم. وما اكثر التهم التي تسمعها الآذان، ولا أساس لها في حقيقة الأمر.

قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«سُئِلَ أميرَ المؤمنين علي عليه السلام كَم بينَ الحقِّ والباطل؟ فقال: أربعُ أصابعَ. ووضعَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام يدَهُ على أُذُنيهِ وعينيهِ، فقال: ما رأتهُ عيناكَ فهُوَ الحق وما سمِعتهُ أُذُناكَ فأكثرُهُ باطلٌ»[2].

الثانية:

لاشك في وجوب تعامل الناس فيا بينهم انطلاقاً من حسن الظن. فعند افتقاد هذه الخصلة الحميدة تتوقف عجلة الحياة، ويصبح من العسير على أبناء المجتمع الاستمرار في نشاطاتهم اليومية، وتضعف روح التعاون فيا بـينهم، لأنَّ المجـتمع الذي لا يثق أفراده بعضهم ببعض، ليس بالامكان بناء علاقات اجتاعية وثيقة بين أفراده.

هل يجب حُسن الظن دائماً؟

هناك نقطة مهمة جداً لابد من الالتفات اليها وهي انّ حسن الظن، صحيح في المجتمع الذي يغلب فيه الصلاح على الفساد، اما المجتمع الذي يُعدّ اغلب افراده من

---

(١) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٢٢٧، رقم ٥٥٧٥.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٩٦.

اهل الفساد، فلا معنى لحسن الظن والحمل على الصحة. فلابد في مثل هذا المجتمع من استخدام نظّارة سوء الظن، اذ لو بادرنا الى تبرير اعمال افراد هذا المجتمع دون الاستناد الى مستند معتبر ومعقول، فقد خدعنا انفسنا.

يقول الامام علي عليه السلام بهذا الشأن:

«اذا استولى الصلاحُ على الزمانِ وأهلِهِ ثم أساءَ رجلٌ الظَّنَّ برجلٍ لم تظهر منه حوبَةٌ فقد ظلَم، واذا استولى الفسادُ على الزمانِ وأهلِه فأحسنَ رجلٌ الظنَّ برجلٍ فقد غرَّرَ»[١].

ويقول الامام علي الهادي عليه السلام في ذلك ايضاً:

«اذا كان زمانٌ العدلُ فيه اغلبُ من الجورِ فحرامٌ أن تظُنَّ بأحد سوءاً حتى يُعلَمَ ذلك منه، واذا كان زمانٌ الجور فيه أغلب من العدل فليس لأحد أن يظُنَّ بأحد خيراً حتى يبدو ذلك منه»[٢].

ولا بد من الاشارة ايضاً الى انّ حسن الظن في زمان غلبة الجور على العدل والفساد على الصلاح وان كان يعبّر عن سذاجة، إلّا انّ سوء الظن يبقى عملاً غير صحيح أيضاً. بتعبير آخر: وان كان لا يمكن الوثوق بالناس بدون دليل وبرهان في ظل هذه الظروف، كذلك لا يمكن ادانة أحد لمجرد الاعتماد على الظن والحدس. وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿... انَّ الظنَّ لا يُغني مِنَ الحقِّ شيئاً﴾[٣].

اذن لابد في مثل هذه الظروف من مراعاة التحفظ على صعيدين: على صعيد الحكم على الناس واصدار الرأي فيهم، وعلى صعيد الوثوق بهم.

بكلمة، ينبغي عدم اتخاذ أية خطوة، بدون دراسة وتفحص واستقصاء.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ١١٤.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٩٧.

(٣) النجم / ٢٨.

«ليس من العدل القضاءُ على الثقةِ بالظنّ»[١].

التحفّظ والتروي في الامور المهمة

مما يجدر ذكره انّ الشعور بالثقة المتبادلة، لا يعني في زمان غلبة الصلاح ان نعمل بدون تفحص وتحقيق في مضمار الأعمال الأساسية المهمة ونضع زمام الامور والمناصب الكبيرة والمهام الخطيرة في يد كلّ أحد. فلا شك في اصالة الصحة وحُسن الظن في الشؤون الفردية والأعمال الجزئية، ولكنّ حُسن الظن لا يُعدّ معياراً على صعيد القضايا العامة والشؤون والمناصب والوظائف الحساسة، وان كان لا يجوز سوء الظن ايضاً. ففي مثل هذه الحالات، لابد من البحث والاستقصاء بدون المساس بشخصيات الافراد وكراماتهم لا من قريب ولا من بعيد، ثم اتخاذ ما يتناسب من قرار.

ويقول الامام عليّ عليه السلام في عهده الذي كتبه لعامله مالك الاشتر حين بعثه الى مصر:

«... ثم انظُرْ في أُمورِ عُمّالِكَ فاستعمِلهُم اختباراً ولا تُوَلِّهِم محاباةً وأَثَرَةً فانَّهُما جِماعٌ مِن شُعبِ الجورِ والخيانةِ وتوخَّ مِنهُم أهلَ التجربةِ والحياءِ مِن أهلِ البُيوتاتِ الصالحةِ والقِدَمِ في الاسلام المُتقدِّمةِ فانَّهُم أكرَمُ أخلاقاً وأصحُّ أعراضاً وأقلُّ في المطامِعِ اشراقاً وأبلَغُ في عواقِبِ الامورِ نظراً... ثمّ تفقَّد أعمالَهم وابعثِ العُيونَ مِن أهلِ الصِّدقِ والوفاءِ عليهِم ...»[٢].

وأوصاه كيف يختار كتّابه قائلاً:

«... ثُمَّ لا يكُن اختيارُكَ اياهُم على فراستِكَ واستِنامتِكَ وحُسن الظنِّ منكَ فانَّ الرجال يتعرَّفُونَ لِفراساتِ الوُلاةِ بتصنُّعِهِم وحُسنِ خِدمتِهِم ...»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٢١١.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٥٣، ص ٤٣٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٣٧.

وأوصاه بشأن الصلح مع العدو قائلاً:

«... ولكنِ الحذرَ كُلَّ الحذَرِ مِن عدوِّكَ بعدَ صُلحِهِ فانَّ العدوَ رُبَّما قاربَ لِيتغَفَّلَ فخذ بالحزمِ واتَّهِم في ذلك حُسنَ الظنِّ ...»[1].

وهكذا نجد أنّ لكل من سوء الظن وحسن الظن حالات لابد من دراستها بدقة وعمق. وينبغي للمرء ان يدرك ما هو الزمان الذي يعيش فيه، فمن لا يدرك زمانه، فمن الممكن ان يجابه حوادث مؤلمة وقاسية. لذلك نرى الامام جعفراً الصادق عليه السلام يقول:

«والعالِمُ بزمانِهِ لا تهجِمُ عليه اللوابِسُ»[2].

اسلوب علاج الغيبة

لعلاج أيّ داء ومرض، لابد من وجود ثلاثة عناصر أساسية:

١ ـ الشعور بالألم.

٢ ـ معرفة عوامل الداء وأسبابه.

٣ ـ طريقة مكافحة الداء.

واذا علمنا انّ الغيبة، احدى المعاصي الكبيرة والأمراض الاخلاقية الخطيرة، فلابد باديءَ ذي بدء من تحديد عوامل هذا المرض للقضاء عليها وبالتالي القضاء على اعراض المرض. وعوامل داء الغيبة وعلله كثيرة جداً، ويمكن الرجوع على هذا الصعيد الى كتب الاخلاق، اذ فيها الكثير مما يغني ويفيد. وسنقوم بدورنا بعرض شيء منها مع اضافة بعض التوضيحات بما ينسجم مع البحث.

وقبل الدخول الى صلب الموضوع، نجد من الضروري الاشارة الى ثلاث نقاط مهمة، هي بمثابة رصيد ودعامة لما سيلي من مباحث:

أ ـ الرصيد الايماني

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٤٢.

(٢) تحف العقول، ص ٢٦٤.

لاشك في انّ عنصر الايمان، اهم العوامل المؤثرة في مجابهة عوامل الفساد والأسقام المعنوية والنفسية، لا سيا الايمان بالله واليوم الآخر. فمن لديه ايمان بالله تعالى ويوم الجزاء، قلّما يرتكب الذنب الكبير لا سيا التهمة والغيبة. فكيف يمكن لمن يؤمن بأنّ هناك حساباً وأجراً وعقاباً، ولا يخاف الذنب ولا يخشى المعصية؟ اللهم إلّا اذا كان قد آمن بلسانه فقط ولم يلامس هذا الايمانُ شغافَ قلبه. وقد قال الله تعالى في أصحاب مثل هذا الايمان:

﴿قالتِ الأعرابُ آمنّا قُل لم تُؤمِنوا ولكن قولوا أسلَمنا ولمّا يدخُلِ الايمانُ في قُلوبِكُم ...﴾[1].

كما قال جلّ وعلا في آية اخرى:

﴿... يقولون بأفواهِهِم ما ليسَ في قُلوبِهِم ...﴾[2].

ب ـ ذكر الله:

يقول الامام الصادق عليه السلام:

«... فان أردت الاسلامَ فاذكُر الخالقَ لا المخلوق، فيصير لكَ مكانُ الغيبة عبرةً، ومكانُ الاثم ثواباً»[3].

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«ذِكرُ الله دواءُ أعلالِ النفوس»[4].

ج ـ التذكُّر والانتقاد الذاتي

العارف بما لديه من ذنوب والمعترف بها، لا ينطلق الى تعيير الناس وذكر عيوبهم. فالغرور والأنانية يقفان في معظم الأحيان خلف انطلاق المرء للبحث عن عيوب الآخرين. فالانسان الذي يرى نفسه تضجّ بالعيب وتصرخ بالنقص،

---

(١) الحجرات / ١٤.

(٢) آل عمران / ١٦٧.

(٣) مصباح الشريعة، الباب ١٠٠.

(٤) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ١٢٤، الرقم ٥١٦٩.

يستقبح لها ان تنال من الآخرين وتنتقدهم لعيوب شبيهة بعيوبه. وقد قال الرسول الأكرمﷺ فيمن هو مشغول بعيوبه عن عيوب غيره:

«طوبى لِمَن شغلَهُ عيبُهُ عن عُيوبِ الناسِ»[1].

أكبر العيوب

ورد عن الامام عليؑ قوله:

«أكبرُ العيبِ أن تعيبَ غيرَكَ بما هو فيكَ»[2].

وقال ايضاً في حديث مماثل:

«اكبرُ العيبِ أن تعيبَ ما فيكَ مِثلُهُ»[3].

شرّ الناس

قال أمير المؤمنين عليؑ:

«شرُّ الناسِ مَن كانَ مُتتبِّعاً لِعُيوبِ الناسِ عمِيّاً لمعايبِهِ»[4].

عينُه عمياء عن رؤية ذرةٍ من عيوبه

بينما لسانه يلهج بعيوب غيره[5]

فبعض الناس ينهمكون في الحديث عن عيوب الآخرين ونقاط ضعفهم متناسين اخطاءهم ومتجاهلينها. وقال رسول اللهﷺ في ذلك:

«يُبصِرُ أحدُكُم القذاةَ في عينِ أخيه ويدَعُ الجِذعَ في عينِهِ»[6].

لا نُبصرُ عيبَنا البادي للعيان

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٦٤.

(٢) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٨٦، الرقم ٣١٦٧.

(٣) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٣٤٥.

(٤) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٢٨٧، الرقم ٥٧٣٩.

(٥) المثنوي المعنوي، الدفتر ٣، ص ٥١ (ترجمة لبيت فارسي).

(٦) تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٣٢٧.

ونمزّقُ حُجبَ عيوبِ الناس[١]

بإيجاز، العاقل هو ذلك المنهمك في عيوبه والمنشغل بها عن عيوب الناس.

قال أحدهم:

المرءُ ان كانَ عاقلاً ورِعاً
أشغلَهُ عن عيوبه ورَعُه
كما السقيم المريض يشغَلُهُ
عن وجَعِ الناس كلِّهم وجَعُه[٢]

وقال آخر:

لا تكشفَنَّ مساوي الناسِ ما ستروا
فيهتِكُ الله ستراً عن مساويكا
واذكُر محاسِنَ ما فيهم اذا ذُكِروا
ولا تَعِب أحداً مِنهُم بِما فيكا[٣]

وقال الامام علي عليه السلام:

«مَن نظر في عيبِ نفسهِ اشتغلَ عن عيبِ غيرِهِ»[٤].

وقال الامام الباقر عليه السلام:

«قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: ثلاثُ خصالٍ من كُنَّ فيه او واحدةٌ مِنهُنَّ كان في ظِلِّ عرشِ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة، يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّهُ: رجلٌ أعطى الناسَ مِن نفسهِ ما هو سائِلُهُم لها، ورجلٌ لم يُقدِّم رِجلاً ولم يُؤخِّر أُخرى حتى يعلَمَ أنَّ ذلك للهِ فيه رِضىً أو سخطٌ، ورجُلٌ لم يعِب أخاهُ المسلمَ بعيبٍ حتى ينفي ذلكَ العيبَ مِن

---

(١) ترجمة لبيت شعر فارسي.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٢٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٢٧.

(٤) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٣٤١؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٤٩.

نفسهِ فانَّهُ لا ينفي منها عيباً إلّا بدا عيبٌ، وكفى بالمرءِ شُغلاً بنفسهِ عن الناسِ»[١].

اذن لو تدبّر المرء في الآيات القرآنية والأحاديث الواردة في ذمّ الغيبة، وفكّر في النتائج الوخيمة التي تخلّفها هذه المعصية والاضرار الدنيوية والاخروية التي تنعكس عنها، لما بادر الى ارتكابها قط.

ومما ورد أيضاً عن الامام علي عليه السلام في النهي عن الغيبة ما يلي:

«وانّما ينبغي لأهلِ العصمةِ والمصنوعِ اليهم في السلامةِ أن يرحموا أهلَ الذنوبِ والمعصيةِ ويكونَ الشُّكرُ هُوَ الغالبَ عليهِم والحاجِزَ لهم عنهم، فكيف بالعائبِ الذي عابَ أخاهُ وعيَّرَهُ ببلواهُ؟!

أما ذَكَرَ موضِعَ سترِ الله عليه مِن ذنوبه مِمّا هُوَ أعظمُ مِنَ الذنبِ الذي عابَهُ بهِ؟ وكيف يَذُمُّهُ بذنبٍ قد ركِبَ مِثلَهُ؟! فان لم يكن ركبَ ذلك الذنبَ بعينهِ فقد عصى الله فيما سواهُ مِمّا هُوَ أعظمُ مِنهُ. وأيمِ الله لئِن لم يكن عصاهُ في الكبيرِ وعصاهُ في الصغيرِ، لجُرأتُهُ على عيبِ الناسِ أكبرُ!

يا عبدَ الله! لا تعجَل في عيبِ أحدٍ بذنبه، فلعلَّهُ مغفورٌ لهُ ولا تأمَنْ على نفسِكَ صغيرَ معصيةٍ فلعلَّكَ مُعذَّبٌ عليه، فليكفُف مَن علِمَ مِنكُم عيبَ غيرِه لِما يعلَمُ مِن عيبِ نفسهِ، وليكُن الشُّكرُ شاغلاً لَهُ على مُعافاتهِ مِمّا ابتُليَ بِهِ غيرُهُ»[٢].

عوامل الغيبة وبواعثها

١ـ التطبّع بطباع الأصدقاء

يُعدّ التطبع بطباع الاصدقاء والجلساء والتلون بألوانهم، من بواعث الغيبة وأسبابها. يتصور البعض انّ حسن المعاشرة يقتضي أن يسلك المرء سلوكاً لا يثير استياء أحد ولا يبعث على تذمره منه؛ في حين يُعدُّ هذا النمط من السلوك نوعاً من النفاق واللاابالية ازاء المسؤوليات. فهؤلاء الذين يريدون أن يرضى عنهم الجميع

(١) الخصال، الصدوق، ج ١، ص ١٠٩، ح ٣.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١٤٠ نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٤٠.

وأن لا يبرز لهم على ساحة الواقع ولو عدو واحد، انما هم افراد متلونون ولا نصيب لهم من الفضائل الانسانية والأخلاقية ولم يذوقوا طعم الايمان والأخلاق، اي انهم يرقصون على كل ايقاع، وينعقون مع كلّ ناعق، ويجرون حيثما تجري الريح، ويرددون:

تعايش مع الصالح والطالح بحيث اذا متَّ
غسَّلكَ المسلمُ بزمزمِ وأحرقك الهندوسي

أو على قول بعضهم:

«اذا لم تُرِد الفضيحة، فتلوّن بلون الجماعة» أي فكن معهم ومثلهم.

طبقات الناس من منظار الامام علي عليه السلام

قسَّم الامام علي عليه السلام الناس الى ثلاث طبقات:

«الناس ثلاثةٌ: فعالِمٌ ربّانيٌّ، ومُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ، وهمَجٌ رعاعٌ أتباعُ كُلِّ ناعقٍ، يميلونَ مع كُلِّ ريحٍ، لم يستضيئُوا بنور العِلمِ ولم يلجَؤُوا الى رُكنٍ وثيقٍ»[1].

والحقيقة هي انّ اكثرية الناس، تنطوي تحت لواء الطبقة الثالثة. فهؤلاء ومن اجل اكتساب ودّ الأصدقاء والأصحاب، يتلونون بألوانهم، وينهمكون في تعيير الآخرين والنيل منهم ارضاءً لهم، وإنْ أدّى ذلك الى سخط الله تعالى وغضبه.

ويقول العالم الرباني الفيض الكاشاني رضوان الله عليه بهذا الصدد:

«وأما الموافقة فبأن تعلم انّ الله يغضب عليك اذا طلبتَ سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقّر غيرك وتحقّر مولاك، فتترك رضاه لرضاهم، إلّا أن يكون غضبك لله وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء، بل ينبغي ان تغضب لله على رفقائك اذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة»[2].

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ١٤٧.

(٢) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٦٥ و٢٦٦.

وهكذا ينبغي علينا ألا نكون بلا ارادة ولا اختيار الى هذا المستوى بحيث نتلوّن كالحرباء بلون كل محيط ندخله، ونتناغم مع الآخرين بدلاً من الدفاع عن اخينا في الدين، ونتبري لهتك حرمته والتحدث عن عيوبه.

لابد للانسان المسلم أن يتصدى للمعصية ما يستطيع، وأن يمنع المغتابين من التمادي في اغتيابهم، والا فعليه أن يغادر مجلس الغيبة معبّراً بهذه الطريقة عن استيائه من المعصية، ومحققاً الانتصار لأخيه المسلم، وفوق ذلك كله نائلاً رضا البارئ تعالى، حتى وان سبب ذلك استياء جوقة الأصدقاء. أما اذا لم يقم بهذا الدور فسيكون في زمرة من أشار اليهم القرآن الكريم:

﴿ما سلَكَكُم في سقَرَ قالوا لم نكُ مِنَ المصلّينَ ولم نكُ نُطعِمُ المسكينَ وكُنّا نخوضُ مع الخائضينَ﴾[1].

من ذلك نفهم انّ من يشارك في كل محفل ومجلس، ولا يتهيّب من قول ايّ كلام مهما كان، فانّه من أهل النار. اما اولئك الذين يبحثون عن النجاة من العذاب الالهي فينبغي لهم أن يتفادوا مجالسة غير الصالحين ومعاشرة اهل المِراء الذين لا شغل لهم سوى اغتياب المؤمنين وتجاهل ـ في واقع الأمر ـ آيات الله وأحكامه والاستهزاء بها. وقد وصف القرآن الكريم عباد الرحمن بقوله:

﴿... واذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرّوا كِراماً﴾[2].

٢ ـ تنزيه النفس

يُعد تنزيه النفس من العوامل الاخرى الكامنة خلف الغيبة، اذ يلجأ الانسان ويهدف تنزيه نفسه وتبرئة ساحته من الاتهامات الموجَّهة اليه إما الى لصق تلك الاتهامات بغيره أو الى اشراك غيره معه فيها، كأن يقول: هذه المعصية من عمل فلان، او اني لم ارتكبها وحدي وانما فعلها فلان معي أيضاً!

---

(١) المدثر / ٤٢ ـ ٤٥.
(٢) الفرقان / ٧٢.

ومثل هذا السلوك ناشئ ولاشك من الجهل وفقدان التقوى، اذ لا يجوز لأحد ان يتهم غيره او يغتابه لا لشيء إلّا لاثبات براءته.

ولو افترضنا انّ الفاعل للمعصية او عمل السوء كان شخصاً غيري، فما هي ضرورة أن افشي سره واريق ماء وجهه؟ وهبْ اني لم ارتكب ما نُسب الي من عمل قبيح، فبامكاني أن ادافع عن نفسي وأرفض الاتهام الموجَّه الي، لا أن احاول تبرئة نفسي من خلال جرّ غيري الى هذا الاتهام او الصاق الجريمة بغيري.

يقول الفيض الكاشاني بهذا الشأن: «وأما تنزيه النفس بنسبة الخيانة الى الغير حيث تستغني عن ذكر الغير فعالجته بأن تعرف أنَّ التعرض لمقت الخالق أشدّ من التعرض لمقت الخلق. وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقيناً ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس ام لا، فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم، وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة وتحصل ذمّ الله لك نقداً وتنتظر دفع ذمّ الخلق نسيئةً، وهذا غاية الجهل والخذلان.

واما عذرك كقولك: اني ان اكلتُ الحرامَ ففلان يأكله، وان قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فانَّ مَن خالف أمر الله لا يقتدى به كائناً من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه، ولو وافقته لسفّه عقلك، ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه، وسجّلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر الى المعزى تردي نفسها من الجبل فهي ايضاً تردي نفسها من الجبل. ولو كان لها لسان ناطق وصرحت بالعذر وقالت: العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا افعل، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تتعجب ولا تضحك من نفسك»[١].

وهكذا لا ينبغي للمرء تبرير عمله القبيح بذريعة انّ الآخرين قد قاموا به

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٦٦.

أو فعلوا فعلاً حراماً أيضاً، اذ انّ مثل هذه الاعذار والذرائع غير مقبولة عند الله.

٣ـ التباهي والزهو

يُصاب البعض بالغيبة بفعل ما لديهم من عُجب وزهو وغرور، اذ انهم ولأجل الاعلان عن وجودهم والتبجح بفضلهم وكمالهم، يتخذون اسلوب احتقار الآخرين واستصغارهم واغتيابهم بما لا يليق من الكلمات، كقولهم انّ زيداً لا يعرف وأن عَمْراً كذا وكذا، هادفين من وراء ذلك كله ان يبرهنوا على انهم افضل من غيرهم، غير مترددين في ذلك عن الصاق ما يشاؤون من العيوب بهم. وقد فات هؤلاء انّ مثل هذا السلوك ليس لا يجلب اهتمام الناس فحسب، وانما يجني صاحبه من ورائه احتقارهم ايضاً. ويمكن ان يكون هذا المرض سبباً في ارتكاب الكثير من المعاصي الكبيرة الاخرى. ولهذا تصدى القرآن الكريم والأحاديث لهذا النوع من السلوك الشنيع واعتبرته مذموماً.

التباهي من وجهة نظر القرآن

يوصي القرآن الكريم أن لا يزكّي أيٌّ منا نفسه وأن لا يعيب الآخرين، اذ ليس بمقدور أحد ان يعلم ما في نفوس الغير وما يدور في ضمائرهم. ولذلك يقول:

﴿... فلا تُزَكّوا انفُسَكُم هُوَ أعلمُ بمنِ اتّقى﴾[1].

وقال في موضع آخر:

﴿ألم ترَ الى الذين يُزَكّونَ أنفُسَهُم بلِ الله يُزَكّي من يشاءُ ولا يُظلَمونَ فتيلاً﴾[2].

اذن ينبغي على المرء اجتناب التباهي والزهو، والحذر من تزكية النفس، اذ ليس بمقدور أي أحد ان يعدّ نفسه سليماً من العيوب ونقياً من الذنوب، ولو فعل

---

(١) النجم / ٣٢.

(٢) النساء / ٤٩.

ذلك فانه قد ارتكب عملاً شيطانياً وحذا حذو المتكبرين والحمق.

التباهي في الأحاديث

ذمّت الأحاديث بدورها التباهي والزهو ذماً جاداً. ومنها:

قال الامام علي عليه السلام في وصف المتقين:

«... لا يرضَونَ مِن أعمالهم القليلَ ولا يستكثرونَ الكثيرَ، فهُم لأنفُسِهِم مُتَّهِمُونَ، ومِن أعمالِهِم مُشفِقُونَ، اذا زُكِّيَ أحَدٌ مِنهُم خافَ مِمّا يُقالُ لهُ! فيقولُ أنا أعلَمُ بنفسي مِن غيري، وربّي أعلَمُ بي مِنّي بنفسي، اللهُمَّ لا تُؤاخِذني بما يقولونَ واجعلني أفضلَ مِمّا يَظُنُّونَ واغفِر لي ما لا يعلمونَ ...»[1].

وجاء في كتابٍ بعثه الى معاوية بن ابي سفيان:

«... ولولا ما نهى الله عنه من تزكيةِ المرءِ لنفسه لذكَرَ ذاكرٌ فضائِلَ جمّةً تعرِفُها قلوبُ المؤمنينَ ولا تمُجُّها آذانُ السامعينَ ...»[2].

وقال في موضع آخر:

«أقبحُ الصِّدقِ ثناءُ الرجلِ على نفسِهِ»[3].

اذن لا ينبغي للمرء أن يرى نفسه أفضل من غيره بل أن يرى غيره أفضل منه. وفي هذا قال الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

«... العاشرةُ وما العاشرةُ. قيلَ له ما هي؟ قال عليه السلام: لا يرى أحداً إلّا قالَ هو خيرٌ منّي وأتقى. انما الناسُ رجُلانِ: رجلٌ خيرٌ منه وأتقى، ورجُلٌ شرٌّ منه وأدنى، فاذا لقِيَ الذي شرٌّ منهُ وأدنى قالَ لعلَّ خيرُ هذا باطِنٌ وهُوَ خيرٌ له وخيري ظاهرٌ وهو شرٌّ لي. واذا رأى الذي هُوَ خيرٌ منه وأتقى تواضعَ لَهُ ليلحقَ به. فاذا فعلَ ذلكَ فقد علا مجدُهُ، وطابَ خيرُهُ، وحسُنَ ذكرُهُ، وسادَ أهلَ زمانِهِ»[4].

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١٩٣.

(٢) نفس المصدر، ك ٢٨.

(٣) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٦١، الرقم ٢٩٤٢.

(٤) تحف العقول، ص ٤٤٣، ط قم.

وصفوة الكلام هي ان لا ينطلق المرء لتعيير الآخرين والانتقاص منهم بحجة تزكية نفسه والاشادة بها، سيا وانّ تزكية النفس مرفوضة في الاسلام. ولا بد أن نقول بأنَّ مَن يُلحق الاهانة بالآخرين من خلال التباهي والتفاخر، من الممكن أن يخلق لدى البعض سوء الظن بالشخص المستغاب، إلّا انّ عليه أن يعلم بأنه علاوة على خسرانه لفضيلته عند الله نظراً لتزلّفه الى الناس، لن يأمن الغضب الالهي يوم القيامة وليس بامكان الناس الذين سعى لارضائهم انقاذه من ذلك الغضب.

٤ـ الحسد

الحسد هو الآخر من العوامل التي تبعث على ظهور معصية الغيبة، ومن اجل علاج هذا المرض لابد من التفكير ببشاعة هذه المعصية، اذ أنّ الذي يغتاب بدافع الحسد يكون قد ارتكب ذنبين في آن واحد وابتاع لنفسه عذابين: عذاب الحسد، وعذاب الغيبة، وهما من المعاصي الكبيرة. فالحسود يتمنّى زوال النعمة التي أغدقها الله تعالى على غيره، وهي حالة مرَضيّة تخلق لديه العذاب النفسي الذي لا ينتهي في الدنيا وانما يُضاف اليه عذاب الآخرة ايضاً فيخسر الدنيا والآخرة معاً.

فاذا كان هدف الحسود من الغيبة القضاء على المحسود، إلّا انه يقضي على نفسه في حقيقة الأمر ويُلحق بها الدمار، اذ انه سيهدي دون أن يريد كل ما لديه من حسنات وأعمال صالحة الى ذلك الذي حسده واغتابه. لذلك يُعدّ الحسود عدوّ نفسه وصديق مَن يحسده ويغتابه، لأنّ سيئات المستغاب تُسجّل في كتاب المغتاب، وحسنات المغتاب تسجل في كتاب المستغاب.

الغيبة عن حسد، دليل على منتهى الجهل والبلاهة، اذ ما اكثر الحسد والاغتياب اللذين عملا على اعلاء شأن المحسود والمستغاب بين الناس وازدياد جماهيريته. فليس كلّ تعييب من قبل غير المتقين والفاسقين يبعث على زعزعة النجاحات التي يحققها المرء او يفرّق الناس عنه، بل قد يؤدي الى استقطابه لمزيد

من ودّ الناس وحبّهم واحترامهم. فدَعِ الخبثاء يقولوا ما يحلو لهم اذ: كلُّ اناء ينضح بما فيه.

وبرهنت التجارب على انّ الناس في مثل هذه الاحوال، وبدلاً من اخذهم بكلام الحاسدين، ينزعون نحو مَن وقع عليهم الظلم ويزداد التفافهم حولهم:

واذا ارادَ الله نشرَ فضيلةٍ طُوِيت أتاحَ لها لسانَ حسودِ[1]

٥ـ السخرية والاستهزاء

ويُعدّ هذا العامل، احد عوامل الغيبة ايضاً. ويتحدث صاحب المحجة البيضاء ما مضمونه لو انك تريد باستهزائك أن تُذلّ غيرك في نظر الناس فاعلم بأنك قد أذللتَ نفسك لدى الله والملائكة والانبياء. ولو فكّرت للحظةٍ في حسرة يوم القيامة والجرائم التي ارتكبتها في الدنيا، وفي عار يوم المحشر والافتضاح في ذلك اليوم، وما يجب عليك أن تحمله من ذنوبٍ وأوزارٍ ووبالاتِ مَن سخرتَ منهم وما تتحمله من عذاب بدلاً منهم، لما بادرتَ قط الى السخرية من الآخرين واحتقارهم.

فحينما تسخر من شخص ما من أجل أن يضحك الآخرون عليه ويصغر في أعينهم، لو فكّرت مليّاً في الأمر لوجدتَ انكَ أولى أن يسخر الآخرون منك ويضحكوا عليك، واعلم انك لو استهزأتَ بمسلم وسخرتَ منه أمام البعض، فسيُستهزأ بك في يوم القيامة أمام انظار الخلائق كافة.

فلو التفت المرء الى باطن أعماله لأقلع عن الكثير من الذنوب والمعاصي، ونفض يديه عن الاعمال القبيحة، لأنّ للعالم ظاهراً وباطناً، وأنه أشبه بالورقة التي لديها صفحتان: فالناظر الى احدى الصفحتين لا يرى ما هو مكتوب في الصفحة الاخرى، إلّا ان عدم رؤيته للصفحة الاخرى لا يعني عدم وجود شيء فيها.

---

(١) المحجة البيضاء، ج٥، ص٢٦٧. سنتحدث عن الحسد فيما بعد تفصيلاً.

من ذلك ندرك انّ الاعمال التي نقوم بها، موجودة في باطن العالم، وانها تظهر في يوم القيامة الذي هو بمثابة الصفحة الاخرى للعالم. هذا فضلاً عن انّ الله تعالى يراقب أعمالنا ويراها مع الرسولﷺ والأولياء، حيث قال تعالى:

﴿وقُلِ اعملوا فسيرى الله عملَكُم ورسولُهُ والمؤمنونَ وستُرَدُّونَ الى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ فيُنبّئُكُم بما كُنتُم تعملونَ﴾[1].

عَرْضُ الأعمال

هناك العديد من الأحاديث الواردة في تفسير الآية أعلاه والمتحدثة عن كيفية عرض الأعمال على الرسول محمدﷺ والأئمة المعصومينعليهم السلام، لابد لنا ان نضعها نصب أعيننا دائماً من أجل الحذر والدقة في أعمالنا وسلوكياتنا وأقوالنا.

قال الامام الصادقعليه السلام:

«تُعرضُ الأعمالُ على رسول اللهﷺ، أعمالُ العبادِ، كُلَّ صباحٍ، أبرارِها، وفُجّارِها، فاحذَروها، وهو قولُ الله تعالى: «اعملوا فسيرى الله عملَكُم ورسولُهُ، وسكت»[2].

وقال رجل يدعى سماعة انه سمع الامام الصادقعليه السلام يقول:

ما لكم تسوؤُونَ رسولَ اللهﷺ؟

فقال له رجل: كيف نسوؤُه؟

فقال: أما تعلمونَ أنّ أعمالكم تُعرَضُ عليه، فاذا رأى فيها معصيةً ساءَه ذلك، فلا تسُوؤُوا رسولَ الله وسُرُّوه»[3].

وقال الامام الباقرعليه السلام:

«انّ الأعمالَ تُعرَضُ على نبيِّكُم كُلَّ عشيّةِ الخميسِ، فليَستَحِ أحدُكُم أن

---

(١) التوبة / ١٠٥.

(٢) اصول الكافي، ط اسلامية، ج ١، ص ٢١٩، باب عرض الأعمال، ح ١؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٥٧، ح ١.

(٣) اصول الكافي، ج ١، ص ٢١٩، ح ٣؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٥٧، ح ٣.

يُعرَضَ على نبيِّهِ العمَلُ القبيحُ»[١].

وورد في حديث آخر أنّ عبد الله بن أبان الزيات ـ وكان ذا منزلة خاصة لدى الامام الرضاعليه السلام ـ قال: قلت للامام الرضاعليه السلام:

«أُدعُ الله لي ولأهل بيتي.

فقال: أوَلستُ افعلُ، والله انَّ أعمالَكُم لتُعرَضُ عليَّ في كُلِّ يومٍ وليلةٍ.

قال: فاستعظمتُ ذلك.

فقال لي: أما تقرأُ كتابَ الله عزَّ وجلَّ ﴿وقُلِ اعملوا فسيرى الله عملَكُم ورسولُهُ والمؤمنون﴾؟ قال: هو والله عليُّ بن أبي طالبعليه السلام»[٢].

اذن لو علم أحد انّ لعالم الوجود وجهين وأنّ اعماله تُكتَب في تلك الصفحة وتُعرَض على اولياء الله تعالى، فلن يحدّث نفسه بالسخرية من عباد الله، لأن جميع أعماله وأفعاله وتصرفاته ستظهر على مسرح العرض، وسيغرق يومئذ في الحسرة والندم، ولكن ما فائدة الندم؟

قال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر....﴾[٣].

اذن من يستهزئ بالآخرين ويسخر منهم من خلال الاغتياب، عليه أن يعلم بأنه سيلق السخرية من الجميع يوم القيامة وعلى مرأى الخلائق كافة ويفتضح أمره أمام الانبياء والأولياء عليهم السلام.

٦ ـ التظاهر بالتعاطف والترحُّم

قد يُصاب المرء بالغيبة أحياناً ضمن اطار التعاطف والترحم. والتعاطف بحد ذاته أمر ممدوح ومقبول اذا كان لله ولم يختلط بذنب وموبقة. لكن هناك من التعاطف ما يكون منطلقاً عن الحسد والاهانة وان اخذ طابع حبّ الخير والترحم. فالمغتاب في مثل هذه الحال يحاول ان يُشبع ما لديه من شعور بالحسد

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٥٨، ح ١٢.

(٢) اصول الكافي، ج ١، ص ٢١٩، باب عرض الاعمال، ح ٤.

(٣) مريم / ٣٩.

والانتقام في اطار التعاطف. وقد يشتبه هذا الأمر عليه أيضاً؛ ولكن مع شيء من التأمل والتدقيق يظهر انّ الباعث الأساسي ليس التعاطف أبداً. فلو قال مثلاً: مسكينٌ فلان انه غارق حتى اذنيه في الخطيئة، نسأل الله ان ينقذه! فانه بهذه العبارة التي أخذت طابع التعاطف وصيغة الدعاء حاول ان ينال من ذلك الشخص، وهو عمل اغتيابي ولا شك، بل ويُعدّ نمطاً من الرياء والنفاق ايضاً!

ولا شك في انّ الشيطان هو المحرض الاول على مثل هذا الكلام، وقد دفعه للاغتياب بحجة التعبير عن التعاطف، بينما قد ارتكب في الحقيقة ذنباً لم يُبقِ له شيئاً من الأجر.

وهناك عوامل اخرى تقف خلف الغيبة ايضاً نغضّ الطرف عنها مراعاةً للايجاز.

الغيبة الجائزة

رغم انّ الغيبة، احدى المعاصي الكبيرة التي نهى عنها القرآن الكريم والأحاديث بشدة، إلّا انّ هناك بعض الحالات المستثناة من هذه العمومية، ولا تُعدّ الغيبة فيها معصية وحراماً.

ونظراً لما يتميز به هذا الموضوع من أهمية خاصة، لهذا لو أردنا ان نبحثه من جميع جوانبه ونركز على ما فيه من نقاط دقيقة، لكنا بحاجة الى فرصة اخرى ومجال أوسع. ولابد لنا هنا من استعراضه بشكل موجز والاشارة الى أهم ما فيه من نقاط.

ولابد في بادئ الأمر من القول بأنّ الغيبة لمّا كانت من المعاصي الكبيرة، وبما انها عمل في منتهى القبح والبشاعة، فينبغي ان تحظى الحالات التي يُسمح فيها بالغيبة بأهمية خاصة، كي يكون بامكانها مجابهة مفسدة الغيبة والتعتيم عليها. ولابد ان تتم عملية التمييز بين الأهم والمهم وترجيح شيء على شيء آخر، على اساس المعايير المعتبرة الصحيحة التي يرضى بها الله سبحانه.

من الطبيعي، ليس بامكان المعايير القائمة على الظن والوهم، والناشئة في بعض

الأحيان من الأغراض الشخصية والعقد والتبريرات والنوازع النفسية والوساوس الشيطانية، أن تجيز الغيبة. بتعبير آخر: لا يمكن تجويز الغيبة إلّا اذا كانت هناك وبشكل قاطع وباتّ مصلحة ضرورية وأهمّ لابد لحفظها من اللجوء الى الغيبة.

اذن لو بادر أحدهم الى الغيبة تحت تأثير الوساوس الشيطانية او بذريعة انّ فلاناً تجوز غيبته، او انّ هذه الحالة من حالات الاستثناء، فلاشك في انه مذنب وعاص، وليس بمقدور مثل هذه الذرائع والحجج ان تجيز له الغيبة، ما لم يميّز بين الحالات في منتهى الحزم والحذر والواقعية والانصاف، ويكن على معرفة كاملة بما هو حلال وما هو حرام. نعوذ بالله تعالى من تسويلات النفس الأمارة بالسوء.

وعلى ضوء المقدمة اعلاه، نشير ادناه الى بعض الحالات الاستثنائية[١]:

١ـ الدعوى

الذي يتعرض للظلم، لابد له حينما يقدم دعوى لدى الحاكم ان يتحدث عن الظلم الذي لحق به، ويكشف عن اسم مَن ألحق به ذلك الظلم. فان لم يفصح عن اسمه ولم يفض الى المحكمة بتفاصيل ما وقع عليه من ظلم، فليس بمقدور الحاكم البتّ في موضوع الدعوى واصدار حكم فيها. لذلك ليس امام المدّعي سوى اغتياب من ظلمه.

فمن كان مديناً على سبيل المثال وبمقدوره دفع ما عليه من دين للدائن، إلّا انه كان يماطل في الدفع ويتهرب منه بطريقة واخرى، فمن حق الدائن في هذه الحالة ان يغتابه لاحقاق حقه. ويستند تجويز الغيبة في ذلك الى قاعدة فقهية وحقوقية مستنبطة كمبدأ عام من حديث نبوي يقول:

«لَيُّ الواجِدِ بالدَّينِ يُحِلُّ عِرضَهُ وعقُوبتَهُ»[٢].

أي انّ التأخير في سداد الدين يدفع بالدائن الى رفع دعوى لدى الحاكم الذي

---

(١) تجدر الاشارة الى ان بعض حالات الاستثناء كالتجاهر بالفسق او العيوب الظاهرة من الممكن ألا تعد تخصّصاً من موضوع الغيبة، غير انّ الفقهاء وعلماء الاخلاق يعدّونها من مستثنيات الغيبة.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٩٠، كتاب التجارة، ح ٤.

ينبري بدوره للتحقيق في الأمر، وحينما يثبت له اهمال المدين ومماطلته، يُصدر بحقه العقوبة والتعزير.

وهكذا يتضح انّ الاهمال في تسديد الديون، يُلغي حصانة العرض ويوجب العقوبة، لأنّ التقصير في أداء الدين مع وجود الاستطاعة المالية، ظلم للدائن وانتهاك لحقوقه(١)، قال رسول الله ﷺ:

«مَطلُ الغنيّ ظُلمٌ»(٢).

---

(١) المدين ملزم مع الاستطاعة بدفع ما عليه من دين. وفي غير ذلك يحق للقاضي حبسه حتى يتحقق أحد شيئين: افلاسه، او اداء الدين. وقد ورد بهذا الشأن:

«انّ علياً (ع) كان يحبس في الدين فاذا تبيَّنَ له حاجةٌ وافلاسٌ خلّى سبيلَهُ حتى يستفيد مالاً». (وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١٤٨).

ولا يليق بالمرء التقصير في اداء دينه مع الاستطاعة، لأنّ الرسول (ص) قال:

«... لا يَحِلُّ لغريمِكَ أن يُمطِلَكَ وهُوَ موسِرٌ ...» (وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١١٣).

لكن حينما يكون المدين عاجزاً عن الدفع فلابد للدائن من امهاله الى حين الاستطاعة، اذ قال القرآن الكريم:

﴿وان كانَ ذو عُسرَةٍ فنَظِرَةٌ الى ميسَرَةٍ وأن تصدَّقُوا خيرٌ لكُم ان كُنتُم تعلمُونَ﴾. (البقرة / ٢٨٠).

وقال الرسول الأكرم (ص):

«... لا يحِلُّ لكَ أن تُعسِرَهُ اذا علمتَ أنَّهُ مُعسِرٌ». (وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١١٣).

كما نقرأ في احدى وصايا الامام الصادق (ع) لأصحابه:

«وايّاكُم واعسارَ أحَدٍ مِن اخوانِكُم المسلمينَ أن تُعسِروهُ بشيءٍ يكونُ لَكُم قِبَلَهُ وهُوَ مُعسِرٌ فانّ أبانا رسولَ الله (ص) كانَ يقول: ليس لمسلم أن يُعسِرَ مسلماً، ومَن أنظرَ مُعسِراً أظلَّهُ الله يومَ القيامةِ بظلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّهُ» (وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١١٣).

وهناك اختلاف في مقدار المهلة. فقد ورد في بعض الأحاديث والفتاوى أنها عام واحد، في حين لم يحدد البعض الآخر مدةً ما كالآية ٢٨٠ من سورة البقرة، اذ تشير الى استمرار المهلة مادام المدين معسراً. اما الأحاديث التي حدّدت المهلة بعام واحد فانها تقول ايضاً لو انّ المدين لم يتمكن من الدفع بعد انقضاء العام فعلى امام المسلمين ان يسدد عنه من بيت المال. حتى انّ القرآن الكريم قد ذكر الغارمين، كأحد موارد صرف الزكاة، والمراد بالغارمين، اولئك الذين ليس بمستطاعهم تسديد ما عليهم من ديون. (حول الغارمين، راجع: وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٩٠، الباب ٩).

(٢) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٩٠، كتاب التجارة، أبواب الدين والقرض، الباب ٨، ح ٣.

وهكذا، بامكان الدائن المظلوم ان يدافع عن حقه ويقيم دعوى على المدين الظالم لحقه، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لصاحِبِ الحقِّ مقالٌ»[١].

فالدعوى مهمة الى درجة بحيث يحق اقامتها حتى على الحاكم نفسه. اذ من الممكن ان يظلم الحاكم في الأحكام التي يصدرها وقد يقدّم الروابط على الضوابط ـ كما يقولون ـ من خلال الارتشاء او المحسوبية والمنسوبية، فيحكم بما هو خلاف حكم الاسلام. وفي مثل هذه الحالة يحق للمظلوم الاغتياب خلال المرافعة والتحقيق وذكر اسم ذلك الحاكم وذمّه أمام الجهات التي تبتّ في الامر.

باختصار لا اشكال في الغيبة والذمّ خلال الدعوى، وقد أعطى القرآن الكريم الحق للمظلوم كي يصرخ بمظلوميته ويطالب برفع ما وقع عليه من ظلم:

﴿لا يُحِبُّ الله الجَهرَ بالسوءِ مِنَ القولِ إلّا مَن ظُلِمَ وكانَ الله سميعاً عليماً﴾[٢].

وقال القرآن الكريم في موضع آخر:

﴿ولَمَنِ انتصرَ بعد ظُلمِهِ فأولئكَ ما عليهِم مِن سبيلٍ انّما السبيلُ على الذينَ يظلمونَ الناسَ ويبغُونَ في الارضِ بغيرِ الحقِّ اولئكَ لَهُم عذابٌ أليمٌ﴾[٣].

تنويه

وتجدر الاشارة الى انّ الغيبة في مثل هذه الحالة لا تجوز إلّا فيما يتعلق بذلك الظلم الذي رُفعت الدعوى عليه، ولا يحق للمدعي اغتياب المدّعى عليه في عيوبه الاخرى، اذ يُعدّ ذلك معصية وحراماً. ولكي لا يسمح القرآن الكريم باساءة استعمال هذا القانون، ذكر في نهاية الآية السابقة: ﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾، اي انّ الله عالم بما لديكم من نوايا، وهل لجأتم الى الغيبة لدفع الظلم أم للتنفيس عن العُقَد.

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٠.

(٢) النساء / ١٤٨.

(٣) الشورى / ٤١ و٤٢.

٢ ـ الاستنجاد للحيلولة دون المنكرات

يُعدّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحد مستثنيات الغيبة، اذ قد لا يصبح بمقدور المرء في بعض الأحيان ان يقف بوجه المنكر لوحده، فيجد نفسه مرغماً على الاستنجاد بالآخرين وبالجهات الرسمية المسؤولة كالشرطة والجهاز القضائي، وسائر المؤمنين وتقديم المعلومات الضرورية في هذا المجال كالاسم، ومحل وقوع المنكر، بهدف مكافحته والحيلولة دونه.

فلو علمتَ ـ مثلاً ـ بتحول احدى الدور الى مركز للفساد وتردد الكثيرين على هذا الوكر الفاسد، فماذا بامكانك أن تفعل؟ فاذا ما اردت اغلاق هذا الوكر والحيلولة دون ما تجري في داخله من أعمال لا أخلاقية، فليس أمامك سبيل سوى اخبار الناس بالأمر او الاتصال بالجهات القضائية ورجال الشرطة.

من الطبيعي ليس بالامكان التنصّل من المسؤولية في مثل هذه الحالة بذريعة حرمة الغيبة، لأنّ وجود مثل هذه الأوكار الفاسدة يشكل خطراً على اخلاق المجتمع الاسلامي وثقافته ويجرّ أفراده الى الفساد والرذيلة والتحلل الخلقي، ويدمّر طاقاته الفاعلة والمنتجة. ولذلك فقد أفتى العديد من الفقهاء حتى باعدام مَن يدير هذه المراكز بصفتهم مفسدين في الأرض.

من هنا، لو انبرى أحد لفضح أصحاب هذه المراكز الفاسدة بهدف التصدي للفساد ومكافحة المنكرات فليس لا يعدّ عمله غيبة وحراماً فحسب، وانما قد هبَّ لأداء عمل واجب ايضاً.

٣ ـ الاستفتاء

يُعدّ الاستفتاء والسؤال عن الحكم الشرعي، من الحالات التي تجوز فيها الغيبة، اذ قد يجد المرء نفسه مجبراً في بعض الأحيان لذكر اسم شخص او عدد من الاشخاص حين يسأل عن مسألة شرعية، ولا ضير في ذكر الاسم اذا كانت تلك المسألة مهمة وحياتية. كأن يقول السائل او المستفتي انّ ابي او اخي قد ظلمني وأضاع حقوقي، فهل رأيي في هذه المسألة صحيح؟ واذا كان صحيحاً، فهل

بامكاني أن اقيم الدعوى على ابي او اخي؟ فارشدوني على هذا الصعيد وأخبروني بحقيقة الامر كي انطلق لاستيفاء حقي ضمن اطار ما هو جائز لي دون أن أتجاوز في ذلك الحدود الشرعية أو انتهك كرامة احد بدون مبرر.

ويرجع التصريح بالاسم في هذه المسألة وغيرها من المسائل المماثلة لضرورة أن تتضح المسألة بجميع أبعادها للفقيه حتى يسهل عليه اعطاء الجواب المناسب. اما اذا لم يكن للأسماء تأثير على ذلك، فلا يجوز ذكرها.

انطلاقاً من ذلك، لابد من الاستعانة بالكناية والاشارة في مثل هذه الحالات قدر الامكان، والاكتفاء بأقل حد ممكن من المعلومات الخاصة بالسؤال الشرعي، كما لو يقول: ما هو رأيكم فيمن يظلمه أبوه او اخوه؟ اما اذا لم يجد امامه سبيلاً سوى التطرق الى الأسماء، جازت الغيبة آنذاك ولا تُعدّ ذنباً ولا معصية.

٤ ـ الغيبة بدافع التحذير

يُعدّ التحذير من خطر يتهدد المسلم، أحد الأسباب التي تسوّغ الغيبة. فلو رأى المرء أحد أصدقائه على علاقة مع فئة أو جهة ما والتي تضر بمصلحته، فلابد من وضعه في الصورة وتحذيره من الاخطار التي من الممكن ان تطاله من خلال استمراره في تلك العلاقة. فلو كان هذا الصديق معاشراً لأشخاص لا يعرف ما لديهم من عيوب وسلبيات ولو ظلّ على عشرته لهم لوقع تحت تأثير تلك العيوب بشكل تدريجي، فلابد في مثل هذه الحال من كشف عيوبهم له كي يكون تعامله معهم عن بصيرة ووعي، وقال الرسول الاكرم محمد ﷺ:

«أترغبونَ عن ذِكرِ الفاجرِ حتى لا يعرِفَهُ الناس، أُذكُروهُ بما فيه يحذرهُ الناسُ»[1].

٥ ـ اللقب المشهور

لا مانع من الاشارة الى الشخص بالاسم او اللقب الذي اشتهر به حتى وان

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧١.

كان يعبّر عن عيب او نقص لدى ذلك الشخص، اذا كان ذلك العيب قد فقد قُبحه بمرور الزمن بحيث لو ناداه أحد بذلك اللقب الدال على العيب، لما شعر بالاستياء والضجر. فلو كان أحدهم أعمى وعُرِف بين الناس بالأعمى بحيث راح يقال جاء الأعمى وذهب الأعمى وقال الأعمى هكذا، او لو كان أعرجَ وأخذ الناس يشيرون اليه بالأعرج حين تحدثهم عنه، دون أن يقصد اي منهم تعييره او التعييب عليه، ودون ان يشعر هذا الرجل الأعمى او الاعرج بالاستياء من ذلك، فلا يُعدّ تصرف هؤلاء الناس غيبةً.

ونجد بين رواة الأحاديث من يُشار اليه بالنقص العضوي الذي لديه، بحيث غدا ذلك النقص وكأنّه اسم يُعرف به، كالأعور[١]، والأعمش[٢].

والجدير بالذكر انّ هذا الاستثناء لا يُعدّ مصداقاً إلّا اذا كان الافصاح عن العيوب المشهودة وغير المشهودة غيبةً. وتخرج موارد هذا الاستثناء عن مصداق الغيبة اذا كانت الغيبة تعني الافصاح عن السر فقط؛ وفي حال عدم الرضا، تأخذ اطار اهانة المؤمن او ايذائه، لا اطار الغيبة (والله أعلم).

٦ ـ الغيبة عند الاستشارة

تُعدّ الغيبة جائزة في حالة الاستشارة. فلو استشير شخص في قضايا فردية او اجتماعية مهمة كالزواج والمعاملات او استخدام وعزل الموظفين والشخصيات المسؤولة، فلا اشكال في ذكر نقاط الضعف والعيوب عند الضرورة، بل قد يجب ذكرها في بعض الاحيان.

قال الامام علي عليه السلام:

«المستشارُ مؤتَمَنٌ»[٣].

---

(١) كمثال، راجع: وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٧٧، كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٤٠، ح ٣.

(٢) راجع بهذا الشأن: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٦٢، ابواب جهاد النفس، الباب ٤٦، ح ٣٦.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٢٧.

وهكذا لابدّ للمستشار أن يُفضي للمستشير بكل ما لديه من معلومات في موضوع الاستشارة، كي ينبري للقيام بعمله عن بصيرة. اما اذا أحجم عن ذكر الحقيقة فقد خان في الاستشارة.

ويقول الشيخ مرتضى الأنصاري بهذا الشأن:

«... منها نصح المستشير فانّ النصيحة واجبة للمستشير فانّ خيانته قد تكون أقوى مفسدة من الوقوع في المغتاب «المستغاب»[1]، وكذلك النصح من غير استشارة، فانّ من اراد تزويج امرأة وأنت تعلم بقبائحها التي توجب وقوع الرجل من أجلها في الغيبة والفساد، فلا ريب انّ التنبيه على بعضها وان أوجب الوقيعة فيها، أولى من ترك نصح المؤمن، مع ظهور عدة من الاخبار في وجوبه»[2].

٧ـ غيبة أهل البدع

لو رأى أحدنا من يحاول أن يوجِد البدعة في دين الله ويُضلّ الناس، فبامكاننا اغتيابه وذكر عيوبه من اجل اجتثاث مادة الفساد من الجذور. وعملنا هذا ليس لا يُعدّ غيبة فحسب، بل ويُسَجّل الله به لنا الحسنات أيضاً. وفي هذا قال الامام الصادق عليه السلام:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اذا رأيتُم أهلَ الرَّيبِ والبِدَعِ مِن بعدي فأظهِروا البراءة مِنهُم وأكثِروا مِن سبِّهِم والقولَ فيهم والوقيعةَ وباهِتوهُم كيلا يطمعوا في الفسادِ في الاسلامِ ويحذرَهُمُ الناسُ ولا يتعلَّموا مِن بدعِهِم، يكتُبُ الله لكُم بذلكَ الحسناتِ ويرفعُ لكُم به الدرجاتِ في الآخرةِ»[3].

٨ـ غيبة المتجاهر بالفسق

وتجوز الغيبة في هذه الحالة حتى بدون وجود مصلحة خاصة، اذ لا تصدق

---

(١) المغتاب يصدق عليه اسم الفاعل واسم المفعول معاً.

(٢) المكاسب المحرمة، ج ٤، ص ٤٥، ط دار الكتاب، قم.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٧٥؛ المكاسب المحرمة، ص ٤٥.

الغيبة هنا مع وجود حالة التجاهر بالفسق لدى الفرد.

ونشير بهذا الصدد الى بعض الأحاديث:

روي عن الرسول الأكرمﷺ قوله:

«ثلاثةٌ ليس لهم حُرمَةٌ: صاحبُ هوىً مُبتَدِعٍ، والامامُ الجائرُ، والفاسقُ المُعلِنُ بِفسْقِهِ»[١].

كما قالﷺ:

«ثلاثةٌ لا غيبةَ لهم: صاحبُ الهوى، والفاسقُ المُعلِنُ بفسقِهِ، والامامُ الجائرُ»[٢].

وقال ايضاً:

«ليس لفاسقٍ غيبةٌ»[٣].

وقال ايضاً:

«من ألقى جِلبابَ الحياءِ مِن وجهه فلا غيبةَ له»[٤].

وقال الامام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام:

«اذا جاهَرَ الفاسقُ بفسقِهِ فلا حُرمَةَ لهُ ولا غيبةٌ»[٥].

تنويه

لابد من التنويه الى بعض النقاط في نهاية هذا البحث:

---

(١) المكاسب المحرمة، الشيخ الانصاري، ص ٤٤؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٥، ح ٥ من الباب ١٥٤، مع هذا الاختلاف: «... المعلن بالفسق».

(٢) احياء علوم الدين، الغزالي، ج ٣، ص ١٥٣.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٢؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٣٧.

(٤) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٢؛ اختصاص المفيد، ص ٢٤٢؛ الدر المنثور، ج ٦، ص ٩٧؛ كنز العمال، ج ٣، ص ٩٥٩؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٣٣ مع قليل من الاختلاف في الألفاظ.

(٥) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٥؛ أمالي الصدوق، ص ٤٢.

الاولى: لو فسّرنا الغيبة بافشاء السر، فلا تُعدّ غيبة المتجاهر بالفسق من مصاديق الغيبة وليس من مستثنياتها، لأنّ التحدث عن السر العلني لا يُعدّ افشاءً له.

الثانية: لا تقتصر مستثنيات الغيبة على ما أشرنا اليه، وانما هناك حالات اخرى ايضاً لم نشر اليها مراعاةً للايجاز(١).

الثالثة: على المرء ان يكون شديد الحذر ودقيقاً كي لا يرتكب الغيبة بذريعة انّ هذه الحالة او تلك من المستثنيات، وان لا يتخذ من الدافع الشخصي مبرراً للاغتياب، وعليه ان لا يلجأ اليه عن جهلٍ بموارد الاستثناء فيستوجب نار الغضب الالهي، ولابد له من مراعاة قاعدة الأهم فالمهم، وأن لا يلجأ الى الاغتياب إلّا اذا ثبت له ومن خلال دراسة مستفيضة وجود مصلحة ضرورية في ذلك، لأننا نعلم بأنّ الغيبة حق الناس، وأنها معصية لا تُغفر إلّا اذا تنازل عنها صاحبها.

الرابعة: قد يؤدي التحدث عن عيوب ومعاصي البعض الى نشر الفساد والرذيلة بين الناس أحياناً وزوال صفة القبح التي تتميز بها هذه المعاصي. لذلك يلزم اجتناب الغيبة في مثل هذه الأحوال مع عدم وجود مصلحة أهم، حتى وان كان صاحبها متجاهراً بالفسق.

بايجاز، تجوز الغيبة عموماً في موضعين: الاول حين وجود مصلحة اهم، والثاني على صعيد المتجاهر بالفسق حيث لا يتوقف جوازها على مصلحة لازمة. وفي غير هذين الموضعين لابد للانسان من الحذر كي لا يقع في المعصية بذريعة الاستثناء.

---

(١) لمزيد من المعلومات راجع: المكاسب المحرمة للشيخ الانصاري، ط دار الكتاب، قم، ص ٤٤ فما بعد؛ المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢؛ احياء علوم الدين للغزالي، ج ٣، ص ١٥٢ و١٥٣؛ كشف الريبة، ص ١٤ ـ ١٦؛ معراج السعادة، ص ٤١٢ ـ ٤١٤؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٣١ ـ ٢٣٤.

كفّارة الغيبة

الكفّارة هو العمل الذي يزيل آثار الجرم والمعصية ويهيئ للعفو الالهي. ولاشك في انّ كفارة كل ذنب تتناسب مع حجم ذلك الذنب.

والغيبة من المعاصي التي لها أثران سلبيان:

١ ـ التمرد على الأمر الالهي.

٢ ـ الاساءة الى واحد او اكثر من عباد الله.

لذلك ومن أجل ازالة هذين الأثرين لابد من دفع ما يتناسب من الغرامة: العمل على استحصال العفو الالهي بعد التمرد على تعاليمه، والعمل على استحصال تنازل مَنِ انتُهكت حرمته بالغيبة وكسب رضاه. فما لم يحصل رضا هذا الشخص، لا يتحقق العفو الالهي ايضاً.

ولابد من التفصيل بعض الشيء في هذا الموضوع.

يقول المرحوم الفيض الكاشاني حول كفّارة الغيبة وماذا على الانسان ان يفعل للتطهر من الذنوب:

«إعلَمْ أنّ الواجبَ على المغتابِ أن يندم ويتوب ويتأسّف على ما فعله ليخرجَ به عن حقّ الله ثم يستحلُّ المغتابَ (المستغابَ) لِيُحِلَّهُ فيخرُجَ عن مظلمته».

ثم يقول:

«وينبغي ان يستحلّه وهو حزين متأسف نادم على ما فعله اذِ المُرائي قد يستحلّ ليُظهِر من نفسه الورعَ وفي الباطن لا يكونُ نادماً فيكونُ قد قارفَ معصيةً أُخرى ...»[١].

نقطة مهمة وقيّمة

النقطة المهمة القابلة للدراسة والتي لابد من التنويه اليها هي انّ أي انسان،

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٣.

معرّض لارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب، وليس بمقدور أحد ان يزعم انه لم يرتكب عملاً حراماً. وهذا يعني انّ جميع الناس مذنبون عدا المعصومين علـيهم السلام.

وعلى صعيد آخر، لقد فتح الله تعالى باب التوبة والانابة بـوجه عـباده، اذ يمكنهم من خلال هذه التوبة والاستغفار تدارك ذنوبهم الماضية والانطلاق نحو الله ثانيةً من خلال العبادة والتقوى. ولذلك نلاحظ تأكيد القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام على التوبة وحثّ العباد عليها.

ومن هذه الآيات والأحاديث[1]:

ـ الآيات الداعية الى التوبة:

﴿قُل يا عباديَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهم لا تقنطُوا مِن رحمةِ الله انَّ الله يغفِرُ الذنوبَ جميعاً انَّهُ هُوَ الغفورُ الرحيمُ، وأنيبُوا الى ربِّكُم ...﴾[2].

﴿... كتبَ ربُّكُم على نفسهِ الرحمةَ أنَّهُ من عمِلَ منكُم سوءاً بجهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِن بعدِهِ وأصلحَ فانَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾[3].

﴿وانّي لغفارٌ لِمَن تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً ثُمَّ اهتدى﴾[4].

﴿انّ الله يُحِبُّ التوّابينَ﴾[5].

﴿غافِرِ الذنبِ وقابِلِ التَّوبِ ...﴾[6].

﴿وهُوَ الذي يقبَلُ التَّوبةَ عن عبادِهِ ويعفُو عنِ السَّيِّئاتِ ويعلَمُ ما تفعلونَ﴾[7].

---

(١) رغم اننا سنستعرض بحث التوبة في النقطة التاسعة، إلّا اننا اشرنا اليها هنا للتدليل على عظمة معصية الغيبة خشية ان يحلّ الأجل ولم نكن قد تبنا بعد.

(٢) الزمر / ٥٣ و ٥٤.

(٣) الانعام / ٥٤.

(٤) طه / ٨٢.

(٥) البقرة / ٢٢٢.

(٦) غافر / ٣.

(٧) الشورى / ٢٥.

الأحاديث الداعية الى التوبة:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«التّائِبُ من الذنبِ كمَن لا ذنبَ لهُ»[١].

وقال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«انَّ الله تعالى أشدُّ فرَحاً بتوبةِ عبدِهِ مِن رجُلٍ أضلَّ راحِلتَهُ وزادَهُ في ليلَةٍ ظلماءَ فوجدَها، فالله أشدُّ فرَحاً بتوبَةِ عبدِهِ مِن ذلكَ الرَّجُلِ براحلَتِهِ حينَ وجدَها»[٢].

ولاشك في انّ المثال أعلاه ينسجم مع الذهنية السائدة آنذاك، والتي كانت تعتبر الراحلة والزاد من مقومات الحياة.

عودة الى صُلب الموضوع

كان حديثنا حول الغيبة وكفّاراتها، وقلنا بأنّ من كفاراتها التوبة والاستغفار. ثم ذكرنا بعض الآيات والأحاديث التي تتحدث عن أهمية التوبة وتحضّ عليها. ولما كان يجب ان تكون التوبة حقيقية او كما قال المرحوم الفيض ينبغي ان يكون التائب حزيناً متأسفاً نادماً على فعله وليس كالمرائي الذي يُظهِر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً، لذا لابد من استعراض المعنى الحقيقي للتوبة كي لا يتصور البعض انه اذا استغفر بلسانه غُفرت ذنوبه. لكن لما كانت دائرة هذا البحث واسعة جداً، نكتفي بثلاثة أحاديث فقط[٣]، ثم نعود الى صلب الموضوع.

شروط قبول التوبة

يُستفاد من هذه الأحاديث انّ التوبة لها بعض الشروط التي لابد من تحققها

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦، ص ٢١، ح ١٦.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦، ص ٤٠، ح ٧٣.

(٣) لمزيد من المعلومات، راجع: بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٦، ص ١١ ـ ٤٨؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٤ـ٣١٧.

كي تُقبل. اما الأحاديث المتحدثة عن هذه الشروط فهي:

١ ـ قال شخص يدعى ابا الصباح الكناني:

«سألت ابا عبد الله (الصادق)عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلّ:

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا توبُوا الى الله توبَةً نصُوحاً﴾ قال: «يتوبُ العبدُ من الذنبِ ثُمَّ لا يعودُ فيه»[١].

٢ ـ سأل معاذ بن جبل الرسول الاكرمصلى الله عليه وآله عن التوبة فقال:

«أن يتوبَ التائِبُ ثُمَّ لا يرجِعُ في ذنبٍ كما لا يعودُ اللَّبَنُ الى الضَّرعِ»[٢].

٣ ـ قال عليعليه السلام لقائل قال بحضرته «أستغفرُ الله»: «ثَكِلتكَ أُمُّكَ أتدري ما الاستغفارُ؟ انّ الاستغفارَ درجةُ العِلّيّينَ وهُوَ اسمٌ واقِعٌ على ستَّةِ معانٍ:

أوَّلُها الندمُ على ما مَضى.

والثاني العَزمُ على تركِ العودِ اليه أبداً.

والثالثُ أن تُؤَدّي الى المخلوقينَ حُقُوقهُم حتّى تَلقَى الله أملسَ ليسَ عليكَ تبِعَةٌ.

والرابعُ أن تعمِدَ الى كُلِّ فريضةٍ عليكَ ضيَّعتَها فتُؤَدّي حقَّها.

والخامسُ أن تعمِدَ الى اللَّحمِ الذي نبتَ على السُّحتِ فتُذيبَهُ حتّى تُلصِقَ الجِلدَ بالعظمِ وينشأ بينهما لحمٌ جديد.

والسادسُ أن تُذيقَ الجسمَ ألَمَ الطّاعةِ كما أذَقتَهُ حلاوَةَ المعصِيَةِ فعند ذلك تقول (استغفر الله)»[٣].

اذن، من لا يتوب مثل هذه التوبة ولا يستغفر مثل هذا الاستغفار، لن يقطف ثمرةً من توبته. ولذلك يعتقد الفيض الكاشاني انّ على الانسان ان يوجِد تحولاً في

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٢، ح ٣؛ بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣٩، ح ٦٨.

(٢) مجمع البيان، ط بيروت، ج ١٠، ص ٣١٨، ذيل الآية ٨، سورة التحريم. وأولت الادعية اهمية كبيرة للتوبة، ويمكن الرجوع الى الدعاء ٣١ في الصحيفة السجادية، والمناجاة ١٥ في مفاتيح الجنان.

(٣) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٤٠٩.

باطنه اولاً ثم يتوب. ومن لم تكن توبته وفق هذه الشروط، فهي اشبه بالسخرية، إذ قال الامام محمد الباقر عليه السلام في ذلك:

«والمقيمُ على الذَّنبِ وهو مُستَغفِرٌ مِنهُ كالمستهزئ»(١).

وصفوة الكلام هي ان يندم المرء على أعماله ندماً حقيقياً ويسأل الله تعالى ان يغفر له ذنوبه، ثم يعمل على ارضاء مَن أساء اليهم وعابهم في ظهر الغيب.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يمكن استحصال رضاهم واستحلالهم؟ فهل لابد من الذهاب الى المستغاب والعمل على ارضائه بصورة مباشرة، ام يكفي في ذلك الاستغفار ودعاء الخير له؟

رأي الفقهاء

للفقهاء رأيان بهذا الشأن:

يرى البعض كفاية الندم والاستغفار للشخص المستغاب، والدعاء له، والتصدق عنه، والقيام بأعمال الخير الاخرى بدلاً منه.

وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في ذلك:

«كَفّارةُ مَنِ اغتبتَهُ أن تستغفِرَ لَهُ»(٢).

ويرى البعض الآخر وجوب الذهاب لدى المستغاب والاستحلال منه، لأنّ الغيبة امر يتعلق بحق الناس، وما لم يرض المستغاب فلن تُقبَل توبة المغتاب.

وهناك احاديث بهذا الشأن منها:

١ ـ قال الرسول محمد صلى الله عليه وآله:

«انَّ الغيبةَ أشدُّ مِنَ الزّنا وانّ الرجل يزني فيتوبُ ويتوبُ الله عليه وانَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفَرُ لَهُ حتى يَغفِرَ لهُ صاحِبُهُ»(٣).

---

(١) بحار الانوار، ج ٦، ص ٣٦، ح ٥٤، وص ٤١، ح ٧٥؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥، ح ١٠.

(٢) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٣؛ أمالي الشيخ الطوسي، ص ١٢٠ مع قليل من الاختلاف.

(٣) المكاسب المحرمة، ص ٤٠.

٢ ـ وقال ﷺ أيضاً:

«مَن كانت لأخيهِ عِندَهُ مظلمَةٌ في عِرضٍ أو مالٍ فليستحلِلْها مِن قَبلِ أن يأتيَ يومٌ ليس هناكَ دِرهَمٌ ولا دينارٌ، فيُؤخَذُ مِن حسناتِهِ. فان لم يكُن له حسناتٌ أُخِذَ مِن سيّئاتِ صاحبهِ فيتزايدُ على سيئّاتهِ»[1].

٣ ـ وقال ﷺ في حديث آخر:

«مَنِ اغتابَ مسلماً او مسلمةً لم يقبَلِ الله صلاتَهُ ولا صيامَهُ أربعينَ يوماً وليلةً إلّا أن يغفِرَ لهُ صاحِبُهُ»[2].

التوفيق بين الأحاديث

سؤال:

على ضوء هذا الاختلاف في مضامين الأحاديث حول كفّارة الغيبة، ماذا يجب علينا ان نعمل وما هو ملاكنا في العمل؟

الجواب: انّ كل مجموعة من هذه الاحاديث تتحدث عن حالة خاصة، ولابد من العمل وفق كل منها بما ينسجم مع تلك الحالة.

ويمكن التوفيق بين هذه الأحاديث من خلال القول بأنّ الأحاديث التي تتحدث عن كفاية الاستغفار، تتعلق بالحالات التي يبعث فيها الاستحلال على الشجار والبغضاء والأحقاد. والاحاديث التي توجب الاستحلال، تتعلق بالحالات التي لا ينجم فيها عن الاستحلال تبعات ونتائج غير محمودة. وفي هذه الحالة لابد من الانطلاق نحو المستغاب وطلب الصفح منه وأن يقال له بأنّ كل ما قلته فيك كان باطلاً، وانني قد ظلمتك، وأسأتُ اليك، فخذ حقّك مني او احللني واعفُ عمّا بدر مني.

ويتحدث المرحوم الفيض عن طريق آخر للتوفيق بين هاتين المجموعتين من

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٣.

(٢) المكاسب المحرمة، ص٤٣.

الاحاديث فيقول، قال الامام الصادقعليه السلام:

«انِ اغتبتَ فبلَغَ المُغتابَ (المُستغابَ) فاسْتَحِلَّ مِنهُ وان لم تبلُغهُ فـاستغفِرِ الله لهُ»(١).

كفاية الاستغفار

هناك مورد واحد تتفق حوله آراء الفقهاء وهو كفاية الاستغفار في حالة وفاة المستغاب او تعذر الوصول اليه، حيث ليس بمستطاع المرء ان يفعل شيئاً غـير الاستغفار وليس مكلَّفاً بأكثر من ذلك، اذ:

﴿لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلّا وُسعَها ...﴾(٢).

السماح بالغيبة

سؤال:

والسؤال الآخر الجدير بالتأمل هو: هل بامكان المـرء ان يسـمح للآخـرين باغتيابه وان يقول انا راضٍ عن كل من يغتابني؟

الجواب؟

اذا كان هذا التعبير عن الرضا متعلقاً بمن اغتابه في الماضي، فـلا اشكـال في ذلك، اذ نرى الامام علي بن الحسين زين العابدينعليه السلام يخاطب الباريْ تعالى قائلاً:

«اللهُمَّ وأيُّما عبدٍ نالَ مِنّي ما حظَرتَ عليه وانتهكَ مِنّي ما حجرتَ عليه فمضى بِظُلامتي ميّتاً أو حصلَت لي قِبَلَهُ حيّاً فاغفِر لهُ ما ألَمَّ به منّي واعفُ لهُ عما أدبَرَ بهِ عنّي ولا تقِفهُ على ما ارتكَبَ فيَّ ولا تكشِفهُ عمّا اكتَسبَ بي»(٣).

اما اذا كان السماح بالغيبة متعلقاً بالمستقبل، فلا يصح هذا السماح، لأن السماح بالمعصية معصية، ولأنه عمل يحمل الآخرين على القيام بما هو حرام في الاسلام

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٣.

(٢) البقرة / ٢٨٦.

(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء ٣٩.

ويحثهم عليه. بتعبير آخر: انّ هذا السماح او الاذن بالغيبة بمثابة تحليل لحرام الله، فالدين الاسلامي الذي أوجب على المسلم حفظ كرامة غيره، كيف يسمح له بفسح المجال للآخرين لانتهاك حرمته؟!

وقد يقول قائل: حينما يأذن الشخص مسبقاً بغيبته، فلا تبق الغيبة غيبة، لأنّ الغيبة لا تتحقق إلّا اذا كان المستغاب غير راض عن ذلك، أما اذا سمح هو بها، فسماحه تعبير عن رضاه!

وللاجابة نقول هناك مؤاخذتان على هذا التفسير:

١ ـ مثل هذا الاذن لا يكشف عن الرضا تماماً، لأنه لا يعلم ماذا سيُقال فيه. فمن المحتمل ان تُقال فيه أشياء لو سمعها لتألّم واستاء، ولندم على اذنه المسبق.

٢ ـ انّ الاذن بالغيبة يعمل على نشر الفحشاء والمنكر، وهو عمل حرام حتى وان كان المستغاب راضياً عن ذلك، لأنّ اشاعة الفاحشة تعمل على اختفاء قبح المعصية والموبقة، ما لم يكن مورد الغيبة من غير مصاديق الفحشاء كتقليد الصوت او المشي وغيرهما من صفات الأشخاص وخصوصياتهم والتي لا تُعدّ من مصاديق المعصية. إذن لو أذن أحدهم بتقليد صوته او مشيته فلا يُستبعد خلوّه من الإشكال، والله أعلم.

عذر أقبح من الذنب

يلجأ المصابون بالغيبة في معظم الأحيان الى تبرير عملهم من خلال القول بأنّ ما قلناه في فلان ليس غيبةً انما هي عيوب موجودة فيه أساساً! وهذا النوع من التبرير انما هو عذر أقبح من الذنب لأنّ الغيبة هي الحديث عن العيوب الموجودة لا العيوب غير الموجودة. والآيات والروايات التي وردت في ذم الغيبة انما تعني التحدث عن العيوب الموجودة، اما اذا كان الحديث يدور عن عيوب غير موجودة، فهذا بهتان لا غيبة، ووزره أعظم من وزرها.

وقد قال الامام موسى بن جعفر عليه السلام:

«مَن ذكرَ رجُلاً مِن خلفِهِ بما هُوَ فيه مما عرَفَه الناسُ لم يغتَبهُ، ومن ذكرَه من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس اغتابَهُ، ومَن ذكرَه بما ليس فيه فقد بهتَهُ»[١].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«الغيبةُ أن تقولَ في أخيكَ ما ستَرَهُ الله عليه وأما الأمرُ الظاهِرُ فيه مِثلُ الحِدَّةِ والعجلَةِ فلا. والبهتان: أن تقولَ ما ليسَ فيه»[٢].

البهتان في الآيات والأحاديث

انتقدت الآيات القرآنية والأحاديث التهمة والبهتان بشدة. وقد عبّر القرآن الكريم عن البهتان بالاثم المبين أي المعصية الواضحة الصريحة حينما قال:

﴿والذينَ يُؤذُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بِغيرِ ما اكتسبُوا فقدِ احتملوا بُهتاناً واثماً مُبيناً﴾[٣].

وقال في آية اخرى:

﴿ومن يكسِب خطيئَةً أو اثماً ثُمَّ يرمِ بهِ بريئاً فقدِ احتملَ بُهتاناً واثماً مُبيناً﴾[٤].

والذين يتّهمون الأبرياء، لا إيمان لهم في واقع الأمر لأنَّ الإمام الصادق عليه السلام قال:

«اذا اتَّهمَ المؤمنُ أخاهُ انماثَ الإيمانُ مِن قلبهِ كما يَنماثُ المِلحُ في الماء»[٥].

انّ مَن يتَّهِم غيره، يرتكب العديد من الذنوب ويقترف أكثر من معصية: فهو يكذب من جهة وينسب الى غيره شيئاً ليس فيه، ويغتاب من جهة ثانية لأنـه يصفه بشيء يكرهه ولا يرضى أن يوصف به، ويتّهم من جهة ثالثة انساناً بريئاً وينال من كرامته وشرفه.

ولذلك تعتبر موبقة التهمة موبقة كبيرة. فالتهمة هي السهم الذي يُطلق لمجرد

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٨، ح ٦.

(٢) نفس المصدر، ح ٧.

(٣) الأحزاب / ٥٨.

(٤) النساء / ١١٢.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦١، ح ١؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٩٨، ح ١٩.

إصابة الهدف فيدمّر المتّهم ويمزّق شخصيته وكرامته ويجرح قلبه الى الابد. ولذلك يحمل المتَّهِم على كاهله وِزراً ثقيلاً، وعليه ان ينتظر عذاباً اليماً في يوم الجزاء.

وقال الرسول الاكرم ﷺ:

«مَن بَهَتَ مؤمناً أو مؤمنةً أو قال فيه ما ليس فيه أقامَهُ الله تعالى يومَ القيامةِ على تَلٍّ مِن نارٍ حتى يَخرُجَ مما قالهُ»(١).

اصلاح العيب والتعييب

يُعَدّ اصلاح العيب من خصوصيات المؤمن المتخلق بالأخلاق الحسنة، ويعلم الجميع بأنّ التعييب وتوجيه الانتقادات للآخرين، من الصفات القبيحة وغير المطلوبة.

وليس باستطاعة الانسان أن يتكامل على الصعيد الأخلاقي ما لم يبادر الى رفع عيوبه واصلاح نقائصه. وليس هناك شك في أنّ لدى جميع الناس ـ عدا المعصومين عليهم السلام ـ عيوباً ونواقص وسلبيات أخلاقية، ولابد لكل منهم السعي لاصلاح هذه العيوب والتخلص من هذه السلبيات. ولا يتحقق هذا الأمر ما لم يحدد المرء ما به من عيوب ويؤشّر على ما لديه من نقائص وسلبيات ويعترف بها. فما لم يتعرف على العيوب والنقائص التي لديه ويعترف بها، لا يلجأ الى اصلاحها.

ولكن كيف يقف المرء على عيوبه ويتبيّنها؟

هناك ثلاثة أساليب يمكن التعرف بها على العيوب:

١ ـ المراقبة والمحاسبة. فلو وضع المرء أعماله وسلوكه تحت المراقبة والاشراف

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٩٤، ح ٥؛ عيون أخبار الرضا، ط النجف، ج ٢، ص ٣٢؛ سفينة البحار، ج ١، ص ١١١.

هناك حديث آخر في اصول الكافي ج ٢، ص ٢٥٧، ح ٥، حول شدة عذاب من يتهم الأبرياء.

المستمرين، وحاسب نفسه وأخضعها للاستجواب دائماً، وقاسها بالمعايير والموازين التي يأخذ بها الصلحاء والأتقياء، فبامكانه ان يحدد ما لديه من عيوب وما يفتقده من فضائل وكمالات.

٢ ـ الاعتبار بأعمال وسلوكيات الفاسدين وأصحاب الاخلاق السيئة. وقد قيل للقمان الحكيم من أين أخذت الأدب فقال: من غير المؤدبين.

٣ ـ معاشرة الأصدقاء الاوفياء والمخلصين الذين لا يبخلون بالنصيحة، ويسارعون الى ذكر العيوب بدون مجاملة وبعيداً عن التملق متوخين الخير والصلاح فقط.

فمثلما يراجع الانسان العاقل الطبيب بين فترة واخرى ويعرض نفسه عليه خشية ان يكون مصاباً بمرض لا يعرفه، لابد له ان يراجع على صعيد النفس طبيب الاخلاق ومعلم الروح لمعرفة ما لديه من امراض اخلاقية.

وبامكان الصديق الحقيقي المؤمن ان يكون خير مرشد في هذا المجال، فيسارع الى اخبار صديقه بما لديه من مرض أو امراض اخلاقية ويحثه على الاسراع في معالجتها قبل استفحالها.

ومن الطبيعي أنّ هذا الاسلوب لا يحقق النجاح إلّا اذا أخذ المرء المصاب بنصيحة الناصح المحب وعمل بها، بل ولا بد له أيضاً ان يطلب منه التأشير على عيوبه وتذكيره بها وايقافه عليها. ولذلك نجد الامام الكاظم عليه السلام يقول:

«إجتهدوا في أنْ يكون زمانُكُم أربعَ ساعاتٍ: ساعة لمُناجاةِ الله، وساعة لأمرِ المعاش، وساعة لِمُعاشرةِ الاخوان والثِّقاتِ الذين يُعرّفونَكم عُيوبَكُم ويُخلِصونَ لكم في الباطنِ، وساعة تخلونَ فيها للذّاتِكم في غيرِ مُحرّمٍ، وبهذه الساعةِ تقدرون على الثلاثِ ساعات»[١].

اذن، من يودّ التعرف على أخطائه والوقوف على نقائصه في الكلام والسلوك، فلا بد له ان يطلب ممّن هم على صلة وثيقة به ان يذكروا له نقاط ضعفه ويذكّروه

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٥، ص ٣٢١؛ تحف العقول، ص ٣٠٧.

بعيوبه.

الواجب الاخلاقي

مثلما حثّ الاسلام على معاشرة المؤمنين الثقات الناصحين، حثّ هؤلاء أيضاً على عدم التلكؤ في الارشاد لطريق الخير والصلاح، لأنّ الصديق من يكشف لصديقه عن عيوبه ويُلفت انتباهه اليها. وقد جاء في الحديث:

«صَديقُكَ مَنْ نَهاكَ وعدوّكَ مَن أغراكَ»(١).

وأوصى الامام محمد الباقر عليه السلام شخصاً يدعى صالحاً قائلاً:

«يا صالحُ اتّبعْ مَن يُبكيكَ وهو لكَ ناصحٌ ولا تَتّبعْ مَن يُضحِكُكَ وَهو لكَ غاشٌ، وسَتَرِدونَ على الله جميعاً فتَعلَمون»(٢).

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«أحَبُّ اخواني إليَّ من أهدى اليَّ عُيوبي»(٣).

اذن، فذلك الذي يدّعي الصداقة والحب ولا يفضي لصديقه وصاحبه بما يراه فيه من عيوب ونقائص، ويمرّ بلامبالاة بما يشاهد عنده من سلبيات ونقاط ضعف، لا يُعَدّ صديقاً حقيقياً ولا حبيباً صادقاً. ولربما يقدّم العدو خدمةً للمرء ـ ولو بدافع العداء ـ فيتحدث عن عيوبه، ولولا ذلك لما كان من السهل عليه الوقوف عليها.

وقال الرسول محمد صلى الله عليه وآله:

«المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ يرى فيه حُسنَهُ وقُبحَهُ»(٤).

أي مثلما يرى المرء ما لديه من قُبح وحسن حينما يقف امام المرآة، كذلك

---

(١) فهرست الغرر، ص ٢٠٣، الرقم ٥٨٥٧.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٣٨، ح ٢؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤١٣، ح ١؛ بحار الانوار، ج ٧٢، ص ١٠٣؛ محاسن البرقي، ج ٢، ص ٦٠٤، ح ٣٢.

(٣) تحف العقول، ص ٢٧٣؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٣٩، ح ٥؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤١٣، ح ٢.

(٤) المجازات النبوية، ط مصر، ص ٦٦.

يكشف له أخوه المؤمن كالمرآة عن كلّ ما به من عيوب ومحاسن أيضاً.

وجاء في حديث آخر:

«المؤمنُ مرآةُ أخيهِ يُميطُ عَنْهُ الاذى»[١].

كتمان العيب، خيانة

مثلما يُعدّ التعييب عملاً قبيحاً وحراماً، يُعدّ كتمان العيب خيانة أيضاً، لأنّ المؤمن يجب ان يكون كالمرآة فيعكس لأخيه ما فيه من قبائح وجمالات، له وحده لا للآخرين، وهذا هو شأن المرآة بالذات. وقد قال الامام الصادق عليه السلام: «مَنْ رأى أخاه على أمرٍ يكْرَهُهُ فلم يَرُدَّهُ عنه وهو يَقْدِرُ عليهِ فقد خانهُ»[٢].

نعم لإصلاح العيب وكلّا للتعييب

تحدثنا حتى الآن عن التخلص من العيوب وإصلاحها، وهو موضوع حساس ومهم ولا نوفيه حقّه مهما قلنا فيه. ولا بد لنا بعد ذلك من التحدث عن التعييب والذي هو من القبح بحيث مهما تحدثنا عن قبحه كان حديثنا قليلاً عنه. ولا بد لنا ان نعلم بوجود تفاوت في منتهى الظرافة بين الاثنين. فالاثنان يعبّران عن حالة يتم فيها التحدث عن العيوب والاشارة اليها، غير ان الدافع من ذلك في الاول هو الخير والاصلاح، والباعث في الثاني هو الانتقاص والذم، أي ان الاول ينطلق من الحرص والنصيحة، والثاني من العداء والخصومة. فاذا كان الهدف من ذكر عيوب الآخرين هو الخير والصلاح فلا شك في انه سيأخذ طابع الشفقة والنصيحة والحفاظ على الكرامة، أما اذا كان الهدف هو الانتقاص والاهانة، فلا بد ان يأخذ طابع الحقد وانتهاك الحرمة.

وصفوة القول هي ان الهدف وان كان لا يبرر الوسيلة إلّا انه يحددها، أي انه

---

(١) مشكاة الأنوار، ص ١٠٦.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٦٥؛ امالي الصدوق، ص ٢٢٢، ح ١.

يجعل الوسيلة متناسبة معه. وقد قال القرآن الكريم في ذلك:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِهِ...﴾(١).

ولذلك لو سعى أحدهم لتذكير الآخر بذنبه، فلا بد ان ينطلق في ذلك من نية حسنة وقلب نقي، وان يتحدث معه في منتهى الادب وغاية الاحترام، وان لا تبدر منه كلمة يمكن ان تحمل معها الاهانة، ولا يحوّل النقد الصحيح السليم الى كلام جارح، لأنّ ذلك سيعطي نتائج معكوسة تماماً، فضلاً عن أنّ أي انسان لا يمكن أن يكون بمنأى عن الخطأ والزلل والعيب، عدا المعصومين عليهم السلام. بل ان المعصومين أنفسهم حينما يقفون بين يدي الله تعالى فلا سبيل لهم سوى الاعتراف بالذنب والنقص أمام الذات الالهية. فهذا الامام السجاد علي بن الحسين يناجي ربه قائلاً:

«الهي اليكَ أشكو نَفساً بالسّوء أمّارةً والى الخطيئةِ مُبادرةً وبمعاصيكَ مولَعَةً ولِسَخَطِكَ مُتعرّضةً»(٢).

ويدعو الله سبحانه وتعالى ايضاً:

«أدعوكَ يا سيدي بلسانٍ قد أخْرَسَهُ ذَنْبُهُ، رَبِّ أُناجيكَ بقلبٍ قد أوْبَقَهُ جُرْمُهُ»(٣).

ويتذلل عليه السلام بين يدي الخالق قائلاً:

«... اذا رأيتُ مولايَ ذُنوبي فَزِعْتُ. ربِّ أفْحَمَتني ذُنوبي وانقَطَعَت مَقَالتي، فلا حُجّةَ لي...»(٤).

ورغم ما يتميز به الامام علي بن الحسين السجاد (زين العابدين) عليه السلام من العصمة وعدم اقترافه لأي ذنب، إلّا انه يرى نفسه مذنباً. ومن هنا ندرك ان الناس جميعاً لديهم عيوب ونقائص ولا بد من تذكيرهم بها. فالله تعالى لم يخلق

---

(١) الاسراء / ٨٤.

(٢) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين.

(٣) مفاتيح الجنان، دعاء ابي حمزة الثمالي، ص ١٨٦.

(٤) الصحيفة السجادية، الدعاء ٥٣.

الناس بشكل واحد، كما انهم ومثلما لديهم محاسن وخصال حميدة، لديهم مساوئ وخصال دنيئة ايضاً، غير أن على المرء ان لا يكون عياباً وانما يجب تنبيه الآخرين الى عيوبهم بطريقة تنمّ عن الشفقة والحب والتعاطف، كي لا يُساء الى كرامتهم من جهة، وكي لا تُجرح مشاعرهم من جهة اخرى. فالاسلام يولي لكرامة المؤمن وعرضه أهمية خاصة من جهة، وتذكير الناس بعيوبهم عملية ضرورية من جهة اخرى، لذا يمكن القيام بهذه الضرورة بصورة خفية من اجل ان لا تلحق ادنى إهانة بشخصية المؤمن، وقد قيل: «الضرورات تُقدَّرُ بِقدَرِها».

وقال الامام علي عليه السلام:

«نُصْحُكَ بَينَ المَلأ تقريعٌ»[١].

وقال الامام الحسن العسكري عليه السلام:

«مَنْ وَعَظَ أخاه سِرّاً فَقد زانَهُ وَمَن وَعَظَهُ عَلانيةً فقد شانَهُ»[٢].

وقال احدهم:

النصيحةُ في السرِّ أفضل

تحلّ عقدة الروح وتحطّم صَفَدَ القلب

مصير التعييب الأسود

اذا كان الهدف من ذكر أخطاء الآخرين وزلّاتهم، إلحاق الفضيحة بهم، فلا شك في ان الله سيفضح عيّاباً كهذا بين الناس. وقد أورد الامام محمد الباقر حديثاً عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله يقول:

«يا مَعشَرَ مَن أسلَمَ بِلِسانِهِ ولم يُسلِمْ بِقَلبِهِ، لا تتّبعوا عَثَراتِ المسلمينَ فانّهُ مَن يَتّبِعْ عَثَراتِ المسلمينَ يَتّبِع الله عَثَراتِهِ، وَمَن يتّبع الله عثراتِهِ يَفضَحْهُ»[٣].

---

(١) فهرست الغرر، ص ٣٨٢، الرقم ٩٩٦٦.

(٢) تحف العقول، ص ٣٦٨.

(٣) الوافي، ج٣، ص١٦٣؛ جامع السعادات، ج٢، ص١٢٧٠؛ اصول الكافي، ج٢، ص ٣٥٥، ح٤ مع

وورد في حديث آخر عنه ﷺ: «... ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»[١].

التعييب والكفر

اولئك الذين يتبجحون في الحديث عن الصداقة والاخوة ويسعون لكسب ثقة الآخرين عن هذا الطريق إلّا انهم يحملون العداء في ضمائرهم، ويلاحقون ما لدى اخوتهم في الدين من اخطاء وعثرات ونقاط ضعف كي يعيّروهم بها في الوقت الملائم، فانّهم أقرب ما يكونون الى الكفر. وهذا ما أشار اليه الامام محمد الباقر عليه السلام حينما قال:

«مِن أقرَبِ ما يكونُ العبدُ الى الكُفرِ أن يؤاخيَ الرجلُ الرجلَ على الدين فيُحصي عليه زلاتِهِ ليعيِّرَه بها يوماً ما»[٢].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«أبعدُ ما يكونُ العبدُ مِنَ اللهِ أنْ يكونَ الرجلُ يؤاخي الرجلَ وهو يحفظُ عليه زلاتِهِ لِيُعيِّرَهُ بها يوماً ما»[٣].

العذاب الأليم

انّ من يلجأ الى فضح عيوب الناس بدلاً من النقد البنّاء السليم، وينل من كراماتهم، يرتكب ولاشك معصية كبيرة جداً وينتظره عذاب اليم قاس.

وقد قال سبحانه في القرآن المجيد:

﴿إنّ الذينَ يُحِبُّونَ أن تشيعَ الفاحِشَةُ في الذينَ آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا

← اختلاف يسير.

(١) سنن أبي داود، ج ٤، ص ٢٧٠، ح ٤٨٨٠؛ مكاشفة القلوب، الغزالي، ص ١٥٥.

(٢) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٧٩؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٥؛ محاسن البرقي، ج ١، ص ١٠٤ (مع الاختلاف التالي في الكافي والمحاسن: «لِيُعنِّفَهُ بها يوماً»).

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٥، ح ٧.

والآخرةِ واللهُ يعلَمُ وأنتمْ لا تعلمونَ﴾[١].

المسلم حينما يجد لدى أخيه المسلم زللاً ينبغي له أن يلفت انتباهه اليه سراً بعيداً عن انظار الآخرين علّه يقلع عنه وينبري لرفعه واصلاحه. لا أن يلجأ وبمجرد مشاهدته للزلل ـ بل وربما بمجرد سماعه من الآخرين ـ الى فضحه وإراقة ماء وجهه، سيما وأنّ عملاً كهذا يستحق العذاب الالهي ونار جهنم.

والطريف في الامر انّ القرآن الكريم لم يقل: انّ الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم، وانما قال «انّ الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم»، وهو ما يدل على عظمة شرف المؤمن وكرامته عند البارئ تعالى، وانه لا يسمح لأي أحد بافشاء ما يُقال أو يسمع حول المؤمنين، لأنّ المرء لو رأى بعينه مؤمناً قد ارتكب معصيةً فلا حقّ له بافشائها ناهيك عن سماعه بها من الآخرين.

قال الامام الصادق عليه السلام:

«من قال في مؤمنٍ ما رأتهُ عيناهُ وسمِعَتهُ أُذُناه فهو من الذينَ قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿انَّ الذين يحبونَ أن تشيعَ الفاحشةُ ...﴾»[٢].

اسلوب مجابهة اشاعة الفاحشة

ولابد أن يُثار بعد ذلك السؤال التالي: كيف يمكن مجابهة اولئك الذين يحبون اشاعة الفاحشة في المؤمنين؟ وما هو السبيل لابطال مفعول مخططاتهم المشؤومة؟

وأعتقد انّ المجابهة السلبية هي الاسلوب الأمثل بهذا الشأن. وتأخذ المجابهة السلبية صوراً عديدة نشير الى اثنتين منها:

١ـ عدم مجالسة العيّابين:

فالعيّابون أشبه بالذباب يحطّون على كل قذارة، ويشيرون بأصابعهم الى

---

(١) النور / ١٩.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٥، ص ١١٤؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٢٨؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٧؛ امالي الصدوق، ص ٢٧٦، ح ١٦، المجلس ٥٤؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٩٥.

مواطن الضعف والسلبيات فقط، ويغمضون أعينهم عن المحاسن دائماً. وقد عبّر الامام جعفر الصادق عليه السلام عن ذلك بقوله:

«الأشرارُ يتَّبِعون مساوِئَ الناسِ ويتركونَ محاسِنَهُم كما يتَّبِعُ الذُّبابُ المواضِعَ الفاسدةَ مِنَ الجسدِ ويترُكُ الصحيحَ»(١).

لذا، لابد من تفادي الجلوس الى هؤلاء وتجنب معاشرتهم، بل لا يجب عدّهم مع الأصدقاء قط، وانما مع الأعداء، لأنهم قد يعثرون ومن خلال العشرة والمجالسة على نقطة ضعف في يوم ما، فيتخذون منها ذريعة لتدمير كرامة المؤمن واسقاط شخصيته في المجتمع. لذلك أوصى أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«لِيكُنْ أبغَضُ الناسِ اليكَ وأبعدُهُم منكَ أطلبَهُم لمعائبِ الناسِ»(٢).

٢ـ تجاهل العيّابين

والاسلوب الآخر للحيلولة دون اشاعة الفاحشة، يتمثل في تجاهل اولئك الذين يحاولون عن طريق استعابة الآخرين التقليل من قُبح الذنوب في أعين الناس. ويسعى مثل هؤلاء ومن خلال ذكر عيوب الآخرين تلويث الاجواء الاجتماعية والتمهيد لنشر الفساد واشاعة الفاحشة والرذيلة.

اذن لو تجاهل المجتمع مثل هؤلاء الافراد ولم يعبأ بكلامهم ولم يرتّب أثراً عليه، لوجدوا انفسهم مرغمين في نهاية المطاف على الاقلاع عن اعمالهم القبيحة وتصرفاتهم المشينة.

وقد خاطب الامام موسى الكاظم عليه السلام شخصاً يقال له محمد بن فضيل قائلاً:

«يا محمد كذِّبْ سمعَكَ وبصرَكَ عن أخيكَ فان شهِدَ عندكَ خمسونَ قسامةً وقالوا لكَ قولاً فصدِّقْهُ وكذِّبْهُم، لا تُذيعَنَّ عليهِ شيئاً تشينُهُ بهِ، وتهدِمُ بهِ مروَّتَهُ، فتكونَ منَ الذينَ قالَ الله في كتابِهِ ﴿انَّ الذينَ يُحبُّونَ أن تشيعَ الفاحشةُ في الذينَ

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٩٥. اورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (ج ٢٠، ص ٢٦٩، الحكمة ١١٣) هذا الحديث عن الامام علي (ع).

(٢) فهرست الغرر، ص ٢٨٨، الرقم ٧٣٧٨.

آمنوا لهُم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة﴾[١].

وورد عن الامام محمد الباقر عليه السلام قوله:

«يجبُ للمؤمنِ على المؤمنِ أن يستُرَ عليه سبعينَ كبيرةً»[٢].

وقال الامام علي عليه السلام:

«أيُّها الناسُ، من عرفَ مِن أخيهِ وثيقةَ دينٍ وسدادَ طريقٍ فلا يسمعَنَّ فيهِ أقاويلَ الرجالِ أما انّه قد يرمي الرامي وتُخطئ السِّهامُ ويُحيلُ الكلامُ، وباطِلُ ذلكَ يبُورُ، والله سميعٌ وشهيدٌ. أما انَّهُ ليس بينَ الحقِّ والباطلِ إلّا أربعُ أصابعَ.

فسُئِلَ عليه السلام عن معنى قولِهِ هذا، فجمَعَ أصابِعَهُ ووضَعَها بين أُذُنِهِ وعينِهِ ثُمَّ قال: الباطِلُ أن تقولَ سمِعتُ، والحقُّ أن تقولَ رأيتُ»[٣].

الخلاصة والاستنتاج

لاشك في انّ الانسان بحاجة الى معرفة عيوبه، ولابد له في ذلك من الاستعانة بآراء الآخرين وملاحظاتهم ونقدهم لا سيما مَن عُرِفوا بالخلوص ونقاء الباطن وصفاء الروح.

ولابد للاخوة والأصدقاء الذين ينطلقون لتذكير أخيهم المؤمن بما لديه من عيوب أو نقائص، ان يفعلوا ذلك خفيةً وبعيداً عن الانظار وبدافع الخير وحُسن النية.

اما اذا ما حاول أحدهم افشاء عيوب المؤمنين واشاعتها بين الناس بحجة النصيحة واستئصال العيب، فستشمله الآية الكريمة ﴿انَّ الذين يُحبّون أن تشيع الفاحشة...﴾، ويُعدّ جزءاً من هؤلاء الذين أشارت اليهم هذه الآية، وعليه أن يدرك أنّ بانتظاره عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة. ويكفي في بشاعة مثل هذه

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٢٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١٤١.

المعصية انّ الله تعالى قال فيها في آخر الآية السابقة:

﴿والله يعلمُ وأنتم لا تعلمونَ﴾.

الكذب

يُعدّ الكذب أحد المحرَّمات والآفات اللسانية الاخرى. فالكذب من المعاصي الكبيرة، ومفتاح الذنوب، ومصدر القبائح والمساوئ.

المؤمن الفاضل لا يعوّد لسانه على هذه العادة القبيحة قط، اذ أنّ الكذب يصنع من المرء شخصية كاذبة ومزوَّرة ويذهب باعتباره، ويُفقده ثقة الآخرين.

وبما أنّ الكذب عمل سهل وبسيط وليس بحاجة الى رأسمال لكبير، نجد الناس يلجؤون اليه وللأسف متصورين انه اسرع من غيره في ايصالهم الى الهدف، ولهذا ينطلقون في هذا الوادي ينسجون ما يحلو لهم من أكاذيب، ويتفننون في صناعتها وتزويقها، حتى انّ البعض منهم يكذّب في اليوم الواحد عشرات الأكاذيب دون أن يبالي!

وذروة المأساة انّ هؤلاء الكاذبين لا يفكرون في العواقب الوخيمة والانعكاسات السلبية التي تنجم عن الكذب والتي تبرز على الصعيدين الفردي والاجتماعي من الحياة، انهم يعتبرون الكذب نوعاً من الدهاء والذكاء والفطنة، وينظرون الى الصادقين كأشخاص بلا كفاءة ولا أهلية ولا حنكة سياسية، ناسينَ انّ الكذب أمر متعارض مع الفطرة النقية للانسان وشخصيته السامية، وحرب لله تعالى، ومغاير لفلسفة الخلق، لأنه تعالى قد خلق العالم على أساس الصدق والحقيقة، حيث قال:

﴿وهُوَ الذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ بالحقِّ ...﴾[١].

نحن نشاهد حركة قانون الصدق والصراحة والحقيقة في سائر أرجاء الكون،

---

(١) الأنعام / ٧٣.

ورغم ما يلاحظ ظاهرياً من وجود التناقضات والتعارضات في عالم الوجـود، ولكن لا وجود فيه للكذب والخيانة أساساً. فلابد مـن البـحث عـن الحـقائق الناصعة في الطبيعة والوجود ولابد من سماعها من لسان الخـلقة. أليست جمـيع القوانين العلمية والفلسفية تعبيراً نسبياً عن عالم الوجود والقوانين المهيمنة عليه؟ ثم أليس طلاب الحقيقة ـ سواء نظروا الى الكون من نافذة العرفان أو من منظار العلم والتجربة أو من زاوية الفـلسفة والبرهـان ـ يـفكرون في أسرار الوجـود ويستوحون منها ولا يتعاملون إلّا مع الوجود والقوانين المتحكمة فيه؟

انّ الله تعالى قد أرشدنا الى حقائق الكون من خلال آيات الآفاق والأنفس، فقال:

﴿سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم حتّى يتبَيَّنَ لَهُم أنَّهُ الحقُّ ...﴾[١].

وقال الامام علي عليه السلام:

«... انّ الدنيا دارُ صِدقٍ لِمَن صدَّقَها ...»[٢].

وصفوة الكلام هي أنّ بناء الخلقة والطبيعة يقوم على الحقيقة، غير انّ الانسان الظلوم الجهول هو الذي يعمل على مزج الحق بالباطل واعطاء صـورة مـقلوبة مشوهة، أو كما قال علي عليه السلام:

«ولكن يُؤخَذُ مِن هذا ضِغثٌ ومِن هذا ضِغثٌ فيُمزَجان ...»[٣].

وينبري هؤلاء لمزج الحق بالباطل لأنّ الباطل المحض لا يمكن تقديمه للناس، اذ انّ فطرتهم الباحثة عن الحقيقة سرعان ما ترفضه.

ويكفي في معرفة ما للصدق من الفضيلة والشرف انّ الله تعالى قد وصف ذاته المقدسة بالصدق وتحدث مع عباده بالصدق، سواء كان ذلك بلغة التكوين أو بلغة

---

(١) فصلت / ٥٣.

(٢) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ١٢٦.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ٥٠.

التشريع حين قال: ﴿ومن اصدق من الله قيلا﴾[١]. وقال: ﴿... وتمّت كلمةُ ربِّكَ صِدقاً وعدلاً لا مُبَدِّلَ لكلماتهِ ...﴾[٢].

وقال تعالى ايضاً:

﴿... ومَن أصدَقُ مِنَ الله حديثاً﴾[٣].

كما انه وصف انبياءه ورسله بالصدق وطالب المؤمنين أن يحذوا حذوهم وقال: ﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[٤].

ولا ينفع عنده إلّا الصدق والسلامة، اذ قال:

﴿... هذا يومُ ينفعُ الصادقينَ صدقُهُم ...﴾[٥].

وقال:

﴿يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلّا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ﴾[٦].

ملاحظات ضرورية

أ ـ الملاك في الصدق والكذب عادةً هو مدى الانطباق أو عدم الانطباق مع الواقع؛ أي اذا طابق كلام المرء الواقع فهو صدق، واذا خالف الواقع فهو كذب.

ورغم انّ هذا الملاك يُعدّ من أصحّ المعايير في مقام الثبوت والواقع، وهو المعيار الوحيد المأخوذ به على صعيد القضايا العلمية، غير انه لا يُعدّ علةً تامة من وجهة النظر الحقوقية والأخلاقية، أي لا يكفي في مضمار التقنين والتكليف والمجازاة، لأنَّ التكليف لا يوجِب المسؤولية إلّا اذا كان مسبوقاً بالعلم واليقين، أي العلم بالتكليف والواجب والعلم بالموضوع. ولا ينجّز التكليف مادام الحكم والموضوع

---

(١) النساء / ١٢٢.

(٢) الأنعام / ١١٥.

(٣) النساء / ٨٧.

(٤) التوبة / ١١٩.

(٥) المائدة / ١١٩.

(٦) الشعراء / ٨٨ و٨٩.

غير معلومين للمكلف.

اذن، لو تصور المرء الخبر الخاطئ مطابقاً للواقع وتحدث به كخبر صحيح، لا يُعدّ هذا المرء كاذباً من الناحية الشرعية والقانونية ولا يؤاخَذ كما يؤاخذ الكاذب، وان كان الخبر في حقيقته ومن الناحية العلمية كاذباً.

فمن مبطلات الصوم على سبيل المثال هو الكذب على الله والرسولﷺ، لكن لو نسب الصائم عن طريق الخطأ والسهو حكماً الى الله أو الى الرسولﷺ فلا يُعدّ صيامه باطلاً لأنه لم يكذب عن عمد، ولا يُعدّ كاذباً. وهذا يعني انّ عنصر العلم مؤثر في فعلية التكليف، رغم انّ الواقعية لا تتغير بعلم أو عدم علم الانسان. كما يحظى عنصر العلم بتأثير خاص في الانعكاسات النفسية والأخلاقية، لأنّ الذي يؤلم النفس ويضطرها الى النفاق والشقاق هو تعمد الكذب لا الخطأ والسهو. وربما يقصد الامام الصادقؑ هذا المعنى بالذات خلال تعريفه للكذاب عند اجابته على عبد الرحمن بن الحجاج: «لا، ما مِن أحد إلّا يكونُ ذاكَ منه ولكنَّ المطبوعَ على الكذبِ»[1].

ومعنى عبارة الامام هذه هو انّ مجرد قول الكذب لا يجعل من الانسان كذّاباً، اذ لا يوجد انسان لا يصدر عنه كلام مخالف للواقع، بل الكذاب هو الذي قد اعتاد على الكذب وجعل منه طريقةً له واسلوباً. بتعبير آخر: الكذاب هو الشخص الذي يكذب عن علم وعمد لا عن خطأ وزلل.

وهكذا لا يُعدّ الكذب غير العمدي معصية، ولكن يجب ان لا يغيب عن الذهن بأنّ على الانسان الملتزم الابتعاد عن نقل الاخبار التي تحوم حولها الشكوك. واذا كان ولابد من نقل خبر مشكوك فيه، فلا يجوز نقله على انه خبر قاطع ويقيني، بل لابد من ابدائه في صيغة الاحتمال والتردد، اذ مثلما يؤثر عنصر العلم في تنجّز التكليف وفعليته، لديه ازاء الواقع طريقية وكاشفية ايضاً، بل تعود علة فعلية التكليف في ظرف العلم بالأساس الى كاشفيته. وما لم يتحقق عنصر الكاشفية لا

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٧٣، الباب ١٣٨، ح ٩.

يتضح الواقع، ولذلك لابد من الحذر في نقل الانباء غير المؤكدة، سيما وأنّ الله تعالى يقول:

﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ عِلمٌ انَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كُلُّ اولئك كانَ عنه مسؤولاً﴾(١).

أي ما لم تبلغ العلم واليقين في أمر ما فلا تأخذ به كحقيقة ولا ترتّب عليه آثار الحقيقة، وانما عليك بالتحقيق والتبين حتى تبلغ الحقيقة.

ب ـ لا يوجد أدنى شك في حرمة الكذب وقبحه وقد دلّت الأدلة الأربعة (الكتاب والسنة والعقل والاجماع) على حرمته حسب تعبير الشيخ الانصاري، والكذب ومهما كان صغيراً فانه من الرذائل الاخلاقية وأمارات النفاق. ولذلك أوصى الامام علي بن الحسينعليه السلام اولاده:

«اتّقُوا الكذبَ الصغيرَ مِنهُ والكبيرَ في كُلِّ جِدٍّ وهَزْلٍ فانَّ الرجُلَ اذا كَذِبَ في الصغيرِ اجترأ على الكبير. أما عَلِمتُم أنَّ رسولَ اللهصلى الله عليه وآله قال: ما يزالُ العبدُ يصدُقُ حتى يكتُبَهُ الله صِدِّيقاً، وما يزالُ العبدُ يَكذِبُ حتى يكتُبَهُ الله كذاباً»(٢).

ومن وصايا الرسول محمدصلى الله عليه وآله لأبي ذر قوله:

«يا أبا ذر انّ الرجلَ يتكلَّمُ بالكلمةِ في المجلسِ ليُضحِكَهُم بها فيهوى في جهنَّم ما بينَ السماءِ والأرضِ. يا أبا ذر ويلٌ للذي يُحَدِّثُ فيكذِبُ لِيُضحِكَ بهِ القومَ ويلٌ لهُ ويلٌ لهُ»(٣).

ج ـ وقد يقال ان الهزل على قسمين:

ما كان بطابع الطريفة والفكاهة وما كان بطابع الجد ولكنه جرى بقصد الهزل والمزاح، وحيث ان القسم الأول لا يصدق عليه الأخبار فلا حرمة في كذبه لأنه ليس من مصاديق الكذب واقعاً، واما الثاني فهو حرام لأنه خبر كذب صدر

---

(١) الاسراء / ٣٦.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٣) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٧٤، ص ٨٨.

بقصد المزاح والضحك.

والمسائل التي تجري في المزاح وأمثاله مما لا ينطبع عليه الجد من قبيل القسم الأول ظاهراً فتأمل.

وقد قال الامام علي عليه السلام:

«لا يجدُ عبدٌ طعمَ الايمانِ حتى يتركَ الكِذبَ هزلَهُ وجِدَّهُ»[1].

وقال عليه السلام ايضاً:

«لا يصلَحُ مِنَ الكذبِ جِدٌ ولا هَزلٌ ولا أن يعِدَ أحدُكُم صبِيَّهُ ثم لا يفي له، انَّ الكذبَ يهدي الى الفُجورِ والفجورُ يهدي الى النارِ»[2].

فالكذب، معصية في جميع الأحوال، سواء كان صغيراً ام كبيراً، هزلاً ام جِداً، ويُكتَبُ في صحيفة اعمال المرء. فما أكثر الأكاذيب التي ربما يتصور الناس انها ليست ذنباً، إلّا انها قبيحة من وجهة نظر الاسلام وغير مطلوبة.

ويقول العلامة محمد باقر المجلسي: «ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقولك: قلتُ لك كذا مائةَ مرة وطلبتُك مائةَ مرة فانه لا يُراد بها تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلَبَ إلّا مرة واحدة كان كاذباً وان طلبَ مرات لا يُعتاد مثلها في الكثرة فلا يأثم، وان لم يبلغ مائةَ وبينهما درجات، يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب، وربما يعتاد الكذب فيه ويستأهل به أن يُقال: كُلِ الطعامَ لأحدٍ، فيقولُ: لا أشتهيه، وذلك منهيٌّ عنه وهو حرامٌ ان لم يكن فيه غرض صحيح»[3].

واستشهد العلامة المجلسي بعد ذلك بالرواية التالية في تأييد ما ذهب اليه:

«قالت أسماءُ بنتُ عميس كنتُ صاحبة عائشة التي هيَّأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي نسوة. فوالله ما وجدنا عنده قوتاً إلّا قدحاً من لبنٍ فشرِبَ

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤، ح ١١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٧٧.

(٣) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٩، ص ٢٥٨.

ثم ناوَلَهُ عائشة فاستحيت الجارية. فقلتُ: لا تردّي يدَ رسولِ الله ﷺ خُذي منه. قالت: فأخذَتهُ على حياءٍ فشربت منه ثم قالَ: ناولي صواحِبَكِ. فقلنَ: لا نشتهيهِ. فقال: لا تجمعنَّ جوعاً وكذباً.

قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله ان قالت احدانا لشيءٍ نشتهيه لا أشتهيه، أيُعدُّ ذلك كذباً؟ قال: انّ الكذبَ ليُكتَب حتى يُكتبَ الكذيبةُ كذيبةً»[١].

وقال ايضاً:

وقد ظنّ الظانّون انّه يجوز وضع الأخبار في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي، وزعموا ان القصد منه صحيح وهو خطأ محض اذ قال ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار»، ولا ضرورة هنا في الكذب اذ في الصدق مندوحة عن الكذب، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها[٢].

وهكذا قد يؤدي مثل هذا التساهل في هذه الامور التي تبدو بسيطة وتافهة، الى تطبع المرء على الكذب، ومن يتطبّع على أمر ويعتدْ عليه، يصبح من العسير عليه الاقلاع عنه. وكما قال الامام الحسن العسكري عليه السلام:

«ردُّ المُعتادِ عن عادَتهِ كالمُعجِزِ»[٣].

اذن ولكي لا يعتاد المرء على الكذب فلابد له من تفادي حتى الصغير من الكذب، لكي يصبح بامكانه السيطرة على لسانه.

د ـ قلنا انّ الكذب حرام وغير مطلوب مطلقاً ـ عدا في حالات الضرورة والتي سنشير اليها لاحقاً ـ، غير انّ ما يعد من الرذائل الاخلاقية في علم الاخلاق هو الاعتياد على الكذب والتطبع عليه، مثلما يُعدّ التطبع على الصدق والتعود عليه أمراً مهماً وقيماً من وجهة نظر هذا العلم ايضاً. بتعبير آخر: مثلما لا يُعدّ قول الصدق على سبيل الاتفاق دليلاً على الفضيلة والكمال، كذلك لا يُعدّ

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر، ج ٧٥، ص ٣٧٤.

قول الكذب على سبيل الصدفة وبصورة نادرة، دليلاً على فساد الاخلاق.

ويمكن القول بايجاز انّ ما يُعدّ قيمةً وقيمةً مضادة هـي الملكات الاخلاقية الفاضلة والرذائل النفسية لدى الانسان لا مجرد سلوكه وقوله. ورغم انّ اعمال الانسان وتصرفاته، تعبّر عن خلقياته، وتؤثر كل منهما في الاخرى، إلّا ان السلوك المؤقت أو المرحلي لا يعبّر عن طبعه وخلقه. ولذلك ورد في الأحاديث انّ الاعتياد على الكذب لا يمكن ان ينسجم مع الايمان. أي من الممكن ان يقترف المؤمن معصية الكذب احياناً عن ضرورة أو غفلة، ولكن ليس من الممكن ان يتخذ من الكذب اسلوباً له في الحياة.

قال الرسول الاكرم محمد صلى الله عليه وآله:

«انَّ مِن أعظمِ الخطايا اللسانُ الكَذوب»[1].

وقال في حديث آخر:

«انَّ المؤمنَ يتطبَّعُ على كُلِّ شيءٍ إلّا على الكذبِ والخيانةِ»[2].

وقال الحسن بن محبوب: سألتُ الامام الصادق عليه السلام: يكون المؤمنُ بخيلاً؟ قال: نعم، ثم سألته: ويكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم. ثم سألته: ويكون المؤمن كذّاباً؟ قال: لا، ثم أضاف الامام قائلاً:

«جُبِلَ المؤمنُ على كلِّ طبيعةٍ إلّا الخيانةَ والكذبَ»[3].

وقال عبد الرحمن بن الحجاج انه سأل الامام الصادق عليه السلام هل يُسمى كذاباً من يكذب في بعض الأحيان، فأجابه الامام عليه السلام:

«لا، ما مِن أحدٍ إلّا يكونُ ذاكَ منه، ولكنَّ المطبوعَ على الكذب»[4].

هـ ـ اشرنا من قبل الى انّ حرمة الكذب وقبحه، أمر لا يشك فيه أحد،

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) مستدرك الوسائل، ط مؤسسة آل البيت، ج ٩، ص ٨٥، كتاب الحج؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٧٣، كتاب الحج، ح ٩.

والآيات وأخبار العامة والخاصة، متواترة في هذا المضمار. لكن الموضوع الذي لابد من بحثه هو: هل يُعَدّ الكذب، من المعاصي الكبيرة بالذات وبشكل مطلق، ام يُعدّ كذلك من خلال عروض بعض العناوين وفي ظل ظروف خاصة؟

ويرى المرحوم الشيخ الاعظم مرتضى الانصاري والاستاذ الكبير الامام الخميني قدس الله سرّه الشريف انّ القدر المتيقن من الأخبار انّ بعض انواع الكذب كالكذب على الله ورسوله ﷺ والائمة ﷺ، وشهادة الكذب، والتهمة ـ باعتبارها من مصاديق الكذب ـ والافتراء، والفتوى بدون علم، والأكاذيب المثيرة للفتن، هي من المعاصي الكبيرة، وما عداها فهي من المعاصي الصغيرة[١]، ما لم يتحول الكذب بفعل التكرار الى عادة وطبيعة ثانوية بحيث تنشأ مصاديق الكذب من ملكة الانسان وخلقه وطبعه. ويُعدّ الكذب في مثل هذه الحالة من المعاصي الكبيرة، لكن ليس بفعل الاصرار والتكرار ـ كما هو الحال في سائر الذنوب الصغيرة ـ وانما لتحوله الى رذيلة نفسانية[٢].

وما ذهب اليه هذان الفقيهان الكبيران، هو تحقيق فقهي يحظى بالتوجه والاهتمام في موضعه المناسب، إلّا انه خارج عن موضوع بحثنا هذا، ولكن يجب عدم تجاهل هذه النقطة الاخلاقية المهمة وهي انّ الكذب، قبيح مطلقاً من وجهة النظر الاخلاقية، ولابد من تجنبه تماماً، عدا في حالات الضرورة. ولا يمكن القول بأنّ معصية الكذب ذات درجة واحدة في جميع انواعه ومصاديقه، ومع ذلك لا يصح ايضاً مقارنته ببعض الذنوب الصغيرة أو عدّه من السيئات التي يمكن تجاهلها، انما هو من وجهة النظر الاخلاقية، ذنب كبير باعتباره خلاف الواقع والحقيقة واعتقاد القائل، في طبيعته وذاته، وعلامة من علائم النفاق.

من هنا، لا يبعث تردد هذين الفقيهين الكبيرين في كبر معصية بعض مصاديق الكذب، على تجرؤ البعض على استصغار الكذب في الظروف العادية وتلويث

---

(١) المكاسب المحرمة للشيخ الانصاري والمكاسب المحرمة للامام الخميني، ج ٢، ص ٧٢.

(٢) قد يقال ان الاصرار على الذنوب الصغيرة، يُحسب من الذنوب الكبيرة لأنه كاشف عن خبث السريرة وروح التمرد لدى الانسان، ولذلك لا فرق بين الكذب وسائر المعاصي على هذا الأساس.

ألسنتهم به، بحيث يعتادون عليه بصورة تدريجية.

اذن لابد من تجنب الكذب ـ مهما كان صغيراً ـ، وعدم تلويث هذه الشخصية النورانية والملكوتية بالكذب والنفاق، اذ لا يمكن سلوك الطريقة بالكذب والخدعة والحيلة.

و ـ يُعَدّ الشعور بالنقص، العامل النفسي الذي يقف وراء الكذب. ولابد من الاهتمام بهذا العامل على صعيد علم النفس الاخلاقي. وقد قال الرسول الاكرمﷺ بهذا الشأن:

«لا يكذِبُ الكاذبُ إلّا مِن مهانَةِ نفسهِ»[١].

وبعد هذا الاستعراض السريع، لابد لنا من الانفتاح على بعض الآيات والأحاديث التي تتحدث عن مذمة الكذب:

الكذب من منظار القرآن

وضع القرآن الكريم الكذب في مستوى واحد مع الشرك حينما قال:

﴿... فاجتنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزُّورِ﴾[٢].

الكاذب، عديم الايمان:

لا يرى القرآن الكريم الكاذب مؤمناً، ويضعه الى جانب الكافرين والمنكرين للآيات الالهية:

﴿انَّما يفترِي الكَذِبَ الذينَ لا يؤمنونَ بآياتِ اللهِ واولئك هُمُ الكاذبونَ﴾[٣].

الكذب فسق:

عبّر الله تعالى في آية قرآنية اخرى عن الكذب بالفسق، فقال:

﴿... فلا رفثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ ...﴾[٤].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٠؛ اختصاص الشيخ المفيد، ص ٢٣٢.

(٢) الحج / ٣٠.

(٣) النحل / ١٠٥.

(٤) البقرة / ١٩٧.

الحرمان من الهداية الالهية:

قال الله تعالى:

﴿... انَّ الله لا يهدي مَن هُوَ كاذبٌ كفّارٌ﴾[1].

وقال ايضاً:

﴿... انّ الله لا يَهدي من هُوَ مُسرِفٌ كذّاب﴾[2].

الكاذب بعيد عن رحمة الله:

لعن الله تعالى الكاذبين في آية المباهلة وآية اللعان . فقال في آية المباهلة:

﴿... فنجعَل لعنَةَ الله على الكاذبينَ﴾[3].

وقال في آية اللعان:

﴿... أنّ لعنَةِ اللهِ عليهِ إن كانَ من الكاذبينَ﴾[4].

ورغم ما تتسم به هاتان الآيتان من خصوصية، ونزولهما في نوع خاص من الكذب، إلّا انهما تشيران على أية حال الى انّ مصير الكاذب ينتهي الى اللعن الالهي.

واذا علمنا انّ الكاذب قد استحق على لسان الوحي اللعن الالهي، فمن المناسب التحدث بايجاز عن بعض عناوين وخصوصيات اللعن، عسى أن يبعث ذلك على يقظة المؤمنين وصحوتهم ويدفعهم الى السيطرة على ألسنتهم بشكل اكبر.

ما هو اللعن؟

تحدث الراغب الاصفهاني عن معنى مفردة «اللعن» قائلاً:

«اللعن الطرد والابعاد على سبيل السخط وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة

---

(١) الزمر / ٣.

(٢) غافر / ٢٨.

(٣) آل عمران / ٦١.

(٤) النور / ٧.

وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الانسان دعاء على غيره»[١].

ـ سؤال:

ما هي العواقب الوخيمة التي تنتظر من يتعرض للعنة الله تعالى؟

ـ الجواب:

يقول القرآن الكريم بشكل قاطع وصريح:

﴿... ومَنْ يلعَنِ اللهُ فلَن تجِدَ لهُ نصيرا﴾[٢].

ويقول في آية اخرى:

﴿... ومَن يحلِلْ عليهِ غضبي فقد هوى﴾[٣].

وسنرى لاحقاً انّ الكذاب، من المصاديق البارزة والواضحة لمن غضب الله تعالى عليهم.

من هم الملعونون؟

لعن الله تعالى في قرآنه المجيد العديد من الفئات والافراد بما فيهم الفئة الكاذبة.

وهذه الفئات الملعونة في القرآن كما يلي حسب أهميتها:

١ ـ المنافقون:

ويُعدّ المنافقون الفئة الاولى التي لعنها الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وعَدَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والكفّارَ نارَ جهنَّمَ خالدينَ فيها هِيَ حسبُهُم ولعنَهُم الله ولهُم عذابٌ مُقيم﴾[٤].

٢ ـ المشركون:

وهم الفئة الثانية، وقد قال تعالى فيهم:

﴿ويُعذِّبَ المنافقينَ والمنافقاتِ والمُشركينَ والمُشركاتِ الظّانينَ باللهِ ظنَّ السَّوءِ،

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مفردة لعن.

(٢) النساء / ٥٢.

(٣) طه / ٨١.

(٤) التوبة / ٦٨. ولُعِنوا ايضاً في الفتح / ٦ والاحزاب / ٦١.

عليهم دائِرَةُ السَّوءِ وغضِبَ اللهُ عليهم ولعنَهُم وأعدَّ لهُم جهنَّمَ وساءَت مصيرا﴾[١].

٣ ـ الكافرون:

وقال الله تعالى في هذه الفئة الثالثة:

﴿انَّ الذين كفروا وماتُوا وهُم كفَّارٌ أولئِكَ عليهم لعنَةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعينَ﴾[٢].

٤ ـ المفسدون في الأرض:

قال الله تعالى في هذه الفئة الرابعة:

﴿والذينَ ينقُضُونَ عهدَ اللهِ مِن بعدِ ميثاقِهِ ويقطَعُونَ ما أمرَ اللهُ بهِ أن يُوصَلَ ويُفسِدونَ في الأرضِ أولئكَ لهُمُ اللَّعنَةُ ولهُم سُوءُ الدارِ﴾[٣].

٥ ـ اليهود:

قال تعالى فيهم:

﴿وقالتِ اليهودُ يدُ اللهِ مغلولَةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعِنوا بما قالوا ...﴾[٤].

٦ ـ المرتدون:

المرتدون هم الذين أسلموا ثم رجعوا عن اسلامهم، وقد قال تعالى فيهم:

﴿كيفَ يَهدي اللهُ قوماً كفروا بعدَ ايمانِهِم وشَهِدوا أنّ الرسولَ حقٌّ وجاءَهُمُ البيِّناتُ والله لا يهدي القومَ الظّالمينَ اولئكَ جزاؤهُم أنَّ عليهم لعنَةَ الله والملائكةِ والنّاسِ أجمعينَ﴾[٥].

٧ ـ الشيطان:

الشيطان هو الآخر من الذين لعنهم الله تعالى وغضب عليهم. وقد قال القرآن فيه:

---

(١) الفتح / ٦.

(٢) البقرة / ١٦١. وتشابه هذه الآية كلاً من: الاحزاب / ٦٤، والتوبة / ٦٨.

(٣) الرعد / ٢٥.

(٤) المائدة / ٦٤.

(٥) آل عمران / ٨٦و٨٧.

﴿إنْ يدعُونَ مِن دونِهِ إلّا إناثاً وإنْ يدعونَ إلّا شيطاناً مريداً لعنَهُ اللهُ ...﴾[1].

وقال في آية اخرى:

﴿وإنَّ عليكَ لعنتي الى يومِ الدِّينِ﴾[2].

وقال ايضاً:

﴿وإنَّ عليكَ اللعنَةَ الى يومِ الدِّينِ﴾[3].

٨ ـ المُؤذونَ لله ورسوله:

قال الله في الفئة التي تؤذي الله والرسول:

﴿انَّ الذينَ يُؤذُونَ اللهَ ورسولَهُ لعنَهُمُ الله في الدنيا والآخرةِ وأَعَدَّ لَهُم عذاباً مُهيناً﴾[4].

٩ ـ الكاذبون

اوردنا في مطلع البحث الآيات التي تتحدث عن لعن الكاذبين. وقد وُضع الكاذبون في هذه الآيات الى جانب الكافرين، والمشركين، والمنافقين، والمفسدين في الأرض، واليهود، والمرتدين، والذين يؤذون الله ورسوله. وهذا ما يدل على مدى فظاعة معصية الكذب وكبر حجمها. ولكن الذي يبعث على الأسف هو تساهل بعض الناس ازاءها وعدم وقوفهم على قُبحها وشناعتها.

فلو تدبروا في هذه الآيات وفكّروا فيها لأدركوا انّ الكذب قبيح جداً من وجهة نظر القرآن بحيث انه يهبط بالانسان من مكانته الانسانية الملكوتية الشامخة الى دركة الشياطين.

ألا ليت الناس يتخذون من تعاليم القرآن السماوية المشرقة دليلاً لهم في مساراتهم الحياتية، وينقذون انفسهم بها من الضلال والانحراف والتخبّط.

---

(١) النساء / ١١٧ و١١٨.

(٢) ص / ٧٨.

(٣) الحجر / ٣٥.

(٤) الاحزاب / ٥٧.

الكذب من منظار الأحاديث

الكذب بمستوى الشرك بالله:

قال الرسول محمد ﷺ:

«ألا أُخبِرُكُم بأكبرِ الكبائرِ: الاشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدينِ، وقولُ الزُّورِ، أي الكذبُ»(١).

الكذب مفتاح الذنوب:

قال الامام الحسن العسكري عليه السلام:

«جُعِلتِ الخبائِثُ كُلُّها في بيتٍ وجُعِلَ مفتاحُها الكذبَ»(٢).

الكذب شرٌّ من الشراب:

قال الامام الباقر عليه السلام

«انَّ الله عزَّ وجلَّ جعَلَ لِلشَّرِّ أقفالاً وجعلَ مفاتيح تلكَ الأقفالِ الشَّرابَ، والكذبُ شرٌّ مِنَ الشَّرابِ»(٣).

الكذب خراب الايمان:

قال الامام الباقر عليه السلام:

«انَّ الكذبَ هو خرابُ الايمانِ»(٤).

الكذب والوجه الأسود:

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«الكذبُ يُسوِّدُ الوجهَ»(٥).

الكذب لا ينسجم مع الايمان:

«عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سُئِل رسول الله ﷺ: يكونُ المؤمنُ جباناً؟

---

(١) جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٢٣؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٩، ص ٢٣٦ مع اختلاف يسير.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٧٢؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٩، ح ٣.

(٤) نفس المصدر، ح ٤؛ بحار الانوار، ج ٦٩، ص ٢٤٧.

(٥) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٠.

قالَ: نعم، قيلَ: ويكونُ بخيلاً؟ قالَ: نعم، قيلَ: يكونُ كذّاباً؟ قالَ: لا»(١).

الكاذب مرفوضٌ من الله:

قال الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام مناجياً الله تعالى:

«أو لعلَّكَ وجدتَني في مقامِ الكاذبينَ فرفَضتني»(٢).

الكاذب تلعنه الملائكة:

«المؤمنُ اذا كذِبَ مِن غيرِ عُذرٍ لعنَهُ سبعونَ ألفَ ملَكٍ وخرجَ مِن قلبِهِ نَتَنٌ حتّى يبلُغَ العرشَ فيلعَنُهُ حملَةُ العرشِ»(٣).

الكذب علامة النفاق:

قال رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«ثلاثٌ من كُنَّ فيهِ فهُوَ منافقٌ وان صامَ وصلّى وزعَمَ أنَّهُ مُسلِمٌ: اذا حدَّثَ كذِبَ، واذا وعَدَ أخلَفَ، واذا ائتُمِنَ خانَ»(٤).

الكذب أسوأ الربا:

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«أربَى الرِّبا، الكذبُ»(٥).

الكذب أقبح العلل:

قال الامام علي عليه السلام:

«... وعِلَّةُ الكذبِ أقبحُ عِلَّةٍ»(٦).

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٧٣؛ جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٠؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٧٤؛ جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٤) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٨؛ وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٦٩.

(٥) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٠؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٧٣؛ من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٢٧٢.

(٦) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٠.

الحرمان من صلاة الليل:

يُعدّ الكذب من المعاصي التي تنتزع من المرء التوفيق لأداء صلاة الليل. وهذا ما أشار اليه الامام جعفر الصادق عليه السلام حين قال:

«انَّ الرَّجُلَ ليَكذِبُ الكِذبَةَ فيُحرَمُ بها صلاةَ الليلِ»[١].

تأثير الكذب على الرزق:

قال الرسول الاكرم محمد صلى الله عليه وآله:

«الكذبُ ينقُصُ الرِّزقَ»[٢].

الكذب يورثُ النسيان:

قال الامام الصادق عليه السلام:

«انَّ مِمّا أعانَ اللهُ على الكذّابينَ النِّسيانَ»[٣].

خلاصة البحث

نستنتج من كل ما سبق انّ الكذب من آفات اللسان المقوّضة للايمان، ويعمل على حرمان الانسان من الرحمة الالهية في الدنيا والآخرة، ولا يُبقي له مكانة بين الناس. الكذب ينسف الثقة العامة المتبادلة بين الافراد، ويصيب المجتمع بمرض النفاق.

والمدهش في الأمر انّ الأحاديث قد قالت بأنّ العامل الجوهري المسبب للكذب هو الشعور بالنقص. وهذه نقطة مهمة جداً اشار اليها المعصومون عليهم السلام وتحظى بأهمية كبيرة من وجهة نظر علم النفس الأخلاقي.

نقطة مهمة اخرى:

المرء، علاوة على ضرورة تفاديه الكذب، لابد له ايضاً أن يتجنّب مصاحبة

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٧٣.

(٢) جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٣) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٦٩، ص ٢٥١.

الكذّابين ويبتعد عنهم. ومن الضروري أن نستعرض بعض الأحاديث بهذا الشأن:

عن أبي عبدِ الله (الصادق) عليهِ السلام قالَ: كانَ أميرِ المؤمنينَ صلواتُ الله عليهِ اذا صعدَ المنبرَ قالَ: ينبغي للمسلمِ أن يتجنبَ مؤاخاةَ ثلاثةٍ: الماجِنِ الفاجِرِ والأحمقِ والكذّابِ... أما الكذّابُ فانَّهُ لا يَهنَأُكَ معهُ عيشٌ، ينقلُ حديثكَ وينقُل اليكَ الحديثَ، كلما أفنى أحدوثةً مَطَّها (مطَرها) بأخرى مِثلِها حتى انَّـهُ يُحدِّثُ بالصِّدقِ فما يُصدَّقُ ويفرِّقُ بينِ النّاسِ بِالعداوةِ فينبِتُ السخائِمَ في الصُّدُورِ فاتقوا الله عزَّ وجلَّ وانظرُوا لأنفُسِكُم[١].

وقال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«لا تُقارِن ولا تُؤاخِ أربعةً: الأحمقَ، والبخيلَ، والجبانَ، والكذّابَ... أما الكذّابُ فانَّهُ يَصْدقُ ولا يُصَدَّقُ»[٢].

وقال الامام علي عليه السلام في وصية لولده الحسن المجتبى عليه السلام:

«... ايّاكَ ومُصادقَةَ الكذّابِ فانَّهُ كالسَّرابِ يُقرِّبُ عليكَ البعيدَ ويُبَعِّدُ عليكَ القريبَ»[٣].

ومجالسة الكذاب مما تؤثر أثراً سيئاً على الانسان شاء ام أبى. وكما أشار الامام علي عليه السلام بقوله:

«لا تصحَب الشّريرَ فانَّ طبعَكَ يسرقُ مِن طبعِهِ وأنتَ لا تعلمُ»[٤].

من هنا، لابد من الحذر وبذل الدقة الكافية حين انتخاب الصاحب والصديق، لأنّه يؤثر على كافة شؤون حياته. ومثلما يحث الصديقُ الصالح على العمل الصالح، يحرّض صديقُ السوء على العمل السيئ ويقود نحو الانحراف والسقوط. والمرء يعرف بجليسه وخليله.

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٣٩، ح ١.
(٢) الخصال، الصدوق، ج ١، ص ٢٦٦، ح ٨٩.
(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٣٨.
(٤) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ٢، ص ٢٧٢، الحكمة ١٤٧.

وهذا ما عبّر عنه الحديث النبوي التالي:

«المرءُ على دينِ خليلِهِ وقرينِهِ»[١].

وقال نبيّ الله سليمان عليه السلام:

«لا تحكُموا على رجُلٍ بشيءٍ حتّى تنظُروا الى مَن يُصاحبُ فانّما يُعرَفُ الرجلُ بأشكالِهِ وأقرانِهِ ويُنسبُ الى أصحابِهِ وأخدانِهِ»[٢].

وقال الامام علي عليه السلام ضمن حديث:

«... فَمَنِ اشتبَهَ عليكُم أمرُهُ ولم تَعرِفوا دينَهُ، فانظُروا الى خُلَطائِهِ، فان كانوا أهلَ دينِ الله فهُوَ على دينِ الله، وان كانوا على غيرِ دينِ الله فلا حَظَّ لهُ مِن دينِ الله»[٣].

فاذا كان المرء متساهلاً في اختيار الصديق والخليل، فانّه سيعضّ على يديه ندماً يوم القيامة[٤]. وما أروع الآية التالية في تعبيرها عن هذه الحقيقة:

﴿ويَومَ يَعَضُّ الظالِمُ على يديهِ يقولُ يا ليتني لم أتَّخِذ فُلاناً خليلاً. لقد أضلَّني عنِ الذِّكرِ بعدَ اذ جاءني وكان الشَّيطانُ لِلإنسانِ خذُولاً﴾[٥].

وهكذا ينبغي للمرء الابتعاد عن غير الصالحين. اما اذا كان قد ابتُلي بمعاشرتهم ومخالطتهم، فعليه انتهاز الفرصة، فيسارع الى اعتزالهم والتنحّي عنهم قبل فوات الأوان.

حالات جواز الكذب

قلنا انّ الكذب قبيح بالطبع، ويُعدّ الاعتياد عليه من الرذائل الاخلاقية

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٢، ح ١٠.

(٢) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ١٨٨؛ مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٦٢.

(٣) بحار الانوار، ج ٧١، ص ١٩٧.

(٤) عبّر الله تعالى عن يوم القيامة بيوم الحسرة أي يوم الندم حينما قال: ﴿وأنذِرهُم يومَ الحَسرَةِ اذ قُضيَ الأمرُ ...﴾ (مريم / ٣٩).

(٥) الفرقان / ٢٧ ـ ٢٩.

والذنوب الكبيرة. ولا يجوز ما لم تكن هناك ضرورة ومصلحة مهمة[1].

ونستعرض أدناه الحالات التي يجوز فيها الكذب انطلاقاً من الضرورة أو

---

(١) والمدهش في الامر انّ الغزالي وبعد اعتقاده بأنّ الكذب يؤلف موضوع الأحكام الخمسة، يقول: «اعلم انّ الكذب ليس حراماً بعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره»، ثم يقول: «الكلام وسيلة الى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذب فيه حرام، وان أمكن التوصل بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً، وواجب ان كان المقصود واجباً. كما أنّ عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه إلّا بالكذب فالكذب مباح». (احياء العلوم، ج ٣، ص ١٣٧).

وقد أورد المرحوم الفيض الكاشاني كلام الغزالي اعلاه بدون ان يوجه اليه ادنى نقد واعتراض (المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٤٣).

ولكن كيف يمكن تصديق تجويز مفكرين كالغزالي والفيض الكاشاني قول الكذب لبلوغ الاهداف غير الضرورية مع انّ الرسول محمداً (ص) يقول: «اجتنبوا الكذب وإنْ رأيتم فيه النجاة فانّ فيه الهلكة» (مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٠)، ما لم يكن الغزالي يؤمن بمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، وهو أمر مستبعد منه؟ ومع افتراض عدم قبولنا بالحسن والقبح الذاتيين وأخذنا بمبدأ نسبية الأخلاق، لكن كيف يمكن مع كل هذه الآيات والأحاديث التي تنهى عن الكذب بشكل مطلق، تجويز الكذب من اجل الوصول الى غاية مباحة وغير ضرورية؟ في حين حتى على صعيد الاعمال الواجبة والضرورية لا يجوز الكذب إلّا اذا كان ذلك الأمر الواجب من الأهمية بحيث لا يرضى الشارع المقدس بتركه. بل حتى في حالات دفع الضرر، لا يجوز الكذب إلّا اذا كان ذلك الضرر من الأهمية بحيث لا يمكن تجاهله، ولا يجوز الكذب في غير ذلك.

فهل من اجل حفظ مقدار تافه من مال الدنيا، بامكان المرء ان يقسم كاذباً؟ وهل يمكن التوسل بالكذب على صعيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فندعو الناس الى المعروف وننهاهم عن المنكر من خلال الوعود الزائفة؟! انا اعتقد انّ هذه امور لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن فتح باب الكذب بوجهها بدون ضرورة، وربما لهذا السبب بالذات نجد الغزالي يقول في خاتمة البحث وعلى سبيل الاحتياط: «إلّا انه ينبغي أن يحترز عنه ما يمكن لأنه اذا فتح على نفسه باب الكذب فيخشى أن يتداعى الى ما يستغني عنه والى ما لا يقتصر فيه على حد الواجب ومقدار الضرورة».

ثم يقول: «فكان الكذب حراماً في الاصل إلّا لضرورة».

واعتقد ان قول الغزالي الاخير يمثل عين الحقيقة، إلّا ان هذا الأصل يتعارض وللأسف مع ما اورده في مطلع البحث. والله أعلم بالصواب.

المصلحة:

١ ـ حين الضرورة والاضطرار

لاشك في جواز الكذب في هذه الحالة، وقد دلت عليه الأدلة الاربعة ايضاً، أي الكتاب، والسنة، والعقل، والاجماع. ويحكم عقل الانسان باختيار أقل الضررين عند الضرورة. وقد سمح القرآن الكريم بالتقية عند الاكراه والاضطرار. ومن الواضح أنّ التقية، مصداق من مصاديق الكذب وخلاف الواقع، وبمقدور المرء عند الاضطرار اخفاء عقيدته والشهادة بما هو خلاف ايمانه وعقيدته. وفي هذا قال القرآن الكريم:

﴿... إلّا مَن أُكرِهَ وقلبُهُ مُطمَئِنٌّ بالايمان ...﴾[١].

وقال الرسول محمدﷺ:

«ما مِن شيءٍ إلّا وقد أحلَّهُ الله لِمَنِ اضطُرَّ اليه»[٢].

ونُقِل عين هذا المضمون ايضاً عن الامام الصادقعليه السلام:

«اذا حلفَ الرجلُ تقيةً لم يَضُرَّهُ اذا هوَ أُكرِهَ واضطُرَّ اليه، وقال: ليس شيءٌ مما حرَّم الله إلّا وقد أحلَّهُ لِمَنِ اضطُرَّ اليهِ»[٣].

وهناك أحاديث في حد الاستفاضة أو التواتر قد وردت بشأن دفع الضرر، وتنص على انّ بامكان المرء ان يقسم كاذباً من اجل دفع الضرر عن ماله أو نفسه أو شرفه. والمراد بالضرر المالي ذلك الضرر الذي من الصعب تحمله وان يكون مهماً على الأقل، في حين لا تُجيز الاضرار الطفيفة الكذب.

عدم جواز الكذب مع امكان التورية:

وصفوة الكلام هي انّ الفقهاء وعلماء الاخلاق لا يختلفون في جواز وحلية

(١) النحل / ١٠٦.

(٢) المكاسب المحرمة للشيخ الانصاري.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٣٧، ح ١٨.

الكذب في مقام الضرورة. والشيء الوحيد الذين يختلفون فيه هو هل يجوز الكذب في مثل هذه الحالات بشكل مطلق وبلا قيد أو شرط، ام يجوز بعد تعذّر التورية؟

القول المشهور هو انه يجوز بعد تعذر التورية. أي اذا كان هناك مجال للتورية، فلا يجوز الكذب، اذ لا توجد مع هذا الافتراض ضرورة لقول الكذب، أي لا يوجد في الحقيقة مجوز يسمح بمثل هذا العمل.

والمرحوم الشيخ مرتضى الانصاري ورغم اعتقاده بأنّ الرأي المشهور هذا مقبول عقلياً، لكنه يقول انه لم تُلاحَظ في جميع اخبار الاضطرار اشارة الى هذا الشرط ولا دليل على لزوم رعايته، لأنه لو كان مثل هذا الشرط لازماً لذُكر في مورد واحد على الاقل من موارد الاضطرار الكثيرة التي تجوز فيها التورية، ولذلك من الممكن ان يكون الشارع المقدس قد ترك الميدان مفتوحاً لتسهيل الأمر على عباده ولم يُلزِم برعاية التورية في مثل هذه الامور[1].

---

(١) المكاسب المحرمة.

اعتقد انه لابد من تجنب الكذب مادام هناك مجال للتورية. ورغم انّ المرحوم الشيخ الانصاري قال بأنه لم يجد دليلاً على لزوم التورية، إلّا ان بالامكان رؤية بعض الشواهد والاشارات من خلال دراسة مستفيضة لبعض الآيات والأحاديث، والتي تؤيد القول المشهور القائل بلزوم رعاية التورية وترجيحها على الكذب. فحول الآيات التي ينسب البعض الكذب المصلحي على اساسها لابراهيم ويوسف عليهما السلام، هناك أحاديث تنزه هذين النبيين العظيمين وتفسر ظاهر الآيات الواردة بهذا الشأن بالتورية.

فحول الآية الكريمة ﴿... أيَّتها العِيرُ انَّكُم لسارقونَ﴾ (يوسف / ٧٠) والتي هي عبارةٌ خاطب بها مؤذّنٌ يوسف اخوةَ يوسف ووصفهم بالسارقين، قال الامام الصادق (ع) انّ المقصود بالسرقة، ليس سرقة صواع ملك مصر، وانما سرقة يوسف من ابيه والقاؤه في غيابة الجب. فعبارة «انكم لسارقون» التي تدل على الحال بحسب الظاهر، قد فُسّرت بالتورية طبقاً لهذا الحديث. (راجع: تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٨٥).

ونلاحظ ما يشبه هذا التأويل أو التورية حول الآية الكريمة: ﴿بل فعلَهُ كبيرُهُم هذا فاسألوهُم ان كانوا ينطِقُون﴾ (الانبياء / ٦٣)، أي ان ابراهيم (ع) قد نسب تحطيم الأصنام الصغيرة للصنم الكبير.

←

إلّا انّ الشيخ وانطلاقاً من العمل بالاحتياط ومراعاة الاصول العامة يؤكد في نهاية المطاف على انّ الاحتياط هو الامتناع عن الكذب بالاستفادة من التورية قدر المستطاع، وهذا هو مقتضى العمومات واطلاق الأخبار، ويبقى العموم والاطلاق مقدَّمين ما لم يكن هناك دليل معتبر خلافهما.

٢ـ الاصلاح بين الناس(١)

حينما يسعى المرء لخلق الالفة والمحبة ورفع البغضاء والحقد من القلوب، والاصلاح بين الأطراف المتنازعة واعادة العلاقات فيما بينها الى مجاريها الطبيعية، فلا مانع من استخدام الكذب. فلو كان هناك جانبان متخاصمان وانطلق احدهم نحو أحد الجانبين وقال له: انّ فلاناً قد ذكرك بخير وانه مستاء لحالة الجفاء والتخاصم هذه وأعتقد انه راغب في التصالح معك، ثم لو انطلق نحو الجانب الآخر وقال له مثل ما قال للأول، فلا يُعدّ هذا النوع من الكذب حراماً، بل ويُعدّ مستحسناً أيضاً، وقد عبّر الرسول ﷺ والأئمة المعصومون ﷺ عن استحسانهم له.

← مع اضافة جملة الشرط «ان كانوا ينطقون». أي انّ عبدة الاصنام حينما سألوه عن الذي حطّم أصنامهم، أجابهم بأنّ الذي حطمها، هذا الصنم الكبير. فاسألوهم ان كان بامكانهم الاجابة. وقد حقق ابراهيم بهذا الشرط عملين: الاول تجنّب الكذب، والثاني ادانة عبدة الاصنام من خلال الجدل. (راجع: بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٢٤٠).

وهكذا نلاحظ تأويل ظاهر كلام ابراهيم ويوسف عليهما السلام وتفسيره بما يشبه التورية تنزيهاً لهما عن الكذب.

(١) قد يقول قائل ان حالاتٍ كالاصلاح والحرب والوعد الكاذب للاسرة، تُعدّ من مصاديق الضرورة والاضطرار، إلّا انّ للضرورة انواعاً مختلفة: ضرورات دينية، واجتماعية، ودنيوية، وسياسية، واقتصادية وغيرها. وأثبت علم الاصول انّ المقصود بالضرورة في مثل هذه الحالات، ليس الضرورة العقلية، بل الضرورة العرفية، أي حينما يحظى الموضوع في مثل هذه الحالات بأهمية حياتية من وجهة نظر العرف. ولذلك يخرج تحقيق المصالح الفردية أو دفع الاضرار الطفيفة عن حالات الاستثناء، وليس بالامكان ارتكاب جريرة الكذب من اجلها، على العكس من المصالح العامة وحفظ كيان الاسرة التي تعد من الضرورات التي لها اهمية لدى العرب والشرع. والله أعلم.

ورد في وصية النبي الاكرم محمد ﷺ الى علي ؑ:

«يا عليُّ انَّ الله أحبَّ الكذبَ في الاصلاحِ وأبغضَ الصدقَ في الفسادِ ...»[١].

ونقل معاوية بن عمار عن الامام الصادق ؑ قوله:

«المُصلحُ ليس بكذّابٍ»[٢].

ويوحي هذا الحديث انّ اصرار المصلح على الكذب لا يوجِب تسميته بالكذاب.

ونقل عيسى بن حسان عن الامام الصادق ؑ قوله:

«كُلُّ كذبٍ مسؤولٌ عنه صاحبُهُ يوماً إلّا كذباً في ثلاثةٍ... ورجلٌ أصلح بينَ اثنين يلقى هذا بغيرِ ما يلقى به هذا يريُد بذلك الاصلاحَ ما بينهُما»[٣].

والمراد في هذه الاحاديث هو الصلح والاصلاح بين المؤمنين لا المصالح الخاصة والأهداف ذات الطابع الشخصي. فالاصلاح بين الناس يحظى بأهمية كبيرة في الاسلام حتى انّ الامام الصادق ؑ قد أفرد شيئاً من ماله لهذا الغرض، وورد انه قد اعطى مالاً لأحد أصحابه لاستعماله في الاصلاح بين المتخاصمين من الشيعة[٤].

٣ـ الخدعة في الحرب

لاشك في انّ الحرب قد تُعَدّ ضرورة دينية واجتماعية تُفرض على الشعوب والمجتمعات لأسباب مختلفة: عقائدية، وسياسية، واقتصادية وغيرها. لذلك ومن

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٧٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٧٩.

تجدر الاشارة الى انّ الاحاديث الواردة عن الأئمة المعصومين (ع) تتوسع في مفهوم الاصلاح، حتى انه بات يشمل مطلق قصد الخير. ففي تفسير الآية: ﴿يا أيّتها العيرُ انكُم لسارقونَ﴾ (يوسف / ٧٠) والآية: ﴿بل فعلَهُ كبيرُهُم﴾ (الانبياء / ٦٣)، ورد عن الامام الصادق (ع) انه لا اشكال في كلام يوسف وابراهيم عليهما السلام لأنه كان بقصد الاصلاح.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ٤. ورد هذا الحديث في بحث «الاصلاح بين الناس».

أجل التخلص من هذه الورطة والاسراع في الحاق الهزيمة بالعدو، يُلجأ الى استخدام بعض الوسائل التي لا يجوز استخدامها في الظروف الطبيعية. فالقتل، والأسر، ونهب الاموال والمعدّات بهدف الحاق العطب بماكنة العدو الحربية، وتدمير المراكز والمؤسسات الاقتصادية وغيرها، تُعَدّ من الوسائل التي يُلجأ اليها في الحرب من اجل تحقيق النصر والحاق الهزيمة بالعدو.

والحرب اذا كانت قائمة على أساس الدفاع واخماد الفتنة واجتثاث جذور الفساد، فلاشك في انّ استخدام مثل هذه الوسائل، امر مشروع عقلياً وشرعياً.

وانطلاقاً من ذلك يُعَدّ عنصر المفاجأة من العناصر الحاسمة في الحرب، ولو استطعنا ان نفاجئ العدو بالخدعة ونوجه اليه من خلالها ضربة قاصمة خاطفة، لَكُنّا قد حققنا عليه انتصاراً بأقل ما يمكن من الخسائر.

ونستطيع من هذه المقدمة ان ندرك لماذا يجيز الاسلام اللجوء الى الخدعة في الحرب وهو الذي يعارض الكذب والخداع والحيلة بشدة.

وجاء في وصايا الرسول الاكرمﷺ لعليعليه السلام:

«يا عليّ! ثلاثٌ يحسُنُ فيهِنَّ الكذبُ: المكيدةُ في الحربِ، وعِدَتُكَ زوجتَكَ، والاصلاحُ بين الناسِ»[1].

وورد عن الامام الصادقعليه السلام قوله:

«كُلُّ كذبٍ مسؤولٌ عنه يوماً إلّا كذباً في ثلاثةٍ: رجلٌ كائِدٌ في حربِهِ فهو موضوعٌ عنه و...»[2].

٤ـ عِدَةُ الزوجة

تقع نفقة المرأة والأبناء على عاتق الزوج في الاسلام[3]. ولاشك في تناسب هذه النفقة مع الامكانات ولابد أن تأخذ طابع الاعتدال ولا داعي للاسراف.

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٤، ص ٥١.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤٢، ح ١٨.

(٣) المرأة مطلقاً، والابناء عند الحاجة وفي حال تمكن الأب.

ولكن غالباً ما تؤدي حالة التنافس بين الأُسر الى تصاعد الطلبات الى ما يفوق حد الاعتدال، الامر الذي يضع الرجل على مفترق طريقين: اما ان يتعامل سلبياً مع هذه الطلبات ويرفضها بشكل صريح، أو يتعامل تعاملاً يبعث على الأمل من خلال الوعود غير الجادة والقائمة على المصلحة. ولكن لما كان الموقف السلبي الحاد باعثاً على جرح المشاعر وزعزعة كيان الأسرة، كان من الأولى استخدام الاسلوب الثاني.

ورغم انّ هذا العمل غير مطلوب بحد ذاته ويبعث تكراره على فقدان الثقة المتبادلة بين ربّ الاسرة وأعضائها، وقد يدفع بهم الى التقليد ويشجعهم على الكذب والنفاق، لكن لما لم تكن هناك وسيلة غيره، فقد أُجيز من باب أقل الضررين، كما هو الحال في أكل الميتة[١].

---

(١) فسّر بعض كبار اساتذتنا الكذب في هذا المورد كالتالي: لما كانت العِدَةُ نوعاً من التعهد والالتزام، ولما كان التعهد من مقولة الانشاء لا الاخبار، لذلك تخرج عِدَةُ الزوجة ووعدها من مصاديق الكذب اختصاصاً. لأنّ الصدق والكذب متصلان بالخبر، فيما تخرج مقولة الانشاء عن دائرة الصدق والكذب. ولو اتصفت بصفة الصدق والكذب أحياناً فانما ذلك على سبيل التشبيه والمجاز. وهذا يعني انّ التعبير عن هذا المورد بالكذب في العِدَة والوعد تعبير فيه نوع من التساهل، والتعبير الصحيح هو العِدَة غير الجادة. وبما أنّ العدة غير الجادة غير مُلزِمة، فلا اشكال في التخلف عنها، بل انّ هذا النوع من العِدَة لا يُعدّ كذباً، ويُعدّ استثناؤه من الكذب الحرام، من قبيل الاستثناء المنقطع. إلّا انّ هذا الاستاذ الفاضل أردف قائلاً في نهاية المطاف: وعلى أيّ حال، فالاحتياط أن لا يكذب على الاسرة في غير صورة الاكراه والاضطرار.

وأعتقدُ انّ حصر الكذب في اطار الخبر، من اصطلاحات المناطقة والاصوليين، ولا يُلاحَظ مثل هذا الحصر في العرف واللغة. وقد استُعملت مفردتا الصدق والكذب في الآيات القرآنية والأحاديث والأشعار في غير الخبر بكثرة. ففي آيات مثل ﴿انّهُ كانَ صادقَ الوعدِ﴾ (مريم / ٥٤) و ﴿ربِّ أدخِلني مُدخلَ صِدقٍ وأخرجني مُخرَجَ صِدقٍ﴾ (الاسراء / ٨٠) نجد استخدام الصدق في غير الخبر. كما أنّ قول الامام علي (ع): «الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدقها» (نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ١٣١) يؤكد هو الآخر على هذا المعنى ايضاً.

وصفوة القول هي ان صفة الـ «صادق» لا يقتصر اطلاقها على الصادقين في الكلام فقط وانما تُطلق ←

ولكن يجب أن نعلم بما أنّ موارد تجويز الكذب الثلاثة ـ أي الحرب، والاصلاح، وعِدَة الزوجة ـ قد ذُكرت معاً في الأحاديث، لذلك تشير وحدة السياق الى انّ عِدَة الكذب لم تجوّز بدون قيد أو شرط. فالكذب على صعيد الموردين الأولين ـ أي الحرب والاصلاح ـ انما أُجيز لحفظ مصلحة مهمة ينشأ عن تركها مفسدة كبرى. ففي قضية الحرب تُطرح قضية النصر والانكسار، ولا يمكن التساهل في قضية كهذه. كما تُعد قضية الاصلاح بين المؤمنين، من القضايا الاجتماعية والاخلاقية التي تحظى في العقيدة الاسلامية بأهمية كبرى بحيث لا تُجيز التجافي بين الاخوة في الايمان لأكثر من ثلاثة أيام، وتُملي عليهم استخدام كلّ ما لديهم من جهد للتصالح والائتلاف.

وعلى ضوء هذا السياق، نستشف انّ تجويز الكذب في المورد الثالث ـ عِدَة الزوجة ـ لابد وأن يكون في ظل ظروف وشرائط شبيهة بما هي عليه في الموردين الأولين.

وعلى هذا الضوء، لا يمكن مع وجود الامكانات المالية، الكذب على الزوجة والاسرة في المواضيع الجزئية. ولو أراد وليّ أمر الأسرة أن يكذب عليها في كل

← على الصادقين في العمل ايضاً: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ (التوبة / ١١٩). كما انّ الفجر الصادق والفجر الكاذب، هما ايضاً من الكلمات ذات الاستعمال الشائع. ويبدو عدم استخدام التأويل والتشبيه في هذه التعابير جميعاً، وأنها تجري مجرى الحقيقة، لأنّ معيار الصدق والكذب في جميعها، هو الانطباق وعدم الانطباق مع الواقع مهما كان: فقد يكون هذا الواقع أمراً خارجياً، وقد يكون نوعاً من التعهد والالتزام، وقد يكون اعتقاداً قلبياً.

اذن ملاك الصدق والكذب يتمثل في الانطباق وعدم الانطباق مع المطابق أو الواقع المطلوب، ومادام هذا المعيار ممكناً فلماذا نستعين بالمجاز والتشبيه ونهرب من الحقيقة؟ ولذلك تُعد عِدَة الكذب، من مصاديق الكذب الواقعية، ومن يعد عدةً غير جادة، انما يكذب فيها، لأنّ إظهاره لا ينطبق مع إسراره، سواء أخذنا بها كخبر عن المستقبل أو كانشاء التعهد. والكذب واضح في الصورة الاولى. اما في الصورة الثانية فلما كان ظاهر الكلام يشير الى جدية مفهومه، لذلك حينما لا يوجد لدى القائل قصد جاد في هذا التعهد، فلن ينطبق كلامه المتضمن للتعهد، مع قصده الجاد. وعدم الانطباق هذا دليل على كذبه، والله أعلم.

يوم انطلاقاً من مبررات واهية، فانه وفضلاً عن الآثار التربوية السيئة التي ستنعكس عن تصرفه هذا، سيقضي على الشعور بالثقة القائم بين اعضاء الاسرة، ويزعزع مكانته الرفيعة في الأسرة كأب وربّ للاسرة، ويعرّض نفسه للسقوط مما يعمل بالتالي على تقويض أساس الأسرة.

النميمة

تُعد النميمة من الآفات اللسانية الاخرى والرذائل الخلقية، وأنها تُبعد المرء عن الله تعالى.

وقال القرآن المجيد في ذم النمام:

﴿ويلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة﴾[١].

وقال في موضع آخر:

﴿همّازٍ مشّاءٍ بِنميمٍ﴾[٢].

وقال في آية اخرى:

﴿عُتلٍّ بعدَ ذلكَ زنيمٍ﴾[٣].

وهكذا نرى انّ القرآن الكريم قد عبّر عن النمام بـ«الزنيم»، وهو الذي ليس لديه اصل واضح ونسب معروف، مما يدل على شدة قُبح هذا الذنب وفظاعته.

يقول الراغب الاصفهاني:

«الزَّنيمُ والمُزَنَّمُ، الزائدُ في القوم وليس منهم، تشبيهاً بالزَّنَمَتَينِ من الشاةِ وهُما المتدلّيتانِ من أُذُنيها ومِنَ الحلقِ. قال تعالى ﴿عُتُلٍّ بعدَ ذلكَ زنيمٍ﴾، وهو العبدُ زلمَةٌ وزَنَمَةٌ، أي المُنتسِبُ الى قومٍ هو معلَّقٌ بهم لا مِنهُم»[٤].

---

(١) الهمزة / ١.

(٢) القلم / ١١.

(٣) القلم / ١٣.

(٤) مفردات الفاظ القرآن. الراغب الاصفهاني. مادة «زنم».

ونقل الفيض الكاشاني في «المحجة البيضاء»[١] عن عبد الله بن مبارك انّ الزنيم هو ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث ويقول ما يريد فيمن يريد. وقد استنبط عبد الله بن مبارك هذا التفسير من الآية الشريفة ﴿عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم﴾.

بايجاز، المولود من حلال، لا يرتكب مثل هذه المعصية الكبيرة.

مصير النمام في القرآن

يحذّر القرآن الكريم اولئك الذين يؤججون نار البغضاء والحقد بين الناس بحطب النميمة، ويتوعدهم بعذاب النار، كما فعل ذلك مع احدى ازواج ابي لهب وتدعى ام جميل[٢]، حيث قال:

﴿وامرأتُهُ حمّالةَ الحطبِ﴾[٣].

وتحدث الفخر الرازي عن سبب تسمية زوجة ابي لهب بحمالة الحطب، فذكر أربعة أقوال نكتفي باثنين منها:

١ ـ ان ام جميل ونظراً للعداء الذي تحمله لرسول الله ﷺ، فقد كانت تحمل الحطب في الليل وتضعه في الطريق التي كان يمر بها الرسول ﷺ فتلحق به الاذى بهذا الاسلوب.

٢ ـ سُمّيت بحمالة الحطب لأنها كانت نمّامة، بمعنى انها كانت توجّج نار الحرب والفتنة[٤].

---

(١) ج ٥، ص ٢٧٥.

(٢) ام جميل هي بنت حرب، واخت ابي سفيان، وعمة معاوية، واحدى نساء أبي لهب، وأشد أعداء رسول الله (ص).

وبعد تفسير الفخر الرازي لآية ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ ينبري لتوضيح لماذا لم يكتف القرآن بقول «وامرأته» وانما أضاف اليها صفة «حمالة الحطب»، فيقول بأنّ ابا لهب كانت لديه زوجتان أخريان غير ام جميل، ولذلك فقد عرَّف هذه بهذه الصفة تمييزاً لها عن الاثنتين الاخريين لكي لا يظن بهما أحد ظنّ السوء (راجع: التفسير الكبير، ط حديثة، ج ٣٢، ص ١٧٣).

(٣) تبّت / ٤.

(٤) لمزيد من المعلومات، راجع: التفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٧١ و١٧٢.

على أيّ حال، لما كان ابو لهب مؤججاً لنار الفتنة والعداء، فقد كانت زوجته مؤججة لنار الفتنة ايضاً وبذلت جهوداً حثيثة في هذا المجال. فكانت تسعى لاستحصال اخبار المسلمين وايصالها الى المشركين دون هوادة، ولذلك أشار اليها الله تعالى بأقبح ما تكون الاشارة ووعدها بالنار، وهو مصير ينتظر كل نمّام.

النميمة من منظار الأحاديث

اكدت الاحاديث الاسلامية بدورها على ذم النميمة والتحذير منها.

النمّام شرّ الناس

قال رسول الله ﷺ:

«ألا أُنبّئُكم بِشرارِكُم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال:«المشّاؤونَ بالنّميمةِ المُفرّقونَ بينَ الأَحبَّةِ، الباغُون للبُرآءِ المعايبَ»[1].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«شِرارُكُمُ المشاؤونَ بالنميمةِ المُفرّقونَ بينَ الأحبّةِ المُبتغُون للبُراءِ المعايبَ»[2].

وقال الرسول محمد ﷺ:

«... وان أبغضكُم الى الله المشاؤونَ بالنميمةِ بين الأحبَّةِ المفرّقونَ بينَ الأحزابِ المُلتمسونَ للبُراءِ العثراتِ»[3].

النميمة وعذاب القبر

قال علي عليه السلام:

«عذابُ القبرِ منَ النميمةِ والغيبةِ والكذبِ»[4].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٩، ح ١١؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٦٦.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٩؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦١٧؛ بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٢٦٨.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٥.

(٤) الأنوار النعمانية، ص ٢٥٩.

وقال ايضاً:

«عذابُ القبرِ يكونُ منَ النميمةِ»[١].

النّمامُ لا يدخل الجنّة

هناك العديد من الأحاديث التي تقول بأنّ النمام والساعي لزرع الفرقة والاختلاف بين المسلمين لا يدخل الجنة، ومنها:

قال الرسول الاكرمﷺ:

«لا يدخلُ الجنّةَ نمّامٌ»[٢].

وقالﷺ في حديث آخر:

«لا يدخلُ الجنّةَ قتّاتٌ»[٣].

وقال الامام الباقرعليه‌السلام:

«الجنّةُ محرّمةٌ على المغتابينَ والمشّائينَ بالنميمة»[٤].

وقالعليه‌السلام في حديث آخر:

«محرّمةٌ الجنةُ على القتّاتينَ المشّائينَ بالنميمةِ»[٥].

وقال الامام الصادقعليه‌السلام:

«أربعةٌ لا يدخلونَ الجنّةَ: الكاهِنُ، والمنافِقُ، ومُدمِنُ الخمرِ، والقتّاتُ، وهو النّمامُ»[٦].

وقال الرسولﷺ:

---

(١) علل الشرائع، ج ١، ص ٣٠٨، الباب ٢٦٢.

(٢) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٥؛ بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٢٦٨.

(٣) أمالي الطوسي، ج ١، ص ٢٤٣؛ كشف الريبة، ص ٤١؛ الذريعة الى مكارم الشريعة، ط النجف، ص ١٥٥؛ بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٢٦٨.

(٤) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٦.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٩.

(٦) امالي الصدوق، ص ٣٣٠، المجلس ٦٣.

«يقولُ الله عزَّ وجلّ حرَّمتُ الجنَّةَ على المنّانِ، والبخيلِ، والقتّاتِ، وهو النّمام»[١].

وأورد الشهيد الثاني رضوان الله عليه حديثاً نبوياً يقول:

«انّ الله تعالى لما خلق الجنّةَ قال لها تكلمي، فقالت: سعِدَ من دخلني، قال الجبّارُ جلَّ جلالهُ: وعِزّتي وجلالي لا يسكُنُ فيكِ ثمانيةُ نفرٍ من النّاسِ... ولا قتّاتٌ، وهو النّمّامُ»[٢].

النمام في ميدان المحشر

رغم ان جزءاً من هذا الحديث لا يتعلق بموضوع بحثنا، إلّا اننا نورده لما فيه من اهمية:

«عن البراء بن عازب قال كان معاذ بن جبل جالساً قريباً من رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب الانصاري، فقال معاذ: يا رسول الله رأيت قول الله تعالى ﴿يومَ يُنفخُ في الصُّورِ فتأتونَ أفواجاً﴾[٣]؟ قال: معاذ! سألتَ عن عظيمٍ من الأمر، ثم أرسل عينيه، ثم قال: يُحشر عشرة أصناف من أُمّتي أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين وبدّلَ صورهم: بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجههم من تحت ثم يُسحبون عليها، وبعضهم عُمي يترددون، وبعضهم صُمّ بُكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنَتَهم فيسيلُ القيحُ من أفواهِهِم لُعاباً يتقذّرهم أهلُ الجمع، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران[٤] لازقة بجلودهم. فأما الذين على صورة القردة فالقتاتون مِن الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهلُ

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٥١، المجلس ٦٦.

(٢) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٦؛ الانوار النعمانية، ص ٢٦٥.

(٣) النبأ / ١٨.

(٤) القطران: مادة دهنية تتخذ من بعض الاشجار.

السحتِ. وأما المنكسون على رؤوسهم فأَكَلَةُ الربا. والعُمي. الجائرون في الحكم. والصُّم البُكم. المعجبون بأعمالهم. والذين يمضغون بألسنتهم فالعلماءُ والقضاةُ الذين خالفَت أعمالُهم أقوالَهم. والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذونَ الجيران. والمصلَّبون على جذوعٍ من نارٍ فالسُّعاةُ بالناس الى السلطانِ. والذين هم أشدُّ نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حقَّ الله في أموالهم. والذين يلبسون الجباب فأهلُ الفخرِ والخُيَلاء»(١).

النمام بعيد عن رحمة الله

الحديث عن النمام حديث طويل. فلو عاش النمام بين فئة من الناس. فلن تشمل رحمة الله هذه الفئة مادام هذا النمام بين أظهرهم. وهذا ما يشير اليه الحديث التالي:

«انّ موسى استسقى لبني اسرائيلَ حينَ أصابهُم قحطٌ فأوحى الله تعالى اليه لا أستجيبُ لكَ ولا لِمَن معكَ وفيكُم نمّامٌ قد أصرَّ على النميمةِ. فقال موسى عليه السلام: من هو يا ربِّ حتى نُخرِجَهُ من بيننا؟ فقال الله: يا موسى أنهاكُم عنِ النميمةِ وأكونُ نمّاماً! فتابوا بأجمعِهم فسُقُوا»(٢).

اسمعوا أيضاً عن مساوئ النميمة

النميمة تفرز الكثير من المساوئ والسلبيات على الصعيدين الفردي والاجتماعي. فعلى الصعيد الفردي تعمل على اسوداد نفس الانسان وقلبه وتسحق شخصيته. وعلى الصعيد الاجتماعي تؤدي الى تمزق الوشائج الاجتماعية واثارة الاضطرابات والانقسامات في أوساط المجتمع الاسلامي. وتبدل الحب الى كراهية والوداد الى حقد وبغض. في حين تعتمد عظمة الكيان الاسلامي على ما لدى

(١) مجمع البيان. ط بيروت. ج ١٠. ص ٤٢٣.

(٢) كشف الريبة. ص ٤٢؛ المحجة البيضاء. ج ٥. ص ٢٧٦؛ وسائل الشيعة. ج ٨. ص ٦١٩؛ الجواهر السنية. ص ٦٥ مع اختلاف يسير.

أفراده من توادد وتراحم وانشداد متبادل.

وحقاً ما قيل:

كلمةٌ واحدة قد تدمّر العالم

وقد تُحول الثعالب الميّتة الى أسود[١]

وهذا كتاب الله العظيم يذكرنا بأنّ التآلف والتآخي في المجتمع الاسلامي من نعمه الكبرى التي منّ بها على المسلمين بواسطة الاسلام، ويطالب الناس بتذكّرها وعدم نسيانها:

﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرَّقُوا واذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكُم اذ كُنتُم أعداءً فألَّفَ بينَ قُلوبِكُم فأصبحتُم بنعمتِهِ اخواناً وكُنتُم على شفا حُفرَةٍ من النارِ فأنقذَكُم منها كذلكَ يبيّنُ اللهُ لكُم آياتِهِ لعلَّكُم تهتدونَ﴾[٢].

اذن، بما أنّ وحدة المجتمع وتوادده وتراحمه، من النعم الالهية، وبما انّ النمام يعمل على تحويل هذه النعم بنميمته الى نقم ويقوّض ما يسود بين افراد المجتمع الواحد من علاقات حميمة وترابط أخوي وانشداد قائم الى الثقة المتبادلة، لذلك يُعدّ عمل النمام هذا معصيةً كبيرة ووزراً ثقيلاً، ولهذا السبب قيل: النميمة أسوأ من الغيبة، لأنّ الغيبة أسوأ من الزنا في حين قيل في النمام انه ابن الزنا[٣]. وهذا ما يؤكد على مدى فظاعة هذا الذنب.

بواعث النميمة

لابد أن يطرح السؤال التالي نفسه: ما هي البواعث التي تحفّز المرء على ارتكاب هذه الخطيئة؟

وللاجابة على هذا السؤال لابد من القول انّ باعثاً أو أكثر من باعث، يبعث على ارتكاب النميمة، من بين البواعث التالية:

---

(١) ترجمة لبيت شعر فارسي.

(٢) آل عمران / ١٠٣.

(٣) كشف الريبة، ص ٤١.

١ ـ سعي النمام لتشويه سمعة الذي ينمّ عليه انطلاقاً من ارادة السوء به.
٢ ـ سعي النمام للتزلّف والتقرب لدى من ينمّ له.
٣ ـ التسلية والتلهّي والتفرج بالحديث.
٤ ـ مجالسة اهل الباطل والخوض في الفضول.
٥ ـ نشر الفرقة وخلق الاضطراب والتشوش في اذهان الناس.

ما العمل؟

لاشك في انّ الانسان الذي يسعى للنميمة والسعاية وتحت أي عنوان كان وبأية ذريعة كانت، يرتكب معصية كبيرة لابد أن يتلقى بسببها العذاب الالهي في يوم الجزاء. ولذلك لابد من الحذر والاحتراس كي لا يتبدد العمر ـ وهو الجوهرة الالهية القيمة ـ عبثاً، وتنتهي حياة المرء بالخسران المبين. فلو سوّلت للانسان نفسه ارتكاب هذه المعصية، فعليه ان يفكر بالجواب الذي سيقدّمه لله تعالى في يوم القيامة حين حضوره في محكمة العدل الالهي وعلى مرأى من الانبياء والأولياء. فحينئذ تكون الفرصة قد انتهت تماماً وليس بامكانه ان يفعل شيئاً ابداً.

اذن لابد للمرء أن ينطلق لمحاسبة نفسه في هذه الدنيا قبل ان يفتضح أمره في الآخرة. ولذا لابد له من مراقبة لسانه والسيطرة عليه، وان لا يتكلم عبثاً وبلا معنى، كي لا يغرق في الندم يوم لا ينفع الندم.

السخرية والاستهزاء

السخرية والاستهزاء، من المحرمات ايضاً، ويعدّان من عوامل الغيبة. ورغم نشوء هذا العامل من عوامل وبواعث اخرى جديرة بالدراسة في مواضعها، إلّا انّ بحثنا هنا يدور حول العوامل القريبة من الغيبة، أي العوامل المؤثرة بشكل مباشر على ارتكاب الغيبة. ولاشك في ان السخرية أو الاستهزاء، أحد هذه العوامل والتي تضطر الانسان ذا النفس الضعيفة الى ارتكاب الغيبة.

نعم هناك من يلجأ الى الاستهزاء بالآخرين من أجل النيل من كراماتهم والاستهانة بشخصياتهم، وهناك من يتخذ من أعراض الآخرين وشرفهم وسيلة لاضحاك مجالس العابثين، وهناك من يسخر بغيره من خلال تقليده في المشي، والكلام، وطريقة الأكل، وعن طريق الاشارة والكناية والتلميح، محاولاً بهذا الاسلوب اشباع مشاعر غروره وأنانيته وحقده، أو لارضاء مستمعيه أو اصحابه وافراد شلّته على الأقل. ولهذه الاسباب وغيرها نهى القرآن الكريم بشدة عن كل نوع من انواع السخرية والاستهزاء، وعدّها ظلماً، وعدّ فاعليها ظلمةً ودعاهم الى الاقلاع عن هذه الممارسات والتوبة الى الله:

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا لا يسخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهُم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكُنَّ خيراً مِنهُنَّ ولا تلمِزُوا أنفسكُم ولا تَنابَزوا بالألقابِ بِئسَ الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الايمانِ ومن لم يتُب فأولئكَ همُ الظالمونَ﴾[1].

وقال بعض المفسرين أنّ هذه الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في اذنه وقر، وكان اذا دخل المسجد تفسَّحوا له حتى يقعد عند النبي فيسمع ما يقول. فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقابَ الناس ويقول: تفسّحوا تفسّحوا حتى انتهى الى رجلٍ فقال له: اصبتَ مجلساً فاجلس، فجلس خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: انا فلان. فقال ثابت: ابن فلانة؟! ذكر أُمّاً له كانَ يُعيَّر بها في الجاهلية. فنكس الرجل رأسه حياءً، فنزلت الآية[2].

تذكير

لابد ان نعلم بأنّ التقوى تمثل معيار القيم عند الله تعالى[3]. ولهذا لا يحق لأيّ

---

(١) الحجرات / ١١.

(٢) مجمع البيان، ط بيروت، ج ٩، ص ١٣٥.

(٣) ذكر القرآن الكريم خمسة معايير للتفاضل بين الناس وهي عبارة عن:

أحد ان يستصغر غيره أو ينظر اليه بعين الاحتقار، فقد تكون لديه عند الله منزلة وكرامة.

أ ـ التقوى، حيث قال: ﴿إن اكرمكُم عند الله أتقاكُم ..﴾ (الحجرات / ١٣).

ب ـ العقل والتعقل، ويُعد جوهرة القيم، وقد تحدثت عن هذا المعيار الكثير من الآيات القرآنية.

ج ـ الجهاد في سبيل الله:

﴿لا يستوي القاعدونَ من المؤمنينَ غيرُ اولي الضَّررِ والمجاهدونَ في سبيلِ الله بأموالِهِم وأنفُسِهِم فضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالِهِم وأنفُسِهِم على القاعدينَ درجةً وكُلّاً وعدَ الله الحسنى وفضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً﴾. (النساء / ٩٥).

د ـ الايمان.

هـ ـ العلم.

العلم والايمان معياران أساسيان وفرعا شجرة الفضيلة والانسانية الطيبة. وقد قال القرآن الكريم في ذلك:

﴿... يرفعِ الله الذين آمنوا مِنكُم والذينَ أُوتُوا العِلمَ درجاتٍ ..﴾ (المجادلة / ١١).

ولابد لنا أن نعلم بأنّ التقوى تفوق في أهميتها سائر المعايير الاخرى، بل انها تؤلف أساس القيم كافة، اذ بدونها ليس بامكان العلم ان يكون فاعلاً ولا بامكان الجهاد ان يكون مؤثراً، ولا بامكان العقل ان يكون مرشداً، ولا بامكان الايمان ان يوصل المرء الى مقصده. ففي اطار التقوى بامكان العقل ادراك الحقائق، وبامكان العلم حلّ المشاكل.

فكل هذا الثناء على العلم مشروط بأن يكون الهدف منه معرفة الحقيقة، والوقوف على المسؤولية، وخدمة عباد الله، والحصول على المرضاة الالهية؛ وبدون هذه الشروط يكون العلم كما قال جلال الدين الرومي ما مضمونه:

تعَلُّمُ الخبيثِ للعلم والفنّ
كاعطاءِ السيف لقاطع الطريق
اعطاءُ السيف للزنجي الثمل
أفضلُ من اعطاء العلم لغير أهله
العلمُ والمال والمنصب والجاه
تتحولُ الى فتنة في يد الخبثاء

(المثنوي، ص ٦٩٣)

مقام المؤمن عند الله

انّ للعبد المؤمن مقاماً عظيماً عند الله تعالى. فالله تعالى يحب عباده المؤمنين، ويرى انّ العزة لهم:

﴿... ولله العِزَّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ ...﴾(١).

ولهذا السبب بالذات وصف تعالى في سورة الحجرات وفي آية ﴿لا يسخر قومٌ من قوم ...﴾ أولئك الذين يسخرون من المؤمنين ويلقّبونهم بالألقاب القبيحة، بالظالمين. كما قال تعالى في آية اخرى:

﴿الذينَ يلمِزونَ المُطَّوِّعينَ منَ المؤمنينَ في الصدقاتِ والذينَ لا يجِدونَ إلّا جُهدَهُم فيسخَرونَ منهُم سخِرَ الله منهُم ولهُم عذابٌ أليمٌ﴾(٢).

وورد في الاحاديث الاسلامية انّ احترام المؤمن احترامٌ لله، واهانته اهانة للذات الالهية المقدسة ومبعث للغضب الالهي.

قال الامام الصادق عليه السلام:

«قال الله عزّ وجلّ: لِيَأذَن بحربٍ منّي، من أذَلَّ عبديَ المؤمِنَ وليَأمَن مِن غضبي من أكرَمَ عبديَ المؤمِنَ»(٣).

وقال الرسول صلى الله عليه وآله:

«... ومن أذلَّ مؤمناً أذَلَّهُ الله»(٤).

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«من حقَّرَ مُؤمِناً لقلَّةِ مالِهِ حقَّرَهُ الله فلَم يزَل عند الله محقُوراً حتّى يتُوبَ مِمّا صنعَ ...»(٥).

---

(١) المنافقون / ٨.

(٢) التوبة / ٧٩.

(٣) ثواب الاعمال وعقاب الاعمال، الصدوق، ص ٢٨٤؛ المحاسن، البرقي، اصدارات اسلامية، ط ٢، ج ١، ص ٩٧.

(٤) الأمالي، الطوسي، ص ١١٤.

(٥) مشكاة الانوار، ط النجف، ص ٥٩، ونُقل في ثواب الاعمال وعقاب الاعمال (ص ٢٩٩) حديث

حُرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة

في شرحه لعبارةٍ من نهج البلاغـة تقول «اذا استولى الصـلاح عـلى الزمـان وأهله ...»، نقل ابنُ ابي الحديد حديثاً عن الرسول محمدﷺ كما يلي:

«... والخبَرُ ما رواهُ جابرُ قال: نظر رسولُ اللهﷺ الى الكعبة فقال: مرحبَاً بكِ من بيتٍ! ما أعظمَكِ وأعظمَ حُرمتَكِ، واللهِ انّ المؤمنَ أعظمُ حُرمَةً منكِ عند اللهِ عزَّ وجلَّ، لأَنّ اللهَ حرَّمَ منكِ واحدةً ومنَ المؤمنِ ثلاثةً: دمَهُ، ومالَهُ، وأن يُظَنَّ بهِ ظنَّ السّوءِ»[1].

تنويه ضروري

قلنا بأنّ التقوى تفوق في قيمتهـا كلَّ قيمة اخرى عند الله تعالى، امـا سـائر الشؤون الاخرى كالمال، والجاه، والمنصب وما سواها، فـلا تـدل عـلى عـظمة الانسان أو مكانته الحقيقية قط، لذلك ينبغي ألا يُنظَر للمؤمن ـ أياً كان ـ بعين الاحتقار والاستصغار، لأنه لا يعلم ما في ضمائر الناس سوى الخالق تعالى. وهذا ما أشار اليه الرسول الاكرم محمدﷺ حينما قال:

«انّ الله عزَّ وجلَّ كتَمَ ثلاثةً في ثلاثةٍ... وكتَمَ وليَّهُ في خـلقِهِ... ولا يـزرأنَّ أحدُكُم بأحدٍ من خلقِ الله فانَّهُ لا يدري أيّهم وليّ الله»[2].

وقال الامام عليؑ:

«انَّ الله تباركَ وتعالى أخفى أربعةً في أربعةٍ... وأخـفى وليّـهُ في عـباده فـلا تستصغِرَنَّ عبداً من عبيد الله فرُبّما يكونُ وليّهُ وأنتَ لا تعلمُ»[3].

مصير المستهزئين الأسود

لاشك في انّ من يستهزئ بالناس ويسخر مـنهم ويـلحق بهـم الأذى بهـذه

← بهذا المضمون ايضاً.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ١٨، ص ٢٧٨.

(٢) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٤٧.

(٣) خصال الصدوق، ج ١، ص ١٩٨، ح ٢٦.

الطريقة، يرتكب معصية كبرى وذنباً فظيعاً، وعليه أن ينتظر عواقب السوء الناجمة عن مثل هذا السلوك الشنيع، لأنّ أي عمل لابد وأن يكون لديه انعكاس:

﴿فمن يعمل مِثقالَ ذرةٍ خيراً يرَهُ ومَن يعمَل مِثقالَ ذرَّةٍ شرَّاً يرَهُ﴾[1].

وتُعد الغفلة، واللاأبالية، وفقدان الشعور بالمسؤولية، من النتائج التي يفرزها الاستهزاء والسخرية. فمن يصاب بهذا المرض الخطير، لابد وأن يغفل عن ذكر الله تعالى، ولا يشعر بلذة العبادة، أي انه يفقد الحالة التي يحضر فيها القلب، ويمارس العبادة عن اكراه وعدم تفاعل.

ونستشف من القرآن الكريم انّ السخرية من المؤمنين واهانتهم واذلالهم، تُعدّ من اسباب الغفلة عن الله ونسيان الذكر الالهي، لأنّ المؤمنين بمثابة مظاهر الدين ومفاخر شريعة سيد المرسلينﷺ، ولذلك يعمل النيل منهم والحط من قدرهم على انتزاع الفلاح والموفقية، واسوداد القلب، ومعاشرة الضالين من أهل جهنم.

ويصوّر الله تعالى في كتابه الكريم الوضع المزري الذي عليه أهل النار والطريقة التي يتم فيها استجوابهم، ويتحدث عن حالة التوسل والتضرع للنجاة من العذاب الأليم والنار الحارقة، غير انه سبحانه وتعالى يردّ على توسلهم وتضرعهم قائلاً: ﴿إخسأوا فيها ولا تُكَلِّمُونِ﴾[2].

ثم يقول:

﴿انّهُ كانَ فريقٌ من عبادي يقولونَ ربَّنا آمنّا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الرّاحمينَ. فاتّخذتُمُوهم سِخرِيّاً حتّى أنسوكُم ذِكري وكُنتُم منهُم تضحكونَ. انّي جزيتُهُم اليومَ بِما صبروا انّهُم هُمُ الفائزونَ﴾[3].

واذا علمنا انّ الاستهزاء بالمؤمنين يؤدي الى الغفلة عن ذكر الله، فعلينا ان نعلم أيضاً بأنّ من يترك هذه الدنيا على هذه الحال ولم يتب، فبانتظاره حياة قاسية لا

---

(١) الزلزال / ٧و٨.

(٢) المؤمنون / ١٠٨.

(٣) المؤمنون / ١٠٩ ـ ١١١.

تُحتمل، ويُحشر يوم القيامة أعمى، ولن تشمله الرحمة الالهية. وهذا ما اشار اليه القرآن الكريم:

﴿ومن أعرضَ عن ذكري فانَّ لهُ معيشةً ضنكاً ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمَى، قالَ ربِّ لِمَ حشرتني أعمَى وقد كنتُ بصيراً، قال كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليومَ تُنسى﴾[١].

غداً دور المؤمنين

اذا كان المجرمون يضحكون في هذه الدنيا من المؤمنين ويستهزئون بهم ويتغامزون عليهم ويعبّرون عن سرورهم بما يفعلونه بهم، فعليهم أن يعلموا انّ الدهر سيقلب لهم ظهر المجنّ غداً، وسيحل دور المؤمنين:

﴿انّ الذينَ أجرَموا كانوا من الذين آمنوا يضحكونَ﴾[٢].

﴿واذا مرُّوا بهم يتغامزُونَ﴾[٣].

﴿واذا انقلبوا الى أهلِهم انقلبُوا فكهِين﴾[٤].

﴿واذا رأوهُم قالوا انَّ هؤلاءِ لضالّونَ﴾[٥].

﴿وما أُرسلُوا عليهم حافظينَ﴾[٦].

﴿فاليومَ الذين آمنُوا منَ الكُفّارِ يضحكُونَ﴾[٧].

﴿على الأرائكِ ينظُرُونَ﴾[٨].

ثم يقول القرآن على سبيل التشفّي بالكافرين:

---

(١) طه / ١٢٤ـ١٢٧.

(٢) المطففين / ٢٩.

(٣) المطففين / ٣٠.

(٤) المطففين / ٣١.

(٥) المطففين / ٣٢.

(٦) المطففين / ٣٣.

(٧) المطففين / ٣٤.

(٨) المطففين / ٣٥.

﴿هل ثُوِّبَ الكفّارُ ما كانوا يعملونَ﴾؟[١].

اذن فالسخرية نوع من التعييب والانتقاص، ولا يليق بالمرء ارتكاب هذه الجريرة من أجل اضحاك البعض واهانة البعض الآخر. ولاشك في انّ الذين يسخرون من غيرهم يعانون من مرض الغرور، أي ان الغرور الذي لديهم هو الذي يدفعهم للنظر الى الآخرين لا سيما المؤمنين بعين الاستصغار، ولذلك لابد لهم من تلقي مغبّة عملهم الشنيع هذا عذاباً قاسياً وأليماً في يوم القيامة تحدثت الآيات السابقة عن شيء منه.

عاقبة المستهزئين بلغة الأحاديث

ذمّت أحاديث المعصومين عليهم السلام اولئك الذين يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون منهم ذماً شديداً وتحدثت عمّا ينتظرهم جزاءً على سوء فعلهم. ونكتفي على هذا الصعيد بحديثين:

الهذيان والخسران الأبدي:

اولئك الذين اتخذوا اسلوب اضحاك الآخرين من خلال اغتياب الناس، وتهمتهم، واهانتهم، واحتقارهم، عليهم ان يعلموا بأنهم من الخاسرين في يوم القيامة خسراناً أبدياً.

قال الامام الصادق عليه السلام:

«كان بالمدينةِ رجُلٌ بطّالٌ يضحَكُ الناسُ منه فقالَ قد أعياني هذا الرجلُ أن أُضحكَهُ (يعني علي بن الحسين) قال: فمرَّ عليٌّ عليه السلام وخلفَهُ موليانِ لهُ، قال: فجاءَ الرجلُ حتى انتزعَ رداءَهُ من رقبتِهِ، ثُمَّ مضى، فلم يلتفِت اليه عليٌّ عليه السلام، فاتَّبعوهُ وأخذوا الرداءَ منهُ فجاؤوا بهِ فطرحوهُ عليه، فقالَ لهم: من هذا؟ فقالوا: هذا رجلٌ بطّالٌ يُضحِكُ أهلَ المدينةِ فقال: قولوا له انّ لله يوماً يخسرُ فيه المبطلون»[٢].

---

(١) المطففين / ٣٦.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٤٦، ص ٦٨؛ مناقب آل ابي طالب، ج ٤، ص ١٥٨؛ امالي الصدوق،

اذن لاشك في أنّ مثل هؤلاء الافراد، سيلاقون يوم القيامة انواع العذاب. ومثلما كانوا يسخرون من المؤمنين ويضحكون منهم، سيسخر منهم المؤمنون ويضحكون منهم.

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«انَّ المستهزئينَ بالنّاسِ يُفتحُ لأحدهِم بابٌ من الجنّةِ فيُقالُ هلُمَّ هَلُمَّ فيجيءُ بكربِهِ وغمِّهِ فاذا أتاهُ أُغلِقَ دونهُ، ثمَّ يُفتحُ لهُ بابٌ آخرُ فيقالُ هلُمَّ هلُمَّ فيجيءُ بكربِهِ وغمِّهِ فاذا أتاهُ أُغلِقَ دونهُ، فما يزالُ كذلك حتى انَّ الرجُلَ ليُفتَحُ لهُ البابُ فيقالُ لهُ هلُمَّ هلُمَّ فلا يأتيه»[١].

الاستنتاج

على ضوء ما ذكرناه، لابد للمؤمن الملتزم من الابتعاد عن هذا السلوك القبيح الشنيع لسببين:

- الاول انّ الاستهزاء أمر سيئ وقبيح بالطبع.
- الثاني انه يؤدي الى ارتكاب معصية كبيرة اخرى، أي الغيبة.

نسأل الله سبحانه أن يقينا الزلل والضلال، آمين.

الحسد

يُعد الحسد من المحرمات أيضاً ومن بواعث الغيبة. فالحسود وانطلاقاً من الحسد الذي لديه يسعى دائماً للانتقاص من المحسود واهانته لاشباع ما لديه من انانية.

والذي يغتاب الآخرين بدافع الحسد يتعرض لثلاثة انواع من العذاب: العذاب

← ص ١٨٣؛ المجلس ٣٩، ح ٦.

(١) احياء علوم الدين، الغزالي، ج ٣، ص ١٣١؛ معراج السعادة، ص ٤٠٢؛ جامع السعادات، ط بيروت، ج ٢، ص ٢٨٨.

النفسي أو عذاب الضمير بسبب الحسد، وعذاب معصية الحسد، وعذاب معصية الغيبة.

ومن هذا نعلم انّ الحسود خاسر في الدنيا والآخرة، لأنّ هدفه تدمير الجانب الآخر، إلّا انه يدمّر نفسه في حقيقة الأمر.

ورغم انّ هدفنا من ذكر الحسد هنا، الاشارة الى أحد عوامل الغيبة، ولكن لا بأس بالتحدث عنه بايجاز.

تعريف الحسد

يقول الراغب الاصفهاني:

(الحسد تمنّي زوال نعمةٍ من مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعى في زوالها، وروي: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد»)[1].

فالغبطة تمني امتلاك النعمة بدون تمني زوالها من صاحبها. أي انّ الغابط حينما يشاهد نعمة أو فضيلة على الآخرين يقول يا ليتني حظيتُ بهذه النعمة ايضاً، ويجتهد في الحصول عليها، إلّا انه لا يتمنى زوالها من الآخرين قط ولا يسعى لازالتها عنهم.

ولكي نقف على مفهوم الحسد وعلى قبحه بشكل اكبر، لابد لنا من الاستعانة ببعض الآيات والأحاديث:

الحسد في القرآن

﴿أم يحسُدونَ الناسَ على ما آتاهمُ الله مِن فضلهِ فقد آتينا آلَ ابراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُم مُلكاً عظيماً﴾[2].

﴿ودَّ كثيرٌ مِن أهلِ الكتابِ لو يرُدُّونكُم مِن بعدِ ايمانِكُم كُفّاراً حسداً مِن عندِ

---

(١) مفردات الفاظ القرآن، الراغب الاصفهاني، مادة «حسد».

(٢) النساء / ٥٤.

أنفُسِهِم مِن بعدِ ما تبيَّن لَهُمُ الحقُّ ...﴾[١].

﴿ولا تتمنَّوا ما فضَّلَ الله بعضكُم على بعضٍ للرجالِ نصيبٌ ممّا اكتسبوا وللنساءِ نصيبٌ ممّا اكتسبنَ واسألوا الله مِن فضلهِ انَّ الله كانَ بكُلِّ شيءٍ عليماً﴾[٢].

هذه الآيات وفي ذات الوقت الذي تذم فيه الحسد، تقدّم توضيحاً لمفهومه ايضاً والذي هو عبارة عن تمنّي زوال الفضل الذي يؤتيه الله لعباده والنعمة التي ينعم بها عليهم.

ويكفي في ذمّ الحسد انّ الله تعالى خاطب رسوله قائلاً:

﴿قُل اعوذُ بربِّ الفلقِ ... ومِن شرِّ حاسدٍ اذا حسدَ﴾[٣].

الحسد في الأحاديث

وتحدثت الاحاديث عن بعض ملامح الحسد ومنها:

الحسد من اصول الكفر:

قال الامام الصادقعليه السلام:

«اصول الكفر ثلاثة: الحرصُ والاستكبارُ والحسدُ»[٤].

ثم قال في الحسد:

«وأما الحسدُ فابنا آدم حيثُ قتلَ أحدُهُما صاحِبَهُ»[٥].

وقال العلامة المجلسي:

«وكأنّ المراد باصول الكفر ما يصير سبباً للكفر أحياناً لا دائماً، وللكفر ايضاً

(١) البقرة / ١٠٩.

(٢) النساء / ٣٢.

(٣) الفلق / ٥.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٨٩، ح ١؛ أمالي الصدوق، ص ٣٤١، ح ٧.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٨٩، ح ١؛ امالي الصدوق، ص ٣٤١، ح ٧.

معانٍ كثيرة»[١].

(١) مرآة العقول. ج ١٠. ص ٧٤.
ولابد من الاشارة الى ان العلامة المجلسي قد احتمل في تفسير حديث الامام الصادق اعلاه احتمالين:

الاول. المراد باصول الكفر هي الذنوب التي توجب الكفر أحياناً. أي تؤثر في ايجاد الكفر بصورة الاقتضاء وليس لأنها علة تامة له.

الثاني. وحتى مع افتراض انّ المراد هو العلل التامة. لكن لابد لنا ان نعلم انّ للكفر الكثير من الدرجات والمصاديق والتي اعلاها الكفر في مقابل الايمان والاسلام. لذلك يُحتمل ان تكون بعض المعاصي كالتكبر والحسد والحرص علة لظهور المصاديق الدنيا للكفر لا المصاديق الكاملة.

وتوضيح كلام العلامة المجلسي حول الاحتمال الاول هو أنّ تأثير المعاصي الثلاث ـ أي الحرص والاستكبار والحسد ـ يتمثل في تحقق الكفر بصورة الاقتضاء لا العلية التامة. أي انّ هذه الصفات الرذيلة بمثابة ارضية لحدوث الكفر. وانها لو اجتمعت مع عوامل اخرى لانتهت الى الكفر. اما اذا لم تنضمّ اليها عوامل اخرى فانها تبقى في بوتقة الاقتضاء كالنار تحت الرماد بانتظار الشرارة التي تؤججها.

وصفوة رأي المجلسي اننا لو بحثنا عن الكفر على الصعيدين النفسي والاخلاقي لرأينا انّ اولئك الذين كفروا عن وعي. لابد أن تكون هذه الصفات الثلاث من العوامل الجوهرية التي تقف خلف كفرهم. أي: لا يكفر شخص ما بدون تأثير هذه الصفات. لكن لا يُعدّ كل من لديه هذه الصفات كافراً. فقد تكون قائمة عنده إلّا انه لم يبلغ مرحلة الكفر.

وأما توضيح الاحتمال الثاني فهو انّ الكفر لديه الكثير من المعاني والدرجات في لسان القرآن والأحاديث. ولا يعني الكفر في مقابل الاسلام دائماً.

وأورد الكليني في كتاب اصول الكافي (ج ٢. ص ٣٨٩ و ٣٩٠) حديثاً عن الامام الصادق حول الكفر خلاصته:

الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه: كفر الجحود وهو على وجهين:

الاول الجحود بربوبية الله بدون دليل كالدهرية والملاحدة. والثاني الجحود على معرفة كما قال تعالى:

﴿وجَحَدُوا بِها واستيقَنَتها أنفُسُهم ظُلماً وعلوّاً ..﴾ (النمل / ١٤).

والثالث الكفر العملي. والرابع كفر البراءة. والخامس كفر النعمة. وكفر النعمة ان تجحد بالنعمة وتصرفها في غير موضعها. وقد قال تعالى:

﴿لئِن شكرتُم لأزيدنّكُم ولئِن كفَرتُم انَّ عذابي لشديدٌ﴾. (ابراهيم / ٧).

←

وقال الامام الصادق عليه السلام أيضاً:

«الحسدُ أصلُهُ مِن عمى القلبِ والجُحودِ لفضلِ الله تعالى، وهُما جناحانِ للكفر، وبالحسد وقع ابنُ آدمَ في حسرةِ الأبد وهلكَ مهلكاً لا ينجو منهُ أبداً»[1].

الحسد يأكل الايمان:

ورد في الحديث:

«انّ الحسدَ يأكُلُ الايمانَ كما تأكُلُ النارُ الحطبَ»[2].

وقال امير المؤمنين علي عليه السلام:

---

* واما الكفر العملي فهو عدم العمل بأحكام الله وتجاهلها، وقد خاطب الله تعالى اليهود: ﴿أفتُؤمنونَ ببعضِ الكتابِ وتكفرونَ ببعضٍ ..﴾ (البقرة / ٨٥).

ومن البديهي انّ الكفر لا يجتمع مع الايمان. وهذا يعني ان الكفر والايمان في هذه الآية هما الكفر والايمان العمليان. وربما يؤيد هذا المعنى حديث الامام الصادق (ع) القائل: «انّ تارك الصلاة كافر - يعني من غير علّة» (وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٩)، ولا يعني انه كافر عقائدياً، بل كافر لأنه ترك أحد الأركان العملية للاسلام، اذ قال الامام محمد الباقر (ع): «بُني الاسلام على خمس: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يُنادَ بشيء كما نودي بالولاية». (اصول الكافي، ج ٢، ص ١٥).

اذن، مثلما انّ الجحود بالاصول العقائدية يوجب الكفر العقائدي، كذلك ترك الاصول العملية يوجب الكفر العملي.

اما كفر البراءة فهو أن يتبرأ المرء من شخص أو جهة أو شيء ما، مثلما جاء في الآية الكريمة: ﴿انّي كفرتُ بما أشركتُمُونِ من قبلُ ..﴾ (ابراهيم / ٢٢).

وانطلاقاً من هذا التوضيح، وبما أنّ الكفر ذو معان ومصاديق كثيرة في لسان الشريعة، فقد ذهب العلامة المجلسي الى احتمال ان ينطبق الكفر الوارد في حديث «اصول الكفر» مع معانٍ اخرى من قبيل كفر النعمة، أو الكفر العملي، وليس مع كفر الجحود.

ومفهوم الحديث بايجاز هو انّ الحسد يوجب بعض درجات الكفر، وليس انّ الحسود يخرج بالحسد من دين الاسلام ويُحسب على الكافرين. بتعبير آخر: الانسان بالحسد يقف الى جانب الكافرين من المنظار الأخلاقي، إلّا انه يبقى مسلماً من المنظارين العقائدي والحقوقي، ولابد من التعامل معه مثل سائر المسلمين.

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٧، الباب ٥٥.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٦؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٠، ص ٢٤٤.

«... ولا تحاسدوا فانَّ الحسدَ يأكُلُ الايمانَ كما تأكُلُ النارُ الحطبَ ...»[١].

وقال عليه السلام أيضاً:

«الحسدُ يُميتُ (يُميتُ) الايمانَ في القلبِ كما يُميتُ الماءُ الثّلجَ»[٢].

الحاسدُ مُغضِبٌ لله:

من يحسد غيره، يؤجج غضب البارئ تعالى ويقطع علاقته به.

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«قال الله عزَّ وجلَّ لموسى بن عِمرانَ: يا ابن عمرانَ لا تحسُدَنَّ الناسَ على ما آتيتُهُم مِن فضلي ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ الى ذلكَ ولا تُتبِعهُ نفسكَ فانَّ الحاسِدَ ساخِطٌ لنعَمي، صادٌّ لِقَسمي الذي قسمتُ بينَ عبادي، ومن يكُ كذلكَ فلستُ مِنهُ وليسَ منّي»[٣].

الحسد علامة النفاق:

ورد في بعض الأحاديث انّ الذي لديه ايمان بالله تعالى، لا يلجأ الى حسد الناس قط.

قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«انَّ المؤمنَ يَغبِطُ ولا يحسُدُ، والمنافقُ يحسُدُ ولا يغبِطُ»[٤].

الحسد آفة الدين:

قال الامام الصادق عليه السلام:

«آفةُ الدينِ الحسدُ والعُجبُ والفخرُ»[٥].

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ٨٦.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٧؛ المستدرك، ط مؤسسة أهل البيت، ج ١٢، ص ١٨.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٧؛ الجواهر السنية، ص ٣٩.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٧؛ الانوار النعمانية، ص ٢٦٤.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٧؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٠، ص ٢٤٨.

ونقرأ في رواية اخرى ما يلي:

«قال رسولُ الله ﷺ ذات يومٍ لأصحابِهِ: ألا انَّهُ قد دبَّ اليكُم داءُ الأُممِ من قبلِكُم وهُوَ الحسدُ، ليسَ بحالِقِ الشَّعرَ لكنَّه حالِقُ الدينِ ...»[١].

وهناك حديث نبوي بنفس المضمون يقول:

«دبَّ اليكُم داءُ الأُممِ من قبلِكُم: الحسدُ والبغضاءُ»[٢].

الحسد آفة الجسم:

فضلاً عن الاضرار المعنوية التي يُخلّفها الحسد، يُخلّف اضراراً على جسم الانسان وينتزع الصحة منه ايضاً.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«صِحَّةُ الجسدِ من قِلَّةِ الحسدِ»[٣].

وعلّق العلامة الشيخ محمد تقي الشوشتري دام افضاله على حكمة الامام علي عليه السلام هذه بقوله ان هناك ستة لا يجدون الراحة أحدهم الحسود. ثم نقل عن الأصمعي قوله:

«رأيتُ اعرابياً قد أتت له مائة وعشرون سنة فقلتُ له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركتُ الحسد فبقيتُ»[٤].

وقال علي عليه السلام:

«العجبُ لِغفلَةِ الحُسّادِ عن سلامةِ الأجسادِ»[٥].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

---

(١) الامالي، الطوسي، ص ٧٣؛ مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٧.

(٢) رسائل الجاحظ، رسالة الحاسد والمحسود، ص ٩.

(٣) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٢٤٨؛ بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٢٩.

(٤) بهج الصباغة، ط ١، مطبعة مهر، قم، ١٣٩٨ هـ، ج ١٠، ص ٢٩.

(٥) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٢١٦.

«الحاسدُ يضُرُّ بنفسه قبلَ أن يضُرَّ بالمحسودِ»[١].

وهناك كلام كثير للامام عليّ عليه السلام حول الحسد والحاسدين، منه:

«الحسدُ يُفني الجسدَ»[٢].

«الحسد داءٌ عَياءٌ لا يزولُ إلّا بهلَكِ الحاسِدِ أو بموتِ المحسودِ»[٣].

«أسوأُ الناسِ عيشاً الحسودُ»[٤].

وهكذا نرى ان الحسد أحد الامراض النفسية الخطيرة التي لابد من دراستها دراسة عميقة والوقوف على عواملها وبواعثها[٥] اولاً، ومن ثم التوصل الى علاجها والنجاة من هذه الآفة المهلكة[٦].

ونكتفي بهذا الشأن في ذكر النقطة التالية وهي انّ من العوامل الرئيسة الباعثة على الحسد هي: العُقَد والنواقص مضافاً اليها الكسل، فاسعوا لتدارك هذه النواقص وازالة العقد من القلوب، واعلموا انَّ لكل منا نصيباً من الحياة لابد أن يحصل عليه من خلال الاجتهاد والعمل والحركة الدائبة. وقد اكّد البارئ سبحانه على هذه الحقيقة بقوله: ﴿وأَن ليسَ للانسانِ إلّا ما سعى﴾.

ولا ينكر أحد أنّ في الحياة عوائق وعقبات وعراقيل من قبيل الظلم، والجور، وغمط الحقوق، والاجحاف بها، لكن لا يمكن ازالتها والقضاء عيها من خلال الحسد، وانما هناك اسلوب آخر لعلاج مثل هذه الامراض الاجتماعية، سنبحثه في

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٧.

(٢) مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ط النجف، ط ١، ج ٤، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) للوقوف على بواعث الحسد راجع: المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٣٣٥؛ مرآة العقول، ج ١٠، ص ١٥٩؛ احياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٩٢؛ كشف الريبة، ص ٦١ فما بعد؛ جامع السعادات، ج ٢، ص ١٩٩.

(٦) للوقوف على علاج الحسد راجع: كشف الريبة، ص ٦٥؛ احياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٩٦؛ المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٣٤٢؛ مرآة العقول، ج ١٠، ص ١٥٩؛ جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٠٦.

حينه.

الغضب

الغضب، أحد المحرمات التي ينبغي للسالك الى الله ان يحترز منها، وهو أيضاً عامل آخر من عوامل الغيبة.

فحينما يستاء المرء من شخص آخر ينبري للاغتياب من أجل اطفاء نار الحقد التي تتأجج في نفسه، متصوراً انه لو نال من كرامة خصمه وانتهك حرمته لهدأت سورة غضبه وشعر بالارتياح، ناسياً ما هي الأخطار والاضرار التي يمكن ان يفرزها مثل هذا الغضب حتى انها قد تدمّر حياته الدنيوية والاخروية برمتها.

ومن الاحاديث التي تتطرق الى مساوئ الغضب:

مساوئ الغضب

قال الرسول محمد ﷺ:

«الغضبُ يُفسِدُ الايمانَ كما يُفسِدُ الخلُّ العسَلَ»[1].

وقال علي عليه السلام:

«الغضبُ يُردي صاحِبَهُ ويُبدي معايِبَهُ»[2].

وقال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«انَّ هذا الغضبَ جمرَةٌ من الشيطانِ توقَدُ في قلبِ ابنِ آدمَ، وانَّ أحدَكُم اذا غضِبَ احمرَّت عيناهُ وانتفخَت أوداجُهُ ودخلَ الشيطانُ فيه، فاذا خافَ أحدُكُم ذلكَ مِن نفسِهِ فليلزَم الأرضَ فانَّ رِجزَ الشيطانِ لَيذهبُ عنهُ عند ذلكَ»[3].

---

(١) جامع السعادات، ج ١، ص ٢٨٨؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٢) فهرست الغرر الموضوعي، ص ٢٩٢.

(٣) جامع السعادات، ج ١، ص ٢٨٨؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧، ص ٢٦٧؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٤.

مفتاح الشرّ

قال الامام الرضا عليه السلام:

«الغضَبُ مفتاحُ كُلِّ شرٍّ»[١].

لا تغضَب

بما أنّ الغضب مفتاح كل شرّ، لهذا لو توقّاه المرء وامتلك زمام نفسه ولم يدع للغضب طريقاً اليه، لوقى نفسه شرّ جميع الفتن وحفظها من جميع الاضرار والمخاطر، اذ جاء في احدى الروايات:

«قال رجلٌ للنبي صلى الله عليه وآله: يا رسولَ الله علّمني قال: اذهب ولا تغضب، فقال الرجلُ: قد اكتفيتُ بذاك. فمضى الى أهلِهِ فاذا بينَ قومِهِ حربٌ، قد قاموا صُفوفاً ولبِسوا السِّلاحَ، فلما رأى ذلكَ لبِسَ سلاحهُ ثُمَّ قامَ معهُم، ثُمَّ ذكرَ قولَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله لا تغضب، فرمى السلاحَ ثم جاء يمشي الى القومِ الذين هُم عدُوُّ قومِهِ فقال: يا هؤلاءِ ما كانت لكُم مِن جراحَةٍ أو قتلٍ أو ضربٍ ليس فيه أثرٌ فعليَّ في مالي أنا أُوفيكُمُوهُ، فقال القومُ: فما كان فهُو لكُم نحنُ أولى بذلكَ مِنكُم ... فاصطلَحَ القومُ وذهبَ الغضبُ»[٢].

اذن لو استاء انسان من انسان آخر فلا ينبغي ان يلجأ لغيبته واتهامه بما ليس فيه كي يُشفي غليله بهذه الطريقة، لأنّ من يغضب ولم يكن لديه ايمان، يرتكب خطايا كبيرة أيضاً. وقد قال الامام محمد الباقر عليه السلام في ذلك:

«أيُّ شيءٍ أشدُّ منَ الغضبِ؟ انَّ الرجُلَ ليغضَبُ فيقتُلُ النفسَ التي حرَّمَ الله ويقذِفُ المُحصِنةَ»[٣].

---

(١) مشكاة الانوار، ص ٣٠٧؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٠، ص ٢٧٤؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٣.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٤؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٠، ص ٢٧٧.

(٣) جامع السعادات، ط النجف، ج ١، ص ٢٨٨؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٣.

كظم الغضب العلاج الأفضل

قلنا انّ الغضب اذا لم تتم السيطرة عليه، فمن الممكن ان يؤدي الى وقوع المعاصي والجرائم التي لا يمكن تداركها أو تلافيها. فحينما تستعر نار الغضب، يستعين الغاضب بكل شيء من أجل اطفاء هذه النار والتنفيس عما في ضميره. وهذه الوسائل التي يستعين بها هي: السباب، والتهمة، والغيبة، والكذب، والافتراء، والاهانة، والاحتقار، والضرب، والجرح الخ. من الطبيعي انّ من يخمد نار غضبه بهذه الوسائط، يؤجج بالمقابل نار الغضب الالهي التي سيحترق فيها.

يتصور انه بهذه الطريقة يبعث على استياء الجانب المقابل واراحة نفسه وتهدئتها، غير أنَّ علياً عليه السلام يقول:

«الغضبُ نارٌ مُوقَدَةٌ من كظمَهُ أطفأها ومَن أطلقَهُ كان أوَّلَ مُحترِقٍ بها»[١].

اذن لابد للانسان من السيطرة على نفسه حين الغضب، فلا يتفوّه بكلام باطل، ولا يعرّض كرامات الاشخاص وشخصياتهم للخطر، ولا يسيء اليهم في انظار الناس، ورغم صعوبة مثل هذا العمل، ولكن الذي يعزم عليه بامكانه الهيمنة على نفسه والامساك بعنان غضبه، وذلك عن طريق الايمان بالله والتقوى. فمن لديه ايمان بالله واليوم الآخر ومن كان قلبه مضيئاً بنور الايمان، باستطاعته اخماد نار الغضب والتخلص من خطرها.

وقال الرسول محمد صلى الله عليه وآله:

«من كظمَ غيظاً وهو يقدِرُ على امضائه حشا الله قلبَهُ أمناً وايماناً يومَ القيامة»[٢].

وقال صلى الله عليه وآله ايضاً:

«ما مِن جُرعَةٍ يتجرَّعُها الانسانُ أعظمُ عندَ الله مِن جُرعةِ غيظٍ في الله»[٣].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٦؛ فهرست الغرر الموضوعي، ص ٢٩٢.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١١٠، ح ٧.

(٣) المجازات النبوية، ص ١١٢.

وصفوة القول هي انّ الغضب هو أحد البواعث التي تبعث على الغيبة، ولذلك ينبغي لمن يغضب على شخص آخر، ان لا يدفعه غضبه لاغتيابه والنيل منه تنفيساً عن غضبه وانتقاماً منه لأنّ عمله هذا معصية اخرى.

قال علي عليه السلام:

«لا يحمِلنَّكَ الحنقُ على اقترافِ الاثمِ فتشفيَ غيظكَ وتُسقِمَ دينكَ»[1].

اما مصير من يدفعه غضبه الى الاغتياب فهو جهنم، اذ قال الرسول صلى الله عليه وآله:

«انَّ لجهنم باباً لا يدخُلُ منهُ إلّا من شفي غيظه بمعصية الله تعالى»[2].

اذن، متى ما استبد بك الغضب، فتذكّر القادر المتعال، وجسّد امام عينك شخصيتك وكرامتك الانسانية وشخصية وكرامة اخيك في الله، ثم ابتعد عن ذلك المكان، وغيّر الحالة التي انت عليها: فاجلس على الارض اذا كنت واقفاً، وقم اذا كنت جالساً واخطُ بعض الخطوات واستغفر الله تعالى، وأدخل الاطمئنان لقلبك بذكر الله وقول لا حول ولا قوة إلّا بالله، وفكّر قليلاً، واستمد العون من الله، والجأ الى الصبر والصلاة:

﴿يا ايها الذينَ آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ ...﴾[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ط مصر، ج ٢٠، ص ٣٢٨.

(٢) احياء علوم الدين، ط بيروت، ج ٣، ص ١٤٩.

(٣) البقرة / ١٥٣.

(٩)

التوبة والاستغفار

النقطة التاسعة من نقاط البداية هي التوبة والاستغفار. فحينما يقع المرء في فخ الذنب والمعصية بفعل الغفلة والجهل أو بعد تمرد الغرائز الحيوانية والأهواء النفسانية، فلابد له من عرض نفسه سريعاً على الرحمة الالهية، والتوبة بين يدي الخالق، وغسل القلب والنفس بماء التوبة والاستغفار[1]، لأنّ التساهل في هذا الأمر والتسويف والمماطلة في التوبة، معصية اخرى ودليل على مزيد من التمرد.

ونستشف من القرآن الكريم انّ التوبة تُقبَل بشرطين:

ـ الاول، ان تكون المعصية قد وقعت بفعل الجهل لا بدافع الكفر والتمرد.

ـ الثاني، شعور العاصي بالندم في اعقاب اقتراف المعصية مباشرة واسراعه نحو قرع باب التوبة.

قال الله تعالى في ذلك:

﴿انَّما التوبةُ على الله للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالَةٍ ثُمَّ يتوبونَ من قريبٍ فأولئكَ يتوبُ الله عليهِم وكان الله عليماً حكيماً. وليسَتِ التوبةُ للذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ

(١) لمزيد من التوضيح راجع: كفارة الغيبة، في هذا الكتاب.

حتّى اذا حضرَ أحدَهُمُ الموتُ قال انّي تُبتُ الآن ولا الذينَ يمُوتُونَ وهُم كفارٌ اولئكَ أعتدنا لهُم عذاباً أليماً﴾[1].

أيها الأخ المسلم وأيتها الاخت المسلمة!

هيّا للتوبة قبل فوات الأوان، سيا وانّ الفرصة قليلة والوقت لا يحتمل مزيداً من التأخير. لنصغ الى النبرة الرحيمة الى دعا الله تعالى فيها عباده الى التوبة:

﴿ألَم يأنِ للذينَ آمنوا أن تخشَعَ قُلوبُهُم لِذِكرِ الله وما نزلَ مِن الحقِّ ...﴾[2].

عاقبة عدم التوبة والاصرار على الخطيئة

أولئك الذين لا يشعرون بالندم ويماطلون في التوبة، بانتظارهم عاقبة سيئة.

قال الامام جعفر الصادق عليه السلام:

«كان أبي عليه السلام يقول: ما مِن شيءٍ أفسَد للقلبِ مِن خطيئةٍ. انَّ القلبَ ليواقِعُ الخطيئةَ فما تزالُ بِهِ حتى تغلِبَ عليه فتُصيِّرُ أعلاهُ أسفلَهُ»[3].

أي انّ القلب الذي يتّجه بطبيعته نحو الله تعالى، يتغيَّر شكله ويأخذ طابعاً أرضياً، فلا تؤثر عليه كلمة الحق ولا تجد الموعظة أيّ صدىً لها فيه. وهذا هو عين ذلك الطريق الذي قال الله تعالى انه ينتهي الى الكفر والتكذيب بآيات الله والاستهزاء بالحقائق السماوية:

﴿ثُمَّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤوا السُّوأى أن كذَّبوا بآياتِ الله وكانُوا بِها يستهزِئونَ﴾[4].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«يقولُ الله تعالى: (انَّ أدنى ما أصنَعُ بالعبدِ اذا آثرَ شهوتَهُ على طاعتي أن

(١) النساء / ١٧ و١٨.

(٢) الحديد / ١٦.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٤) الروم / ١٠.

أحرِمَهُ لذيذَ مُناجاتي))»(١).

وقال عليه السلام في حديث آخر:

«انَّ الرجلَ يُذنِب الذنبَ فيُحرَمُ صلاةَ الليلِ، وانَّ العملَ السَّيِّئَ أسرعُ في صاحبِهِ من السّكّينِ في اللحمِ»(٢).

ليَقِ اللهُ الانسانَ من الوصول الى تلك المرحلة التي يُختَم فيها على قلبه وسمعه، وتُغشّي عينه بغشاء الظلام والضلال فيُصبح مصداق الآية الكريمة:

﴿ختَمَ الله على قلوبِهِم وعلى سمعِهِم وعلى أبصارِهِم غِشاوةٌ ...﴾(٣).

اذن وبعد اتضاح أخطار المعاصي وأضرارها من خلال هذا الاستعراض السريع للآيات القرآنية والأحاديث، من الأجدر بالانسان العاقل الاسراع لازالة آثارها القبيحة من لوحة قلبه، لأنَّ التردد في ذلك، من أعمال السفهاء وغير العقلاء، اذ ان المعصيةَ سمٌّ زُعاف ان لم ينبرِ المرء للتخلص منه على وجه السرعة، فلن يُبقي أمامه طريقاً للنجاة.

ألسنا نعلم بأنَّ الموت يأتي فجأة وبلا اذن، ولا يسمح لنا حتى بفرصة التقاط الأنفاس؟ أو كما قال القرآن الكريم:

﴿فلا يستطيعون توصِيَةً ولا الى أهلِهِم يرجِعونَ﴾(٤).

أو كما قال الله تعالى للرسول الاكرم صلى الله عليه وآله:

﴿وأنذِرهُم يومَ الحسرَةِ اذ قُضِيَ الأمرُ وهُم في غفلَةٍ ...﴾(٥).

وحينئذٍ يقولون:

---

(١) جامع السعادات، ج ٣، ص ٤٨.
(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٢.
(٣) البقرة / ٧.
(٤) يس / ٥٠.
(٥) مريم / ٣٩.

﴿... يا ليتَنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبُ بآياتِ ربِّنا ونكونُ من المُؤمنينَ﴾[١].

ولكن ما فائدة ليت ولعل بعد فوات الأوان، وتعذّر تحقق مثل هذا الطموح بعد وقوع الخذلان؟

حذارِ ثم حذارِ ان تقول يوماً:

«وقد أفنيتُ بالتسويفِ والآمالِ عُمري»[٢].

اذن لا تنسوا الاستغفار! فالاستغفار جلاءٌ للقلوب. اذكروا الله مع الاستغفار في كل حين، في وقت الصلاة والتعقيبات، وفي غيرها من الأوقات، بل انطلقوا مع الاستغفار الى فراش النوم، لأنكم قد لا تستيقظون من النوم قط. وورد في سيرة الرسول انه ﷺ كان يستغفر الله في اليوم سبعين مرة، وقيل انه كان يستغفر في كل جلوس خمساً وعشرين مرة[٣]. فالاستغفار دواء الذنوب كما ورد في الحديث:

«لِكُلِّ داءٍ دواءٌ، ودواءُ الذنوبِ الاستغفار»[٤].

وعلينا ان نعلم بأنّ أفضل اوقات الاستغفار والتوبة هي اوقات السحر. وهي الاوقات التي تُغلق فيها كل الابواب وتغمض فيها كل العيون، إلّا ابواب الرحمة الالهية فانها مفتّحة بوجه العباد ولا توصد في أي وقت، وإلّا عين الرحمة الالهية فانها عين ترعى العباد كل حين ولم تغمض لحظة واحدة.

قال الله تعالى في وصف عباده المؤمنين:

﴿... الصابرينَ والصادقينَ والقانتينَ والمُنفقينَ والمُستغفرينَ بالأسحارِ﴾[٥].

ووصفهم تعالى في آية اخرى:

---

(١) الانعام / ٢٧.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء ابي حمزة الثمالي.

(٣) جامع أحاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٣٦٣.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٩.

(٥) آل عمران / ١٧.

﴿كانوا قليلاً من الليلِ ما يهجعونَ وبالأسحارِ هم يستغفرون﴾[١].

وقال الرسول ﷺ فيهم:

«ما مِن قطرَةٍ أحَبُّ الى الله من قطرَةٍ دمعٍ خرجت مِن خشيَةِ الله ومِن قطرَةِ دمٍ سُفكت في سبيل الله. وما مِن عبدٍ بَكى من خشيَةِ الله إلّا سقاهُ الله من رحيقِ رحمتِهِ وأبدَلهُ الله ضِحكاً وسُروراً في الجنّةِ ورحِمَ الله من حولَهُ ولو كانوا عِشرينَ ألفاً. وما اغرورقَت عينٌ في خشيَةِ الله إلّا حرَّمَ الله جسدَهُ على النارِ وان أصابَ وجهَهُ لم يُرهِقهُ قترٌ ولا ذِلّةٌ. ولو بكى عبدٌ في أُمةٍ لنجّى الله تلك الأُمّةَ بِبُكائِهِ»[٢].

بكلمة، كلّ شيء له حدود، إلّا بكاء الخشية من الله تعالى، حيث قال الامام الصادق عليه السلام:

«كُلُّ عينٍ باكيةٌ يوم القيامةِ إلّا ثلاثة: عينٌ غُضَّت عن محارِمِ الله، وعينٌ سهِرت في طاعةِ الله، وعينٌ بكت في جوفِ الليل من خشية الله»[٣].

وحينما لا يحالفك الحظ، اتجه نحو الخالق تعالى واخلُ به وناجِه بمناجاة أبي حمزة الثمالي التالية:

«اللهم انّي كُلّما قلتُ قد تهيّأتُ وتعبّأتُ وقُمتُ للصَّلاةِ بين يديكَ وناجيتُكَ القيتَ عليَّ نعاساً اذا انا صليتُ وسلبتني مُناجاتَكَ اذا أنا ناجيتُ ما لي كُلّما قلتُ قد صلحَتْ سريرتي وقرُبَ من مجالِسِ التّوّابينَ مجلسي عرضَتْ لي بليةٌ ازالت قدمي وحالت بيني وبينَ خِدمتِكَ. سيدي لعلكَ عن بابِكَ طردتني وعن خدمتكَ نحّيتني، أو لعلّكَ رأيتني مُستخِفاً بحقّكَ فأقصيتني، او لعلكَ رأيتني مُعرِضاً عنك فقليتني أو لعلكَ وجدتني في مقامِ الكاذِبينَ (الكذّابينَ) فرفضتني أو لعلّكَ رأيتني غير شاكِرٍ لنعمائِكَ فحرمتني، أو لعلكَ فقدتني من مجالِسِ العُلماءِ فخذلتني، أو لعلكَ رأيتني في الغافلينَ فمِن رحمتِكَ آيستني، أو لعلكَ رأيتني آلِفُ مجالسِ البطّالينَ

---

(١) الذاريات / ١٧ و١٨.

(٢) رسالة لقاء الله، الحاج ميرزا جواد ملكي، ص ١٤٧.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٨٢، باب البكاء، ح ٤.

فبيني وبينهُم خليتني أو لعلكَ لم تُحِبَّ أن تسمعَ دُعائي فباعدتني، أو لعلكَ بِجُرمي وجريرتي كافيتني، أو لعلكَ بِقِلّةِ حيائي منكَ جازيتني ...»[١].

وصفوة الكلام هي أنّ بهذه المناجاة يمكن معرفة الامراض الباطنية والأسقام القلبية، وأسباب الاشاحة عن الله، كي يتسنّى بعد ذلك التفكير في علاجها، واصلاح النفس. وفّقنا الله تعالى واياكم لمرضاته، آمين!

(١) مفاتيح الجنان، دعاء ابي حمزة الثمالي المروي عن الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع).

(١٠)

أداء الفرائض والواجبات

يُعدّ اداء الفرائض والاهتمام بالواجبات لاسيما الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، احدى أهم نقاط البداية. فلابد للمؤمن السالك من اداء الصلاة ليس في وقتها فحسب، وانما في اول الوقت ايضاً. وينبغي له ان يتهيأ لها قبل ان يحلّ وقتها كي يصليها في اول الوقت. وقد قال الامام الصادق عليه السلام:

«أوّلُ الوقتِ رِضوانُ الله وآخِرُهُ عفوُ الله والعفوُ لا يكونُ إلّا مِن ذنبٍ»[1].

فالاهتمام بالفرائض، يكشف عن روح الانقياد والطاعة، ويؤدي الى ترسيخ أساس التقوى والايمان والأخلاق.

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله:

«اعمل بفرائضِ الله تكُنْ أتقى الناسِ»[2].

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٤٠.

وهكذا يتضح ان تأخير الصلاة الى آخر الوقت ذنب، لذا ينبغي عدم تأخيرها بدون عذر عن اول وقتها قدر الامكان.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٢.

ونقل أبو حمزة الثمالي عن الامام السجاد قوله:

«مَن عمِلَ بما افترضَ الله عليه فهُوَ مِن خيرِ الناس»(١).

وقال عليه السلام أيضاً في حديث آخر:

«... فهوَ مِن أعبَدِ الناسِ»(٢).

وجاء في الحديث القدسي عن الامام الصادق عليه السلام:

«قال الله تباركَ وتعالى: (ما تحبَّبَ اليّ عبدي بأحَبَّ ممّا افترضتُ عليه)»(٣).

وروى القطب الراوندي انّ ملكاً ينادي من الكعبة من ترك فرائض الله خرج من أمان الله(٤).

وقال علي عليه السلام:

«... ولا عبادةَ كأداءِ الفرائضِ ...»(٥).

وورد الحديث القدسي التالي في بعض الكتب:

«ما تقرَّبَ اليَّ عبدي بشيءٍ أحبّ اليّ مِمّا افترضتُهُ عليهِ وانّه ليتقرّبُ اليّ بالنافِلَةِ ...»(٦).

ومنها: أداء الأمانة وصدق الحديث

ومن اهم ما يجب ان يتصف به المؤمن الأمانة، والوفاء بالعهد، والصدق. فوجودها لدى المرء دليل على الايمان، وعدم وجودها دليل على النفاق.

حيث قال تعالى: ﴿قد افلح المؤمنون... والذين هم لأماناتهم وعهدهم

(١) نفس المصدر، ص ٨١.

(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٩٨.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٢.

(٤) جامع أحاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٩٩ عن مستدرك الوسائل.

(٥) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ١١٣.

(٦) لقاء الله، ميرزا جواد ملكي، ص ٢٩؛ الجواهر السنية، ص ٩٩؛ جامع احاديث الشيعة، ج ٧، ص ٩٩ باختلاف يسير.

راعون﴾(١).

ويكفي في عظمة هذه الصفات ان يصف الله تعالى بها انبياءه، حيث وصف نوحاً بالرسول الأمين في الآية التالية:

﴿اذ قالَ لهُم أخوهُم نوحٌ ألا تتقونَ انّي لكم رسولٌ أمين﴾(٢).

ووصف هوداً بالرسول الأمين ايضاً:

﴿اذ قال لهُم أخوهُم هودٌ ألا تتقونَ انّي لكُم رسولٌ أمين﴾(٣).

وتحدثت آية قرآنية عن لسان هود، فوصفته بالناصح الأمين بعدما اتهمه قومه بالسفه، فقالت:

﴿يا قومِ ليسَ بي سفاهةٌ ولكنّي رسولٌ مِن ربِّ العالمينَ أُبلّغُكُم رسالاتِ ربّي وأنا لكُم ناصحٌ أمينٌ﴾(٤).

ووصف الله تعالى نبيه صالحاً بالرسول الأمين ايضاً:

﴿اذ قالَ لهُم أخُوهُم صالحُ ألا تتقونَ انّي لكُم رسولٌ أمينٌ﴾(٥).

ووصفت آية قرآنية اخرى لوطاً بالرسول الأمين، حينما كان قومه يصرون على تكذيب المرسلين:

﴿اذ قالَ لهُم أخوهُم لوطٌ ألا تتقون انّي لكُم رسولٌ أمين﴾(٦).

وتحدثت آية اخرى عن شعيب قائلة:

﴿اذ قالَ لهُم شُعيبٌ ألا تتقونَ انّي لكُم رسولٌ أمينٌ﴾(٧).

وتحدث القرآنُ عن موسى قائلاً:

---

(١) المؤمنون / ١ ـ ٨.

(٢) الشعراء / ١٠٦ و ١٠٧.

(٣) الشعراء / ١٢٤ و ١٢٥.

(٤) الاعراف / ٦٧ و ٦٨.

(٥) الشعراء / ١٤٢ و ١٤٣.

(٦) الشعراء / ١٦١ و ١٦٢.

(٧) الشعراء / ١٧٧ و ١٧٨.

﴿ولقد فتنّا قبلَهُم قومَ فِرعونَ وجاءَهُم رسولٌ كريمٌ، أن أدُّوا اليَّ عبادَ الله انّي لكُم رسولٌ أمينٌ﴾(١).

وتحدث القرآن الكريم عن موسى حين توجهه الى «مديَن» قائلاً:

﴿ولَمّا وردَ ماءَ مدينَ وجدَ عليهِ أُمَّةً منَ النّاسِ يسقُونَ ووجدَ مِن دُونِهِمُ امرأتينِ تذودانِ قال ما خطبُكُما قالتا لا نسقي حتّى يُصدِرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخٌ كبيرٌ فسقَى لَهُما ثمَّ تولّى الى الظِّلِّ فقال ربِّ انّي لِما أنزَلتَ اليَّ مِن خيرٍ فقيرٌ﴾(٢).

ثم قال القرآن بعد ذلك:

﴿فجاءتهُ احداهُما تمشي على استحياءٍ قالت انَّ أبي يدعوكَ ليجزِيكَ أجرَ ما سقيتَ لنا. فلما جاءهُ وقصَّ عليهِ القصصَ قال لا تخَف نجوتَ مِنَ القومِ الظّالمينَ﴾(٣).

وطلبت احدى بنات شعيب من أبيها قائلة:

﴿... يا أبتِ استأجِرهُ انَّ خيرَ منِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ﴾(٤).

وهكذا نرى كيف وصف الله تعالى بهذه الآيات أنبياءه ورسله بالأمانة، مما يكشف لنا عن اهمية هذه الخصلة وسموها. ولذلك يأمر القرآن الكريم الناس بالاقتداء بالأنبياء والاتصاف مثلهم بصفة الامانة، وأداء الامانات الى أهلها قائلاً:

﴿انَّ الله يأمرُكُم أن تُؤدُّوا الأماناتِ الى أهلِها ...﴾(٥).

الأمانة من وجهة نظر الأحاديث وانها علامة الايمان

أكدت الأحاديث وبشكل كبير على الأمانة لما لها من اهمية في حياة المسلم الى درجة ان الرسول محمداً ﷺ قال:

---

(١) الدخان / ١٧ و ١٨.

(٢) القصص / ٢٣ و ٢٤.

(٣) القصص / ٢٥.

(٤) القصص / ٢٦.

(٥) النساء / ٥٨.

«ليسَ مِنّا من خانَ بالأمانة»[١].

وجاء في حديث آخر:

«لا دين لِمن لا أمانةَ لهُ»[٢].

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«لا تنظُروا الى طولِ رُكوعِ الرجلِ وسجودِهِ فانَّ ذلك شيءٌ اعتادَهُ، فلو ترَكَهُ استوحشَ لذلك، ولكنِ انظُروا الى صِدقِ حديثِهِ وأداء أمانتِهِ»[٣].

وقالعليه السلام أيضاً:

«... فانَّ علياًعليه السلام انّما بلغَ ما بلغَ بِهِ عند رسولِ اللهصلى الله عليه وآله بصدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ»[٤].

وقال الرسول محمدصلى الله عليه وآله:

«آيةُ النفاقِ ثلاثٌ: اذا حدَّثَ كذِبَ، واذا وعدَ أخلفَ، واذا ائتُمِنَ خان»[٥].

أداء الامانة للبَرّ والفاجر

انّ أداء الامانة مهم الى درجة كبيرة في الاسلام بحيث حتى لو أودع العدو أمانةً لدى المسلم ينبغي عليه المحافظة عليها واعادتها اليه سليمة كما هي، لأنّ هدف الاسلام خلق مجتمع تهيمن عليه الثقة العامة. ولو لجأنا الى عدم اعادة الامانة التي يودعها لدينا هذا الشخص أو ذاك بذريعة انه عدوّ لنا أو انه انسان فاجر، فلن يتحقق ذلك المجتمع الذي يهدف الاسلام الى تحققه. ولذلك يوصي الاسلام باعادة الامانة ويأمر بارجاعها الى صاحبها حتى وان كان عدواً أو

(١) مشكاة الأنوار، ص ٥٢.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٣، ص ١١٦.

(٣) نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦. وورد حديث بهذا المضمون ايضاً في اصول الكافي (ج ٢، ص ١٠٥) وعيون اخبار الرضا (ج٢، ص ٥١).

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٥، باب الصدق وأداء الامانة، ح ٥.

(٥) سنن النسائي، ج ٤، ص ١١٧.

فاجراً.

قال الامام الصادقعليه السلام:

«ثلاثٌ لم يجعلِ الله عزَّ وجلَّ لأحدٍ فيهنَّ رُخصَةً: أداءُ الأمانةِ الى البَرِّ والفاجِرِ، والوفاءُ بالعَهدِ للبَرِّ والفاجرِ، وبِرُّ الوالدينِ برَّينِ كانا أو كافِرينِ»[١].

وقال في حديث آخر:

«أدُّوا الأمانَةَ الى البَرِّ والفاجِرِ فلو أنَّ قاتِلَ عليٍّ ائتمَنني على أمانَةٍ لأدَّيتُها اليهِ»[٢].

وقال ايضاً:

«أدُّوا الأمانَةَ ولو الى قاتِلِ الحسينِ بن عليعليهما السلام»[٣].

وقال أيضاً:

«انَّ ضارِبَ عليٍّ بالسيفِ وقاتِلَهُ لو ائتمنني واستنصحَني واستشارني ثُمَّ قبِلتُ ذلكَ منهُ لأدَّيتُ اليهِ الأمانةَ»[٤].

ونُقِل عنه قوله ايضاً:

«انَّ الله عزَّ وجلَّ لم يبعث نبيّاً إلّا بصدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ الى البَرِّ والفاجِرِ»[٥].

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٩٢؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٩، باب البر بالوالدين، ح ١٥ بهذا الاختلاف «... أو فاجِرينِ».

(٢) الاختصاص، المفيد. ورد في معاني اخبار الصدوق حديث بهذا المضمون للامام علي بن الحسين (ع) (ص ١٠٨ ط الصدوق).

(٣) الاختصاص، المفيد. ورد في معاني اخبار الصدوق حديث بهذا المضمون للامام علي بن الحسين (ع) (ص ١٠٨ ط الصدوق).

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦. ووردت بهذا المضمون احاديث في امالي الصدوق (ص ٢٠٤، ح ٤ و٥ و٦).

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٥، باب الصدق وأداء الامانة، ح ١.

(١١)

الالتزام العملي بالنوافل والمستحبات وترك المكروهات

النوافل والمستحبات والسنن الصالحة، مهمة الى درجة انّ بعض الفقهاء يعتقد انّ ترك جميع السنن حرام بما فيه من عدم الاهتمام بآداب الشرع المقدس[١] وسننه فقال الله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كـان يـرجـو الله واليـوم الآخر﴾[٢].

ملاحظات جديرة بالاهتمام:

أ ـ ينعكس عن الالتزام بالنوافل والاستمرار عليها ثلاثة آثار مهمة:

١ ـ محو ذنوب الانسان وخطاياه. وقد قال الله تعالى:

﴿وأقـمِ الصـلاةَ طـرَفي النهـارِ وزُلفاً مِـنَ الليـلِ انَّ الحسـناتِ يُـذهِبنَ

---

(١) ذكر الفقيه محمد حسن النجفي الجواهري المعروف بصاحب الجواهر في كتابه «جواهر الكـلام في شرائع الاسلام» (ج ٤١ ، ص ٣٠) حين تحدثه عن عدالة الشاهد ان بعض الفقهاء يعتقد بأنّ ترك جميع السنن والمستحبات قادح بالعدالة اذا كان دليلا على عدم الاهتمام بالسنن.

(٢) الاحزاب / ٢١.

السَّيئاتِ...﴾[١].

وورد في بعض الأحاديث انّ صلاة المؤمن في الليل تُذهب بسيئاته في النهار[٢]. كما ورد ايضاً انّ صلاة الوِتر تُذهِب بالسيئات[٣].

٢ ـ تدارك النواقص التي تطرأ على الفرائض والواجبات بسبب الغفلة أو القصور. فالنوافل اليومية ـ لاسيا نوافل الليل ـ ترفع نواقص الصلوات اليومية، والصيام المستحب يرفع نواقص صيام أيام شهر رمضان، والصدقات المستحبة ترفع نواقص الواجبات المالية كالزكاة والخمس. ومن المحتمل انّ الأعمال المستحبة بأسرها مؤثرة في تلافي ما يطرأ من نقص على جميع الفرائض والواجبات. ونشير هنا الى بعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن:

قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«انّما جُعِلَتِ النافلةُ ليتُمَّ بها ما يفسَدُ من الفريضة»[٤].

وجاء في حديث آخر:

«انّ الله تبارك وتعالى أتمَّ صلاةَ الفريضةِ بصلاةِ النافلةِ»[٥].

وقال ابو حمزة الثمالي انّ الامام علي بن الحسين عليه السلام قال:

«انّ العبد لا تُقبلُ منهُ صلاة إلّا ما أُقبلَ عليه منها. فقلتُ: جُعلتُ فداكَ هلكنا. قال: انّ الله مُتمِّمٌ ذلك للمؤمنينَ بالنوافل»[٦].

٣ ـ التقرب من الله تعالى، اذ قال سبحانه:

---

(١) هود / ١١٤.

(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ٧، ص ١٠٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٠٧ و١٠٨. صلاة الوتر ركعة واحدة تصلى في نهاية نوافل الليل، ونوافل الليل ١١ ركعة: ٨ركع بنية صلاة الليل وركعتان بنية صلاة الشفع، وركعة واحدة بنية صلاة الوتر، ولها الكثير من الثواب والآثار.

(٤) جامع أحاديث الشيعة، ج ٧، ص ١١٦ ـ ١١٨.

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر، ص ١٣٥.

﴿تتجافى جُنوبُهُم عنِ المضاجعِ يدعُونَ ربَّهُم خوفاً وطمعاً ومِمّا رزقناهُم يُنفقُونَ فلا تعلَمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهُم مِن قُرَّةِ أعيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملونَ﴾[١].

وقال أيضاً:

﴿ومن الليلِ فتهجَّد بهِ نافِلَةً لكَ عسى أن يبعثكَ ربُّكَ مقاماً محموداً﴾[٢].

وجاء في الحديث القدسي:

«... وما تقرَّبَ اليَّ عبدٌ بشيءٍ أحبُّ اليَّ ممّا افترضتُ عليهِ، وأنَّهُ ليتقرَّبُ اليَّ بالنافلةِ حتّى أُحبَّهُ، فاذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ، وبصَرهُ الذي يُبصرُ بهِ، ولسانَهُ الذي ينطِقُ بهِ، ويدهُ التي يبطِشُ بها، ان دعاني أجبتُهُ وان سألني أعطيتُهُ...»[٣].

وورد في الحديث:

«صلاةُ النوافلِ قُربانُ كلِّ مُؤمِنٍ ...»[٤].

ونُقِل عن رسول الله ﷺ قوله:

«أشرافُ أُمتي حملةُ القرآنِ وأصحابُ الليلِ»[٥].

ب ـ الأعمال المستحبة والنوافل لا تكون مفيدة ولا مؤثرة إلّا اذا اتّسمت بالاستمرارية والتداوم، وقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام: «اذا كان الرجل على عمل فليدم عليه سنةً»[٦]، ذلك لأنّ تأثير العمل مرهون باستمراريته.

وفي الحديث النبوي:

«وأما المداومة على الخير فيتشعب منه تركُ الفواحش، والبعد من الطيش والتحرج، وحبّ النجاة، وطاعة الرحمن، وتعظيم البرهان، واجتناب الشيطان،

---

(١) السجدة / ١٦ـ١٧.

(٢) الاسراء / ٧٩.

(٣) جامع أحاديث الشيعة، ج ٧، ص ٩٩.

(٤) نفس المصدر، ص ١٠٠.

(٥) نفس المصدر، ص ١٠٢.

(٦) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٢و٨٣.

والاجابة للعدل، وقول الحق. فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير، فطوبى لمن ذكر ما أمامه وذكر قيامه واعتبر بالفناء»[١].

كما جاء في حديث عن الامام الباقرؑ انه قال:

«اني أُحب أن ادومَ على العمل اذا عوَّدتني نفسي وان فاتني من الليل قضيته من النهار، وان فاتني من النهارِ قضيته بالليل. وانَّ احبَّ الأعمالِ الى الله ما ديمَ عليها»[٢].

ج ـ ليس المراد بالالتزام بالنوافل والمستحبات ان يؤدي المرء جميع هذه المستحبات، لأنّ مثل هذا العمل ليس غير ممكن فحسب وانما غير جائز ايضاً لأنّ الامكانات لا تسمح بذلك من جهة كما ان سائر تكاليف الانسان وواجباته ومسؤولياته لا تُبقي له مثل هذا الوقت، بل المراد ان يختار المرء أعمالاً ضمن ما تسمح به الظروف والامكانات الفردية والاجتماعية ويلتزم بها.

د ـ اكّد الشرع الاسلامي على بعض العبادات والمستحبات والخدمات والصدقات والسنن الصالحة، وكان من سيرة أولياء الدين والأئمة المعصومينؑ، الالتزام بهذه السنن ومنها: قراءة القرآن، والتهجد والمناجاة والتضرع في الأسحار ـ حينما تغمض الأجفان وتهجع العيون ـ والالتزام بأداء الصلوات الواجبة في اوائل اوقاتها، وأداء احدى وخمسين ركعة في اليوم الواحد (سبع عشرة ركعة واجبة، والبقية مندوبة لاسيما: صلاة الليل، وركعتي نافلة الصبح وركعتي نافلة العشاء «الوتيرة»[٣])، والاحتفاظ بالوضوء، ورعاية الآداب والسنن وحضور القلب في العبادات، وتعقيبات الصلاة، وحضور صلاة الجمعة والجماعة، واطالة القنوت وسجدات الصلاة، والصيام ثلاثة ايام في الشهر، وزيارة قبور الاولياء والشهداء

---

(١) تحف العقول، ص ١٤.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ١، الباب ١٩، ص ١٢٩.

(٣) قال المفسرون انّ آية ﴿وقرآنَ الفجرِ انّ قرآنَ الفجرِ كان مشهوداً﴾ (الاسراء / ٧٨) تعني نافلة الصبح، وهي مشهودة عند الله تعالى.

سيا قبر الرسول الاكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام، والبكاء في عزاء سيد الشهداء الامام الحسين بن علي عليه السلام، والتوسل به وبسائر المعصومين عليهم السلام، وصلة الرحم، واطعام الطعام، وافشاء السلام لاسيا بين أحبّاء أهل بيت الرسول، والاقبال على بعض الأوراد والأذكار المأثورة مثل ذكر «لا اله إلّا الله» و«أستغفر الله ربي وأتوب اليه»، والصلاة على محمد وآله، وتسبيح الزهراء عليها السلام[1] بعد كل صلاة وأثناء النوم.

وذكر بعض الفضلاء انّ ذكر «لا اله إلّا الله» مائة مرة و «استغفر الله» سبعين مرة، بعد صلاة الصبح، مجرّب جداً شريطة التوجه والحضور القلبي، ويا حبذا لو استمر المؤمن عليه. كما انّ هناك آثاراً ايجابية مجرّبة لذكر «لا اله إلّا الله الملك الحق المبين» مائة مرة، و«لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم» سبع مرات، بعد صلاتي الصبح والمغرب.

وورد في الأحاديث ان قراءة الآيات الأربع الأخيرة من سورة الحشر (أي بدءاً بآية ﴿لو أنزلنا هذا القرآن﴾) في كل صباح، عمل مفيد جداً، والأفضل أن تُقرأ هذه الآيات خلال سجدة الشكر.

هذه بعض المستحبات التي تنعكس عن الاستمرار عليها فوائد جمّة، مجرّبة من قبل الصالحين.

---

(١) تسبيح الزهراء، ٣٤ مرة الله اكبر، ٣٣ مرة الحمد لله، ٣٣ مرة سبحان الله.

(١٢)

المرابطة، والمراقبة، والمحاسبة، والمعاتبة

المرابطة

المرابطة، هي المرحلة الاكثر حساسية في طريق السالكين الى الله، اذ تنتهي عملية التكامل الى طريق مسدود بدون اجتيازها.

المرابطة في اللغة تعني ارتباط البعض بالبعض الآخر، وفي اصطلاح أهل السلوك تعني الارتباط بالنفس، ومراقبة النفس، وبكلمة: متابعة احوال النفس بقلق.

والمرابطة لديها أربع مراحل:

١ ـ المشاركة ويُقال لها المعاهدة ايضاً.

٢ ـ المراقبة.

٣ ـ المحاسبة.

٤ ـ المعاتبة (انتقاد الذات).

والمشارطة هي ان يشترط المرء على نفسه ويعاهدها على أداء التكاليف وانجاز الوظائف وايفاء المسؤوليات وعدم التلكؤ في ذلك أو التقصير قط، وعدم اختراق تعاليم الشرع أو تخطي الحدود الالهية. كما يتعهد ايضاً بالاجتهاد في أعمال

الخير وتجنب اعمال الشر والتصرفات المشينة. ولا تكون هذه المشارطة أو المعاهدة مؤثرة إلّا اذا جددها صاحبها في كل يوم حتى تترسخ على شكل ملكة في النفس والروح. وأفضل ساعاتها، وقت الصباح بعد أداء فريضة الصبح حيث يكون قلب المرء أكثر نقاءً وأعظم استقبالاً للحق.

طبيعة المرابطة

يا حبذا لو تصورنا حين المرابطة ذلك اليوم الذي ننقطع فيه عن الدنيا ونعضّ على اصبع الندم قائلين:

﴿...يا حَسْرَتى على ما فَرّطتُ في جَنْبِ الله﴾[1].

ويا حبذا لو تصورنا ذلك اليوم الذي يتمنى فيه كل منا العودة الى الدنيا وتضرع قائلاً:

﴿... رَبّ ارجعونِ لَعَلي أعْمَلُ صالِحاً فيما تَرَكتُ..﴾[2].

ولكن دون جدوى، ودون فائدة، اذ نسمع جواباً واحداً هو:

﴿كلّا انها كلمة هو قائلها...﴾[3].

اذن، مادام أمامنا بعض الوقت، ومادامت الفرصة سانحة، ينبغي علينا ان نتعهد بعدم تبديد هذا العمر الثمين عبثاً وعلى ما لا يجدي، ونعاهد أنفسنا على انتهاز جميع ساعاته ولحظاته.

ولكي نقف على قيمة دقائق العمر ولحظاته من المناسب الاشارة الى أحد الأحاديث في هذا المضمار، ورد في هذا الحديث:

ان كل عبد خلقت له بأزاء كل يوم وليلة من عمره أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فاذا مات فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي أطاع الله فيها،

---

(١) الزمر / ٥٦.

(٢) المؤمنون / ٩٩و ١٠٠.

(٣) المؤمنون / ١٠٠.

يراءها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على اهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار. واذا فتحت له خزانة خلقت بازاء الساعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشأ ظلامها. فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على اهل الجنة لنغص عليهم نعيمها. فاذا فتحت له خزانة بأزاء الساعة التي نام فيها او غفل او اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه... وعند ذلك يتحسر العبد على اعماله وتقصيره و يناله من الغبن ما لا يمكن وصفه.[1]

يا حبذا لو يجسد المرء هذا الحديث امام ناظره في كل يوم، ويجدد العهد والميثاق مع نفسه ألّا يبدد عمره ولا يدع أي لحظة من لحظاته تذهب هدراً وتضيع عبثاً. وما أروع ان يقرأ الانسان سورة العصر في كل صباح ويتدبّر معانيها ويرى كيف ان الله أقسم بالعصر «والعصر» ثم قال مباشرة «إنّ الانسانَ لفي خُسْر إلّا الذينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحقّ وتَواصوا بالصّبرِ»، أي انّ الجميع خاسرون إلّا اولئك الذين استثمروا حياتهم بالايمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر.

قضية جديرة بالاهتمام

الخسران لغةً هو الضرر الذي يؤدي الى فناء رأس المال بتمامه، ويبدو ان رأسمال العمر كالثلج الذي سرعان ما يذوب امام الشمس الحارقة، مع فارق واحد يتمثل في أن قطرات الثلج الذائب تبقى في الأرض، بينما لا يبقى أي اثر يُذكر للحظات عمر الانسان، ولا تعود منها ولو لحظة واحدة.

فمن يغفل لحظة من عمره، يتعرض للخسران بمقدار تلك الغفلة. ولو افترضنا ان الانسان بامكانه اغتنام ساعات وأيام حياته القادمة، فلابد أن يشعر بالغبن

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٩٤.

ازاء حياته الماضية التي تبددت عبثاً ودون فائدة، ذلك لأنّ كلّ وعاء يستوعب بمقدار حجمه، وكل لحظة لها التكليف الخاص بها، ولهذا لا يمكن وضع الماضي في هذا الوعاء المحدود وتدارك ما فات، اللهم إلّا اذا شمل اللطف الالهي العبد.

هَبْ اننا تُبنا ورجعنا الى الله تعالى بصدق، غير أنّ التوبة لا اثر لها سوى الغفران والعفو. أي ان التوبة والاستغفار يوجبان بحسب الطبع رفع العذاب لا اعلاء المقام ورفع المنزلة. بتعبير آخر: التوبة تعني التخلص من عذاب الجحيم، ولا تعني نيل الكرامة وتحقيق الافتخار. وما أسعد اولئك الذين انتهزوا جميع اللحظات والامكانات، وخططوا حتى لساعات استراحاتهم وهدوئهم بحيث تحول فيها نومهم الى عبادة وأنفاسهم الى تسبيح، كما أشار الرسول محمدﷺ الى ذلك في وصف الصائمين في شهر رمضان المبارك:

«... أنفاسُكُمْ فيه تسبيحٌ ونومُكُمْ فيه عبادةٌ وعَمَلُكُم فيه مقبولٌ»[1].

وهناك فئة واحدة بامكانها أن تأمل بتدارك ما فات وهي فئة المجاهدين في سبيل الله، أي تلك الفئة التي انتخبت طريق الشهادة والتضحية والفداء. فالشهادة في سبيل الله سُلّم للتسلق الى الملأ الاعلى وقفزة عريضة نحو القرب من الله.

فهذه الفئة وفضلاً عن حصولها على العفو الالهي، تحصل على امتياز التعويض عن كافة النواقص الماضية. أي انها تقطع بالايثار والتضحية طريق مائة عام بليلة واحدة هي خير من ألف شهر، فهي تحوّل كل ما لديها بالقوة الى الفعل، وتسارع محلّقة نحو الخالق، فترفع على رؤوسها اكليل الغار والشرف والفخر بحضور جمعي وظلي لحياة ابدية وضيافة سرمدية.

ولكن هل بامكان سائر الناس التعويض عمّا فات وتدارك الماضي من خلال التوبة والانابة؟ الله أعلم، ولكنني اعتقد ان من الصعب ان يحالف مثل هذا الحظ الجميع.

---

(١) الخطبة الشعبانية للرسول الاكرم محمد (ص): كتاب الوافي، ج٢، ص ٥٣؛ الاقبال، السيد بن طاووس، ص١.

ولربما يقول قائل: يُستشف من آيات وأحاديث التوبة ان التوبة وفضلاً عن استحصالها على المغفرة الالهية والرحمة الربانية، تعمل على تبديل سيئات المذنب الى حسنات أيضاً، سيما من الآية الكريمة التي تقول:

﴿إلّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِل عَملاً صالحاً فاولئك يُبَدّل الله سيئاتِهم حسناتِ...﴾[١].

اذن فبامكان التائبين التعويل على التوبة في تدارك ما فاتهم.

والحقيقة هي ان بعض المفسرين قالوا بأنّ ظاهر الآية يوحي بأن الله يعوّض بالتوبة عمّا فات ويمحو السيئات جميعاً ويكتب بدلاً منها حسنات. بينما قال آخرون ان الله يمنع التائبين من اقتراف السيئات ويوفقهم لأعمال الخير. وقال غيرهم ان المراد بالسيئات هي المعاصي الصغيرة والتي تُبدل بعد التوبة الى حسنات، اما المعاصي الكبيرة فتشمل بالغفران فقط[٢]. اما العلامة الطباطبائي وبعد استعراضه لآراء المفسرين يقول: «والذي يفيده ظاهر قوله: «يبدل الله سيئاتهم حسنات» وقد ذيّله بقوله «وكان الله غفوراً رحيماً» أن كل سيئة منهم نفسها تتبدل حسنة، وليست السيئة هي متن الفعل الصادر عن فاعله وهو حركات خاصة مشتركة بين السيئة والحسنة كعمل المواقعة المشترك بين الزنا والنكاح... بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلاً من حيث انه يتأثر به الانسان ويحفظ عليه دون الفعل الذي هو مجموع حركات متصرمة متقضية فانية وكذا عنوانه القائم به الفاني بفنائه.

وهذه الآثار السيئة التي يتبعها العقاب أعني السيئات لازمة للانسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر.

ولولا شوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنها عمل سيئ اذ الذات

---

(١) الفرقان / ٧٠.

(٢) راجع: تفسير مجمع البيان، ط صيدا، ج٤، ص ١٨٠؛ تفسير الصافي، ج٢، ص ٢٠٥؛ تفسير ابن كثير، ج٣، ص ٣٢٧.

السعيدة الطاهرة من كل وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة. فالاعمال السيئة انما تلحق ذاتاً شقية خبيثة بذاتها او ذاتاً فيها شوب من شقاء وخباثة.

ولازم ذلك اذا تطهرت بالتوبة وطابت بالايمان والعمل الصالح فتبدلت ذاتاً سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء، ان تتبدل آثارها اللازمة التي كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً»[١].

ولكن حتى مع الاخذ بهذا الرأي ـ أي تبديل السيئات الى حسنات ـ تبقى قضية عدم امكان تدارك ما فات قائمة، لأنّ بحثنا لا يدور حول الذنب فحسب كي يُجبَر بواسطة التوبة، وانما ايضاً حول ان كل دقيقة وكل لحظة من عمر الانسان القيم الثمين اذا ما ضاعت عبثاً، فهي بمثابة خسران للانسان غير قابل للتدارك والتعويض. فالسيئة المتبدلة بالحسنة هي قذارة الشقاء الحاصلة من السيئة التي عمل بها فمغفرته تعالى محت هذا الشقاء فقط فبقيت النفس خالية عن الشقاء ولمّا تتحلَّ بحلية الكمال والجمال.

ولم يقل الله تعالى في هذه الآية انه سيعوض عن كل ما فات من الماضي، ولذلك فالساعات التي ضاعت دون استثمار صحيح وتبددت بلا معنى، غير قابلة للتدارك والتلافي. ولهذا علينا ان نبذل قصارى جهدنا لاغتنام جميع دقائق العمر، وليس بامكان المستقبل ان يضمن الماضي، إذ لا يوجد وعاء بامكانه ان يستوعب اكبر من حجمه.

اذن، هنيئاً لاولئك الذين يبذلون قصارى جهدهم للانتفاع بجميع لحظات العمر بما فيها لحظات الاستراحة والهجوع، التي تتحول عندهم الى عبادة وتسبيح، كما قال علي عليه السلام:

«حبّذا نومُ الاكياس وإفطارُهُم»[٢].

---

(١) تفسير الميزان، طبعة اسماعيليان (قم)، ١٩٧٢، ج١٥، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ١٤٥.

أي ان الأكياس والعقلاء تجري أعمالهم عن برنامج ووفق حساب ومن ضمنها نومهم وطعامهم: فهم ينامون لله ويقتاتون لله. أي اذا ما اكلوا او هجعوا، فـانما يفعلون ذلك للتزوّد بالطاقة التي تمكّنهم من عبادة الله وخدمة عباده، ولا يؤدون أي عمل انطلاقاً من الهوى واللامسؤولية.

المراقبة

المراقبه هي المرحلة الثانية من المرابطة. فالمرء وبعد أن يعاهد نفسه على الالتزام وأداء المسؤوليات دون تقصير أو تلكؤ، لابد له من مراقبة نفسه في جميع الاوضاع والاحوال لئلا ينقض عهداً من العهود التي تعهد بها، بفعل الغفلة أو التساهل.

من البديهي ان حراسة العهد والاصرار على الميثاق، من الصفات البارزة لدى المؤمن. وقد قال تعالى:

﴿والذينَ هُم لأماناتِهِم وَعَهْدِهِمْ راعُونَ﴾[1].

وحقيقة المراقبة هي أن لا ننسى الله تعالى قط، وان نستمر على الأعمال والأذكار التي تذكّرنا به، وأن نصبغ كل عمل بصبغة الله، ونبدأ كل عمل بإسمه. وحتى اذا ما جلسنا فلنسع قدر الامكان كي يكون جلوسنا باتجاه القبلة، واذا ما نمنا فلننم باتجاه القبلة على الجانب الأيمن من البدن، وعلينا الابتعاد عن مجالس البطالين.

باختصار، ينبغي ان لا يعزب الله تعالى لحظة واحدة عنا، لأنّ من ينسَ الله، ينْسَهُ الله أيضاً:

﴿نسُوا الله فنسِيهُم﴾[2].

---

(١) المؤمنون /٨.

(٢) التوبة / ٦٧.

فما أسوأ حال العبد اذا نسيه الله وتركه لحاله. ولاشك في انّ شخصاً كهذا لابد أن يقع فريسة للشياطين.

من ينس الله لابد وأن يغترب عن نفسه، ويفقد شخصيته الانسانية العليا، وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهُم أنفُسهم ...﴾[١].

يُقال ان زليخا حينما دعت يوسف اليها، وقعت عينها على صنم كان في تلك الحجرة، فنهضت فوراً وأسدلت عليه ستاراً. فقال لها يوسف: اذا كنتِ تخجلين من مراقبة الجماد، فكيف لا أخجل من مراقبة الله الجبار؟[٢].

وهكذا لابد لنا أن نراقب أعمالنا دائماً ونجتهد في السير في الحياة بحذر، لأنّ المراقبة والحذر يحولان دون غفلة الانسان ووقوعه في الخطأ. فمثلما نحرص على امور الدنيا ونراعي الدقة والاحتياط، لابد لنا من الحرص على امور الآخرة ومراعاة الدقة والاحتياط فيها، وأن نضع البارئ تعالى نصب أعيننا دائماً.

لابد لنا ان نعلم بأنّ المراقبة لها درجات تعتمد على درجات معرفة السالك ورياضته، وأولى هذه الدرجات هي مراقبة المتقين وأعلاها مراقبة المقربين.

فالانسان بمقدوره ان يبلغ مقام القرب بواسطة الرياضة والمجاهدة والمراقبة، فيستغرق في جمال ذي الجلال ونوره البهي، وحينئذ سينعكس الأمر تماماً، اذ سيراقب الله تعالى عبده ويحرسه ويحافظ عليه، كما جاء بشأن يوسف:

﴿ولقد همّت بهِ وهمَّ بها لولا أن رأى بُرهان ربِّهِ ...﴾[٣].

فزليخا التي هامت في يوسف، لم تتراجع عنه رغم جواب الرفض الذي سمعته منه، وظلت مصرة على الوصال، ولولا لطف الله الخاص وبرهانه الواضح الذي كان يحرس يوسف، كان من الطبيعي ان يميل يوسف اليها ايضاً. فالله تعالى ومن

---

(١) الحشر / ١٩.

(٢) جامع السعادات، ج ٣، ص ٩٦.

(٣) يوسف / ٢٤.

خلال عرض جماله وجلاله السرمديين، قد صرف عبده المخلص عن وجه زليخا الجميل وحفظه من الزلل، بحيث ازاح عن قلبه تصور المعصية وتخيلها.

«طُوبى لِمَن راقبَ ربَّهُ وخاف ذنبهُ»[١].

وللامام علي عليه السلام كلمات في المراقبة نشير الى اثنتين منها:

الاولى: «ينبغي أن يكون الرجلُ مهيمناً على نفسه، مراقباً قلبهُ، حافظاً لسانهُ»[٢].

والثانية قالها في وصف المؤمن العاقل:

«... راقبَ في يومِهِ غَدهُ ونظرَ قُدُماً أمامهُ ...»[٣].

محاسبة النفس

يعد أصل «محاسبة النفس» من الاصول الاخلاقية والعرفانية. فسالكو طريق الله وطلاب دار البقاء مثلما يعاهدون انفسهم في كل صباح، يختلون في كل يوم ساعةً الى انفسهم للمحاسبة واعادة النظر في أعمالهم وتصرفاتهم اليومية.

يقول المرحوم النراقي في ذلك:

«قد ورد في الأخبار انّ العاقل ينبغي أن يكون له أربعُ ساعاتٍ: ساعةٌ يُناجي فيها ربَّهُ، وساعةٌ يُحاسِبُ فيها نفسهُ، وساعةٌ يتفكَّرُ في صُنع الله، وساعةٌ يخلو فيها للمطعم والمشربِ»[٤].

فالمحاسبة تعني التدقيق واعادة النظر في الماضي، والتعهد والالتزام للآتي، ويتحقق أصل المحاسبة من خلال مراعاة سبعة مبادئ وعناصر هي:

١ ـ التقدير، ٢ ـ المسؤولية ٣ ـ بقاء العمل، ٤ ـ تسجيل الاعمال،

---

(١) شرح الغرر، ج ٤، ص ٢٣٨، الرقم ٥٩٣٨.

(٢) فهرست الغرر، ص ٣٩٣، الرقم ١٠٩٤٧.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ٨٣.

(٤) جامع السعادات، ج ٣، ص ٩٩.

٥ ـ الاستجواب، ٦ ـ المجازاة وانعكاس العمل، ٧ ـ التوبة وتدارك ما فات.

١ ـ التقدير: وهو من الاصول المسلَّم بها في عالم الخلقة، وعلى حد تعبير القرآن أنّ لكل شيء مقداراً وحدّاً عند الله:

﴿... وكُلُّ شيءٍ عندهُ بمقدارٍ﴾[١].

وقال الله تعالى ايضاً:

﴿وإنْ مِن شيءٍ إلاّ عِندنا خزائِنهُ وما نُنزِلهُ إلاّ بِقَدرٍ معلومٍ﴾[٢].

وقال ايضاً:

﴿... وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في امامٍ مبينٍ﴾[٣].

كما قال سبحانه:

﴿لقد أحصاهُم وعدَّهُم عدّاً﴾[٤].

٢ ـ المسؤولية والالتزام أمام الله تعالى والكون والانسان، أمانة الهية موضوعة على كاهل الانسان، والشعور بالمسؤولية، شعور فطري، اذ قال الله تعالى:

﴿إنّا عرَضنا الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يحمِلنها وأَشفَقْنَ مِنها وحملَها الانسانُ انَّهُ كان ظلوماً جهولاً﴾[٥].

٣ ـ البقاء، اصل علمي وفلسفي، لهذا فانّ الفاظاً كالفناء، والهلاك، والموت، والعدم، تشير الى التغير والتحول في المنزل. اما الفناء المطلق فلا معنى له، اذ انّ الوجود لا يتحول الى نقيضه ـ اي العدم ـ قط على حد تعبير الحكماء، لأنه جمع بين نقيضين. وأشار القرآن الكريم الى هذا الأصل بصراحة:

﴿... ووجدوا ما عمِلوا حاضراً ...﴾[٦].

---

(١) الرعد / ٨.

(٢) الحجر / ٢١.

(٣) يس / ١٢.

(٤) مريم / ٩٤.

(٥) الاحزاب / ٧٢.

(٦) الكهف / ٤٩.

وقال في آية اخرى:

﴿فمن يعمَل مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يرَهُ ومَن يعمَل مِثقالَ ذرةٍ شراً يرَهُ﴾[١].

وقال أيضاً عن لسان لقمان:

﴿يا بُنيَّ انَّها ان تكُ مِثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ فتكُن في صخرةٍ أو في السماواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها الله ان الله لطيفٌ خبيرٌ﴾[٢].

٤ ـ تسجيل الاعمال: الكثير من الناس لا يحاسب نفسه بفعل الغفلة، وكأنه لم يفعل شيئاً. فهؤلاء الناس يسدلون ستار النسيان على أعمالهم السالفة ويتصورون انها قد انتهت، غافلين عن ان الله تعالى قد أفرد لكل فرد سجلاً خاصاً به وأوكل الى عدد من الملائكة مهمة تسجيل كل ما يقوم به من اعمال، ولابد أن يخضع هذا السجل للتدقيق والفحص في يوم القيامة. وهذا ما عبَّرت عنه الآية التالية أروع تعبير:

﴿وكلُّ انسانٍ الزمناهُ طائِرهُ في عُنقهِ ونُخرجُ لهُ يومَ القيامةِ كتاباً يلقاهُ منشوراً﴾[٣].

كما قال تعالى:

﴿اقرأ كتابكَ كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حسيباً﴾[٤].

كما قال:

﴿وانَّ عليكُم لحافظينَ، كراماً كاتبينَ، يعلمونَ ما تفعلُونَ﴾[٥].

انّ هذا السجل او الملفّ يُفتح امام المرء ويُعرض عليه كلّ ما مسجل فيه، بحيث لا يستطيع ان ينكر ايّ شيء، وقد قال الله تعالى بعد أن أقسم بالسماء

---

(١) الزلزال / ٧ و ٨.

(٢) لقمان / ١٦.

(٣) الاسراء / ١٣.

(٤) الاسراء / ١٤.

(٥) الانفطار / ١٠ ـ ١٢.

والطارق:

﴿ان كُلُّ نفسٍ لمّا عليها حافظٌ﴾[١].

كما قال تعالى في آيات اخرى:

﴿ما يلفِظُ من قولٍ إلّا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ﴾[٢].

﴿اذ يتلقّى المتلقّيانِ عنِ اليمينِ وعنِ الشّمالِ قعيدٌ﴾[٣].

﴿ام يحسبُونَ أنّا لا نسمعُ سِرَّهُم ونجواهُم بلى ورُسلُنا لديهم يكتُبونَ﴾[٤].

﴿وكُلُّ شيءٍ فعلُوهُ في الزُّبُرِ وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستطرٌ﴾[٥].

﴿وترى كُلَّ أُمةٍ جاثيةً كلُّ أُمةٍ تُدعى الى كتابها اليوم تُجزونَ ما كنتُم تعملون، هذا كتابُنا ينطِقُ عليكُم بالحقّ انّا كُنّا نستنسِخُ ما كنتُم تعملونَ﴾[٦].

تكشف هذه الآيات القرآنية عن ان جميع الأعمال التي يمارسها الانسان، تُسجَّل بواسطة الملائكة في الملف الخاص به، ثم تجري عملية دراستها والتدقيق فيها يوم القيامة.

وقد أشار الامام عليعليه السلام الى هذه الحقيقة ايضاً حينما قال:

«... عبادَ الله احذروا يوماً تُفحصُ فيهِ الأعمالُ ويكثرُ فيهِ الزلزالُ وتشيبُ فيه الأطفال[٧]، اعلموا عبادَ الله انَّ عليكُم رصداً من أنفُسِكم وعُيوناً من جوارِحكُم[٨] وحُفّاظَ صِدقٍ يحفظُونَ أعمالكُم، وعددَ أنفاسِكُم، لا تستُرُكُم منهم

---

(١) الطارق / ٤.

(٢) ق / ١٨.

(٣) ق / ١٧.

(٤) الزخرف / ٨٠.

(٥) القمر / ٥٢ و٥٣.

(٦) الجاثية / ٢٨ و٢٩.

(٧) اشارة الى الآية: ﴿فكيف تتقون ان كفرتُم يوماً يجعلُ الوِلدانَ شيباً﴾ (المزمل / ١٧).

(٨) يشير هذا المقطع من كلام الامام (ع) الى أحد الشهود في يوم القيامة التي تشهد للمرء أو عليه. فضلاً عن شهادة الله تعالى والانبياء والاوصياء والملائكة والارض وغيرها على أعمال الانسان

←

ظُلمةُ ليلٍ داجٍ ولا يُكنُّكُم منهُم بابٌ ذو رِتاجٍ وانَّ غداً منَ اليومِ قريبٌ ...»[١].

٥ ـ الاستجواب: وهو من القضايا الحساسة جداً في يوم القيامة وليس بامكان أي أحد الفرار او التخلص منه، اذ قال الله تعالى:

﴿وَقِفُوهُم انَّهُم مسؤولونَ﴾[٢].

فالاستجواب والحساب في يوم القيامة، قضية جادة حتى انها تشمل المرسلين ايضاً:

﴿فلنسألنَّ الذين أُرسِلَ اليهِم ولنسألنَّ المرسلينَ﴾[٣].

فهل تعلم انّ ليوم القيامة خمسين موقفاً وأنّ طول كل موقف ألف سنة، حيث يُسأل فيه المرء عن كل شيء؟

قال الامام الصادق عليه السلام:

«ألا فحاسبوا أنفُسكم قبل أن تُحاسبوا فانَّ في القيامةِ خمسين موقِفاً كلُّ موقفٍ مِثلُ ألف سنةٍ مما تعُدّون»[٤]. ثم تلا الامام الآية: ﴿... في يومٍ كان مقدارُهُ خمسين الف سنةٍ ...﴾[٥].

الحساب في يوم القيامة دقيق الى درجة بحيث يُسأل المرء حتى عن نواياه وما

ـ الصالحة والطالحة في يوم القيامة، تشهد عليه أو لهُ أعضاؤه وجوارحه أيضاً. وتحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بصراحة حينما قال:

﴿يوم تشهَدُ عليهِم ألسنتهُم وأيديهِم وأرجلُهم بما كانوا يعملون﴾. (النور / ٢٤).

كما قال ايضاً:

﴿ويومَ يُحشرُ أعداءُ الله الى النارِ فهُم يوزَعون. حتى اذا ما جاؤوها شهِد عليهِم سمعهُم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملونَ. وقالوا لجُلُودهِم لِمَ شهدتُم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ وهو خلقكُم أولَ مرةٍ واليهِ تُرجعون﴾. (فصلت ١٩ ـ ٢١).

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٥٦.

(٢) الصافات / ٢٤.

(٣) الاعراف / ٦.

(٤) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧، ص ١٢٦؛ روضة الكافي، ص ١٤٣، ح ١٠٨.

(٥) المعارج / ٤.

في ضميره:

﴿... وان تُبدُوا ما في أنفُسِكُم أو تُخفُوهُ يُحاسِبكُم بِهِ الله ...﴾[١].

لقد وصف الله تعالى نفسه بـ «سريع الحساب»، ووصف يوم القيامة بـ «يوم الحساب»، مما يدل على اهمية الحساب والمحاسبة:

﴿... ومن يكفُر بآيات الله فانّ الله سريعُ الحسابِ﴾[٢].

﴿... ان الذينَ يضِلّون عن سبيلِ الله لَهُم عذابٌ شديدٌ بما نسُوا يوم الحسابِ﴾[٣].

اذن، ما أسوأ حال اولئك الذين نسوا ذلك اليوم، اذ ان نسيان شيئين يؤدي الى الخسران الأبدي: نسيان الله، ونسيان يوم الجزاء.

وكم نحن بحاجة للتضرع الى الله قائلين:

﴿ربَّنا لا تؤاخِذنا ان نسينا أو أخطأنا ...﴾[٤].

٦ ـ المجازاة: وهي من الاصول المسلم بها في عالم الخلقة ومن ضروريات الدين الاسلامي المبين. اذ أن لكل عمل انعكاساً، ولكل فعل ردة فعل.

وقد اكّدت الآيات القرآنية كثيراً على انّ الاعمال لابد وأن ينسحب عليها ما تستحق من الثواب او العقاب، ولن يفلت اي عمل مهما كان صغيراً من الاستحقاق:

﴿... ثمّ تُوفّى كلُّ نفسٍ ما كسبَت وهُم لا يُظلمُونَ﴾[٥].

ويقول أيضاً:

﴿كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينةٌ﴾[٦].

---

(١) البقرة / ٢٨٤.

(٢) آل عمران / ١٩.

(٣) ص / ٢٦.

(٤) البقرة / ٢٨٦.

(٥) البقرة / ٢٨١.

(٦) المدثر / ٣٨.

٧ ـ التوبة وتدارك ما فات: وهذا الأصل، من الاصول التي تبني الانسان وتقوّمه. فالتوبة انما هي واسطة للتصالح مع الله والعودة اليه وتدارك ما فات من الماضي. ولا معنى للحساب مع النفس بدون التوبة. ولذلك دعا الله تعالى عباده وبشكل متوالٍ الى التوبة والرجوع اليه، وطالما أحيا في نفوسهم الأمل بالمغفرة والصفح:

﴿قُل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفُسِهم لا تقنطُوا من رحمةِ الله، انّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً ...﴾[١].

محاسبة النفس في الاحاديث

اكدت الأحاديث النبوية على محاسبة النفس كثيراً. نكتفي منها بحديثين.

قال الرسول ﷺ في احدى وصاياه لأبي ذر الغفاري:

«يا أبا ذرّ حاسِب نفسكَ قبل أن تُحاسبَ فانّهُ أهونُ لحسابِكَ غداً، وزِن نفسكَ قبل أن توزَن، وتجهَّز لِلعَرضِ الأكبَرِ يومَ تُعرضُ ولا تخفى على الله خافيةٌ ... يا أبا ذرّ لا يكونُ الرجلُ منَ المتّقين حتّى يُحاسبَ نفسهُ أشدَّ مِن مُحاسبةِ الشريكِ شريكهُ فيعلمَ من أين مطعمُهُ ومن أين مشرَبهُ ومن أين ملبسهُ أمِن حلالٍ أو من حرامٍ. يا أبا ذرّ من لم يُبالِ من اين اكتسبَ المالَ لم يُبالِ الله من أين أدخلَهُ النارَ»[٢].

وجاء في حديث آخر عنه ﷺ:

«حاسِبوا أنفُسكُم قبل أن تُحاسبُوا، وزِنُوا قبل أن توزنُوا، وتجهَّزوا لِلعرضِ الأكبرِ»[٣].

عمَّ يُسأل؟

١ ـ حبُّ أهل البيت عليهم السلام:

---

(١) الزمر / ٥٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧٩، ابواب جهاد النفس، ح ٧.

(٣) محاسبة النفس، ص ١٣.

قال رسول الله ﷺ:

«أولُ ما يُسألُ عنهُ العبدُ حبُّنا أهل البيتِ»[١].

وقال ﷺ أيضاً:

«لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتّى يُسألَ عن أربعٍ: عن عُمرهِ فيما أفناهُ، وشبابهِ فيما أبلاهُ، وعن مالهِ من أين كسبهُ وفيما أنفقهُ، وعن حُبّنا أهلَ البيتِ»[٢].

٢ ـ الصلاة:

قال ابو بصير:

«أوّلُ ما يُحاسبُ بهِ العبدُ الصلاةُ فان قُبلت قُبل ما سواها»[٣].

ومن هنا لابد للانسان ان يستثمر الثروة التي وضعها الله تعالى بين يديه أحسن استثمار، وينفقها في طاعة الله وعبادته وتطبيق تعاليمه.

قال الامام علي بن الحسين السجاد ؑ في مناجاته لله تعالى:

«... وعمِّرني ما كان عُمري بِذلةً في طاعتكَ، فاذا كان عُمري مرتعاً للشيطانِ فاقبضني اليك قبل أن يسبِقَ مقتُكَ اليَّ أو يستحكمَ غضبُكَ عليّ»[٤].

ويستمر الامام السجاد في تضرعه الى الله تعالى فيسأله ان يوفقه لمحاسبة نفسه على أعمالها:

«اللهم صلِّ على محمدٍ وآله واكفِني ما يشغلُني الاهتمامُ به واستعمِلني بما تسألُني غداً عنه واستفرِغ أيامي فيما خلقتَني لهُ ...»[٥].

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧، ص ٢٦٠، ح ٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٨، ح ١.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٦٧، ح ٣٣. والجدير بالذكر أنّ التقديم والتأخير في هذه الامور، قضية نسبية، وتعبّر عن اهمية الموضوع الذي يُسأل عنه. لمزيد من المعلومات حول ما يُسأل عنه المرء في يوم القيامة، راجع: بحار الانوار، ج ٧، ص ٢٥٣، باب محاسبة العباد، وسائر الكتب المستعرضة لهذا الموضوع.

(٤) الصحيفة السجادية، دعاء رقم ٢٠.

(٥) نفس المصدر.

طريقة المحاسبة

لابد من مراعاة بعض الامور في المحاسبة:

أ ـ لابد أن تعلم بأنّ النفس الأمارة وغريزة الانانية، تخدعان الانسان، فتصوران القبائح محاسن والمحاسن قبائح. لذلك لابد للمرء في عملية المحاسبة ان يُخلي نفسه من ذاته، اي ان يفترض نفسه شخصاً آخر. ولذلك ورد التأكيد النبوي على ان يحاسب الرجل نفسه أشدّ من محاسبة الشريك لشريكه، بتعبير آخر: عليه ان يجسّد امام عينه جميع حركاته وخواطره وأفكاره وتصرفاته، وكلماته، وينبري لاستجواب نفسه ومحاسبتها بدون اي تساهل أو لين.

قال الرسول الاكرم محمد صلى الله عليه وآله:

«لا يكونُ العبدُ مؤمناً حتى يُحاسِبَ نفسهُ أشدَّ من محاسبة الشريكِ شريكَهُ والسيّدِ عبدَهُ»[1].

وقال امير المؤمنين علي عليه السلام حينما سُئِل كيف يحاسبُ الرجلُ نفسه: «اذا أصبح ثُمَّ أمسى رجعَ الى نفسِهِ وقال: يا نفسُ انَّ هذا يومٌ مضى عليكِ لا يعودُ اليكِ أبداً، والله سائلُكِ عنهُ فيما أفنيته، فما الذي عمِلتِ فيه؟ أذكرتِ الله ام حمدتِهِ؟ أقضيتِ حقَّ أخٍ مؤمنٍ؟ أنفّسْتِ عنهُ كُربتهُ؟ أحفظتِهِ بظهرِ الغيبِ في أهلِهِ وولدِهِ؟ أحفظتِهِ بعد الموتِ في مُخلّفيهِ؟ أكففتِ عنهُ غيبةَ أخٍ مُؤمنٍ بفضلِ جاهكِ؟ أأعَنْتِ مُسلماً؟ ما الذي صنعتِ فيه؟ فيذكُرُ ما كان منهُ. فأن ذكرَ أنَّهُ جرى منهُ خيرٌ حمِدَ الله عزَّ وجلَّ وكبَّرهُ على توفيقهِ، وان ذكرَ معصيةً أو تقصيراً استغفرَ الله عزَّ وجلَّ وعزمَ على تركِ مُعاودتِهِ، ومحا ذلك عن نفسِهِ بتجديد الصلاةِ على محمدٍ وآلِهِ الطيّبينَ...»[2].

ب ـ لابد للمرء من الانطلاق في المحاسبة من الواجبات والمحرمات ثم النظر بعد ذلك في المستحبات وأعمال الخير والخدمات التي قدمها للآخرين. اي ينبغي

---

(١) محاسبة النفس، السيد ابن طاووس، ص ١٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٧٠؛ وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧٩ باختلاف يسير.

ان يرى اولاً وقبل أيّ شيء آخر هل انه عمل بالأوامر والنواهي الالهية بشكل كامل ام لا.

جـ ـ فاذا كانت نتيجة المحاسبة ـ والتي لابد ان تجري بشكل دقيق ـ ايجابية، فعلى العبد ان يشكر الله تعالى على ذلك ويسأله مزيداً من التوفيق لطاعته. اما اذا كانت النتيجة سلبية فعليه ان يسأل الله تعالى العفو والغفران، وأن يهيئ نفسه لتدارك ما فات، وازالة النواقص بالحسنات والأعمال الصالحة. وقد قال تعالى:

﴿... انّ الحسناتِ يُذهِبنَ السَّيئاتِ ...﴾[1].

وقال ايضاً:

﴿... ويدرأُون بالحسنةِ السيِّئةَ ...﴾[2].

وقال الامام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في وصية لهشام:

«يا هِشامُ! ليس مِنّا من لم يُحاسب نفسهُ في كُلِّ يومٍ فان عمِلَ حسناً استزادَ منهُ وان عمِل سيئاً استغفر الله منهُ وتاب اليه»[3].

وقال الامام الباقر عليه السلام:

«... ما أحسنَ الحسناتِ بعدَ السيئاتِ وما أقبحَ السيّئاتِ بعدَ الحسناتِ»[4].

لماذا لا نهتم بمحاسبة النفس؟

١ ـ نسيان الله والاغتراب عن الذات

لاشك في ان مصدر عدم الاهتمام بمحاسبة النفس هو نسيان الله تعالى والغفلة عنه. ولاشك ايضاً في انّ من ينس الله ينس نفسه ايضاً ويغترب عن ذاته. ومن يغترب عن ذاته وينسلخ منها، يقع مطيةً للهوى والغرائز. ومن يتبع الاهواء وتعصف به الغرائز، يبتعد عن الحقائق والقابلية على التفكير السليم، ولن يفكر

---

(١) هود / ١١٤.

(٢) الرعد / ٢٢.

(٣) تحف العقول، ط بيروت، ص ٢٩٢، ط مكتبة بصيرتي، ص ٢٩٥.

(٤) جامع أحاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٣٢٠.

حينئذ بمستقبله.

قال القرآن الكريم:

﴿ولا تكونوا كالذين نسُوا الله فأنساهُم أنفُسَهُم ...﴾(١).

وقال ايضاً:

﴿.. ولا تُطِع من أغفَلنا قلبَهُ عن ذِكرِنا واتَّبعَ هواهُ ...﴾(٢).

انّ هوى النفس وذكر الله لا يجتمعان في قلب واحد، اذ انّ الظلام لا ينسجم مع النور قط. قال تعالى: ﴿ما جعلَ الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾(٣).

٢ـ الغرور والأمل الكاذب

الغرور من العوامل المهمة التي تصدّ الانسان عن محاسبة نفسه. وقد استنكر القرآن الكريم حالة الغرور التي لدى الانسان بقوله: ﴿يا ايها الانسانُ ما غرَّك بربِّك الكريم﴾(٤).

وقد قال الامام عليعليه‌السلام عند تلاوته هذه الآية كلاماً حذّر فيه الغافلين الغاطّين في نوم الغرور والغفلة، ونبههم الى ما عليهم من واجبات ومسؤوليات، ومما قاله:

«أدحضُ مسؤولٍ حُجَّةً وأقطعُ مُغترٍّ معذِرةً لقد ابرحَ جهالةً بنفسه. يا أيُّها الانسانُ ما جرَّأكَ على ذنبِكَ، وما غرَّك بربِّك، وما أنساكَ بهلكةِ نفسِكَ؟ اما مِن دائِكَ بُلولٌ ام ليس من نومتِكَ يقظةٌ؟ أما ترحمُ من نفسِكَ ما ترحمُ من غيرِكَ؟ فلرُبَّما ترى الضّاحي من حرِّ الشمسِ فتُظِلُّهُ، أو ترى المُبتلَى بألَمٍ يُمِضُّ جسدَهُ فتبكي رحمةً لهُ! فما صبَّرك على دائِكَ وجلَّدَك على مُصابِكَ وعزّاكَ عنِ البُكاءِ على نفسِكَ وهي أعزُّ الأنفُسِ عليك! وكيفَ لا يوقِظُكَ خوفُ بياتِ نِقمةٍ وقد تورَّطتَ بمعاصيهِ مدارِجَ سطواتِهِ؟ فتداوَ مِن داءِ الفترَةِ في قلبِكَ بعزيمةٍ، ومِن كرى الغفلةِ في

(١) الحشر / ١٩.

(٢) الكهف / ٢٨.

(٣) الاحزاب / ٤.

(٤) الانفطار / ٦.

ناظِرِكَ بيقظةٍ، وكنْ لله مُطيعاً وبذِكرِهِ آنِساً... فتحرَّ مِن أمرِكَ ما يقومُ بِهِ عُذرُكَ، وتثبتُ بِهِ حُجَّتكَ، وخُذ ما يبقى لكَ مِمّا لا تبقى لهُ، وتيسَّر لِسفرِكَ، وشِم برقَ النجاةِ، وارحل مطايا التَّشميرِ»[1].

إذن أيها الاخ والاخت إعلما أن الدنيا متجر رأسماله هذا العمر الثمين، فحذار أن تبددا هذا الرأسمال القيم عبثاً وتضيعاه على ما لا ينفع في يوم الجزاء.

كما قال الامام علي الهاديعليه السلام:

«الدنيا سوقٌ ربحَ فيها قومٌ وخَسِر آخرونَ»[2].

اذن، مادام الانسان حياً فلابد له من الاستمرار في عملية المحاسبة النفسية، لأنه لو غادر هذه الدنيا، فلا عودة اليها، ولا مجال لتدارك الماضي.

قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿حتّى اذا جاء أحدَهمُ الموتُ قالَ ربِّ ارجعونِ لعلّي أعمَلُ صالحاً فيما تركتُ، كلّا إنها كلمةٌ هُوَ قائِلُها ومِن ورائِهِم برزخٌ الى يومِ يُبعثونَ﴾[3].

فالعمر الذي اعطاه الله تعالى للانسان، يُحاسَب عليه يوم القيامة بكامله ويُسأل اين امضاه وماذا فعل به. لذلك لابد له من العمل على استثماره أحسن استثمار وزجّ كل لحظة منه فيما يفيده في يوم القيامة. لابد له ان ينبري لمحاسبة نفسه في كل يوم وليلة ويعلم انه سيوقف للسؤال والاستجواب بين يدي الباريء تعالى في يوم المحشر عن كل دقيقة من عمره. ولابد ان يخسر اولئك الذين بددوا ثروة العمر بالباطل. وصدق الله العظيم حينما قال:

﴿والعصرِ انَّ الانسان لفي خُسرٍ، إلّا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ وتواصَوا بالحقِّ وتواصَوا بالصَّبرِ﴾[4].

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ٢٢٣.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٥، ص ٣٦٦.

(٣) المؤمنون / ٩٩ و ١٠٠.

(٤) سورة العصر.

ما هو الخسران؟

الخسران هو تبدد الثروة وتلفها، وهذه الثروة هي عمر الانسان الذي ينقضي جزء منه مع انقضاء كل دقيقة، ولا يعود هذا الجزء من ثروة العمر والحياة قط، ما لم تكن هذه الثروة قد أُنفقت في طريق الايمان والعمل الصالح والدفاع عن الحق والجهاد في سبيل الله. اما ساعات العمر التي تنصرم في ظل الغفلة والنسيان، فهي ساعات لا يمكن تعويضها ابداً. وأما ما بقي من العمر، فله وظائفه الخاصة وتكاليفه التي تشمله فقط والتي لو افلح الانسان في ادائها لأدى تكاليف هذا الجزء المتبقي من العمر فقط.

والحقيقة هي انّ كل هذا التأكيد على محاسبة النفس في الآيات والاحاديث، انما هو من اجل استيقاظ الناس من نوم الغفلة والتزود بما ينفعهم في الدار الاخرى التي هي دار الخلود، وادخار كل ما يفيدهم من عمل الخير مادامت الفرصة سانحة.

قال الامام علي عليه السلام:

«عبادَ الله الآنَ فاعملوا والألسُنُ مُطلقَةٌ والأبدانُ صحيحةٌ والأعضاءُ لَدُنةٌ والمُنقلَبُ فَسيحٌ والمجالُ عريضٌ قبلَ ارهاقِ الفوتِ وحُلولِ الموتِ، فحقّقُوا عليكُم نُزولهُ ولا تنتظِروا قُدومهُ»[1].

المعاتبة (انتقاد الذات)

وبعد عملية المحاسبة والنظر في الأعمال اليومية، وبعد ادانة المحاسب لنفسه في محكمة الضمير، يحل دور المعاتبة.

ينبغي للمرء في هذه المرحلة ان يعاتب نفسه ويقرّعها ويلومها على اعمالها القبيحة، فيُعدّها بهذه الطريقة لتدارك ما فات واصلاح الأخطاء واكمال النواقص.

---

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٨٧.

ولابد من الاشارة هنا الى انّ على الانسان النظر الى عيوبه والتدقيق فيها فقط خلال عملية المحاسبة والمعاتبة وان لا يلجأ الى تبرئة نفسه من خلال انتقاد الآخرين او القاء ما حصل منه على عواتقهم. فالبعض يسعى وللأسف الى تبرئة ساحته دون ان يشعر ملقياً بجريرته على غيره محاولاً التخلص بهذه الطريقة من الاثم الذي اقترفته يداه.

ما أسعد اولئك الذين أخرجوا انفسهم من وادي الغرور والأنانية والعجب، ولديهم في قرارة انفسهم واعظ يعظهم. وما أسوأ حال اولئك الذين لازالوا قابعين في وادي الغطرسة والتكبر وأصمّوا آذانهم عن سماع النصيحة وكلمة الحق، ولم يشاهدوا في انفسهم عيباً يوماً ما.

قال علي عليه السلام:

«من حاسبَ نفسَهُ وقفَ على عُيوبِهِ، وأحاطَ بذنوبِهِ، واستقالَ الذنوبَ، وأصلحَ العيوبَ»[1].

وقال عليه السلام أيضاً:

«من ذمَّ نفسهُ أصلحَها»[2].

وقال:

«من مدحَ نفسهُ ذبحَها»[3].

وورد عنه عليه السلام انه قال:

«طوبى لمن شغلَهُ عيبُهُ عن عيوبِ الناس»[4].

اي انه ينهمك في عيوبه وينشغل بها بحيث لا تبقى لديه فرصة لمشاهدة عيوب

---

(١) شرح الغرر، ط الجامعة، ج ٥، ص ٣٩٩، ح ٨٩٢٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٤٥، ح ٩١٠٣.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٤٦، ح ٩١٠٤.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١٧٦؛ وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٢٩ مع هذا الاختلاف «... عن عيوب المؤمنين» بدلاً من «... عن عيوب الناس».

الآخرين.

وينبغي ان نعلم بأنّ للمعاتبة مرحلتين: الاولى هي مرحلة انتقاد الذات، والثانية مرحلة التوبة وتلافي ما فات.

ولابد في المرحلة الاولى من الاستعانة بالنفس اللوامة[١] في الانتقاد والتوبيخ، وتُعد هذه المرحلة مرحلة الغضب والتأديب. ويلجأ أولياء الله لتأديب انفسهم ومعاقبتها بفرض بعض التكاليف والمضايقات عليها من قبيل احياء الليل، والجوع، والصيام، وقلّة الكلام، والاشتغال بالأوراد والأذكار المأثورة الواردة عن المعصومين عليهم السلام، وخدمة عباد الله عن طريق الاطعام والاكرام وغيرها، بهدف تذليل النفس المتمردة، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«من لم يَسُس نفسَهُ أضاعها»[٢].

ونُقل انّ المرحوم آية الله البروجردي كان اذا نَهرَ أحد طلبته، فانه لا يكتفي بالاعتذار منه، وانما ينذر صوم اليوم التالي أيضاً لتدارك ما وقع منه. وهذا اللون من التأديب والمجازاة للنفس ينطبق بشكل كامل مع موازين الشرع، ونشاهد ما يشبهه في السنن الواردة. غير انّ ما هو منقول عن بعض مشايخ الصوفية والعرفاء من قيامهم خلال تأديبهم لأنفسهم باحراق اجسامهم أو فرض الاعمال الشاقة والموهنة عليها، او اعتزالهم عن الناس، او اختيار الصمت المطلق طيلة العمر، فهي امور خارجة كما يبدو عن دائرة تعاليم الشرع وسيرة اولياء الوحي عليهم السلام، ولا يوجد دليل يؤيدها من كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والله العالم.

اما المرحلة الثانية والتي هي مرحلة التوبة والاستغفار وتلافي ما فات، فقد تحدثنا عنها بالتفصيل[٣].

---

(١) اشارة الى الآية الكريمة ﴿ولا أُقسِمُ بالنفسِ اللوامة﴾ (القيامة / ٢).

(٢) فهرست الغرر، ص ٣٨٩، ح ٨١٩٣.

(٣) قد يقول البعض ان مرحلة التوبيخ ومرحلة التوبة مرحلة واحدة، ولا تنفصل احداهما عن ←

(١٣)

النيّة، والاخلاص وتجنّب الشرك والرياء والنفاق

النيّة، روح العمل

لما كانت الاخلاق الاسلامية قائمة على اساس تزكية النفس وتعزيز البنية المعنوية والفضائل النفسية والقيم الانسانية العليا، لذلك تُعد النية أساساً لجميع الأعمال سواء كانت قلبية، او بدنية كالعبادات[1]. فالنية مؤثرة الى درجة انّ

← الاخرى، ولا يصح مثل هذا الفصل، لأنّ كلاً منهما لازم وملزوم. وللاجابة نقول انهما وان كانتا غير منفصلتين إلّا أنّ مرحلة التوبيخ والانتقاد مقدمة على مرحلة التوبة، لأنّ المرء ما لم ينتقد نفسه ويلُمْها، لا يتهيأ للتوبة والاستغفار. والله العالم.

(١) رغم ان بحث «النية» من المباحث الواسعة ذات الأبعاد المختلفة، لكن يمكن ان نستعرضه بايجاز كما يلي:

قلنا انّ النية اساس كل عمل ومعيار كل عبادة. ووردت النية بمعنيين في كتب الفقه والأخلاق:

أ ـ بمعنى القصد المحقق للعمل، أي لعنوان العمل وخصوصيّته.

ب ـ بمعنى الباعث والداعي على العمل.

وللتوضيح نقول انّ عناوين الاعمال وخصوصياتها نوعان:

١ ـ عناوين قصدية.

٢ ـ عناوين غير قصدية.

←

العمل غير العبادي والمباح لو جرى بقصد القربة لأخذ طابع العبادة واستحق

← العناوين القصدية هي العناوين التي لا تتحقق بدون قصد وعناية خاصة كاحترام الاشخاص، والاقتداء في صلاة الجماعة، والوضوء، والغسل، والصلاة الخ. فاحترام الأشخاص مثلاً لا يكفي فيه السلام والنهوض، فقد يراد بالسلام والقيام الاستهزاء احياناً ولا يلاحظ فيه الاحترام. فالسلام والقيام لا يعبّران عن الحب والاحترام إلّا اذا كانا بقصد الاحترام. كذلك الأمر في الاقتداء بصلاة الجماعة، اذ لا يتحقق الاقتداء بمجرد الاشتراك في الجماعة، بل لابد من وجود قصد الاقتداء بامام الجماعة. وينطبق ذلك على الوضوء والغسل والصلاة، حيث لا يكفي مجرد اداء هذه الاعمال، بل لابد من وجود القصد فيها جميعاً. اذن لابد من وجود النية ـ بمعنى قصد عنوان العبادة ـ في جميع هذه الاعمال والعبادات.

والنية بمعنى الداعي والباعث على العمل، فهي تعني على سبيل المثال ان الانسان حينما يقوم للصلاة يُثار السؤال التالي: ما هو الباعث على الصلاة؟ او حينما ينهض الطالب احتراماً لاستاذه يطرح هذا السؤال: لماذا يحترم الاستاذ وما هو الباعث على ذلك؟ وهكذا الامر بالنسبة لسائر الاعمال والعبادات.

وصفوة القول هي انّ البحث يدور حول الباعث الحقيقي الذي يدفع الانسان نحو العمل. فهل يمارس هذا العمل العبادي عن اخلاص وصدق ام انّه يقوم به انطلاقاً من الرياء والتظاهر وسائر الأهداف الدنيوية والنوازع غير الالهية؟ وهل يحترم الاستاذ بدافع من مراعاته لحرمته وعرفانه بحقوقه ام بدافع من التملق والتزلف ومحاولة اخذ درجة جيدة منه، او لكي يصطبغ على الأقل بصبغة الجماعة؟ ثم هل المساهمة في صلاة الجماعة بهدف الاطاعة لله والانصياع لأوامره والحفاظ على وحدة المسلمين، ام من اجل التظاهر، والنفاق والتجسس لا سمح الله.

وعلى ضوء هذه المقدمة لابد لنا أن نعلم بأنّ النية في كلا المعنيين، مقوّمة للاعمال والعبادات. وما ورد في كتب الفقه والاخلاق حول اعتبار النية في العبادات، المراد به كلا معنيي النية. ولذلك نرى الفقهاء يقولون: «النية هي القصد الى الفعل مع كون الداعي أمر الله تعالى» (العروة الوثقى، كتاب الطهارة)، اي انّ النية هي قصد عنوان العمل مضافاً اليها باعث اطاعة امر الله. ويجب ألا يكون لدى الانسان أي باعث على اداء الاعمال سوى طاعة الله والتقرب اليه.

والامر الآخر الجدير بالاهتمام هو ان ما قيل في مطلع البحث حول النية، يشمل كلا البعدين، اي القصد والباعث. فخلقيات المرء مؤثرة في انتخاب عناوين الاعمال وتنوعها، وفي البواعث وتنوعها ايضاً. ويصدق المثل المعروف «الاناء ينضح بما فيه» على الموردين. اي ان انتخاب مثل هذه العناوين يمثل هذه الدوافع، متأثر بملكات الانسان الخلقية. فالانسان المادي ينظر للصلاة من منظار الرياضة والتمرين الجسمي، في حين ينظر اليها المؤمن من خلال المنظار العبادي والملكوتي، ويتصور ان لكل من شرائط الصلاة وأركانها وأفعالها وأذكارها، اسراراً معنوية وماورائية.

الأجر والثواب. فلو تناول المرء الطعام او انصرف الى الاستراحة بنية انّ الطعام والاستراحة يساعدان على القيام بالأعمال العبادية وتقديم مزيد من الخدمات للناس، عُدّ ذلك عبادة وان كانت مثل هذه الاعمال، غير عبادية بذاتها.

اذن وعلى هذا الضوء يمكن القول بأنّ النية تمثل روح العمل وحقيقته. بتعبير آخر: انّ ما يحظى باهتمام الاسلام هو الجانب الباطني والحقيقي للعمل، ويعتمد عليه قبول الاعمال وعدم قبولها.

ومن الأحاديث الواردة بهذا الشأن:

قال الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«انّما الأعمالُ بالنِّيات وانّما لِكُلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُهُ الى الله ورسولِهِ فهجرتُهُ الى الله ورسولِهِ، ومن كانت هجرتُهُ لِدُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يتزوَّجُها فهجرتُهُ الى ما هاجرَ اليه»[1].

وقال ايضاً:

«نِيَّةُ المؤمنِ خيرٌ مِن عملِهِ ونيَّةُ الكافرِ شرٌّ من عملِهِ وكُلُّ عاملٍ يعملُ على نيَّتِهِ»[2].

وقال الامام علي بن الحسين عليه السلام:

«لا عملَ إلّا بنيَّةٍ»[3].

وقال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) سنن الترمذي، ج ٤، ص ١٧٩، كتاب فضائل الجهاد، الباب ١٦، ح ١٦٤٧؛ سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤١٣، كتاب الزهد، باب النية، ح ٤٢٢٧؛ مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٢٥ و٤٣؛ صحيح البخاري، ج ١، ص ١؛ منية المريد، ص ٤٢؛ صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠٣؛ الترغيب والترهيب، ج ١، ص ٥٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥؛ بحار الانوار، ج ٦٧، ص ١٨٩؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٤، ح ٢؛ منية المريد، ص ٤٣.

(٣) بحار الانوار، ج ٦٧، ص ١٨٥، ٢٠٤، ٢٠٧؛ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٣، ح ١ ـ ٣. (وروي هذا الحديث عن الرسول (ص) في ص ٣٤ ح ٩)، اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٤.

«انّما يُبعَثُ الناس على نيّاتِهِم»[١].

وقال في حديث آخر:

«يُحشرُ الناسُ على نيّاتهم»[٢].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«انَّ الله يحشُرُ الناسَ على نيّاتهِم يوم القيامةِ»[٣].

النيّة والخلود

قال الامام الصادق في اجابة حول السبب في خلود اهل النار بالنار وخلود أهل الجنة بالجنة:

«انّما خُلِّد أهلُ النارِ في النارِ لأنَّ نيّاتِهِم كانت في الدنيا أن لَو خُلِّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وانّما خُلِّد أهلُ الجنَّةِ في الجنة لأنَّ نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقَوا فيها أن يُطيعوا الله أبداً، فبالنيّاتِ خُلِّدَ هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُل كُلٌّ يعمَلُ على شاكِلَتِهِ﴾»[٤].

تأثير النيّة في الثواب والعقاب

النية مؤثرة الى درجة كبيرة جداً بحيث تعمل بمفردها على الاشتراك في ثواب او عقاب الآخرين. اي انّ مجرد التعاطف او التلاحم الشعوري الصرف مع جهة ما، ينعكس على صاحبه ثواباً او عقاباً على اساس المعسكر الذي تنتمي اليه تلك الجهة: معسكر الايمان ام معسكر الكفر.

---

(١) سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤١٤، كتاب الزهد، ح ٤٢٢٩؛ بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٤٩؛ منية المريد، ص ٤٣؛ الترغيب والترهيب، ج ١، ص ٥٧.

(٢) سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤١٤.

(٣) وسائل الشيعة، ط اسلامية، ج ١، ص ٣٤، ح ٥؛ بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٦٧، ص ٢٠٩.

(٤) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٧، ص ٢٠٩؛ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٦؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٥؛ علل الشرائع، ط النجف، ج ٢، ص ٥٢٣، الباب ٢٩٩؛ معالم الزلفى، ط حجرية، ص ٣٦ باختلاف طفيف.

لما أظفر الله علياً عليه السلام بأصحاب الجمل، قال له أحد اصحابه: وددتُ اخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال له عليه السلام: أهوَى اخيك معنا؟ فقال نعم. قال عليه السلام:

«فقَد شهِدَنا، ولقد شهِدَنا في عسكرِنا هذا أقوامٌ في أصلابِ الرجالِ، وأرحامِ النساءِ، سيرعفُ بهِمُ الزمانُ ويقوى بهِمُ الايمانُ»[1].

وأورد ابن ابي الحديد، بعد نقل هذه الخطبة، لأبي الاسود الدؤلي الكلام التالي:

«لما ظهر علي عليه السلام يوم الجمل دخل بيت المال بالبصرة في ناس من المهاجرين والانصار وأنا معهم فلما رأى كثرة ما فيه قال: غرّي غيري ـ مراراً ـ، ثم نظر الى المال وصعد فيه بصره وصوب وقال: اقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة، فقُسّم بينهم، فلا والذي بعث محمداً بالحق ما نقص درهماً ولا زاد درهماً كأنّه يعرف مبلغه ومقداره، وكان ستة آلاف الف درهم والناس اثنا عشر ألفاً»[2].

ثم كتب ابن ابي الحديد نقلاً عن حبة العرني:

«قسم علي عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم. فجاءه انسان لم يحضر الوقعة فقال: يا امير المؤمنين كنت شاهداً معك بقلبي وان غاب عنك جسمي فأعطني من الفيء شيئاً، فدفع اليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم ولم يصب من الفيء شيئاً»[3].

النيّة وبناء شخصية الانسان

مثلما انّ النية مؤثرة في كيفية العمل وقيمته، كذلك هي مؤثرة في بناء شخصية الانسان بشكل كبير، واذا ما اردنا التعرف على شخصيات الافراد ومراتبهم،

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ١، ص ٢٤٩ و ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق.

فلابد من البحث عن نياتهم ودوافعهم وأهدافهم، فهل ذلك الذي يصرخ من اجل اشباع بطنه فقط، مساو لذلك الذي يسعى لانقاذ الجميع من الجوع؟ وهل ذلك الذي ينطلق لجبهات الحرب والقتال للحصول على الغنائم، بمستوى ذلك الذي يقاتل طلباً لمرضاة الله؟ فهذه المساواة واللامساواة تعتمد على نفسيات الافراد ونواياهم وأهدافهم لا على اعمالهم، فالعمل قد يبدو واحداً، فالاثنان يصرخان، والاثنان يحاربان، ولكن الاختلاف كامن في الباعث على الصراخ والباعث على الحرب. وانطلاقاً من هذه البواعث، نجد الامام الصادق عليه السلام يقسم الناس الى ثلاث فئات من حيث العبادة:

«انّ العُبّاد ثلاثةٌ: قومٌ عبدوا الله عزَّ وجلّ خوفاً فتلك عبادةُ العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلبَ الثوابِ فتلكَ عبادةُ الأُجراء، وقومٌ عبدوا الله عزَّ وجلّ حُبّاً لهُ فتلك عبادةُ الأحرارِ وهي أفضلُ العبادة»[1].

وهكذا نلاحظ كيف انّ الامام الصادق عليه السلام يقسم العباد على أساس نواياهم وأهدافهم، حيث تتميز كل فئة عن غيرها بشخصية تنسجم مع هدفها من عبادة الله تعالى.

النية والانشدادات العقائدية والثقافية والاجتماعية والوطنية

النية فضلاً عن كونها تعبيراً عن الشخصية الفردية، تحكي ايضاً عن الانشدادات العقائدية والاجتماعية والوطنية. ونجد في المصادر الاسلامية اشارات واضحة الى هذا المعنى يمكن ايجازها في ثلاثة تعابير:

١ ـ الراضي بالعمل كفاعله.

٢ ـ الراضي بعمل قوم، فانه منهم.

---

(١) بحار الأنوار، ط بيروت، ج ٦٧، ص ٢٥٥؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٤، باب العبادة، ح ٥. وتوجد رواية بهذا المضمون ايضاً عن الامام الصادق (ع) في أمالي الصدوق (ص ٤١، ح ٤، المجلس ١٠).

٣ ـ المائل نحو قوم، فانه يشاركهم في الثواب والعقاب[١].

وهناك قول رائع للامام علي عليه السلام يجمع هذه المضامين الثلاثة وهو:

«... انّما يجمعُ الناسَ الرضا والسُّخطُ ...»[٢].

أي مع انّ كل فئة من الناس مشغولة بشغلها، وانها تختلف عن غيرها في نمط الحياة والتقاليد والثقافة، إلّا أنّ هناك شيئاً يجمع الناس ويصنع منهم مجتمعاً واحداً وشعباً واحداً، ألا وهو الرضا والسخط، اي الوحدة في العقيدة والهدف.

وتكشف هذه القاعدة عن خصوصية جماعية وتشير الى روح اجتماعية، حيث يكمل الافراد بعضهم البعض الآخر من حيث التفكير والعمل، ويلتحم بعضهم بالبعض الآخر من حيث الجوانب الاجتماعية والثقافية والوطنية. والملاك الوحيد لقياس وحدة امة من الامم من وجهة نظر الامام علي عليه السلام، هو السخط والرضا، اما المعايير الاخرى كاللغة والعنصر واللون والمحيط الجغرافي، فلابد من النظر اليها كعوامل ثانوية، اي انّ الاشتراك في الحب والبغض والذي ينبئ عن نوع من الاشتراك في الفكر والثقافة والهدف في الحياة، هو العامل الوحيد الذي يصنع من الافراد امة واحدة ويصهرهم في بوتقه واحدة، ويجعل مصيرهم واحداً، في حين تسلك العوامل الاخرى سلوكاً فرعياً وهامشياً.

ولابد من استعراض بعض النقاط الضرورية على هذا الصعيد:

١ ـ المقصود بالرضا والسخط في هذا البحث ليس الميول والأهواء السطحية والمرحلية التي تظهر لدى المرء بفعل المشاعر العابرة ثم تزول بسرعة، وانما المراد بها تلك الميول الناجمة عن نوع من التلاحم الفكري والعقائدي ووحدة المصالح.

---

(١) رغم انّ عنوان البحث في هذه الأحاديث هو الرضا والسخط وأحياناً الحب والبغض، ولكن لابد ان نعلم بأن ارتباط السخط والرضا او الحب والبغض بالنية، من قبيل ارتباط العلة بالمعلول واللازم بالملزوم، مع وجود آصرة قوية بينهما. اي ان النية تكشف عن الحب والبغض. لذلك ما يصدق على الرضا والسخط، يصدق على النية ايضاً.

(٢) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٩٢.

اي تلك الميول المنبثقة من طبيعة الانسان وهويته والتي تؤثر على سلوكه وتصرفه وتقوده نحو مواكبة الآخرين والاصطباغ بصبغتهم. وانعكاس مثل هذه التمايلات العميقة على عمل الانسان، كبير الى درجة بحيث يتلون المرء بلون الجماعة ويمارس عملها بوجود المحفز وانعدام المعرقل.

فالفرد الراضي عن عمل الآخرين، حتى وان لم يعمل مثل أعمالهم، ولم يقرر أن يشاطرهم تلك الاعمال، إلّا انّ الدافع نحو تلك الاعمال يظل لديه كامناً في اعماقه كالنار تحت الرماد، حيث تكفي شرارة واحدة للاندفاع نحو ممارسة تلك الاعمال، اي لو توفرت لديه الظروف الملائمة لعمل تلك الاعمال وبنفس ذلك الباعث.

ويمكن القول على ضوء هذا الايضاح انّ وجود مثل هذه البواعث في أعماق وجود الانسان، يعمل على صياغة شخصيته الاجتماعية (انا الاجتماعية)، ومزج شخصيته بشخصية الآخرين وفكره بفكر الآخرين، فيصبح بالنتيجة كل ما لديهم متعلقاً به، وكل ما يمارسونه محسوباً عليه. وبكلمة، يلتحم مصيره بمصيرهم، وتنعكس أعمالهم وتصرفاتهم عليه ايضاً.

٢ ـ قد يُقال انّ مثل هذه التبعية، تتعارض مع معايير العدالة من الناحية الحقوقية، اذ انّ القرآن الكريم يتحدث بصراحة قائلاً:

﴿... ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ اخرى﴾(١).

ويقول ايضاً:

﴿كُلُّ نفسٍ بما كسبَت رهينةٌ﴾(٢).

أضف الى ذلك، لا تعد النية في ارتكاب الجريمة، جريمة من وجهة نظر علم الحقوق، فكيف يُحكَم المرء بتبعات اعمال الآخرين بمجرد الرضا بها ودون ان يخطو خطوة واحدة في طريقهم؟

وللاجابة لابد من القول: صحيح انّ النية لا تعد جريمة في المعايير الحقوقية

---

(١) الاسراء / ١٥.

(٢) المدثر / ٣٨.

والقانونية، ولا يتعرض المرء للمؤاخذة القانونية على مجرد الرضا عن عمل الآخرين ولا يحاكَم عليه كمجرم او معين على الجريمة. ولكن هدفنا من اثارة هذا البحث هو الاهتمام بالانعكاسات الاخلاقية والاجتماعية التي تعكسها النية، والتي تطال الانسان على شكل آثار وضعية شاء ام أبى. فالشخص الذي يرضى بقتل انسان بريء ـ مثلاً ـ فمن الطبيعي ان يكون مشتركاً في الضمير والطبع مع القاتلين او القاتل، وان لم يشترك معهم عملياً في ذلك ولم يقصد ارتكاب مثل تلك الجريمة. فهذه التبعية القهرية في الآثار الوضعية، سنّة طبيعية أو قانون اجتماعي ولابد أن تفرض نفسها على كلّ مجتمع شاء ذلك ام لم يشأ، ولا يُستثنى منها اي فرد من افراد المجتمع، وهي اشبه بما يعرض للمجتمع من أحداث مهمة كالنصر والهزيمة، والبلاء والنعمة، والخير والجاعة، فانها احداث لا تلتقط الأفراد التقاطاً ولا تشمل فئة وتستثني اخرى، ولو افترضنا انّ فئة ما قد نجت من البلاء الذي عمّ مجتمعاً او قوماً ما، إلّا انها لن تكون بمنأى عن آثاره أبداً، اذ انّ الأضرار المالية والثقافية والمعنوية، وضياع المصادر والطاقات العلمية والاقتصادية والاجتماعية خلال الكوارث والنكبات العامة ليست بالاشياء التي تطال نتائجها السلبية فريقاً دون آخر او عدة معدودة من افراد المجتمع، وهذه حقيقة عبّر عنها القرآن قائلاً:

﴿واتقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظلموا مِنكُم خاصةً ...﴾[1].

فمن الممكن ان يهرب الانسان من يد العدالة بمختلف السبل كالانكار وعدم وجود الادلة الكافية التي تثبت الجريمة، او من خلال العفو الذي يحصل عليه، لكنه لا يستطيع الفرار من سنن الخلقة، اذ:

«ولا يمكنُ الفِرارُ من حكومتِكَ».

وقال الله تعالى في قرآنه الكريم:

﴿وليخشَ الذين لو تركُوا مِن خلفِهِم ذُرِّيةً ضِعافاً خافُوا عليهِم ...﴾[2].

---

(١) الأنفال / ٢٥.

(٢) النساء / ٩.

وهكذا نلاحظ كيف أن جفاء الآباء في الماضي يطال أبناءهم في المستقبل، في حين لا تقصير لهؤلاء الأبناء، فهذا هو ناموس الخلقة وسنّة الخلق التي تبلورت في نظام الوجود على شكل سنن ثابتة لا تتغير وتختلف عن الأنظمة والقوانين المتداولة في المحاكم، ويتميز مفهوم الحق والعدل فيها بمعنى أوسع بكثير مما هو عليه في هذه المحاكم[1].

٣ ـ العمل الذي يُرضى به نوعان: فردي، وجماعي. والعمل الفردي هو العمل الذي يتدخل فيه الفرد فقط ولا تأثير لارادة الناس عليه ايجاباً او سلباً. اما العمل الجماعي فهو العمل الذي يتحقق بارادة المجتمع وان كان المباشر له شخصاً واحداً في بعض الاحيان. فعقر ناقة صالح على سبيل المثال، عمل قام به شخص واحد، لكن الله تعالى نسبه الى قوم ثمود بأسرهم لانهم قد اتفقت ارادتهم عليه. قال تعالى:

﴿... فعقروها، فدمدمَ عليهِم ربُّهُم بِذنبِهِم فسوّاها﴾[2].

وهكذا نرى انّ التبعية في العمل الاجتماعي لا تتوقف على الحضور الفيزياوي والتعاون العملي، ويكفي فيها الاشتراك الفكري والرضا القلبي، لأنّ العامل المباشر قد قام بعمله نيابةً عن الجماعة وبدعم معنوي منهم. اي انه نفَّذ مآربهم في حقيقة الأمر وحقّقَ ما كانوا يطمحون اليه. فلولاهم لما كان بامكان الفرد الواحد ان يرتكب مثل هذه الجريمة. فالامكانات والدعم الاجتماعي هي التي دفعت المنفِّذ للقيام بمثل هذا العمل، ولذلك يُعدّ عمله اجتماعياً وان كان منفذّه المباشر فرداً واحداً.

وليس مهماً في تلك المشاركة، المقارنة الزمانية والمكانية، من وجهة نظر الثقافة الاسلامية. أي ان القادمين يساوون الماضين في هذه التبعية الاجتماعية،

---

(١) لمزيد من المعلومات راجع: كتابات العلامة الطباطبائي، وكتابي الانسان والمصير، والعدل الالهي للشهيد المطهري.

(٢) الشمس / ١٤.

وبـذلك يـدفع الجـيـل اللاحـق ضريـبة اعـمال الجـيل السـابق في التـنافسات والتعارضات الاجتماعية. لماذا؟ لأنهم مشتركون معهم في الفكر والهدف، وراضون بأعمالهم وسلوكهم. اي انهم يشتركون معهم في الحب والبغض.

وانطلاقاً من ذلك، تتضح فلسفة التبعية في الاعمال الجماعية وتشير اغلب الآيات والأحاديث الى هذه المنحاة ايضاً، اي انها تعني التبعية في العمل الجماعي، لا الفردي، فقد ورد:

«مَن أحبَّ عملَ قومٍ أشركَ في عملهم»[1].

أو:

«الراضي بفعل قومٍ كالداخلِ فيهِ معهُم»[2].

فهذان الحديثان، يتحدثان عن عمل القوم، اي العمل الجماعي، وبذلك يتضح لنا من خلال كل ما سبق المراد بالتبعية في الاعمال الجماعية الى حد ما. اما على صعيد الأعمال الفردية، فالموضوع معقد نوعاً ما وذلك لأننا حتى لو افترضنا عدم تأثير رضا او عدم رضا الآخرين على العمل الفردي، فكيف يمكن أن يُعدّ مجرد الاعلان عن الرضا بعمل الفرد بمثابة ارتكاب لذلك العمل الذي قام به؟

ويمكن استخراج الاجابة على هذا السؤال من الاستعراض السابق، لأنّ القاعدة الاساسية في التبعية هي الرضا والسخط عن العمل، وهو ما يوحي بنوع من الآصرة النفسية والثقافية بين الفاعل والراضي، وليس هناك فرق على هـذا الصعيد بين العملين الفردي والجماعي. اي مثلما تكشف هذه العلاقة على الصعيد الجماعي عن نوع من الوحدة الفكرية والثقافية، فانها على هذا المنوال ايضاً على الصعيد الفردي، والفارق الوحيد بينهما هو انّ دائرة التبعية في العمل الفردي اكثر تحديداً وأضيق من دائرة التبعية في العمل الجماعي.

ولاشك في انّ الرضا والسخط عن عمل ما بمعنى قبول وعدم قبول انعكاسات

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٢٩.

(٢) فهرست الغرر، ص ١٤٠، ح ٢٠٨٥.

ذلك العمل وآثاره. ولا شك في انّ الثواب او العقاب المترتب على العمل، أحد آثار العمل. وهذا يعني انّ الرضا عن العمل لابد وان يعني الرضا عن ثوابه والسخط عن العمل بمعنى السخط على عقابه، وان لم يشعر الراضي او الساخط في ضميره الواعي بمثل هذا الشعور، غير انّ ضمير الانسان اوسع من ذلك بكثير ولا يتلخص في هذه الحدود.

٤ ـ لاشك في انّ للنية انعكاسات وافرازات نفسية وأخلاقية. فكيف لا يؤثر الحب والبغض والبواعث الحميدة والقبيحة على البناء النفسي والمعنوي للانسان؟ وكيف لا يمكن التكهن من خلالها بشقاء الانسان او سعادته؟

وقد اجاب الامام الصادقعليه السلام رجلاً سأله: هل الحب والبغض من الايمان؟ فقال:

«وهل الايمانُ إلّا الحبُّ والبغض؟!»[١].

ومع ان هذا الحديث في الحب والبغض، غير انّ النية والحب والبغض ـ وكما ذكرنا من قبل ـ عناصر متشابكة ولا ينفصل أحدها عن الآخر، وتشترك في الاحكام والآثار. فالنية كاشفة عن الحب والبغض، والحب والبغض كاشفان عن الايمان، والايمان كاشف عن الفكر، وفكر الانسان كاشف عن هويته، والهوية هي الصورة الباطنية او الفصل المميز للانسان. وهذا يعني أنّ النية احدى مكونات الهوية.

٥ ـ قال علماء الاصول في مضمار التجرؤ: انّ نية المعصية التي لا تنتهي الى العمل بالمعصية معفوّ عنها ولا تترتب عليها سيئة. وقد اورد اصحاب هذه الفكرة بعض الاحاديث للبرهنة على ما ذهبوا اليه، موجودة في كتب الاصول ومصادر الحديث الرئيسة[٢].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٥، ح ٥.

(٢) راجع: اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٢٨، باب من هم بالحسنة او السيئة؛ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤١.

سؤال:

هل يتعارض هذا الرأي مع ما سبق ان اوردناه وهو انّ معيار الحسن والقبح والثواب والعقاب يتمثل في النية، وأن مجرد التمايل القلبي نحو عمل الآخرين يُشرِك المرء في ثوابهم أو عقابهم؟

وللاجابة على هذا السؤال، لابد من استعراض بعض ما ذهب اليه المفكرون المسلمون:

أ ـ التجرؤ (نيّة المعصية) نوعان: الاول ان يشعر صاحبه بالندم قبل ارتكاب العمل، وينصرف عنه تحت تأثير العوامل النفسية وباختياره وارادته؛ والثاني ان يسير صاحبه الى مشارف العمل، غير انّ بعض العوامل الخارجية تحول دون ارتكابه له. فالنوع الاول مشمول بالعفو، اذ انّ الندم والانصراف دليل على طيب الطينة وصفاء الروح، ومثل هذا الشخص جدير بالعفو؛ اما النوع الثاني فغير جدير بالعفو لأنّ الشخص الذي ينطلق نحو المعصية الى ابوابها تحت تأثير روح التمرد والوقاحة وعصيان وليّ نعمته ـ اي الله تعالى ـ جدير بالمذمة والعقوبة. فشخص كهذا لم ينصرف بارادته عن المعصية وانما العوامل الخارجية هي التي حالت دون ارتكابه لها.

ب ـ التجرؤ قد يكون مجرداً، وقد ينتهي الى العمل في بعض الاحيان، اي يرافقه نوع من الفعل المناسب ولو على سبيل الاعداد للعمل. والنوع الاول لا يُسجل في ملف الانسان كخطيئة، اما النوع الثاني فهو حرام ويستوجب صاحبه الذم والعقاب، لأنّ النية حينما يرافقها العمل تدل على الطغيان والتمرد، على العكس من النوع الاول ـ اي النية المجردة ـ فانها تبقى مجرد نية وقصد، وغير مصحوبة بما يؤيد تمرد صاحبها وخروجه على ربّه.

جـ ـ واعتقد انّ التجرؤ او نية المعصية من الممكن تقسيمها الى قسمين: نية متزعزعة (زائلة)، ونية ثابتة.

النية المتزعزعة هي النية التي تظهر على لوحة النفس بفعل طغيان الغرائز،

وليست لها جذور عقائدية وأخلاقية. اي انهـا تتبلور بتأثير الاهداف والأهواء الآنية والهيجانات العاطفية السريعة، إلّا انها سريعاً ما تختفي بـعد ظـهور ردود الفعل المناسبة فتحل محلها البواعث الايجابية الخيّرة، كما لو نوى أحدهم الافطار في شهر رمضان حين رؤيته للطعام اللذيذ، ثم انصرف عن فكرته هذه سريعاً.

والنية الثابتة تنبثق من أعماق الروح وتنشأ من عقيدة المرء وملكاته الخلقية. وهي نية تعبّر ولاشك عن هوية الانسان وشخصيته الحقيقية والتي عـبَّر عـنها القرآن الكريم بـ «الشاكلة»، فقال:

﴿قُل كلٌّ يعملُ على شاكِلَتِهِ﴾[1].

فما ان النية المتزعزعة، انعكاس للغرائز ولا تعبّر عن التجرؤ والتمرد وسـوء النيّة، فانها قابلة للعفو والصفح. ويبدو ان الاحاديث الواردة بهذا الشأن، تقصد هذا النوع من النية. ويؤيد ذلك الاحاديث التي تفسّر قوله تعالى: ﴿الذين يجتنبونَ كبائِرَ الاثمِ والفواحِش إلّا اللَّممَ انَّ ربَّكَ واسعُ المغفرة ...﴾[2] والواردة عن الامام الصادق عليه السلام.

وورد في هذه الأحاديث ان المقصود باللمم هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة[3].

وعلى ضوء هذه التفاسير، تُعدّ مثل هذه المعاصي ـ اي التي لا تدل على عناد او تمرد فاعلها ـ مشمولة بالرحمة الالهية ومغفرة الباريُ تعالى. وحينما يُشمل عمل كهذا بالعفو، فمن الأولى ان تُشمل نيته بالعفو أيضاً، لأنّ كليهما خال مـن روح التمرد.

---

(١) الاسراء / ٨٤.

وورد عن الامام الصادق (ع) ان المراد بالشاكلة، «النية». (اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٥).

(٢) النجم / ٣٢.

(٣) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٤٥؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٢، باب اللمم، ح ٣ و٥. وورد عدد من الأحاديث في هذا الباب عن الامام الصادق، كان «اللمم» في جميعها بمعنى المعصية على سـبيل الاتفاق او بمعنى قصد المعصية.

اما النية الثابتة، فهي نية عادةً ما تنتهي بالعمل، اما اذا لم تنته بالعمل، فلوجود عوائق وعراقيل خارجية لا لأنّ صاحبها لم يلجأ الى العمل باختياره. ولذلك تُعد هذه النية معصية وتوجب العقوبة والمؤاخذة لأنها مصحوبة بالطغيان والتمرد.

وعلى ضوء هذا التقسيم للنية، يبدو انّ المراد بالنية في الحديث «نيّةُ المؤمن خيرٌ من عمله ونيّة الكافر شرٌّ من عمله»[1]، هذا النوع الثاني، اي النية الثابتة، اي تلك النية المنبثقة في المؤمن من روح الايمان، وفي الكافر من طبيعة الكفر والالحاد. بتعبير آخر: نيّة المؤمن العميقة المتجذّرة أفضل من عمله، ونية الكافر المتأصلة أسوأ من عمله، لأنّ وجود هذا النوع من النية لدى المؤمن دلالة على النورانية والصدق والايمان، ولدى الكافر دلالة على العناد والكفر والعتوّ.

وانطلاقاً من ذلك، يتضح لنا موقع الحب والبغض في حديثي «مَن أحبَّ عمل قوم أُشرك في عملهم» و«الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم». أي انّ المقصود بالحب والبغض والرضا والسخط ليس المشاعر العابرة، بل تلك الحالات النفسية المنبعثة من اعماق الروح والمزيجة بهوية المرء وشخصيته.

وعلى هذا الأساس، من يرضى بعمل قوم ويفرح به، انما يعبّر عن تجانسه وتشاكله معهم، ولا جرَم في مساهمته معهم في الآثار الوضعية.

٦ ـ رغم انّ العمل مؤثر في المعايير الأخلاقية، إلّا انّ الاصالة من نصيب النية والباعث، على العكس من المعايير الحقوقية والقانونية التي تنظر الى النية كأمر جانبي والى العمل كأمر اصيل وجوهري[2].

فلو قتل أحدهم شخصاً بدافع العداء الشخصي، ثم ظهر انّ القتيل كان مهدور الدم، فلا قصاص ولا دية على القاتل من وجهة النظر القانونية، ولكن هذا القاتل جدير باللوم والعقوبة من وجهة النظر الاخلاقية لأنّ ما قام به وان كان غير قبيح

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٤.

(٢) تلعب النية دوراً جانبياً في القضايا الحقوقية اذا لم تنته بعمل، إلّا انها تلعب دوراً اساسياً في كثير من الأحيان اذا انتهت إلى عمل.

من حيث الفعل، إلّا انه قبيح من حيث الفاعل، ويعد قيمة مضادة، ويستحق القائم بهذا العمل التأنيب والادانة والتأديب. وربما يعود اعتقاد بعض الفقهاء باستحقاق مثل هذا الشخص للتعزير والتأديب، الى الجانب الاخلاقي والتربوي، لا الى الجانب الحقوقي والقانوني.

انّ هذا النوع من الاختلاط بين القضايا الحقوقية والأخلاقية في الفقه الاسلامي، امر طبيعي، لأنّ الحقوق الاسلامية غير قابلة للتجزئة عن الاخلاق، وسبق ان قلنا بأنّ التجزئة التي حدثت بين العلوم، انما أُريد بها التنظيم وتسهيل المراجعة، لا لأنها منفصلة بعضها عن بعض في مقام الاجتهاد والعمل.

وبهذا التوضيح، يتحدد موقع كل من القضايا الاخلاقية والحقوقية، ويتبين انّ عدم المسؤولية من المنظار الحقوقي لا يدل على عدمها ايضاً من المنظار الاخلاقي. كما يتضح لنا ايضاً انّ الحرمة والوجوب الاخلاقيين، ليسا سوى الحرمة والوجوب الشرعيين[1]. والشيء الوحيد الذي يميّز الوجوب والحرمة الاخلاقيين عن الوجوب والحرمة الفقهيين والحقوقيين هو حيثية الحكم لا أصله.

اذن فالحرام الاخلاقي، حرام أخلاقياً حتى وان كان غير حرام من وجهة النظر الحقوقية. ولاشك في انّ للحرمة والوجوب الاخلاقيين آثاراً متناسبة معهما، مثلما انّ للحرمة والوجوب الحقوقيين آثاراً متناسبة معهما.

لذلك، من يرض بقتل المظلوم، فهو شريك في قتله من الناحية الاخلاقية، ومسؤول امام الله تعالى، وإنْ كان لا يُعدّ شريكاً في القتل حقوقياً وقانونياً. وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة أروع تعبير:

﴿... وإنْ تُبدوا ما في أنفُسِكُم أو تُخفُوه يُحاسِبْكُم بهِ الله ...﴾[2].

---

(١) الجدير بالذكر انّ التخلف عن الواجبات الاخلاقية ليس بمثابة ترك الامور المستحبة، كما هو معروف في السنة، إلّا اذا كان الموضوع من المستحبات الاخلاقية، اذ يوجد في الاخلاق واجب ومستحب كما هو الحال في الفقه.

(٢) البقرة / ٢٨٤.

وهكذا تُعد النوازع والبواعث والنوايا جزءاً من أعمال الانسان، ولابد وأن يُحاسَب عليها بين يدي البارئ تعالى. اما ما ورد في بعض الاحاديث من انّ للراضي ذنباً وللفاعل ذنبين، فيبدو ان المراد بذلك هو انّ معصية الفاعل ضعف معصية الراضي، لأنّ الفاعل يمتلك الرضا فضلاً عن الفعل، بينما ليس لدى الراضي سوى الرضا القلبي فقط، ولذلك لابد للفاعل ان يتحمل عقوبة اشد.

وبعد هذه الايضاحات كلها، لابد من استعراض بعض الآيات والأحاديث الخاصة بهذا الموضوع.

نماذج من القرآن الكريم

آيات في بني اسرائيل:

قال تعالى في بني اسرائيل:

﴿وإذ أنجيناكُم من آلِ فرعونَ يسومونكُم سُوءَ العذابِ يُذبّحُونَ أبناءَكُم ويستحيونَ نساءَكُم وفي ذلِكُم بلاءٌ من ربِّكُم عظيم﴾[1].

وقال ايضاً:

﴿وإذ فرقنا بِكُم البحرَ فأنجيناكُم وأغرَقنا آل فِرعونَ وأنتُم تنظُرونَ﴾[2].

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿وإذ واعدنا موسى أربعينَ ليلةً ثُمَّ اتخذتُمُ العِجلَ من بعدِهِ وأنتُم ظالِمونَ﴾[3].

وقال سبحانه كذلك:

﴿لقد سمِعَ الله قولَ الذينَ قالوا انَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ سنكتُبُ ما قالوا وقتلَهُم الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ونقولُ ذُوقُوا عذابَ الحريقِ﴾[4].

---

(١) البقرة / ٤٩.
(٢) البقرة / ٥٠.
(٣) البقرة / ٥١.
(٤) آل عمران / ١٨١.

وقال:

﴿الذين قالوا انّ الله عهِدَ الينا ألا نُؤمِنَ لرسولٍ حتّى يأتيَنا بِقُربانٍ تأكُلُهُ النارُ قُل قد جاءَكُم رسُلٌ من قبلي بالبيِّناتِ وبالَّذي قلتُم فلِمَ قتلتُموهُم ان كُنتُم صادقينَ﴾[1].

سؤال:

كيف تعرضت هذه الآيات لبني اسرائيل الذين عاصروا رسول الله ﷺ، بينما لم يرتكب اليهود المعاصرون له مثل هذه الاعمال، ولم يكونوا لا موضوعاً ولا مصداقاً للأحداث التي ساقتها هذه الآيات، لأنّ النكبات، وأعمال القتل والسلب وألوان الاذى والاضطهاد التي طالت الأنبياء السابقين[2]، انما جرت على يد أسلافهم وأجدادهم، اذن لماذا يوجّه الله تعالى خطابه الى هؤلاء ويلومهم على تلك الأعمال؟

الاجابة:

الاجابة على هذا السؤال هي: بما أنّ يهود عصر الرسول ﷺ كانوا راضين عن اعمال اسلافهم وأجدادهم ويعبرون عن سرورهم بأعمالهم، فهم شركاء لهم في المسؤولية والذنب.

قال الامام الصادق عليه السلام بهذا الشأن:

«كان بين القائلينَ والقاتلينَ خمسمائة عام فألزمهم الله القتلَ برضاهُم بما فعلوا»[3].

---

(١) آل عمران / ١٨٣.

(٢) حول قتل بني اسرائيل لبعض الانبياء كيحيى وزكريا، راجع التفاسير التالية: تفسير الصافي، ج ١، ص ٣١٨؛ تفسير الميزان، ج ٤، ص ٨٦ فما بعد؛ تفسير الفخر الرازي، ط جديدة، ج ٩، ص ١٢٢؛ تفسير جوامع الجامع، ط تبريز، ص ٧٦؛ تفسير مجمع البيان، ط بيروت، ج ٢، ص ٥٤٩؛ تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٩٤؛ التفسير الأصفى، ص ٩٨.

(٣) تفسير الصافي، ط اسلامية، ١٣٩٣ هـ، ج ١، ص ٣١٨؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٢٨؛ تفسير ←

آيات في قوم ثمود:

قوم ثمود هم النموذج الآخر الذي اشار اليه القرآن الكريم على صعيد الرضا القلبي بعمل الآخرين ، وتأثير النية والرضا القلبي على سعادته أو شقائه وعلى عزته او ذلته .

قال القرآن الكريم:

﴿والى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قومِ اعبُدوا الله ما لكُم من الهٍ غيرهُ ...﴾(١) .

وحينما رأى معارضوه ذلك انبروا لتكذيبه قائلين:

﴿... أتنهانا أن نعبُدَ ما يعبُدُ آباؤنا وانَّنا لفي شَكٍّ مما تدعُونا اليه مُريبٍ﴾(٢) .

ولما رأى نبي الله صالح انّ قومه ليس لم يصدقوه فحسب ، وانما كذّبوه أيضاً ، عقد العزم على دعوتهم الى الله عن طريق المعجزة ، والبرهنة على صدقه وصدق دعوته من خلالها ايضاً . لذلك قال لهم:

﴿ويا قومِ هذه ناقةُ الله لكُم آيةً فذروها تأكُلْ في أرضِ اللهِ ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخُذَكُم عذابٌ قريبٌ﴾(٣) .

غير ان كل ذلك لم يترك أدنى اثر على قوم ثمود ، فقرر بعض المتمردين منهم عقر الناقة بعد أن رأوا في وجود نبي الله صالح عقبة تعترض مصالحهم وأهدافهم

← الميزان ، ج ٤ ، ص ٨٩؛ وسائل الشيعة ، ج ١١ ، ص ٤١٢ .

حول هذا الموضوع راجع ايضاً: تفسير الجلالين ، ط بيروت ، ص ٩٨؛ تفسير روح المعاني ، ط بيروت ، ج ٤ ، ص ١٤٤؛ التفسير الأصفى للفيض الكاشاني ، ص ٩٨؛ تفسير البيان ، ط النجف ، ص ٦٨؛ تفسير الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٤٦؛ مجمع البيان ، ط صيدا ، ج ١ ، ص ٥٤٨ . وتحدث الطبري في تفسيره عن مؤاخذة الأبناء بأعمال آبائهم أحياناً في صفحات عديدة من تفسيره ، راجع: ج ٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٤٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٥٣ ، ٤٠٩ .

تجدر الاشارة الى انّ الفخر الرازي ذكر بأنه كان بين يهود عصر الرسول (ص) واليهود الذين قتلوا الانبياء سبعمائة عام . (التفسير الكبير ، ط حديثة ، ج ١٠ ، ص ١١٩) .

(١) هود / ٦١ .

(٢) هود / ٦٢ .

(٣) هود / ٦٤ .

الشريرة. وقاموا بتنفيذ مخططهم الرهيب بالفعل، فعقروا الناقة!

وتحدث القرآن الكريم عن ذلك قائلاً:

﴿فعقروا الناقةَ وعتَوا عن أمرِ ربِّهِم وقالوا يا صالحُ ائتِنا بما تعِدُنا ان كُنتَ مِنَ المُرسَلين﴾[١].

وحينما رأى نبي الله صالح ما فعلوا بالناقة قال لهم:

﴿... تمتَّعُوا في دارِكُم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوبٍ﴾[٢].

وشعر قومه بالندم، وماذا بامكان الندم أن يفعل؟:

﴿فعقَروها فأصبحوا نادمينَ، فأخذَهُم العذابُ انَّ في ذلك لآيةً وما كان اكثرُهُم مُؤمنينَ﴾[٣].

لقد نزل غضب الله عليهم جزاءً بما عملوا:

﴿فأخذتهُمُ الرَّجفةُ فأصبحَوا في دارِهِم جاثِمينَ﴾[٤].

وقال تعالى في آية اخرى:

﴿وأخذَ الذينَ ظلمُوا الصَّيحةُ فأصبحوا في ديارِهِم جاثمينَ﴾[٥].

وهكذا نلاحظ كيف ان الله تعالى قد عدّ جميع قوم ثمود مشتركين في جريمة عقر الناقة وعاقبهم جميعاً عليها رغم انّ الذي قام بالجريمة شخص واحد:

﴿... وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبصِرَةً فظلَموا بِها ...﴾[٦].

مع انّ الذي عقر الناقة رجل واحد من هؤلاء القوم، إلّا انّ عذاب الله اخذهم جميعاً ودمّرهم جميعاً لأنهم كانوا راضين بتلك الفعلة التي فعلها والمعصية الكبيرة التي اقترفها:

---

(١) الاعراف / ٧٧.

(٢) هود / ٦٥.

(٣) الشعراء / ١٥٧ و١٥٨.

(٤) الأعراف / ٧٨.

(٥) هود / ٦٧.

(٦) الاسراء / ٥٩.

﴿كأن لم يغنَوا فيها ألا انَّ ثمودَ كفروا ربَّهُم ألا بُعداً لثمودَ﴾[١].

وبذلك استأصل الله جذورهم ومحاهم من على وجه الأرض:

﴿فقُطِعَ دابِرُ الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمينَ﴾[٢].

نماذج من الأحاديث

نرى في الأحاديث التي وصلت الى ايدينا عن ائمة الدين اهتماماً كبيراً في هذه القضية، نشير الى عدد منها:

أشار الامام عليّ عليه السلام ضمن احدى خطبه الى قصة ناقة ثمود فقال:

«... أيها الناسُ انّما يجمعُ الناسَ الرِضا والسُّخطُ، وانّما عقرَ ناقةَ ثمودَ رجلٌ واحدٌ فعمَّهمُ الله بالعذابِ لمّا عمّوهُ بالرضا. فقال سبحانه ﴿فعقروها فأصبحوا نادمينَ﴾ فما كان إلّا أن حارَتْ أرضُهُم بالخسفَةِ خُوارَ السِّكَّةِ المُحماةِ في الأرضِ الخوّارةِ ...»[٣].

سأل أحدهم ويدعى عبد السلام بن صالح الهروي الامام علي بن موسى الرضا عن رأيه في قول الامام الصادق بأنّ القائم حينما يخرج يقتل ذراري قتلة الامام الحسين عليه السلام. فأكد له الامام الرضا عليه السلام ذلك. فسأله عبد السلام اذن ما معنى الآية الكريمة ﴿ولا تزرُ وازِرَةٌ وِزرَ اخرى﴾[٤]، فأجابه الامام عليه السلام قائلاً:

«صدق الله في جميع أقوالِهِ، ولكن ذراري قتلَةِ الحسين عليه السلام يرضُونَ بفعالِ آبائهم ويفتخِرونَ بها، ومَن رضيَ شيئاً كان كمن أتاهُ، ولو أنَّ رجُلاً قُتِلَ بالمشرِقِ فرَضيَ بِقتلهِ رجُلٌ بالمغربِ لكان الراضي عند الله عزَّ وجلَّ شريكَ القاتلِ، وانّما

---

(١) هود / ٦٨.

(٢) الانعام / ٤٥.

وردت قصة قوم ثمود وناقة صالح مفصلةً في روضة الكافي، ص ١٨٥ فما بعد.

(٣) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٩٢.

(٤) الانعام / ١٦٤؛ فاطر / ١٨؛ الاسراء / ١٥؛ الزمر / ٧؛ النجم / ٣٨.

يقتُلهم القائمُ عليه السلام اذا خرجَ لرِضاهُم بِفعلِ آبائهم»[١].

وورد عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله:

«من أحبَّ عمل قومٍ أشرك في عملهم»[٢].

كما قال صلى الله عليه وآله:

«من شهِدَ أمراً فكَرِهَهُ كان كمَن غابَ عنهُ، ومن غابَ عن أمرٍ فرضِيَهُ كان كمَن شهِدَهُ»[٣].

وقال امير المؤمنين علي عليه السلام:

«الراضي بِفعلِ قومٍ كالداخلِ معهم فيه، وعلى كلِّ داخلٍ في باطلٍ اثمان: اثمُ العملِ به، واثمُ الرضا بِهِ»[٤].

نيّة المؤمن ونيّة الكافر

ورد في الاحاديث الاسلامية:

«نيّة المؤمن خير من عمله ونيّة الكافر شرّ من عمله»[٥].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٩؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٦٨؛ عيون أخبار الرضا، ط النجف، ج ١، ص ٢١٢.
من الجدير بالذكر انّ القضايا المتعلقة بالامام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وطبيعة حكمه لا تنطبق مع الأساليب العادية المتداولة. ولذلك يمكن القول انّ هذه الامور ومثل غيرها، من الامتيازات الخاصة بحكومته العالمية.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٢٩. هذه العبارة جزء من الحديث المعروف الذي نقله عطية الكوفي لجابر بن عبد الله الانصاري حين قدومه الى كربلاء لزيارة قبر الامام الحسين (ع). تفصيل الحديث في سفينة البحار.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٩؛ تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٩٤، ذيل الآية ١٨٣، سورة آل عمران.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١١، ورد ايضاً في شرح الغرر (ج ٢، ص ١٣١، ح ٢٠٨٥) باختلاف يسير.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٤.

ولابد أن يُثار السؤال التالي:

كيف يمكن ان تكون النية افضل او أسوأ من العمل في حين انّ النية ليست سوى مقدمة للعمل، والعمل هو المطلوب الاساسي الذي ترافقه الآثار السيئة او الحسنة؟ واذا كانت النية افضل من العمل فبامكاننا أن ننوي في اليوم الف نية جهاد واستشهاد او الف نية ايثار وانفاق وألف نية إحياء وتهجد، ولا داعي للعمل، لأنّ النية خير من العمل وأفضل!!

الاجابة:

اولاً ـ المراد بالنية هو العزم الجاد والارادة الحقيقية لانجاز العمل وليس التصور والخيال الذهني. فهناك فارق كبير بين النية والتصور. فقد يتصور المرء الصلاة والصيام والحج وغيرها ويجسّدها أمام عينه دون ان يتخذ قراراً بالصلاة او الصيام، وقد يتصور صلاة الليل والجبهة والجهاد دون ان يعد نفسه لأداء صلاة الليل او الذهاب الى جبهات الجهاد. فلاشك انها ليست سوى تصورات خيالية لا تحظى بأية قيمة ولا تتمتع بأي اعتبار، ولا يكافئ الله تعالى أصحابها عليها.

فالمعيار في الثواب والعقاب هو النية الصادقة والدافع الجاد، فهما اللذان يقودان المرء نحو العمل. والله تعالى لا يثمّن الارادة إلّا اذا كانت مصحوبة بالسعي:

﴿ومَن أرادَ الآخرةَ وسعى لها سعيَها وهوَ مؤمنٌ فأولئكَ كان سعيُهُم مشكوراً﴾[1].

وهكذا نلاحظ كيف ان الله تعالى لم يجعل الارادة وحدها معياراً وانما أرفق بها الايمان والعمل الصالح.

ثانياً ـ ان النية الجادة، تواجه اثناء العمل أحد انعكاسين: قد تواجه النجاح، وقد تواجه الفشل. اي انّ المرء لا ينجح دائماً في تحويل نيته الى واقع عملي، إلّا انّ نيته الخيرة تبقى ذات قيمة ومهمة في الحالتين اذا اتصفت بطابع الجد والصدق، وهذه هي النية التي وُصفت بأنها خير من العمل.

---

(١) الاسراء / ١٩.

ثالثاً ـ لابد ان نعلم بأنّ نية المؤمن لا تكون ذات قيمة إلّا اذا اقترنت بالاخلاص. بتعبير آخر: الحُسن الفاعلي أهم من الحُسن الفعلي، لأنّ للحُسن الفاعلي خاصيتين: يُحسن العمل، ويُحسن العامل، على العكس من الحُسن الفعلي الذي لا يؤثر على العامل. اي لو قام احدهم بعمل حسن دون أن يتوفر لديه الاخلاص فلا تأثير لهذا العمل على العامل. بتعبير آخر: لو أنجز احدهم عملاً خيّراً دون ان يكون مخلصاً فيه، فلا تنعكس منه أية فائدة عليه لعدم توفر النية المخلصة، ولذلك ورد في الآية الكريمة:

﴿ومن أرادَ الآخرةَ وسعى لها سعيَها وهُو مؤمنٌ ...﴾[١].

وقال الرسول الاكرمﷺ:

«من سأل الله الشهادةَ بصدقٍ من قلبهِ بلّغَهُ الله منازِلَ الشهداءِ وان مات على فراشهِ»[٢].

وقال الامام عليعليه السلام:

«... وانَّ الله سبحانَهُ يُدخِلُ بصدقِ النيّةِ والسريرةِ الصالحةِ من يشاءُ مِن عبادهِ الجنَّةَ»[٣].

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«انَّ العبدَ المؤمنَ الفقيرَ ليقولُ: يا ربِّ ارزُقني حتّى أفعلَ كذا وكذا منَ البرِّ ووجوهِ الخيرِ، فاذا علِمَ الله عزَّ وجلَّ ذلك مِنهُ بصدقِ نيّةٍ كتبَ الله لهُ مِن الأجرِ مِثلَ ما يكتبُ لهُ لو عمِلَهُ، انَّ الله واسعٌ كريمٌ»[٤].

---

(١) الاسراء / ١٩.

(٢) صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠٣؛ سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ٥٣٩، ح ٢٧٩٧، ورد في سنن الترمذي (ط بيروت، ج ٤، ص ١٨٣، ح ١٦٥٤) حديث عن الرسول (ص) يقول:
من سأل الله الشهادة في سبيله صادقاً أعطاه الله أجرَ الشهادة.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٤٢.

(٤) اصول الكافي، ط اسلامية، ج ٢، ص ٦٩؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٢٨؛ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥.

وحينما تجتمع هذه الشروط والمواصفات في النية، نفهم لماذا تُعَدّ نية المؤمن خيراً من عمله استناداً الى الأدلة التالية:

اولاً لأنّ النية علة العمل وأساسه، والعلة أشرف من المعلول كما نعلم.

ثانياً لأنّ النية روح العمل، والروح اشرف من الجسم وأسمى.

ثالثاً لعدم تسرب الرياء الى النية واحتمال تسربه الى العمل.

رابعاً من الممكن ان يخطئ المؤمن في العمل فتنجم عنه أضرار تنعكس عليه او على غيره، ولكنه يُثاب على ذلك العمل للنية الخيرة الصادقة التي كانت خلفه.

خامساً بما انّ المؤمن ذو همة عالية وطموح كبير، فهو يتوق للقيام بأعمال تفوق استطاعته[1].

اذن نية المؤمن بصورة عامة خير من عمله وأسمى. وقد طرح زيد الشحام نفس السؤال الذي أثرناه من قبل، على الامام الصادقعليه السلام، اي كيف يمكن ان تكون النية خيراً من العمل، فأجاب الامامعليه السلام قائلاً:

«لأنّ العمل ربما كان رياءً للمخلوقينَ، والنيةُ خالصةٌ لربِّ العالمينَ فيُعطي عزّ وجلّ على النيّة ما لا يُعطي على العمل... انّ العبدَ لينوي من نهارِهِ أن يُصلّي بالليلِ فتغلِبُهُ عينُهُ فينامُ، فيُثبّتُ الله لهُ صلاتَهُ ويكتُبُ نفسهُ تسبيحاً ويجعلُ نومهُ عليهِ صدقةً»[2].

اذن لو كان لدى أحد نية للقيام بعمل من أعمال الخير، فلا يعلم بنيته هذه سوى الله تعالى، ولذلك لا يخترق الرياء جدار هذه النية ولا ينفذ اليها، ولكنها حينما تنزل الى ميدان العمل فمن الممكن ان تتلوث بالرياء، ولذلك تُعد «نية المؤمن خير من عمله».

ولكن لماذا تُعد نية الكافر شرّاً من عمله؟ ذلك لأنه قد يقوم ببعض أعمال الخير، لكن لما كان دافعه اليها الخديعة، والحيلة، والمصالح المادية، لذلك تُعد

---

(١) اخذنا هذا المضمون عن حديث ورد في مستدرك الوسائل، ج ١، ص ٩٢.

(٢) علل الشرائع، ط النجف، ج ٢، ص ٥٢٤، الباب ٣٠١، ح ١.

أعماله هذه خيراً من نيته، حيث قد ينعكس عن عمله خير عام، إلّا انه نفسه لا يجني سوى الوزر والوبال. أضف الى ذلك انّ الكافر وبمقتضى كفره، لديه النوايا والبواعث السيئة والشريرة، إلّا انه قد يعجز عن العمل بها وتحويلها الى واقع عملي، ولذلك تُعد نية الكافر من حيث المجموع شرّاً من الأعمال التي يمارسها[١].

الاخلاص في العبادة

يُستشف من الآيات والأحاديث انّ الاخلاص يمثل أساس العبادة وحقيقتها، بل انه روح العبودية، ولا تتحقق العبادة ولا معنى لها إلّا بالاخلاص. ولذلك قال الامام الصادق عليه السلام:

«... والنيّةُ أفضلُ من العمل ألا وانَّ النيةَ هي العمل»[٢].

ما هو الاخلاص؟

الاخلاص هو تنقية النية من الشرك والرياء، مثلما انّ تهذيب النفس هو تنقيتها من الشوائب المعنوية، والتطهير تنقية الجسم وتنظيفه من النجاسات الظاهرية. وبما انّ الاخلاص أمر قلبي ووجداني، لذلك لا يمكن قياسه بالظاهر الجميل وحجم العمل.

قال الامام الصادق عليه السلام:

«ليستِ الصلاةُ قيامك وقُعودكَ، انما الصلاةُ اخلاصُكَ وأن تُريدَ بها الله وحدَهُ»[٣].

---

(١) رغم انّ هذا البحث من المباحث المهمة والقيمة، إلّا اننا نكتفي بهذه الاحاديث. ومن اراد التوسع فليراجع: مرآة العقول، ج ٨، ص ٩٣ ـ ٩٤، حيث اورد المرحوم العلامة المجلسي ١٢ قولاً في معنى الحديث «نية المؤمن خير من عمله»، وبحثه بشكل مفصل.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦، ح ٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ١، ص ٣٢٥.

أي انَّ حقيقة الصلاة تتمثل في اخلاص المصلي، والاخلاص هو بمعنى أداء الصلاة طلباً لرضا الله تعالى فقط، وورد عن الامام الصادقعليه السلام قوله:

«... والعملُ الخالصُ، الذي لا تريدُ أن يحمدَك عليه أحدٌ إلّا الله عزَّ وجلّ»(١).

والاخلاص ذو درجات، اصلها وأولها عبارة عن خلو العبادة من الرياء والتظاهر. لذلك تُعدّ العبادة صحيحة اذا كان الهدف منها الحصول على الثواب او قضاء الحاجة، ولا ينافي انضمام مثل هذا الهدف الى أصل الاخلاص، لقيام الاخلاص على اساس ترك الرياء والتظاهر. فالذي يصلي لله ويطلب الحاجة منه او ينتظر الثواب على تلك الصلاة، لا يُعدّ مرائياً، ولكن لا يُعدّ اخلاصه كاملاً أيضاً لأنّ الاخلاص الكامل هو ان لا يطلب العبد إلّا الله ولا يُسكن في قلبه أحداً غيره، وقد قال الامام الصادقعليه السلام:

«ما أنعمَ الله على عبدٍ أجلَّ من أن لا يكونَ في قلبه مع الله غيرُهُ»(٢).

وقالعليه السلام ايضاً:

«القلبُ السليمُ الذي يلقى ربَّهُ وليس فيه أحدٌ سواه ... وكُلُّ قلبٍ فيه شركٌ او شكٌّ فهُوَ ساقطٌ ...»(٣).

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦، ح ٤.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٠.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦، ح ٥.

وكتب سماحة الامام الخميني رضوان الله عليه حول النية: «لابد أن نعلم بأنّ النية، من أهم الوظائف القلبية التي تعتمد عليها الصورة الكمالية للعبادات، ونسبتها الى صورة الأعمال كنسبة الباطن الى الظاهر، والروح الى البدن، والقلب الى القالب. ومن اهم الوظائف وأشد الشرائط على العامة جعل هذه النية خالصة، وقلما تحظى نية بالاخلاص الحقيقي، بل انّ الخلوص المطلق، من أعلى مدارج الأولياء الكمّل، لأنّ الاخلاص عبارة عن تصفية العمل من مطلق شوب غير الحق. وهو في عبادة العامة التصفية من الشرك الجلي والخفي من قبيل الرياء والعجب والافتخار، (ألا لله الدينُ الخالص)، وهو في عبادات الخواص التصفية من شوب الطمع والخوف واللذين يعدان شركاً في مسلكهم. وفي ←

فالاخلاص من الشرائط العامة لجميع العبادات، ويعدّه الفقهاء شرطاً لصحة العمل، فيما يعتبره الحكماء شرطاً للقبول والعرفاء شرطاً للوصول[١]. فالعمل ما لم يكن مصطبغاً بالصبغة الالهية فلن يُرفع الى الله ولا يوجب القرب من المحبوب، والاعمال المشوبة بالرياء لا سنخية لها لا مع الله ولا مع الملكوت ولذلك لا يمكن ان تكون واسطة اتصال وارتباط بين العبد والمعبود.

القرآن والاخلاص

قال القرآن بهذا الشأن:

﴿وما أُمِروا إلّا ليعبُدوا الله مخلصينَ لهُ الدينَ ...﴾[٢].

وجاء في آية اخرى:

﴿... فمَن كان يرجو لقاءَ ربِّهِ فليعمَل عملاً صالحاً ولا يُشرِك بعبادةِ ربِّهِ

← عبادة أصحاب القلوب عبارة عن التصفية من شوب الانانية والأنية. وهما في مسلك اهل المعرفة شرك اعظم وكفر اكبر (أُم الاصنام، صنم نفسك). وفي عبادة الكُمّل عبارة عن تصفية العمل من شوب رؤية العبودية والعبادة، بل رؤية الكون. كما قال الامام (ع): «القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحدٌ سواه». اذن حينما يضع السالك الى الله قدمه على فرق حظوظه بل على نفسه وعلى العالم كله، ويخلص نفسه دفعةً واحدة من الغير والغيرية، ولم يسكن في قلبه سوى الله، ويطهّر بيت الله من الاصنام بيد الولاية... سيكون حينئذ دينه وعمله وباطنه وظاهره خالصاً لله ...» (معراج السالكين وصلاة العارفين).

(١) الشرائط نوعان: شرائط الصحة، وشرائط القبول. فبعض الشرائط ليست سوى شرط لقبول العبادة لا صحتها، كحضور القلب في الصلاة، لأنّ الآثار الحقيقية للصلاة والتي هي التقرب الى الله والعروج اليه لا وجود لها بدون الحضور القلبي. ولكن هناك من الاعمال ما هو شرط لصحة العمل كالوضوء والنية، اذ انّ الصلاة باطلة بدونهما. ولو صلى احد سهواً بدون نية ووضوء فلابد له من اعادة صلاته.

(٢) البينة / ٥. رغم ما قيل من انّ هذه الآية وأمثالها ذات صلة باصول الدين والتوحيد العبادي وانها تنفي الشرك وعبادة الاصنام، ولا علاقة لها بالرياء، لكن بما أن المرائي يلاحظ غير الله في عبادته، تُعدّ عبادته مشوبة بنوع من الشرك، وهو ما تطلق عليه الاحاديث اسم الشرك الخفي.

أحداً﴾[١].

الجزء الأخير من الآية يُشعر بأنّ العمل الصالح هو العمل الذي لا يخالطه شرك ولا رياء. لذا لو اشركنا الآخرين في عبادتنا لله، لقضينا على الاخلاص ولما ظل من العبادة سوى صورتها الظاهرة. وحينما يخلو العمل من المحتوى الحقيقي فلن يجني العامل منه شيئاً، مثلما نقرأ في شأن نزول الآية ﴿فمن كان يرجُو لِقاءَ ربِّهِ فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرِك بعبادةِ ربِّهِ أحداً﴾:

«جاء رجلٌ الى النبيﷺ فقال: انّي اتصدّقُ وأصِلُ الرَّحِم ولا أصنعُ ذلك إلّا للهِ فيُذكَرُ ذلكَ مِنّي وأُحمَدُ عليه فيسُرُّني ذلك وأُعجِبُ به. فسكت رسولُ اللهﷺ ولم يقُل شيئاً فنزلت الآية ...»[٢].

العباد المخلَصون

أثنى الله تعالى على عباده الصالحين في القرآن الكريم من خلال وصفهم بصفة الاخلاص. فحينما أشاد بيوسفؑ وصفه بـ«المُخلَص»، فقال:

﴿ولقد همَّت بهِ وهمَّ بها لولا أن رأى بُرهانَ ربِّهِ كذلك لِنصرِفَ عنهُ السُّوءَ والفحشاءَ انَّهُ مِن عبادِنا المُخلَصينَ﴾[٣].

وقال في موسىؑ:

﴿واذكُر في الكتابِ موسى انّه كانَ مُخلَصاً وكانَ رسولاً نبيّاً﴾[٤].

ملاحظة مهمة

المُخلَص (بفتح اللام)، اسم مفعول اي الذي أخلص نفسه فصار خالصاً محضاً.

---

(١) الكهف / ١١٠.

(٢) تفسير القرطبي، ط بيروت، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، ج ١١، ص ٦٩؛ تفسير مجمع البيان، ط بيروت، ج ٦، ص ٤٩٩؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٧، ص ٢٢٢؛ عدة الداعي، ط بيروت، ص ٢٢٣.

(٣) يوسف / ٢٤.

(٤) مريم / ٥١.

وقد وصف تعالى نبيه يوسف وموسى بأنهما من المخلَصين. وهناك بونٌ شاسع في المعنى بين المخلَص والمخلِص، اذ قد تُطلق الثانية على من لديه اخلاص عابر ومؤقت، كما نلاحظ في الآيات التاليات:

﴿فاذا ركِبُوا في الفُلكِ دعَوُا اللهَ مُخلِصينَ لهُ الدينَ فلمّا نجّاهُم الى البرِّ اذا هُم يُشركونَ﴾[1].

﴿واذا غشيَهُم موجٌ كالظُّلَلِ دعوا الله مُخلِصين له الدينَ فلمّا نجاهُم الى البرِّ فمِنهُم مُقتصِدٌ وما يجحَدُ بآياتِنا إلّا كُلُّ ختّارٍ كفورٍ﴾[2].

﴿هو الذي يُسيِّرُكُم في البرِّ والبحرِ حتّى اذاكنتُم في الفُلكِ وجرَيْنَ بهِم بريحٍ طيِّبةٍ وفرِحوا بها جاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وجاءَهُم الموجُ من كُلِّ مكانٍ وظنُّوا أنَّهُم أُحيطَ بهِم، دعوا الله مُخلصينَ لهُ الدينَ لئِن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرينَ. فلمّا أنجاهُم اذا هم يبغُون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ يا أيُّها الناسُ انَّما بغيُكُم على أنفُسِكُم متاعَ الحياةِ الدنيا ثمَّ الينا مرجِعُكُم فنُنبِّئُكُم بما كنتُم تعملونَ﴾[3].

ونفهم من هذه الآيات القرآنية الكريمة انّ مفردة مُخلِص (بكسر اللام)، ذات مفهوم عام بحيث يشمل تلاميذ الصف الاول في مدرسة الاخلاص، بل يشمل حتى المشركين العابدين للأصنام الملتصقين بمظاهر الدنيا وبهارجها الخادعة، الذين يُقبلون على الله الواحد ويخلصون له حين تلاطم امواج البحر وانقطاع آمالهم عن الماديات، إلّا انهم حينما يجدون النجاة ويبلغون ساحل الأمان، ينسون الله الأحد ثانيةً ويعودون الى شركهم من جديد.

ومن الطبيعي انّ السائرين في بدايات الطريق ليست لديهم تلك الحصانة الكافية التي تقيهم من هجمات الوساوس الشيطانية والأهواء النفسية. وقليلون هم الذين يجابهون هذه الاخطار بصلابة ويحفظون انفسهم منها.

---

(١) العنكبوت / ٦٥.

(٢) لقمان / ٣٢.

(٣) يونس / ٢٢ و٢٣.

اما المخلَصون، فهم الذين قطعوا مدارج الكمال الاولى بنجاح، ونالوا مقام العصمة، وخرجوا نهائياً من ولاية الشيطان والنفس الأمارة، وأخذوا يسلكون في وادي ولاية الله. ويُعدّ نبي الله يوسف من هذه الفئة المخلَصة لأنه صمد كالجبل الأشمّ في تلك الفترة الحرجة وذلك الظرف المتأزم، ولم تفلح تلك المرأة في جرّه اليها رغم كل ما قامت به من وسائل وأساليب بما فيها غلقها لجميع الأبواب كي تغلق بوجهه طريق الهرب. وكانت اجابته على كل محاولاتها ﴿معاذَ الله انَّهُ ربّي أحسنَ مثوايَ انَّهُ لا يُفلِحُ الظالمونَ﴾(١). وقد هرول سريعاً باتجاه الباب المغلق، فانفتح بوجهه، وشمله الله بامداده الغيبي.

ولاشك في انّ بلوغ هذه المرحلة من التهذيب والتزكية، فضلاً عن حاجتها للاعانات الالهية والدعم الغيبي المتواصل، لابد فيها ايضاً من الجهاد المستمر مع النفس. ومن ليس له ارادة وعزم على ان يرفض طلبات الاهواء، ويعمل كل ما تمليه النفس الامارة بالسوء عليه، لن يصل الى هذه المرحلة.

اذن فالقلب الذي بامكانه ان يتّسم بالنقاء والنورانية، هو القلب الذي يقدّم ارادة الله على هواه وارادته، ولا يفكر إلّا به. بتعبير آخر: لا يستطيع ان ينضم الى فئة المخلَصين إلّا ذلك الذي يقوم بأعماله لله فقط لا لغيره. مثلما جاء في القرآن الكريم عن لسان الرسول ﷺ:

﴿قُل انَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالمينَ لا شريكَ لهُ وبذلكَ أُمِرتُ وأنا أوَّلُ المسلمينَ﴾(٢).

الاخلاص في الأحاديث

اكدت الاحاديث النبوية والأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام على الاخلاص كثيراً. لأنّ قضية الاخلاص وكما ذكرنا قضية في منتهى الدقة

(١) يوسف / ٢٣.
(٢) الانعام / ١٦٢ و١٦٣.

والخطورة ويعتمد عليها قبول الاعمال، وكلما ازداد الاخلاص في العمل، كلما ازدادت قيمته.

فالاخلاص ليس ظاهرة تصورية او تخيلية أو مفروضة كي يمكن ايجادها من خلال التصور والخيال او عن طريق التلاعب بالألفاظ، وانما هو حقيقة قلبية لا تحصل إلّا بالتوكل على الله والتوسل به فضلاً عن الرياضة النفسية. فما اكثر اولئك الذين يتصورون انفسهم مخلصين، إلّا انهم بعيدون عن الاخلاص كثيراً وغارقون في الهوى وحب النفس.

قال الرسول الاكرم ﷺ: أخبرني جبرئيل انّ الله عزّ وجلّ قال:

«الاخلاص سِرٌّ من أسراري استودعتُهُ قلبَ من أحببتُ من عبادي»[1].

وقالت فاطمة الزهراء عليها السلام:

«من أصعَدَ الى الله عزَّ وجلَّ خالِصَ عبادتِهِ أهبطَ الله عزَّ وجلَّ اليه أفضلَ مصلحتِهِ»[2].

وقال الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

«انَّ أميرَ المؤمنينَ صلواتُ الله عليه كان يقولُ: طوبى لِمَن أخلص لله العبادةَ والدعاءَ ولَم يشغل قلبهُ بما ترى عيناهُ ولم ينسَ ذِكر الله بما تسمعُ أُذُناهُ ولم يحزَن صدرهُ بما أُعطي غيرُهُ»[3].

وقال الامام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: ﴿... ليبلُوكُم أيُّكم أحسنُ عملاً ...﴾[4]:

«ليس يعني أكثرُكم عملاً ولكن أصوبُكم عملاً وانما الاصابةُ خشيةُ الله والنيّةُ

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٧، ص ٢٤٩، ح ٢٤؛ منية المريد، ص ٤٣.

(٢) بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٤٩.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦، باب الاخلاص، ح ٣.

(٤) الملك / ٢.

الصادقةُ والخشية، ثم قال: الابقاءُ على العمل حتّى يخلُصَ أشدُّ من العمل ...»[١].

ولابد لنا أن نعلم بأنّ تحصيل الاخلاص وتشخيصه، امر في منتهى الصعوبة والدقة. والسفر في هذا الوادي بحاجة الى رياضة شاقة وسعي دائب طويل، كما قال رسول الله (ص):

«الشركُ أخفى في أُمتي من دبيبِ النملِ على الصَّفا»[٢].

ثلاثة محاور للاخلاص

والأحاديث الواردة تدور عموماً حول ثلاثة محاور هي:

المحور الاول: علائم الاخلاص.

المحور الثاني: عوامل الاخلاص.

المحور الثالث: آثار وفوائد الاخلاص.

علائم الاخلاص

١ ـ قال رسول الله ﷺ:

«... فأمّا علامةُ المُخلِصِ فأربعة: يسلَمُ قلبهُ، وتسلَمُ جوارِحهُ، وبَذلَ خيرَهُ، وكفُّ شرِّهُ»[٣].

٢ ـ قال امير المؤمنين علي عليه السلام:

«... ومن لم يختلِفْ سِرُّهُ وعلانيتُهُ وفعِلُهُ ومقالتُهُ، فقد أدّى الأمانةَ وأخلصَ العبادةَ ...»[٤].

٣ ـ وقال عليه السلام:

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦؛ تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٣٥٥؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٧، ص ٢٣٠؛ الاخلاق، شبر، ص ١٧ مع تفاوت يسير.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٢.

(٣) تحف العقول، ص ١٦.

(٤) نهج البلاغة، ك ٢٦.

«تمامُ الاخلاصِ تجنُّبُ المعاصي»[١].

٤ ـ وقال ايضاً:

«الزُّهدُ سجيّةُ المُخلصينَ»[٢].

٥ ـ وقال كذلك:

«العبادةُ الخالصةُ أن لا يرجو الرجلُ إلّا ربَّهُ ولا يخافَ إلّا ذنبهُ»[٣].

٦ ـ قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«لا يكونُ العابِدُ عابداً لله حقَّ عبادتِهِ حتى ينقطعَ عن الخَلقِ كُلِّهِ اليه، فحينئذٍ يقولُ هذا خالصٌ لي فيتقبَّلُهُ بِكرَمِهِ»[٤].

٧ ـ قال الامام جعفر الصادق عليه السلام:

«العملُ الخالصُ الذي لا تريدُ أن يحمدَكَ عليهِ أحدٌ إلّا الله عزَّ وجلَّ»[٥].

٨ ـ وقال الامام الصادق عليه السلام أيضاً:

«ما بلغَ عبدٌ حقيقةَ الاخلاصِ حتى لا يُحِبَّ أن يُحمدَ على شيءٍ من عملٍ للهِ»[٦].

٩ ـ وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد سُئِل: فما النجاةُ؟:

«أن لا يعملَ العبدُ بطاعةِ الله يريدُ بها الناسَ»[٧].

تنويه ضروري

ينبغي لنا ان نؤكد هنا على أمر ضروري وهو أنّ السرور بامتداح الناس لا

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٤، ص ٢١٣.

(٢) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ١٤٩.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٢٩.

(٤) مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٠.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦، ح ٤.

(٦) عدة الداعي، ط بيروت، ص ٢١٧؛ مشكاة الانوار، ص ١١.

(٧) عدة الداعي، ص ٢٢٨.

يُعد رياءً إلّا اذا كان هذا الامتداح هو الباعث على القيام بأعمال الخير. اما اذا كان الهدف من تلك الاعمال مرضاة الله تعالى والامتثال لأوامره فقط فلا يعد السرور والشعور بالغبطة حين امتداح تلك الاعمال رياءً. فمن الطبيعي ان يحب المرء السمعة الطيبة والصيت الحسن ويهرب من سوء السمعة او ان يذكره الناس بما يكره، ولا تدل هذه الحالة الطبيعية على الرياء.

وقد قال نبي الله ابراهيم عليه السلام بلغة القرآن:

﴿واجعل لي لسانَ صِدقٍ في الآخِرينَ﴾[1].

نعم لو أثّر مدح الناس أو ذمهم على اصل العمل او كيفيته، فمن الممكن ان تتعرض قضية الاخلاص للتزعزع. ولكن تبقى قضية الشعور بالسرور قضية طبيعية ولا تعني بمفردها الرياء قط.

زرارة عن الامام ابي جعفر الباقر عليه السلام قال: سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه انسان، فيسره، قال:

«لا بأس ما من أحدٍ إلّا وهو يُحبُّ أن يظهرَ له في الناسِ الخيرُ اذا لم يكن صنعَ ذلكَ لذلك»[2].

وورد في حديث آخر انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: أرأيت الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال صلى الله عليه وآله:

«تلك عاجلُ بُشرى المؤمنِ، يعني البُشرى المُعجَّلة لهُ في الدنيا، والبُشرى الأُخرى قولهُ سبحانه: ﴿بُشراكُمُ اليومَ جنّاتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ ...﴾»[3].

وهكذا لو كان الهدف الاول والاخير من العمل الذي يمارسه المرء هو استحصال المرضاة الالهية والامتثال لأوامره تعالى، عُدّ مدح الناس وثناؤهم والسرور الحاصل عن ذلك المدح والثناء، أمراً خارجاً عن اطار الهدف وغير

---

(١) الشعراء / ٨٤.

(٢) بحار الانوار، ج ٦٩، ص ٢٩٤، ح ١٨؛ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥٥.

(٣) بحار الانوار، ج ٦٩، ص ٢٩٤.

متعارض مع الاخلاص، بل فائدة من فوائد العمل لا هدفاً من اهدافه.

وانطلاقاً من هذه المقدمة، يطرح السؤال التالي نفسه: هل يتعارض حضّ الآخرين على أعمال الخير والعبادة وتعليمهم أمراً متعارضاً مع الاخلاص؟

يُستفاد من الأحاديث انّ هذا النمط من السلوك مؤيّد للاخلاص ومرجّح له وليس متعارضاً معه، لأنّ الذي يهم في موضوع الاخلاص وقصد التقرب هو أن لا تكون العبادة من أجل التظاهر والرياء. اما الضمائم الراجحة من قبيل الدعوة والحضّ والتشجيع على الاعمال الصالحة، او نشر الدين والعقيدة، فانها ليست غير متناقضة مع الاخلاص فحسب، وانما تكشف عن درجة متعالية منه ايضاً.

قال رجل يُقال له عبيد:

قُلتُ لأبي عبد الله (الامام الصادق)ﷺ: الرجلُ يدخلُ في الصلاة فيُجَوِّدُ صلاتَه ويُحسِنُها رجاءَ أن يستجِرَّ بعض من يراهُ الى هواهُ؟ قال: ليس هو منَ الرياء[1].

وهناك حديث شهير للامام الصادقﷺ يقول:

«كونوا دعاةَ النّاسِ بغيرِ ألسِنتِكُم ليروا منكُمُ الورَعَ والاجتهادَ والصلاةَ والخير فانَّ ذلك داعيةٌ»[2].

من هذه الاحاديث ندرك انّ الضمائم الراجحة ـ أي انضمام بعض الاهداف الخيرة ـ في العبادات لا تتنافى مع الاخلاص وقصد القربة، وانما تعد من مرجحاتها، لانّها هي الاخرى ذات طابع معنوي والهي ولا تعد أهدافاً شخصية او مادية. فالانسان ومن خلال هذه الاهداف المنضمّة انما يضرب عصفورين بحجر واحد: يؤدي واجبه الأساسي، ويدعو الآخرين الى عمل الخير. ولذلك قيل التجاهر بالعبادات والصدقات الواجبة أفضل من اخفائها، فيما يُعد اخفاء المستحبات والتبرعات افضل من التجاهر بها، لأنَّ شائبة الرياء أقل في الواجبات

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٠١؛ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥٦ نقلاً عن سرائر ابن ادريس.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥٦.

من المستحبات، لذا كان من الأولى اعلانها تشجيعاً للآخرين ودفعاً لهم للقيام بواجباتهم برغبة وحماس. على العكس من المستحبات التي تعد ارضية مناسبة لظهور الرياء، ولذلك يُفضّل اخفاؤها ما لم يكن المرء على ثقة كاملة بنفسه، ويقوم بهذا العمل تشجيعاً منه للآخرين وحضّهم عليه.

الاستنتاج

اذا كان التعليم والحض والتشجيع ذا جانب فرعي، فيما يبقى الهدف الجوهري هو الامتثال لله والتعبير عن طاعته. فلا تؤثر هذه الاهداف الفرعية على الاخلاص ولا تلحق به ضرراً. بتعبير آخر: اذا كان استعداد المرء للعبادة والطاعة بالشكل الذي لو لم يكن هناك من دافع آخر سوى الأمر الالهي، لما تخلى عن هذه العبادة وذلك الواجب، فلا مانع من الضمائم الراجحة كقصد التعليم وحضّ الآخرين على عمل الخير. اما اذا عُدّت هذه الضمائم بمثابة العلة ولولاها لما كان هناك باعث جاد على العبادة، فقد افتى الفقهاء ببطلان العبادة.

وأعتقد انّ الضمائم الراجحة لو كانت على صلة بكيفية العبادة لا بأصلها، فانها لا تتعارض مع قصد القربة والاخلاص قط ولا توجب بطلان العمل. فلو قصد أحدهم من الصلاة اطاعة الامر الالهي فقط وعدم تداخل اي قصد آخر معه، إلّا انه ومن اجل تعليم الآخرين وتشجيعهم يبذل دقةً اكبر في كيفية القراءة وتجويدها، او انه يرفع صوته حين قراءته لذكر ما من اجل تنبيه شخص آخر او اشعاره، فلا تبطل صلاته. نعم لو كان تحسين الصوت وتجويد القراءة من اجل التظاهر والرياء لا بقصد تعليم الآخرين او حضّهم، عُدّ ذلك من مصاديق الرياء في العبادة، وتبدو صحة هذه العبادة امراً صعباً حسب هذا الافتراض.

والامر الآخر الذي ينبغي الاشارة اليه هو انّ ممارسة العبادة بقصد استحصال الثواب والفرار من العقاب او بقصد قضاء الحاجات، لا تتعارض مع الاخلاص. ولذلك نلاحظ تأكيد الآيات القرآنية والاحاديث على الثواب والعقاب وذلك لتشجيع الناس على الطاعة وحثهم عليها. كما كتبَ المحدثون، الكتب في ثواب

الاعمال. وهناك الكثير من العبادات والأذكار والأدعية الخاصة بقضاء الحوائج. وصفوة الكلام هي ان استجداء الرحمة الالهية والتطلع الى رحمة الله ومغفرته، عمل ليس لا يتناقض مع الاخلاص فحسب وانما هو عين الاخلاص أيضاً.

وسوسة الرياء

رغم ضرورة الاهتمام الكامل بموضوع الاخلاص في العبادة والحذر من الرياء، غير انّ هذا الحذر يخرج في بعض الأحيان عن الحد المتعارف ويتحول الى وسوسة لاسيا عند من هم في بداية الطريق، ولابد في مثل هذه الاحوال من تجاهل هذه الوساوس وعدم الاهتمام بها. والشعور بالاستياء الذي ينتاب المرء حين خطور مثل هذه التصورات والاوهام لدليل واضح على عدم وجود الرياء، وانما هي وساوس الشيطان التي يريد بواسطتها اقصاءنا عن طريق العبادة.

ورد عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله قوله:

«اذا أتى الشَّيطانُ أحدَكُم وهو في صلاتِهِ فقال: انكَ مُرائي فليُطِلْ صلاتَهُ ما بدا لهُ ما لم يفُتهُ وقتُ فريضةٍ، واذا كان على شيءٍ من أمرِ الآخِرَةِ فليتمكَّثْ ما بدا لهُ، واذا كان على شيءٍ من أمرِ الدنيا فليَبرَحْ ...»[1].

عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال علي عليه السلام: قلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله الرجل منا يصوم ويصلي فيأتيه الشيطان فيقول له انك مُراءٍ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«فليقُلْ أحدُكُم عند ذلكَ أعوذُ بكَ أن أُشرِكَ بكَ شيئاً وأنا أعلمُ وأستغفِرُكَ لِما لا أعلمُ»[2].

عوامل الاخلاص

١ ـ «سببُ الاخلاصِ اليقينُ»[3].

---

(١) بحار الانوار، ج ٦٩، ص ٢٩٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٠٢.

(٣) فهرست الغرر الموضوعي، ص ٤٣٣.

٢ ـ «الاخلاصُ ثمرةُ اليقينِ»[١].

٣ ـ «اخلاصُ العملِ من قُوّةِ اليقينِ وصلاحِ النيّةِ»[٢].

٤ ـ «على قدرِ قُوّةِ الدينِ يكونُ خُلوصُ النيّةِ»[٣].

٥ ـ «ثمَرَةُ العلمِ اخلاصُ العملِ»[٤].

٦ ـ «أوّلُ الاخلاصِ اليأسُ ممّا في أيدي النّاسِ»[٥].

٧ ـ «قلّلِ الآمالَ تخلُصْ لك الأعمالُ»[٦].

٨ ـ «الاخلاصُ ثمَرَةُ العبادةِ»[٧].

وهكذا نعلم ان الاخلاص ثمرة اليقين، وقوة الايمان، والعلم، وقطع الأمل من الناس او قطع الطمع عما في ايدي الناس، وتقليل الآمال، وعبادة الرحمن.

آثار وفوائد الاخلاص

١ ـ البصيرة ونورانية القلب:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما أخلصَ عبدٌ لله عزَّ وجلّ أربعينَ صباحاً إلّا جرَت ينابيعُ الحكمةِ من قلبِهِ على لسانِهِ»[٨].

٢ ـ الحكمة والمعرفة:

الحكمة والمعرفة، من الآثار والفوائد التي تنعكس عن الاخلاص، وهذا ما

---

(١) نفس المصدر، ص ٩١.

(٢) نفس المصدر، ص ٩٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٩٣.

(٤) نفس المصدر، ص ٩٢.

(٥) نفس المصدر، ص ٤٣٠.

(٦) نفس المصدر، ص ٢٠.

(٧) نفس المصدر، ص ٩١.

(٨) بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٤٢؛ عيون اخبار الرضا، ج ٢، ص ٦٨. ورد باختلاف يسير في عدة الداعي، ص ٢٣٢؛ بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٤٩؛ الترغيب والترهيب، ج ١، ص ٥٦.

يمكن استشفافه من الحديث النبوي السابق.

٣ ـ خشوع كل شيء للمؤمن المخلص:

«انَّ المؤمنَ ليخشَعُ لهُ كُلُّ شيءٍ ويهابُهُ كُلُّ شيءٍ ... اذا كانَ مُخلصاً لله أخافَ الله مِنهُ كُلَّ شيءٍ حتى هوَامَّ الأرضِ وسِباعَها وطيرَ السَّماءِ»[1].

٤ ـ كفاية أمره واستقامة اموره:

«قال الله عزّ وجلّ: لا أطَّلِعُ على قلبِ عبدٍ مؤمنٍ فأعلَمُ منهُ حبَّ الاخلاصِ لطاعتي ولِوجهي وابتغاءَ مرضاتي إلّا تولَّيتُ تقويمَهُ وسياستَهُ»[2].

٥ ـ السعادة:

قال عليّ عليه السلام:

«... أخلِصوا أعمالَكُم تسعدُوا»[3].

وقال ايضاً:

«الاخلاصُ أعلى فوزٍ»[4].

٦ ـ قبول الأعمال:

قال الرسول صلى الله عليه وآله:

«أيُّها الناسُ أخلِصوا أعمالكُم لله تعالى فانَّ الله لا يقبلُ إلّا ما خلُصَ لهُ»[5].

٧ ـ كمال العبادة:

قال الامام محمد الجواد عليه السلام:

«أفضلُ العبادةِ الاخلاصُ»[6].

---

(١) بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٤٨، ح ٢١.

(٢) نفس المصدر، ج ٨٢، ص ١٣٦، ح ١٦؛ مصباح الشريعة، باب السجود.

(٣) فهرست الغرر الموضوعي، ص ٩٣.

(٤) نفس المصدر، ص ٩١.

(٥) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ١٨٠، ذيل الآية ٣٦، سورة النساء.

(٦) بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٤٩.

اي انّ الاخلاص يمثل أصل العبادة وجوهرها، اما سائر الاعمال فتكتسب عنوان العبادة في ظل الاخلاص وتكمل به.

وهناك العديد من الآثار والفوائد الاخرى التي يفرزها الاخلاص[١] بامكان الباحثين في هذا المجال الرجوع اليها في الكتب التي تطرقت لهذا الموضوع.

الاستنتاج

يتضح لنا من الأحاديث السابقة انّ الاسلام يولي أهمية كبيرة لكيفية العمل تفوق حجمه وكميته. اي انّ الذي يحظى بالقيمة عند الله تعالى هو خلوص النية، ولا يوجب الحجم الكبير من العمل الفاقد للخلوص، التقرب.

واذا كان البحث قد انتهى الى هذا الحد، فمن المناسب الاسترشاد بجزء من سيرة المعصومين عليهم السلام التي تعبّر عن الخلوص في النية والاخلاص في العمل، عسى ان نتأسى بها جميعاً.

نماذج من اخلاص الامام علي عليه السلام

الانفاق في الركوع:

وهب علي عليه السلام خاتمه لأحد الفقراء وهو راكع في الصلاة، فنزلت فيه الآية الكريمة التالية:

﴿انَّما وليُّكُمُ اللهُ ورسولُهُ والذينَ آمنوا الذينَ يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ وهُم راكعونَ﴾[٢].

وقد نزلت هذه الآية في حق علي عليه السلام لسبب واحد وهو انه انما قام بذلك العمل طلباً لرضا الله تعالى واستحصالاً لمرضاته ودون ان يتوقع حتى هذا الامتداح

---

(١) ومن هذه الآثار: قبول ولاية الله والخروج من ولاية الشيطان، وحرية الفكر، والتحرر من عبودية غير الله، والتوفيق والبركة، والنقاء والطهارة في العمل، وعلو الطبع والهمة، والعافية، وخير العاقبة، وضمان قبول الاعمال، وهي ما يمكن ان تستشف من الاحاديث السابقة.

(٢) المائدة / ٥٥.

الالهي.

المبيت في فراش الرسول (ص)

حينما عقد رسول الله (ص) العزم على الهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة، بات علي (ع) تلك الليلة في فراش الرسول (ص) للتمويه على المشركين وحفظ حياة الرسول (ص) وابتغاءً لمرضاة الله تعالى، ولذلك نزلت فيه الآية التالية:

﴿ومِنَ الناسِ من يشري نفسهُ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ واللهُ رؤوفٌ بالعبادِ﴾[1].

نزول سورة الدهر:

نزلت سورة الدهر في آل الرسول محمد (ص) للخلوص الذي كانوا عليه. وروى ابن عباس: «انّ الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله (ص) في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة وفضة[2] ـ جارية لهما ـ ان بَرِئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا، وما معهم شيء. فاستقرض علي (ع)... ثلاث أصوع شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل وقال: السلام عليكم أهل بيت محمد (ص)، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلّا الماء وأصبحوا صياماً.

فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيم فآثروه. ووقف

---

(١) البقرة / ٢٠٧. هناك نقطتان رائعتان في هذه الآية: الاولى هي انّ المخلصين الحقيقيين هم اولئك الذين يبيعون لله كلَّ وجودهم في مقابل رضاه ولا يبتغون شيئاً غير هذا الرضا الالهي، حتى ولو كان ذلك الشيء هو الجنة. والثانية يُستشف من عبارة «والله رؤوف بالعباد» انّ الرأفة الالهية بالعباد تقتضي وجود مثل هؤلاء المضحين بين الناس كي لا يتوانوا عن نصرتهم وانقاذهم قط. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لولا هذه الشخصيات المضحية، هل يظل للحق والحقيقة من أثر؟

(٢) ذكر البحراني في تفسير البرهان ان الحسن والحسين نذرا أن يصوما أيضاً.

عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك.

فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد الحسن والحسين عليهما السلام وأقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشدّ ما يسوؤني ما أرى بكم. فانطلق معهم فرأى فاطمة عليها السلام في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها، فساءه ذلك. فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة»[1].

ولم يكن الله تعالى ليعطي هذه الكرامة إلّا للاخلاص الذي كانوا عليه والذي يصعب علينا حتى تصوره. وتحدث القرآن الكريم عن أهمية هذا العمل الذي قاموا به فقال:

﴿ويُطعمون الطَّعام على حُبِّهِ مسكيناً ويتيماً وأسيرا انَّما نُطعِمكُم لِوجهِ الله لا نُريدُ منكُم جزاءً ولا شُكوراً﴾[2].

وأشار الامام موسى الكاظم عليه السلام الى قضية مهمة وجديرة بالاهتمام:

«... أما انَّ علياً لم يقُل في موضعٍ انَّما نُطعِمُكُم لِوجهِ الله لا نُريدُ منكُم جزاءً ولا شُكوراً، ولكنَّ الله علِمَ أنَّ في قلبِهِ أنَّ ما أطعمَ لله فأخبرَهُ بما يعلَمُ من قلبِهِ من غيرِ أن ينطِقَ بهِ»[3].

والجدير بالذكر انّ المرء اذا اراد الوصول الى مرحلة من الخلوص بحيث تكون جميع اعماله لله تعالى، فانها مهمة شاقة للغاية وفي منتهى الصعوبة، وليس بامكان كل أحد بلوغ هذه المرحلة.

ليس بامكان اولئك الذين لازالوا في الخطوات الاولى ان يزعموا انهم بلغوا

---

(١) الغدير، ج ٣، ص ١١؛ تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٣٢ ـ ١٣٣، نُقلت هذه القصة بصورة اخرى في تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤١٢، وغاية المرام ص ٣٧١ ـ ٣٧٢، وأمالي الصدوق، ص ٢١٢ ـ ٢١٥.

(٢) الدهر / ٨و٩.

(٣) تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤١٢.

هذه المرحلة من الخلوص، ورغم هذا لابد من التفاؤل بالوصول ولابد من التمرين والممارسة وبناء النفس ومزاولة الرياضة النفسية. فمثلما يجب التمرين في التربية البدنية ولابد من البدء من نقطة الصفر ثم التدرج نحو الأصعب والأشق حتى بلوغ مرحلة البطولة، كذلك لابد في تهذيب الروح وترويضها من البدء بالقليل والاستمرار بعد ذلك حتى بلوغ مقام الاخلاص الكامل. ومثلما يبدأ مدرب رفع الاثقال مع تلامذته بالاثقال الخفيفة ثم يزيدها شيئاً فشيئاً، لابد لمعلم الاخلاق والمربي التربوي من البدء بالقليل من الرياضة النفسية خلال تعليمه للآخرين ثم التدرج معهم حتى ايصالهم الى مرحلة البطولة في ميدان العبودية والاخلاص. ومثلما لا يبلغ الرياضيون مراحل البطولة والتألق إلّا بالتمارين المتلاحقة والجهود الدائبة المستمرة والمشاق الكبيرة، كذلك لا يبلغ سالكو طريق العبودية المراحل النهائية إلّا بمثل ذلك.

فاولئك الذين بلغوا مراحل من الكمال، لم يبلغوها هكذا وبسهولة، وانما تجشّموا العناء لسنوات مديدة وقارعوا الاهواء النفسية، وسعوا كثيراً لتنقية نواياهم وجعلها خالصة لله، واجتهدوا لكي تكون اعمالهم طلباً لمرضاة الله، فوصلوا مرحلة عليا من الكمال والفضيلة توكلاً على الله تعالى.

فلابد للمرء ان يسأل الله دائماً كي يوفقه للاحتفاظ بخلوصه الى نهاية الطريق، اذ انّ طريق السالكين طريق محفوفة بالمخاطر الكبيرة ومليئة بالموانع والعقبات التي لا يمكن اجتيازها بسهولة.

الرياء

من المناسب في نهاية البحث التحدث بايجاز عن الرياء كي تتكون لدينا صورة واضحة ومتكاملة عن موضوع البحث.

الرياء عبارة عن التظاهر بالعمل توخياً لاستقطاب انظار الآخرين وانتزاع امتداحهم واطرائهم.

علامات الرياء

يمكن ان نستشف من الآيات والأحاديث التي تحدثت عن الرياء الخصوصيات التالية التي يتميز بها المرائي:

١ ـ ينافق.

٢ ـ يمارس الاعمال العبادية بحرارة وشوق امام الآخرين.

٣ ـ يمارس هذه الاعمال بكسل وتقاعس بعيداً عن الآخرين.

٤ ـ يرغب في ان يمدحه الآخرون على جميع الأعمال.

٥ ـ يزيد عمله عند الامتداح.

٦ ـ يقل نشاطه وعمله عند عدم الامتداح.

٧ ـ يخادع ويمكر.

٨ ـ يتبجح بأعمال الخير التي يقوم بها.

٩ ـ يمنّ بأعماله على الغير.

١٠ ـ يطمع في ما أيدي الناس ولا يتوكل على الله.

١١ ـ يذكر الله في الظاهر وقلّما يذكره في الباطن.

١٢ ـ مغرور ومتغطرس.

١٣ ـ يميل الى الراحة وحياة الترف.

المرائي في الآيات

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تُبطِلوا صدقاتِكُم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفِقُ مالهُ رِئاءَ الناسِ ولا يؤمِنُ بالله واليومِ الآخرِ ...﴾[١].

﴿ان المنافقينَ يُخادعونَ الله وهوَ خادِعُهم واذا قامُوا الى الصلاةِ قاموا كُسالى يُراؤونَ الناسَ ولا يذكُرونَ الله إلّا قليلاً﴾[٢].

---

(١) البقرة / ٢٦٤.

(٢) النساء / ١٤٢.

﴿فويلٌ للمُصلّينَ الذينَ هُم عن صلاتِهِم ساهونَ الذينَ هُم يُـراؤونَ ويمـنعونَ الماعُونَ﴾[١].

﴿ولا تكونوا كالذينَ خرَجُوا مِن ديارِهِم بطراً ورئاءَ الناسِ ...﴾[٢].

المرائي في الأحاديث

قال الرسول الاكرم محمد ﷺ:

«... أما علامةُ المُرائي فأربعة: يحرِصُ في العمل لله اذا كان عندهُ أحدٌ ويكسلُ اذا كان وحدَهُ، ويحرِصُ في كلِّ أمرِهِ على المحمَدَةِ ويُحسِنُ سَمْتَهُ بجُهدِهِ»[٣].

قال علي عليه السلام:

«ثلاثُ علاماتٍ للمرائي: ينشطُ اذا رأى الناسَ، ويكسلُ اذا كانَ وحدَهُ، ويُحِبُّ أن يُحمدَ في جميع أُمورِهِ»[٤].

الرياء وبطلان العمل

الرياء ينسف اعمال المرء ويبددها. وقد رأينا في الآية ٢٦٣ من سورة البقرة كيف يشبّه الله تعالى الانفاق القائم على الرياء بالانفاق المصحوب بالمنّ والأذى وكيف يعتبره باطلاً وغير مقبول. ويعتقد الفقهاء وفضلاء السير والسلوك ان ليس هناك شيء أسوأ من الرياء في ابطال الاعمال وافسادها.

الرياء كجرثومة الجذام تنخر العمل من الداخل وتُفرغه من محتواه. والأعمال القائمة على الرياء كالشجرة التي لا جذور لها والتي تهوى ساقطة مع أول عاصفة.

تجنّبوا الرياء من أجل الله، واستجيروا بالله منه، وصونوا انفسكم منه بدموع التوسل، وتضرعوا الى الله دائماً بهذه الكلمات من الصحيفة السجادية:

---

(١) الماعون / ٤ ـ ٧.

(٢) الانفال / ٤٧.

(٣) تحف العقول، ط بيروت، ص ١٧.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٩٥، ح ٨.

«... ثُمَّ خلِّص ذلكَ كُلَّهُ من رِئاء المرائين وسُمعَةِ المُسمِعينَ لا نُشرِكُ فيهِ أحداً دونكَ ولا نبتغي فيهِ مُراداً سِواكَ»(١).

متى يُستجاب دعاؤك

ووجهك نحو محرابين؟

قال الامام الصادقعليه السلام:

«كُلُّ البِرِّ مقبولٌ إلّا ما كانَ رِئاءً»(٢).

وقال ايضاً:

«قال الله عز وجل: أنا خيرُ شريكٍ. من أشركَ معي غيري في عمل عمِلَهُ، لم أقبلهُ إلّا ما كانَ خالصاً»(٣).

وقال ايضاً:

«وكُلُّ رئاءٍ شِركٌ، انّهُ من عمِلَ للناسِ كانَ ثوابُهُ على الناسِ ومن عمِلَ للهِ كانَ ثوابُهُ على الله»(٤).

وخاطبَ الامام علي بن موسى الرضاعليه السلام رجلاً يدعى محمد بن عرفة قائلاً:

«ويحكَ يا ابنَ عرَفةَ: اعملوا لغيرِ رئاءٍ ولا سُمعةٍ، فأنَّهُ من عمِل لغيرِ الله وكلَهُ الله الى ما عمِل ...»(٥).

وقال الرسول الاكرم محمدصلى الله عليه وآله:

«انَّ الملَكَ ليَصعدُ بعملِ العبدِ مُبتهِجاً بِهِ فاذا صعدَ بحسناتهِ يقولُ الله عزّ وجلّ اجعلوها في سِجّينٍ انهُ ليس ايّايَ أرادَ بها»(٦).

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٤.

(٢) تحف العقول، ص ٢٢٣.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٩٥، باب الرئاء، ح ٩؛ مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٢.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٩٤، ح ٥.

(٦) نفس المصدر، ح ٧؛ مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٢.

الرياء بعد العمل

ذكر الفقهاء بشأن النية انّ الرياء بعد العمل لا يبطل العمل لأنّ العمل قد وقع في موقعه بشكل صحيح وكامل، والرياء الحاصل فيما بعد لا يغير وضعه في ظرفه الوجودي. ولكن يُستشف من بعض الأحاديث انّ التحدث عن العمل أمام الآخرين واظهاره، يؤدي الى التقليل من ثوابه، ثم يأخذ حكم الرياء في حالة التكرار، الأمر الذي يبعث على فساد العمل وضياعه. لذلك ينبغي الحذر والاحتراس الشديدين لئلا تذهب كل تلك الاعمال والمشاق ادراج الرياح مع أقل الانزلاقات.

ورد انّ الامام محمداً الباقر عليه السلام قال:

«الإبقاءُ على العمل أشدُّ منَ العمل، قيل: وما الابقاءُ على العملِ؟ قال: يصلُ الرَّحِمَ بِصلةٍ ويُنفقُ لله وحدهُ لا شريكَ لهُ فكُتبت لهُ سِرّاً ثمَّ يذكُرُها فتُمحى فتُكتبُ لهُ علانيةً ثمَّ يذكُرُها فتُمحى وتُكتبُ لهُ رِئاءً»[1].

«... عن جميل بن دراج قال: سألتُ ابا عبدالله (الصادق) عن قول الله عزّ و جل ﴿فلا تُزَكُّوا أنفُسَكُمْ هُوَ أَعلمُ بِمَنِ اتَّقى﴾[2] ،قال: قول الانسان صليتُ البارحةَ وصُمتُ امسِ ونحو هذا، ثم قال عليه السلام: انّ قوماً كانوا يُصبحون فيقولون: صلينا البارحةَ وصُمنا أمسِ فقال علي عليه السلام: لكنّي أنامُ الليلَ والنَّهارَ وَلَوْ أجدُ بينَهما شيئاً لَنِمْتُهُ»[3].

ويبدو ان كلام الامام علي عليه السلام كان على سبيل الكناية وبقصد النصيحة للتأكيد على ضرورة ان لا يتبجح الانسان المخلص بعباداته واعماله الصالحة وان لا يطري نفسه من خلالها.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥٥.

(٢) النجم / ٣٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥٤.

وهذا هو الذي دفع للتأكيد على ضرورة ممارسة المستحبات والصدقات والتبرعات في الخفاء والسر، نظراً لتعرضها للرياء والوساوس الشيطانية اكثر من غيرها.

الرياء من المعاصي الكبيرة

الرياء فضلاً عن افساده للعمل، يُعدّ ايضاً من المعاصي الكبيرة لأنه بمثابة الشرك، والشرك من الكبائر.

قال رسول الله الاكرم محمدﷺ:

«انَّ أخوفَ ما أخافه عليكمُ الشركُ الأصغرُ، قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسول الله؟ قال: الرئاءُ، يقولُ الله عزَّ وجل يومَ القيامةِ اذا جازى العبادَ بأعمالهم: اذهبُوا الى الذينَ كُنتمْ تُراؤون في الدنيا هل تجدونَ عندهُمْ ثوابَ أعمالِكُمْ؟»[١].

وورد عن الرسول محمدﷺ قوله:

«مَنْ صلّى صلاةً يُرائي بها فقد أشركَ وَمَنْ صامَ صياماً يُرائي بِهِ فقد أشركَ»[٢]

وورد ايضاً انّ الرسولﷺ قال:

«انَّ النارَ وأهْلَها يَعجّونَ مِنْ أهلِ الرئاءِ فقيل: يا رسول الله وكيفَ تَعجُّ النارُ؟ قال (ص): مِنْ حَرِّ النارِ التي يُعذَّبُونَ بِها»[٣].

وورد عنهﷺ:

«... يُقالُ لأهلِ الرئاءِ صُمْتُم وَصَلَّيْتُم وَتَصَدَّقْتُمْ وجاهَدْتُمْ وَقَرأْتُمْ لِيُقالَ ذلكَ فقد قيلَ ذلك، ثم قالَ: انَّ هؤلاءِ أوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِمُ النارُ[٤].

---

(١) عدّة الداعي، ص ٢٨٨.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١١، ص ٧١، ذيل الآية ١١٠، سورة الكهف؛ عدة الداعي، ط بيروت، ص ٢١٧؛ بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٢٢.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ١٤؛ مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١١.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ١٤.

وقال علي عليه السلام:

«الرياءُ شِرْكٌ»[١].

الخلاصة

نستنتج من كل ما سبق انّ العبودية الخالصة المخلصة تمثل أساس سعادة الانسان. ولو قام هذا الانسان بعمل تُشَمُّ منه رائحة الرياء والتظاهر، فلا فائدة تُرجى من هذا العمل قط، ولن يقبله الله تعالى، ويقف صاحبه بيد خالية في ميدان يوم القيامة وصحراء الحشر، لأنه لم يعمل لله كي يطلب من الله ثواباً وأجراً في الدار الآخرة.

وهكذا ينبغي على الانسان ان يقصد في اعماله جميعاً الله تعالى ويطلب بها رضاه وقربه لا رضا الناس وقربهم. ولو انجز أعمال الخير لله خفيةً وسرّاً وبعيداً عن اعين الناس، فليعلم انّ الله تعالى سيُجري ذكر خيره على ألسن الناس ويرفع شأنه في الدنيا والآخرة، اذ ورد في الحديث القدسي:

«عليكَ سَتْرُهُ وعَلَيَّ إظهارُهُ»[٢].

---

(١) عدة الداعي، ط بيروت، ص٢١٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٣٠.

تجدر الاشارة الى انّ حرمة الرياء أمر مسلّم به في العبادات والأعمال العبادية، اما على صعيد الاعمال الاخرى فلم أجد دليلاً على حرمتها، وان كان يفرغها من محتواها ويُفقدها قيمتها، والله أعلم.

(١٤)

الرياضة ومجاهدة النفس

المجاهدة والرياضة، مرحلة اخرى من مراحل البداية

المراد بالرياضة ليس ترك الدنيا، ورهبانية الهندوس وأتباع الكنيسة، ولا الأربعينية الصوفية وعُزلة اهل الخانقاه، وانما المراد بها تمرين النفس وترويضها على اعمال الخير والسنن الصالحة بما فيها أداء الواجبات وترك المحرمات، والقيام بسائر الامور الحسنة.

النفس الانسانية تبحث عادةً عن الرخاء والراحة وعدم الالتزام والتقيّد، وتتساهل في بادئ الامر وبتأثير الشهوات والميول الحيوانية، في اداء الفرائض وانجاز الوظائف ولا تعير لها اهتماماً كبيراً، في حين تبدو اكثر استعداداً نحو اقتراف السيئات والتمرد على القوانين والنظُم.

وانطلاقاً من ذلك لابد من المثابرة الجادة على مكافحة هوى النفس وكبح جماحه، وتذليل النفس الحيوانية وجعلها على استعداد للاطاعة والانصياع.

وتستهدف رياضة النفس تحقيق ثلاثة أهداف عادةً: الاول ازالة العقبات التي تحول دون الوصول الى الله، والثاني اخضاع النفس الحيوانية لهيمنة العقل العملي، والثالث اعداد النفس لقبول الفيض الالهي والهدى الرباني والامداد الغيبي. وقد

قال الله تعالى: ﴿والذينَ جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[١].

مجاهدة العدو الداخلي

لاشك في انّ جهاد النفس، عمل في منتهى الصعوبة، لأنّ النفس ألدّ اعداء الانسان، ولابد للمرء من المجاهدة والرياضة والتمرين لبلوغ هذا الهدف. ولهذا السبب نجد انطلاق الأحاديث للتأكيد على عملية جهاد النفس والتصدي لأهوائها.

قال الامام علي عليه السلام:

«لا عَدُوَّ أعدى على المرء مِنْ نَفْسِهِ»[٢].

كما قال عليه السلام:

«نَفْسُكَ أقربُ أعدائِكَ اليك»[٣]

وقال ايضاً:

«نفسُكَ عَدُوٌّ مُحارِبٌ وَضِدٌّ مُواثِبٌ انْ غَفَلْتَ عنها قَتَلَتْكَ»[٤].

وقال:

«جاهدوا أهواءَكُمْ كما تُجاهدونَ أعداءَكُمْ»[٥].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«احذروا أهواءَكُمْ كما تحذرونَ أعداءَكُمْ...»[٦].

ونقل سعدي في روضته[٧]: قيل لأحد العرفاء ما معنى الحديث النبوي القائل

---

(١) العنكبوت / ٦٩.

(٢) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٩٣.

(٣) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٩٢.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٩٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ٢٠، ص ٣١٤.

(٦) سفينة البحار، ج ٢، ص ٧٢٨.

(٧) گلستان.

انّ نفسك أعدى أعدائك عليك فقال: لأنك لو أحسنت لأي عدو وأعطيته كل ما يريد منك لأصبح صديقاً لك، إلّا النفس فانك كلما لبّيت طلباتها ازدادت في عدائها لك[١].

انّ عملية مجاهدة النفس ومجابهة اهوائها وترويضها، عملية ضرورية ولابد منها بحيث يقول الامام علي‌عليه‌السلام وهو صاحب مقام العصمة:

«... وانّما هي نفسي أرُوضُها بالتقوى لتأتي آمنةً يومَ الخوفِ الأكبرِ ...»[٢].

انّ التغلب على هوى النفس والسيطرة عليه، عملية شاقة وفي منتهى الصعوبة، ولو عجز المرء في بداية الامر عن الامساك بزمام نفسه، ولو ظلّ حراً في اشباع غرائزه وميوله النفسية، ولم يمرّن نفسه على الحرمان والظروف الصعبة، لتغلبت عليه الأهواء والميول والغرائز، فيفقد في نهاية المطاف القابلية على مقاومة المعصية، كما قال أمير المؤمنين علي‌عليه‌السلام:

«غالِبِ الشَّهْوَةَ قَبْلَ قوَّةِ ضراوَتِها فَانّها انْ قَويَتْ مَلَكَتْكَ واسْتَقادَتْكَ ولم تَقْدِرْ على مُقاوَمَتِها»[٣].

ويقول الامام علي‌عليه‌السلام:

«غالبوا أنْفُسَكُمْ على تركِ المعاصي يَسْهَل عليكُمْ مَقادتُها الى الطاعاتِ»[٤].

وعلى صعيد آخر، يتمتع هذا الموجود السماوي العجيب بالضمير الاخلاقي والشعور بالمسؤولية، ويُملي عليه هذا الشعور بالمسؤولية الالتزام بما عليه من تعهدات ومسؤوليات انسانية. ولذلك يحتدم بالضرورة صراع في داخل الانسان. وينتصر في هذا الصراع اولئك الذين يعملون من خلال الجهاد المستمر والسعي الدائب على تعزيز ما لديهم من بواعث الهية وانسانية والسيطرة على نزعاتهم

---

(١) نقلاً عن الانسان الكامل للشهيد مرتضى المطهري، ص ١٢٧.
(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٤٥.
(٣) فهرست الغرر، ص ١٨٧، ح ٦٤٤٤.
(٤) فهرست الغرر، ص ١٢٩، ح ٦٤١٠.

النفسانية الشيطانية.

ولاشك في انّ هذا النوع من الجهاد، أصعب بكثير وأقسى من جهاد العدو الخارجي حتى انّ الرسول الاكرم محمداً ﷺ أطلق عليه اسم «الجهاد الاكبر»، حين عودته من قتال الكافرين والمشركين:

«مَرْحَباً بقومٍ قَضَوا الجهادَ الأصْغَرَ وَبَقِيَ عَلَيْهِمُ الجهادُ الأَكْبَرُ. قيل: يا رسول الله وما الجهادُ الأكبرُ؟ قال: جهادُ النفس...»[1].

ولا ينتصر في هذا الجهاد إلّا اولئك الذين اكبّوا على تأديب انفسهم وترويضها وتعويدها على الاعمال الصالحة.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«مَنْ لم يَسُسْ نَفسَهُ أضاعَها»[2].

وقال في موضع آخر:

«ولا تُرَخِّصُوا لأَنْفُسِكُمْ فَتَذْهبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مذاهبَ الظَّلَمَةِ ولا تُداهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الإدهانُ على المَعْصِيَةِ...»[3].

وقال ايضاً:

«اذا صَعُبَتْ عليكَ نَفْسُكَ فاصْعُبْ لها...»[4].

وقال:

«لِسانُكَ يَسْتَدْعيكَ ما عَوَّدْتَهُ ونَفْسُكَ تَقْتَضيكَ ما أَلِفْتَهُ»[5].

محاربة العادات القبيحة

لابد على صعيد آخر من محاربة العادات القبيحة السيئة والتصدي لها. لأنّ

(١) بحار الانوار، ج ٦٧، ص ٦٥.

(٢) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٨٩.

(٣) نهج البلاغة، خ ٨٦.

(٤) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٩٢.

(٥) شرح غرر الحكم، ج ٥، ص ١٣١، ح ٧٦٣٤.

المرء ما لم يغيّر عاداته القبيحة، لا يحقق النجاح في اصلاح نفسه وأداء واجباته.

قال عليّ عليه السلام:

«غيِّروا العاداتِ تَسْهُلْ عليكُمُ الطاعاتُ»[١].

وقال ايضاً:

«آفَةُ الرياضَةِ غَلَبَةُ العادةِ»[٢].

وقال في موضع آخر:

«أفضلُ العبادةِ غَلَبَةُ العادةِ»[٣].

أي تغلّب المرء على العادة القبيحة.

وقال ايضاً:

«ذَلِّلوا أنْفُسَكُمْ بِتَرْكِ العاداتِ»[٤].

ولاشك في انّ تغيير العادات أصعب من ايجادها.

وقد قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في ذلك:

«أصْعَبُ السِّياساتِ نَقْلُ العاداتِ»[٥].

انّ خَوض الصراع، شاقّ وصعب في بداية الأمر، سلبياً كان ام ايجابياً، لكن ينبغي عدم التخوف ولابد من الاستعانة بالله والتوسل بالصبر والمقاومة من اجل الوصول الى ساحل النجاة والظفر، لأنّ الله مع الصابرين.

ولابد ان نعلم ايضاً بأنّ من يخطو في هذا الطريق فلابد ان تسهل الامور عليه شيئاً فشيئاً ويستشعر اللذة خلال ذلك.

والطريف في الامر وخلافاً للتصور العام، يُعدّ دخول ميدان جهاد النفس

---

(١) نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٨١، ح ٦٤٠٥.

(٢) نفس المصدر، ج ٣، ص ١٠٤، ح ٣٩٣٣.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٧٥، ح ٢٨٧٣.

(٤) نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٨، ح ٥١٩٩.

(٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٩٣، ح ٢٩٦٩.

والاهواء بالنسبة للشباب أسهل من غيرهم، لأنّ لوحة قلوبهم لم تتطبّع على القبائح والرذائل، ومصباح الفطرة لم ينطفئ في قلوبهم.

قال الامام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام:

«وانما قلبُ الحَدَثِ كالأرضِ الخاليةِ ما أُلقِيَ فيها مِنْ شَيءٍ قَبِلَتْهُ، فَبادَرْتُكَ بالادَبِ قَبْلَ أنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَ يَشْتَغِلَ لُبُّكَ...»[1].

وهكذا ينبغي على من يرغب في قطع طريق تهذيب النفس وصقلها، الامساك بعنان النفس الجامحة المتمردة، والاجتهاد في تأديبها، وعدم الخوف من المشكلات وعدم التلكؤ في بذل كل سعي وجهد.

المهم في بداية العمل هو وجود الارادة والدافع، فانهما يلعبان دوراً اساسياً في عملية المجاهدة. بتعبير آخر: ان الذي يحظى بالأهمية هو ان يشعر المرء بالألم اولاً كي يبحث عن العلاج. ولو عمل المرء على احياء هذا الشعور في نفسه، لبحث عن الطبيب والعلاج قبل أي شيء آخر.

نعم، فالانسان المتألم ينهض من النوم في منتصف الليل ويبحث عن العلاج بالدموع والأنين والتوجّع. المريض ومن اجل ان يشفى مما فيه، لابد له من الحمية عن الطعام، وشرب الدواء المرّ، ويمتنع عن الدخول الى الأماكن الملوثة والاختلاط بالمرضى كي يظل بمنأى عن الاصابة بالجراثيم، وينصرف عن الحرص والجشع ويتحرك ويعمل في حدود الضرورة، ويتجنّب كل ما فيه شبهة ويحوم حوله الشك، حفاظاً على حياته وسلامته.

لذلك لو أردنا ان نعيش حياةً حافلةً بالنقاء، ونلاقي الله آخر المطاف بقلب نقي سليم، فلابد لنا من اقتحام ميدان العمل بجد وارادة وعزيمة، اذ قال تعالى:

﴿وَأَنْ ليس للانسانِ إلّا ما سعى وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى﴾[2].

اذا ما أردنا أن يكفّ الشيطانُ شرَّهُ عنا، فعلينا ان نعمل خلافاً لرغباته كي

---

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، ك ٣١.

(٢) النجم / ٣٩.

يشعر باليأس والاحباط ويرجع خائباً يائساً منا.

وقال الامام الصادق عليه السلام فيمن يعرّض نفسه لكثرة الشك والوهم والوسوسة:

«ولا تُعَوِّدوا الخبيثَ مِنْ أنْفُسِكُم بِنَقْضِ الصلاةِ فَتُطْمِعوهُ، فانَّ الشيطانَ خبيثٌ مُعتادٌ لِما عُوِّدَ بِهِ فَلْيَمْضِ أحَدُكُمْ في الوَهْمِ ولا يُكثِرَنَّ نَقْضَ الصلاةِ فَانَّهُ اذا فَعَلَ ذلكَ مَرّاتٍ لَمْ يَعُدْ اليه الشَّكُّ... انّما يريدُ الخبيثُ أنْ يُطاعَ فاذا عُصِيَ لَمْ يَعُدْ الى أحَدِكُمْ»[1].

ويُستفاد من هذا الحديث الشريف لو انّ المرء تجاهل وساوس الشيطان ولم يلتفت اليها لتخلص من شرّه. فالشيطان وعلى عكس ما هو شائع بين الناس، لا سيطرة له على الانسان في بادئ الامر، وانما يفرض سيطرته على من يرضى بولايته ويبايعه.

قال الله تعالى مخاطباً الشيطان:

﴿انّ عبادي ليسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلطانٌ إلّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ﴾[2].

وقال في موضع آخر:

﴿انّما سُلطانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُمْ بِهِ مُشْرِكون﴾[3].

الرياضة والهدى

اما اولئك الذين اختاروا عبودية الله تعالى، وجاهدوا في هذا الطريق وقاوموا، ففضلاً عن نجاتهم من نير عبودية الشيطان وخروجهم عن هيمنته، ستشملهم الألطاف الالهية الخفيّة، ويستظهرون بدعم وتوجيه ملائكة الرحمة ايضاً، اذ قال تعالى:

---

(١) الوافي، ج ٢، ص ١٥٠.

افضل طريقة لعلاج الوسوسة هي ما جاء في الحديث. وقد ثبت ذلك بالتجربة وهذا ما أكد عليه علماء النفس أيضاً.

(٢) الحجر / ٤٢.

(٣) النحل / ١٠٠.

﴿والذينَ جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[١].

وقال تعالى ايضاً:

﴿انَّ الذينَ قالوا رَبُّنا الله ثُم استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكةُ ألا تخافوا ولا تحزنوا...﴾[٢].

من ذلك، نعلم انّ للجهاد والرياضة في سبيل الله ميزتين: الاولى، تحرير الانسان من عبودية الشياطين، والثانية مجالسة الملائكة والصالحين «وَحَسُنَ اولئكَ رفيقاً». وهل هناك ثواب أعظم من هذا؟! «اللهم ارزُقنا توفيقَ الطاعة وبُعد المعصيةِ وعِرفانَ الحرمة».

أهمية الرياضة وتأديب النفس

الرياضة النفسية والتأديب النفسي، عملية مهمة الى درجة بحيث قال أمير المؤمنين (ع) فيها رغم كل ما لديه من كرامة وفضيلة:

«... وانّما هي نفسي أرُوضُها بالتقوى لتأتي آمنةً يوم الخَوفِ الأكبرِ وَتَثْبُتَ على جوانبِ المَزْلَقِ... لأرُوضَنَّ نفسي رياضةً تَهِشُّ معها الى القُرْصِ اذا قَدَرْتُ عليه مطعوماً وَتَقْنَعَ بالمِلْحِ مأدُوماً...»[٣].

وكتب الى مالك الاشتر:

«وانْ ظَنَّتِ الرعيَّةُ بِكَ حَيفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذرِكَ واعْدِلْ عنكَ ظُنُونَهُمْ بإصحارِكَ فانَّ في ذلكَ رياضةً منكَ لِنَفْسِكَ...»[٤].

الرياضة والصبر

ينبغي للسالك ان يتّسم بالصبر ويستعين بأنواع الصبر كصبر الطاعة، والصبر

---

(١) العنكبوت / ٦٩.

(٢) فصلت / ٣٠.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٤٥.

(٤) نفس المصدر، ك ٥٣.

عن المعصية، والصبر على المصيبة[١].

وورد في الحديث النبوي الشريف:

«الصَّبْرُ ثلاثةٌ: صَبْرٌ عِنْدَ المصيبةِ، وصبرٌ على الطاعةِ، وصبرٌ عَنِ المعصيةِ. فَمَن صَبَرَ على المصيبةِ حتّى يَرُدَّها بِحُسْنِ عَزائِها كتَبَ الله لَهُ ثلاثَمائةِ درجةٍ ما بينَ الدرجةِ الى الدرجةِ كما بينَ السماءِ الى الأرضِ، وَمَنْ صَبَرَ على الطاعةِ كَتَبَ الله لَهُ ستَّمائةِ درجةٍ ما بينَ الدرجةِ الى الدرجةِ كما بينَ تُخومِ الأرضِ الى العرشِ. وَمَنْ صَبَرَ على المعصيةِ كَتَبَ الله لَهُ تِسْعَمائة درجةٍ ما بينَ الدرجةِ الى الدرجةِ كما بينَ تُخومِ الأرضِ الى مُنتَهى العرشِ»[٢].

وقال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«الجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بالمكارِهِ والصَّبْرِ، فَمَنْ صَبَرَ على المكارِهِ في الدنيا دَخَلَ الجَنَّةَ. وَجَهَنَّمُ محفوفةٌ باللَّذّاتِ والشَّهواتِ، فَمَنْ أعطى نَفْسَهُ لَذَّتَها وشَهْوَتَها دَخَلَ النارَ»[٣].

وقال الامام الباقر عليه السلام: «لما حضرت ابي علي بن الحسين عليه السلام الوفاة ضمني الى صدره وقال: يا بني اوصيك بما اوصاني به أبي حين حضرته الوفاة وبما ذكر انّ اباه أوصاه به:

يا بُنَيَّ اصْبِرْ على الحقِّ وانْ كانَ مُرّاً»[٤].

---

(١) يقسم علماء الاخلاق الصبر الى خمسة انواع هي: الصبر عن الشهوات، والصبر على العبادة والطاعة، والصبر على المصائب والمكروهات، والصبر على اداء المستحبات والنوافل، والصبر على ظلم الظالمين وأذى المستكبرين. ومن البديهي ان النوع الاخير من الصبر لا يُعدّ صبراً جميلاً لأنّ تحمل الظلم حرام وغير جائز. ولابد للمرء ان يدافع عن حقه ويدفع الظلم عن نفسه وعن الآخرين. اما انواع الصبر الاخرى فهي من الصبر الجميل الممدوح والذي يؤلف نصف الايمان، اذ قال الرسول (ص) «الصبر نصف الايمان» (نقلاً عن جامع السعادات، ج ٣، ص ٢٨٧).

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٩١، ح ١٥. ولاشك في ان الهدف من هذه الاوصاف، الكشف عن عظمة الثواب الالهي وعلوّ مكانة الصابرين.

(٣) نفس المصدر، ص ٨٩، باب الصبر، ح ٧.

(٤) نفس المصدر، ص ٩١، ح ١٣.

ولاشك في انّ الصبر يبدو صعباً في بداية الطريق، إلّا انه يسهل تحمله شيئاً فشيئاً، او حسب التعبير القرآني انّ مع كل عسر يُسرين: ﴿فانَّ مع العُسْرِ يُسْراً، انَّ مع العُسْرِ يُسْراً﴾[1]؛ اليُسر الاول التخلص من الصعوبات الاولى، والثاني سُهُولةُ ادامة الطريق.

نعم، انّ اولئك الذين يحترقون ويتطبعون على المشاقّ وألوان العسر، سيصلون الى مقام الرضا في آخر المطاف، وهو أرفع من مقام الصبر بكثير، فيخاطبهم البارئ تعالى بدون حجاب:

﴿يا أيَّتُها النَّفْسُ المطمئنَّةُ ارجعي الى ربِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فادْخُلي في عبادي وادخُلي جَنَّتي﴾[2].

من الطبيعي انّ مقام الرضا، انما هو من نصيب اولئك الذين يذكرون الله دائماً ودون انقطاع، والذين توغلوا في وادي الاطمئنان وصعدوا منه الى مقام الرضا، اي انهم: ﴿الذينَ يذكرونَ الله قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهِمْ ويتفكَّرونَ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبحانَكَ فَقِنا عذابَ النّارِ﴾[3]. فهؤلاء قد ارتقوا الى درجة من المعرفة بحيث لا يرون أيّ بطلان في الخلق، اي لم يعد لديهم أي نوع من الاضطراب والشك والتردد، وبلغوا درجة عين اليقين.

---

(١) الانشراح / ٥ و٦.

(٢) الفجر / ٢٧ ـ ٣٠.

(٣) آل عمران / ١٩١.

(١٥)
النظام والانضباط وتقسيم الأوقات

يلعب النظام والانضباط دوراً اساسياً في تطور العمل وازدهاره. ولا يتسنى هذا النظام ما لم ينظم المرء وقته فيخصص لكل عمل وقتاً محدداً يفرض على نفسه الالتزام به ومراعاته. فالعالم الذي نعيش فيه عالم مادي عابر، وعمرنا محدود وقصير، وليس بالامكان بلوغ كل الأماني والتطلعات ضمن الدائرة الصغيرة هذه.

ان تقسيم اليوم الى اربع وعشرين ساعة، كان بالأساس من اجل ان يفرد المرء لكل عمل وقتاً ولكل موضوع بداية ونهاية. ولابد له من تقديم الأهم على المهم وحذف الامور غير الضرورية من برنامج الحياة، نظراً لضيق الوقت، وعلى اساس ما لدى المرء من معرفة بالأهم والمهم.

وينبغي الاتعاظ بدوران الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار، وأخذ العبرة من سنّة الخالق في خلقه. فالله تعالى ورغم انه الخالق للزمان، إلّا انه حين استعراضه لقصة خلق السماوات والارض، نراه يتحدث عن قضية الليل والنهار والشهر والسنة، فَيُطَبِّق كلاً منها على مقطع من الحركة تحت عنوان الزمان، ويشير الى انّ لكل منها قدراً مقدراً ومقياساً محدداً:

﴿... خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تقديراً﴾[١].

ونراه حينما يتحدث عن السماوات والأرض يقول:

﴿وَهُوَ الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ...﴾[٢].

﴿الذي خلق السماواتِ والأرضِ وما بينهُما في ستَّةِ أيامٍ...﴾[٣].

﴿وَهُوَ الذي خَلَقَ الليلَ والنَّهارَ والشمسَ والقمر...﴾[٤].

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿انَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عند الله اثنا عَشَرَ شَهْرَاً في كتابِ الله يـومَ خَـلَقَ السماواتِ والأرض...﴾[٥].

وقال تعالى أيضاً:

﴿وجـعَلْنا اللَّـيْلَ والنَّهـارَ آيَـتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَـةَ الليـلِ وَجَـعَلْنا آيَـةَ النَّهـارِ مُبْصِرَةً...﴾[٦].

فمثلما نظّم الله تعالى التكوين والخلق وقدّرهما، نظّم كذلك وبنفس التناسب، التكاليف والواجبات الشرعية وقضايا المعاش والمعاد، وجعل لكل منها وقتاً محدداً، بحيث يبدو كل منها جميلاً ورائعاً في وقته وساعته. فجعل تعالى الصيام في شهر رمضان والحج في شهر ذي الحجة، وحدّد لكل عمل وقتاً خاصاً وايـاماً محددة.

فقال تعالى بشأن الحج:

﴿واذكروا اللهَ في أيّامٍ معدوداتٍ﴾[٧].

---

(١) الفرقان / ٢.

(٢) هود / ٧.

(٣) الفرقان / ٥٩.

(٤) الانبياء / ٣٣.

(٥) التوبة / ٣٦.

(٦) الاسراء / ١٢.

(٧) البقرة /٢٠٣.

وقال في الصيام:

﴿... أياماً معدودات﴾[١].

وحينما تساءل الناس عن سبب الاختلاف في شكل القمر: من الهلال الى البدر ومن البدر الى المحاق، قال الله تعالى: ﴿يسألونَكَ عَنِ الاهِلَّةَ قُلْ هِيَ مواقيتُ للناسِ والحَجّ﴾[٢].

ويستشف من مجموع هذه الآيات انّ لكل شيء في هذا العالم المحدود وقتاً خاصاً، ولكل عمل زماناً لازماً، وانّ الله قد جعل تنظيم الامور جزءاً من اساس الخلقة.

وانطلاقاً من ذلك اهتم اولياء الله تعالى كثيراً بتنظيم الوقت وتوزيع الاعمال من اجل استثمار هذا العمر القصير وساعاته الذهبية الثمينة على احسن وجه وأقصى ما في وسعهم. واستطاعوا من خلال هذه البرمجة الزمانية الدقيقة والجهود المنظمة ان يخلّفوا آثاراً مباركة نفيسة.

ونقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم انه حينما كان يدخل الى الدار، يقسم وقته الى ثلاثة اقسام: للعبادة، وللأسرة، ولنفسه. كما كان يقسم الوقت الخاص به بين نفسه والناس، فكان يسمح للخاص والعام بالدخول اليه وعرض ما لديهم من حاجات وقضايا. ولاشك في انّ تلك المواجهات كانت محدودة وكان يمنح الوقت لزائريه بما ينسجم مع ما لديهم من فضل وصلاح، فيطرحون بين يديه مختلف القضايا الخاصة والعامة[٣].

قال علي عليه السلام في تقسيم الوقت:

«انّ لَيلَكَ ونهارَكَ لا يستوعبانِ جميعَ حاجاتِكَ فاقْسِمها بينَ عَمَلِكَ

---

(١) البقرة / ١٨٣.

(٢) البقرة / ١٨٩.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٤، ص ١٦٠.

وراحتِكَ»(١).

وقالﷺ ايضاً:

«اجعلْ لنفسِكَ فيما بينَكَ وبينَ الله سُبحانَهُ أفضَلَ المواقيتِ والأقسامِ»(٢).

النظام علامة العقل

قال الامام الصادقعليه السلام:

«ينبغي للمسلمِ العاقلِ أنْ يكونَ لَهُ ساعةٌ يُفضي بها الى عَمَلِهِ فيما بينَهُ وبين الله عزّ وجل، وساعةٌ يلاقي إخوانَهُ الذينَ يُفاوِضُهُمْ ويُفاوِضونَهُ في أمْرِ آخِرَتِهِ، وساعةٌ يُخلّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَلَذّاتِها في غَيرِ مُحرّمٍ فانَّها عونٌ على تلك الساعتين»(٣).

فالإمام الصادق عليه السلام ربط بين العقل والنظم حيث قال: ينبغي للمسلم العاقل...

وكان فيما وعظ لقمانُ ابنَهُ أنَّهُ قال لَهُ:

«يا بُنَيَّ اجعلْ في أيّامِكَ ولَياليكَ وساعاتِكَ نَصيباً لك في طَلَب العِلْمِ فَانَّكَ لَنْ تَجِدَ لَهُ تَضْييعاً مِثْلَ تَرْكِهِ»(٤).

---

(١) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٤٣٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٤١١.

(٣) فروع الكافي، ج ٥، ص ٨٧.

المراد بالساعة في الحديث الشطر من الوقت الذي يمكن انجاز عمل فيه.

(٤) العوالم، ج ٢، ص ٢٠٣.

(١٦)

اغتنام الفرص

ينبغي للسالك انتهاز الفرص التي تسنح له انـتهازاً كـاملاً، وألا يـدع هـذ الفرص تفلت من بين يديه قط.

كل انسان في هذه الدنيا تسنح له بعض الفرص السريعة والتي قد لا تتكر مرة اخرى. لذلك لابد من استثارها في العمل الصالح وبما يقرّب الى الباريُ تعالى وقد قال الامام علي عليه السلام:

«انَّ الفُرَصَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ فانتهزوها اذا أمْكَنَتْ في أبوابِ الخيرِ...»[1].

ودعا القرآن الكريم الناس للتسابق الى عمل الخير، فقال:

﴿وسارِعوا الى مغفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السماواتُ والأرضُ...﴾[2].

وقال ايضاً:

﴿واستَبِقوا الخَيْراتِ﴾[3].

---

(١) شرح غرر الحكم، ج ٢، ص ٥٧٢، ح ٣٥٩٨.

(٢) آل عمران / ١٣٣.

(٣) البقرة / ١٤٨.

ونُقِل عن الرسول الاكرم محمدﷺ قوله:

«انَّ لِرَبِّكُمْ في أيامِ دَهْرِكُمْ نفحاتٍ ألا فَتَعَرَّضوا لها»[١].

ورغم انّ التأنّي افضل من التسرع عادة، إلّا ان التسرع في فرص الخير عمل ممدوح ومطلوب، اذ قال عليعليه السلام:

«الفرصةُ سريعةُ الفَوْتِ وبطيئةُ العَوْدِ»[٢].

كما قال رسول اللهﷺ:

«مَنْ فُتِحَ له بابُ خَيْرٍ فَلْيَنْتَهِزْهُ فانّه لا يدري متى يُغْلَقُ عَنْهُ»[٣].

وقال عليعليه السلام:

«التَّثَبُّتُ خَيْرٌ مِنَ العَجَلَةِ إلّا في فُرَصِ الخَيْرِ»[٤].

وجاء في حديث آخر:

«اضاعَةُ الفرصةِ غُصَّةٌ»[٥].

كما جاء عنه ايضاً:

«مِنَ الخُرْقِ تركُ الفُرصةِ عند الامكانِ»[٦].

فانتهاز الفرص، دليل على العقل، كما انه من شيمة الأتقياء، وقد قال الامام عليعليه السلام في ذلك:

«أفْضَلُ الرأيِ ما لَمْ يُفِتِ الفُرصَ ولم يُورِثِ الغُصَصَ»[٧].

وقالعليه السلام ايضاً:

---

(١) المحجة البيضاء، ج٥، ص ١٥.

(٢) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٠٤.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٤) الفهرست الموضوعي للغرر، ص ٣٠٤.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٠٣.

(٦) نفس المصدر، ص ٣٠٤.

(٧) نفس المصدر.

«شيمةُ الأتقياءِ اغتنامُ المُهْلَةِ والتزوّدُ للرّحلةِ»[١].

وقال الرسول ﷺ في وصية له لأبي ذر (رض):

«يا أبا ذَرّ نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ الصحةُ والفراغ. يا أبا ذَرّ اغتنِمْ خمساً قَبْلَ خمْسٍ: شبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصحتَكَ قبل سُقْمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ، وفراغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ»[٢].

(١) نفس المصدر.

(٢) مستدرك الوسائل، عن امالي الطوسي، ج ١٢، ص ١٠٤، كتاب الجهاد.

(١٧)

خدمة عباد الله

من النقاط الخطيرة والحساسة في الاخلاق الاسلامية، هو الشعور بالتعاون والتعاضد وخدمة المؤمنين والصالحين. ويتضح لنا من مجموعة التعاليم الاسلامية وسيرة الأولياء عليهم صلوات الله، انّ هذه الخصلة الحميدة من أسمى وسائل التقرب الى الله تعالى بعد أداء الفرائض. فكان اولياء الله يسعون دائماً لخدمة الناس ويبادرون بأنفسهم لقضاء حوائجهم.

ونستشف من القرآن الكريم انّ ما كان في نفع الناس وصالحهم، هو الذي يخلد ويبقى، واما ما ليس في صالحهم فانه كالزبد الذي يعلو الماء سرعان ما يختفي ويتلاشى. وقد عبّر الله تعالى عن هذه الحقيقة بقوله:

﴿...فأمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وأما ما ينفَعُ الناسُ فَيَمْكُثُ في الأرضِ كذلك يضرِبُ اللهُ الأمثالَ﴾[١].

وقال الامام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَني مُباركاً اينَ ما

---

(١) الرعد / ١٧.

كُنْتُ...﴾(١) التي تحدثت عن لسان نبي الله عيسىعليه السلام، انّ المراد بـ «جعلني مباركاً»: «جعلني نفّاعاً»(٢).

وسُئل رسول اللهصلى الله عليه وآله: مَنْ خير الناس؟ فأجابصلى الله عليه وآله: «خيرُ الناسِ مَنَ نَفَعَ النّاسَ»(٣).

وورد في الحديث النبوي أيضاً:

«الخلقُ عيالُ الله فَأحَبُّ الخَلْقِ الى الله مَنْ نَفَعَ عِيالَ الله وَأَدْخَلَ على أهْلِ بَيْتٍ سُروراً»(٤).

وقال الامام جعفر الصادقعليه السلام:

«مَنْ طافَ بالبيتِ أُسبوعاً كَتَبَ الله عَزَّ وَجَلَّ لَهُ سِتَّةَ آلافِ حَسَنةٍ، ومحا عنهُ ستّةَ آلافِ سيئة، وَرَفَعَ لَهُ سِتَّةَ آلافِ دَرَجةٍ (وفي رواية إسحاق بن عمار: وقضى له سِتَّةَ آلاف حاجةٍ). ثم قال: قضاءُ حاجةِ المؤمنِ أفْضَلُ مِنْ طَوافٍ وطَوافٍ، حتى عَدَّ عَشْراً»(٥).

وقال رسول اللهصلى الله عليه وآله:

«دَخَلَ عَبدٌ الجَنّةَ بِغُصْنٍ مِنْ شَوْكٍ كانَ على طريقِ المسلمينَ فَأماطَهُ عَنْهُ»(٦).

يتصور بعض الناس انّ العبادة تنحصر في اطار الصلاة والصيام، وبعضهم غافلون الى درجة بحيث لو مات الناس أمامهم جوعاً لما اهتز لهم ضمير.

وطالما شوهد هذا النمط من الناس وهو يقضي اوقاته خلال الأسفار العبادية كحج بيت الله الحرام وزيارة المشاهد والعتبات المقدسة، بالأعمال المستحبة والأدعية والتضرعات دون ان تبدر من أحدهم بادرة مساعدة لمن هم معه في

---

(١) مريم / ٣١.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٥، ح ١١؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ٣٤١.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٤، ح ٧.

(٤) نفس المصدر، ص ١٦٤، ح ٦.

(٥) بحار الانوار، ج ٧١، ص ٣٢٦، ح ٩٥.

(٦) سفينة البحار، ج ٢، ص ٨٢.

سفره، رغم انّ فيهم الضعفاء والعاجزين ومن هم بحاجة ماسة الى المساعدة والعون.

اذن لابد للسالك الى الله ان يتّسم بحسن السلوك والتعامل مع الآخرين وان يحمل مشاعر حبّ الخير لغيره من عباد الله. وهذا الشعور، يصدّ المرء عن الغرور والتكبر ويعينه على التخلق بالأخلاق الالهية والملكوتية. وقد أكد الله تعالى على روح التعاون بين المسلمين واحسان بعضهم الى البعض الآخر، اذ قال:

﴿ولا تَنْسَوا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1].

وقال الرسول الاكرمﷺ:

«أَنْسَكُ النّاسِ نُسْكاً أَنْصَحُهُمْ جَيْباً وَأَسلَمُهُمْ قلباً لجميعِ المسلمينَ»[2].

وأوصى الامام جعفر الصادقعليه السلام سفيان بن عُيَيْنة قائلاً:

«عليكَ بالنُّصْحِ لله في خَلْقِهِ فلن تلقاهُ بعملٍ أفضلَ مِنْهَ»[3].

وهكذا لو أصبحتَ مرجعاً لحوائج الناس، فاشعر بالسرور لذلك، واعلم انّ الله يحبك. اما اذ انزويت في بيتك او محل عملك وأغلقتَ بابك بوجه الناس ولم تسمح لأحد بمراجعتك او لم يعد بمقدور احد ان يرجع اليك ويفضي لك بما يعاني من مشاكل، فاعلم بأنك قد حُرِمتَ من رحمة الله، وعليك ان تشعر بالحزن والألم لذلك بدلاً من الفرح.

قال رسول اللهﷺ:

«أقْرَبُكُمْ غَدَاً مني في الموقف أصدَقُكُمْ للحديثِ، وآداكُمْ للأمانَةِ، وأوفاكُمْ بالعهدِ، وَأَحْسَنُكُمْ خُلْقاً، وَأَقْرَبُكُمْ من الناسِ»[4].

وقال الامام الصادقعليه السلام موصياً شخصاً يدعى رُفاعة:

---

(١) البقرة / ٢٣٧.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٣.

(٣) نفس المصدر، ص ١٦٤.

(٤) بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٩٤.

«يا رُفاعَةَ ما آمَنَ باللهِ ولا بمحمدٍ ولا بعليٍّ مَنْ اذا أتاهُ أخوهُ المُؤمِنُ في حاجَةٍ لَمْ يَضْحَكْ في وَجْهِهِ، فَإن كانت حاجَتُهُ عِنْدَهُ سارَعَ الى قضائها، وإنْ لم تكنْ عنده، تَكَلَّفَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ حتى يَقْضِيَها لَهُ. فاذا كانَ بخلافِ ما وَصَفْتُهُ فلا وِلايَةَ بَيْنَنا وبَيْنَهُ»[1].

وقال الرسول الاكرم محمد ﷺ:

«انّما المومنونَ في تراحُمِهِمْ وَتَعاطُفِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الجَسَدِ الواحِدِ اذا اشتكى مِنْهُ عُضْوٌ واحِدٌ تداعى لَهُ سائِرُ الجسدِ بالحُمى والسَّهَرِ»[2].

وقال الامام الصادق عليه السلام ان الرسول ﷺ خطب في منى قائلاً:

«المسلمونَ اخوةٌ تتكافى دِماؤهُمْ ويسعى بِذِمَّتِهِمْ أدناهُمْ، هُمْ يَدٌ على مَنْ سِواهُمْ»[3].

وعلى هذا الضوء، ينبغي على المسلم ان لا يعيش حالة اللاابالية، ازاء معاناة المسلمين وآلامهم وما يتعرضون له من محن وخطوب، او ان يجهل اوضاعهم وظروفهم. لأنّ من لا يهتم بهذه الامور، فلن يهتم بما هو أعظم منها. ولابد ان يصاب شخص كهذا بحالة الغرور والغطرسة وحب الذات شاء ام أبى، فلا يفكر حينذاك إلّا بنفسه ومصالحه الخاصة، ولا يمتلك شيئاً من روح التعاون وعمل الخير. بينا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين الى التعاون في البر والتقوى:

﴿وتعاونوا على البِرِّ والتقوى...﴾[4].

فاللاأباليون والمتغطرسون يتجاهلون ضرورة التعاون في البر وعمل الخير والحفاظ على سلامة المجتمع، والذي يُعدّ مبدأً اسلامياً بالغ الأهمية، رغم انّ

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧٦.

(٢) سفينة البحار، ج١، ص ١٣. ونُقل نفس مضمون هذا الحديث في تفسير القرطبي (ج ١٦، ص ٣٢٧)، واصول الكافي (ج ٢، ص ١٦٥ و١٦٦، ح ١ و ٤).

(٣) وسائل الشيعة، ط بيروت، ج ١٩، ص ٥٥؛ امالي الصدوق، ط بيروت، المجلس ٥٦، ص ٢٨٧، ح٣.

(٤) المائدة / ٢.

الواجب الشرعي يملي على المسلمين كافة ان يساعد بعضهم البعض الآخر ويبرّ به ويُسدي اليه المعروف ويحسن اليه.

اذن من يرغب بالتخلق بالاخلاق الحسنة فلابد له من السعي كي يوجد في نفسه روح التعاون والالتحام والتعاطف مع ابناء دينه، وأن يحوّل من خلال الترويض والممارسة حالة البرود واللاابالية الى حالة التفاعل والاهتمام، والنزعة الفردية الى الروح الجماعية. أي ما أنْ يشعر انّ لدى اخيه في الدين مشكلة او حاجة، فعليه ان يسارع اليه وينطلق لحل مشكلته ورفع حاجته. بل ما أروع لو هبّ أحدنا لنجدة اخيه واعانته قبل ان يستنجد بنا ويصرخ طالباً العون والمساعدة، كي لا يتعرض لذل السؤال.

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أصْبَحَ لا يَهْتَمُّ بِأمورِ المسلمينَ فليسَ مِنْهُمْ وَمَنْ سَمِعَ رجلاً ينادي يا للمسلمينَ فلم يُجِبْهُ فليسَ بمسلمٍ»(١).

ويُستشف من الاحاديث أنّ من لا يكرّس امكاناته وما تَفضّل به الله عليه، في قضاء حوائج اخيه المسلم، فسيكرّسها لخدمة المعصية ولصالح أعداء الله.

قال الامام الباقر عليه السلام:

«مَنْ بَخِلَ بمعونةِ أخيه المسلمِ والقيامِ لَهُ في حاجته (إلّا) ابتُلِيَ بمعونةِ مَنْ يأثَمُ عَلَيْهِ ولا يُؤجَر»(٢).

وروى ابو بصير ان الامام الصادق عليه السلام قال:

«أيُّما رَجُلٍ مِنْ شيعَتِنا أتى رجُلاً من اخوانِهِ فاستعانَ به في حاجتِهِ فلم يُعِنْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ إلّا ابتلاهُ الله بأنْ يقضي حوائجَ غيرِهِ مِنْ أعدائِنا يُعَذِّبُهُ الله عليها يومَ القيامةِ»(٣).

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٤، ح ٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦٦، ح ١.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٦٦، ح ٢؛ معراج السعادة، ص ٣٨٥.

ذلّة الدنيا والآخرة

ورد في رواية اخرى عن الامام الصادق(ع):

«ما مِنْ مؤمنٍ يَخْذُلُ أخاهُ وَهُوَ يَقْدِرُ على نُصْرَتِهِ إلّا خَذَلَهُ الله في الدنيا والآخرةِ»[1].

خيانة الله والرسول

هناك حديث عن الامام الصادق يؤكد على انّ الذي لا يقضي حاجة اخيه المؤمن وهو يقدر على قضائها، انما يكون قد خان الله والرسول(ص):

«أيُّما مؤمنٍ منَعَ مؤمناً شيئاً مما يحتاجُ اليه وَهُوَ يَقْدِرُ عليهِ مِنْ عِنْدِهِ أو مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ، أقامَهُ الله يومَ القيامةِ مُسوَدّاً وجَهُهُ مُزْرَقّةٌ عيناهُ مَغلولَةٌ يداه الى عُنُقِهِ، فيُقالُ هذا الخائنُ الذي خانَ الله ورسولهُ ثُمَّ يُؤمَرُ بِهِ الى النارِ»[2].

الحرمانُ من رحمة الله

قال الامام جعفر بن محمد الصادق(ع):

«مَنْ كانت له دارٌ فاحتاج مؤمِنٌ الى سُكناها فَمَنَعَهُ ايّاها قال الله عزَّ وجَلّ يا ملائكتي أبَخِلَ عبدي على عبدي بِسُكنى الدار الدنيا وعزّتي وجلالي لا يسكُنُ جنّاتي ابداً»[3].

هذه الأحاديث وغيرها من الاحاديث الكثيرة تكشف عن الحقيقة التالية: لو كان بمقدور أحد تلبية حاجة اخيه المؤمن ولم يلبّها، فسيتعرض للغضب الالهي ويجني بعمله هذا الذلة في الدنيا والآخرة. لذا من كان بامكانه خدمة اخوته في الدين فعليه ان لا يشعر بالاستياء من ذلك، وعليه ان يستقبل من يقبل عليه بحاجة، بوجه طلِق ونفس منشرحة، وليعتبر ذلك نعمة أنعمها الله عليه، لأنّ

---

(١) بحار الانوار، ج ٧١، ص ٣١٢، ج ٧٢، ص ١٧؛ امالي الصدوق، المجلس ٧٣، ص ٣٩٣، ح ١٦.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٦٧؛ معراج السعادة، ص ٣٨٥؛ محاسن البرقي، ج ١، ص ١٠٠.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٧، ح ٣.

قضاء حاجات الاخوان من النعم الالهية الكبرى التي يغدقها الله على عباده.

فهينئاً لاولئك الذين يفتحون أبواب بيوتهم بوجوه الناس، وتعساً لمن يغلق بابه بوجوههم.

قال الامام الصادقعليه السلام:

«انَّ الرجلَ لَيَسأَلُني الحاجة فأُبادرُ بقضائها مخافَةَ أن يَسْتَغنيَ عنها فلا تجدُ لها موقعاً اذا جاءَتْهُ»[١].

ثواب قضاء حاجات المؤمنين

قال الامام الصادقعليه السلام:

«مَنْ قضى لأخيه المؤمنِ حاجةً قضى الله عزَّ وجل له يومَ القيامة مِـئَةَ ألفِ حاجةٍ من ذلك أوَّلُها الجنةُ ومِنْ ذلك أنْ يُدْخِلَ قرابَتَهُ ومعارِفَهُ واخوانَهُ الجَنَّةَ بَعدَ أن لا يكونوا نُصّاباً»[٢].

وقالعليه السلام ايضاً:

«قضاءُ حاجةِ المؤمنِ خيرٌ مِنْ عِتقِ ألفِ رقَبةٍ وخَيرٌ مِن حُملانِ ألفِ فَرَسٍ في سبيل الله»[٣].

وقال:

«ما قضى مسلمٌ لمسلمٍ حاجةً إلّا ناداهُ الله تباركَ وتعالى عَلَيَّ ثوابُكَ ولا أرضى لَكَ بدونِ الجنةِ»[٤].

ونقل الامام عليعليه السلام حديثاً عن الرسولصلى الله عليه وآله جاء فيه:

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ٢٨٦ و ٣١٧.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٩٣، ح ١.

(٣) نفس المصدر، ح٣؛ بحار الانوار، ج ٧١، ص ٣٢٤؛ الاختصاص، المفيد، ص ٢٦ مع تفاوت يسير.

(٤) قرب الاسناد، ص ١٩؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٩٤، ح ٧؛ بحار الانوار، ج ٧١، ص ٢٨٥.

«مَنْ قضى لأخيهِ المؤمنِ حاجةً كانَ كَمَنْ عَبَدَ الله دَهْرَهُ»[١].

وورد أيضاً:

«مَنْ سعى في حاجةِ أخيهِ المؤمنِ فكأنَّما عَبَدَ الله تِسعَةَ آلافِ سَنَةٍ صائماً نهارَهُ قائماً لَيْلَهُ»[٢].

وأوصى امير المؤمنين عليّ عليه السلام كميل بن زياد قائلاً:

«يا كُميلُ مُرْ أهلكَ أنْ يروحُوا في كَسْبِ المكارِمِ، وَيُدْلِجُوا في حاجةِ مَن هُوَ نائمٌ، فَوَالذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ ما مِنْ أحدٍ أودعَ قلباً سُروراً، إلّا وَخَلَقَ الله لَهُ مِنْ ذلك السرورِ لُطْفاً، فاذا نَزَلَتْ بِهِ نائِبَةٌ جَرَى اليْها كـالماءِ في انحدارهِ حتّى يطرُدَها عنه كما تُطرَدُ غريبةُ الابِلِ»[٣].

وهكذا نجد كيف يؤكد الدين الاسلامي على مساعدة الاخوة في الدين وقضاء حوائجهم واسداء الفضل والمعروف اليهم بحيث لو سعى أحد في حاجة اخيه المسلم ولم يفلح في قضائها، فانه يحصل على مثوبة أيضاً، وهذا ما عبّر عنه الامام محمد الباقر عليه السلام حينما قال:

«أوحى الله عزّ وجلّ الى موسى انَّ مِنْ عبادي مَنْ يتقرّبُ اليَّ بالحسنةِ فَأُحكِّمُهُ في الجنّةِ. فقال موسى: يا ربّ وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمنِ في قضاءِ حاجَتِهِ قُضِيَتْ أوْ لَمْ تُقضَ!»[٤].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«وما مِنْ مؤمِنٍ يمشي لأخيه في حاجَةٍ إلّا كَتَبَ الله لهُ بكُلّ خُطْوَةٍ حَسَنَةً وَحَطَّ عَنْهُ بها سيّئَةً وَرَفعَ لَهُ بها درجةً»[٥].

---

(١) بحار الانوار، ج ٧١، ص ٣٠٢، ح ٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٣١٥.

(٣) نهج البلاغة، فيض الاسلام، ح ٢٤٩.

(٤) الجواهر السنية، ص ٤١؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٩٥، ح ١٢.

(٥) الاختصاص، المفيد، ص ٢٧.

وورد في الحديث النبوي الشريف:

«مَنْ مشى في حاجةِ أخيهِ المسلمِ كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خُطوَةٍ سبعينَ حَسَنَةً وكفَّرَ عنه سبعينَ سَيِّئَةً»[١].

ملاحظتان مهمتان:

١ ـ ان عرض المسلم حاجته بين يدي اخوته في الايمان دليل على عقده للأمل عليهم وثقته بهم. ولابد للمرء ان يتعامل مع هؤلاء بما يبعث على تعزيز هذا الشعور لا زعزعته. وقد قال الامام جعفر الصادق عليه السلام:

«كفى بالمرءِ اعتماداً على أخيه أنْ يُنزِلَ بِهِ حاجَتَهُ»[٢].

٢ ـ عبّرت الثقافة الاسلامية عن حوائج الناس بالنعمة والرحمة. لهذا لو تقاطرت الحوائج والطلبات على الأثرياء واصحاب الوجهة الاجتماعية، فليعلموا بأنّ ابواب رحمة الله قد فُتحت عليهم، وليس هناك من يستاء من تقاطر النعم الالهية عليه. ولذلك قال الامام الحسين عليه السلام:

«انَّ حوائجَ الناسِ اليكُم مِنْ نِعَمِ الله عليكُمْ فلا تَمَلّوا النِّعَمَ»[٣].

وقال الامام موسى بن جعفر عليه السلام:

«مَنْ أتاهُ أخوهُ المؤمنُ في حاجةٍ فانّما هي رحمةٌ من الله تباركَ وتعالى ساقَها اليه»[٤].

ومن هنا ينبغي على المسلم ان يفتح صدره لاستقبال هذه النعم والبركات الالهية، ويجتهد ما وسعه لقضاء حاجات الناس وتلبية طلبات المعوزين. اما اذا كان عاجزاً عن تلبيتها، فليجبهم أجوبة نابضة بالأمل وطافحة بالانسانية، اذ

---

(١) مكاشفة القلوب، الغزالي، ص ١٣١.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٩٨، ح ٨.

(٣) بحار الانوار، ج ٧١، ص ٣١٨.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٩٦؛ وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٥٧٨، ح ٩.

كان الرسول الاكرم ﷺ هكذا:

«مَنْ سأله حاجةً لم يَرُدَّهُ إلّا بها أو بميسورٍ مِنَ القَولِ»[١].

اي ان الرسول ﷺ لم يكن ليرد صاحب الحاجة إلّا بقضاء حاجته، وحينما كان يعجز عن قضائها كان يرده بقول جميل وباعث على الأمل.

أي لو كان أحدنا عاجزاً عن قضاء حاجة أخيه المسلم، فينبغي التحدث معه بالطريقة التي لا تبعث على زرع اليأس في قلبه أو شعوره بالاحباط.

قال الله تعالى في قرآنه الكريم:

﴿وَإِمّا تُعرِضَنَّ عَنهُم ابتغاء رحمةٍ مِن ربِّكَ تَرجوها فقُل لَهُم قَولاً ميسوراً﴾[٢].

وبعد نزول هذه الآية كان الرسول ﷺ يجيب من يطلب منه شيئاً وليس عنده:

«يَرزُقُنا الله وَايّاكُمْ مِنْ فَضْلِه»[٣].

لذلك على من لا يستطيع قضاء حاجة المحتاج، انْ يعبّر عن تعاطفه معه بكلمات جميلة باعثة على الأمل، كأنْ يقول له «اتمنى ان يقضي الله حاجتك، سأسعى في قضاء حاجتك ما وسعني»، لا أن ينهره أو يوجه اليه الكلمات الحادة القاسية أو يزرع في قلبه الخيبة. فمن يتصرف هكذا عليه ان يعلم بأنه غير آمن في الآخرة، اذا لا يأمن في الآخرة إلّا من كان ملجأً وأمناً للمحتاجين، كما اشار الى ذلك الامام الصادق عليه السلام بقوله:

«انَّ للهِ عباداً مِنْ خَلقهِ في أرضه يَفزعُ العبادُ اليهم في حوائج الدنيا والآخرة. اولئك همُ المؤمنونَ حقّاً، آمنونَ يومَ القيامة»[٤].

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٤، ص ١٦١.

(٢) الاسراء / ٢٨.

(٣) مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١١.

(٤) تحف العقول، ص ٢٨١. ورد هذا الحديث بهذا المضمون في بحار الانوار، ج ٧٤، ص ١٥٧.

الاصلاح بينَ الناس

السعي للاصلاح بين الناس، من النقاط الاخلاقية الاخرى التي اكدت عليها الآيات القرآنية وأحاديث أهل البيت‰ كثيراً.

ومن الآيات القرآنية التي تحثّ على الاصلاح بين الناس، الآيتان التاليتان:

﴿إنَّما المؤمنونَ اخوةٌ فَأصلحُوا بينَ أَخويكُم واتَّقُوا الله لعلَّكُم تُرحمونَ﴾[١].

وقال تعالى... ﴿والصُّلحُ خيرٌ﴾[٢].

أحاديث الاصلاح بين الناس

أولت الأحاديث الاسلامية موضوع الاصلاح بين الناس أو اصلاح ذات البين، اهمية فائقة، بحيث حثت الناس على هذا الأمر وشجعتهم عليه بمختلف العناوين. فعبّرت عنه بأفضل الصدقة، وافضل العبادة وما الى ذلك.

ونقل المرحوم الفيض الكاشاني حديثاً عن الامام الصادق في ذيل الآية السابقة (الحجرات / ١٠) يقول:

«صدقَةٌ يُحبُّها الله: اصلاحٌ بينَ الناسِ اذا تفاسدُوا، وتقارُبٌ بينهُم اذا تَباعدوا»[٣].

وقال‰ في حديث آخر:

«لأنْ أُصلحَ بينَ اثنينِ أحبُّ اليّ مِن أنْ أتصدَّقَ بدينارَينِ»[٤].

وقال الرسول الاكرم‰:

---

(١) الحجرات / ١٠.

(٢) النساء / ١٢٨.

(٣) تفسير الصافي، ج ٢، ص ٥٩٢. وورد هذا الحديث في اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩ ومشكاة الانوار، ص ١٧٦.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩.

«أفضلُ الصدقةِ اصلاحُ ذاتِ البينِ»(١).

ميزانيّة خاصة

الإصلاح بين المؤمنين يحظى بأهمية خاصة لدى أئمة الدين بحيث انّ الامام الصادقعليه السلام وضع ميزانية خاصة من ماله لفضّ النزاعات المالية بين اتباع أهل البيتعليهم السلام والإصلاح فيما بينهم، وأوصى أحد اصحابه ويدعى المفضّل قائلاً:

«اذا رأيتَ بين اثنينِ من شيعتِنا مُنازعةً فافْتدِها مِن مالي»(٢).

لذلك نقرأ في احدى الروايات عن لسان أحدهم:

«مرّ بنا المفضَّلُ وأنا وختَني نتشاجرُ في ميراثٍ، فوقف علينا ساعةً ثم قال لنا: تعالَوا الى المنزلِ فأتيناهُ فأصلحَ بينَنا بأربعمائةِ دِرهمٍ فدفعَها الينا مِنْ عندهِ حتّى اذا استوثَقَ كُلٌّ واحدٍ منّا مِن صاحِبِه، قال: أما انّها ليستْ مِن مالي ولكنْ أبو عبد اللهعليه السلام أمَرَني: اذا تنازعَ رجُلانِ مِنْ أصحابنا في شيءٍ أنْ أُصلحَ بينهُما وأفتديَها مِن مالِهِ. فهذا مِن مالِ ابي عبد الله (الصادق)»(٣).

أفضل العبادة

اصلاح ذات البين، أي الاصلاح فيما بين الناس، يُعدّ عملاً من أفضل العبادات، من وجهة نظر الامام علي ع). وقد عبّر عن ذلك خلال وصيته لولديه الحسن والحسين عليهما السلام وهو على فراش الاستشهاد:

«.... فانّي سمعتُ جدَّكُما صلى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يقولُ: صلاحُ ذاتِ البينِ أفضلُ مِن عامّةِ الصلاةِ والصّيامِ»(٤).

---

(١) كنز العمال، ج ٣، ص ٥٨، ح ٥٤٨٣.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ٣.

(٣) نفس المصدر، ح ٤.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٤٢١. ورد هذا الحديث في كنز العمال (ج ٣، ص ٥٨، ح ٥٤٨٤) عن الرسول الاكرم (ص).

الكذب من أجل الاصلاح

رغم ذمّ الكذب في القرآن والأحاديث وعدّه من الكبائر، إلّا انّ الاسلام اجازه اذا أُريد به الاصلاح بين الناس وفضّ النزاع بين الجانبين المتنازعين واعادة العلاقات فيما بينهما الى وضعها الطبيعي. ومن هنا فقد أوصى الامام الصادق أحد أصحابه قائلاً:

«انَّ المُصلحَ ليس بكذّابٍ، انما هُوَ الصُّلحُ ليسَ بكذبٍ»(١).

ونقرأ في حديث للامام علي عليه السلام قوله:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يصلُحُ الكذبُ إلّا في ثلاثة مواطِنٍ: ... وَكذبُ الرجلِ يمشي بين الرجلينِ لِيصلحَ بينهما»(٢).

الخروج عن الاسلام

انّ وجود العلاقة الطيبة الحميمة بين المسلمين، أمر مهم الى درجة كبيرة في الاسلام بحيث لو تهاجر مسلمان وقاطع أحدهما الآخر لثلاثة أيام، خرجا عن الدين الاسلامي.

وهذا ما يمكن ان نلاحظه بوضوح في الحديث النبوي الشريف التالي:

«أيّما مُسلمينِ تهاجَرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلِحانِ إلّا كانا خارجَينِ من الاسلامِ ولم يكنْ بينَهما وِلايةٌ، فأيُّهما سَبقَ الى كلامِ أخيهِ كانَ السابقَ الى الجنَّةِ يومَ الحسابِ»(٣).

وقال صلى الله عليه وآله ايضاً:

«أيّما مُسلمَينِ تهاجَرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحانِ إلّا ماتا خارجَينِ عَنِ

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢١٠، ح ٧.

(٢) أشعثيات، ص ١٧١؛ الذريعة الى مكارم الشريعة، ط النجف، ص ٩٨؛ المحاسن والمساوئ، البيهقي، ج ٢، ص ٦٣.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤٥، ح ٥.

الاسلام»[١].

فرح الشيطان

يود الشيطان ايقاع العداء والتشاحن بين المسلمين. وقد قال الله تعالى في ذلك:
﴿انّما يُريدُ الشّيطانُ أنْ يُوقِعَ بينَكمُ العداوةَ والبغضاءَ...﴾[٢].

لذلك يشعر الشيطان بالارتياح والسرور حينما يقع الخلاف بين مسلم وآخر، ويحاول أن يُبقي فتيل الغضب متأججاً بينهما دائماً. ولذلك قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«انّ الشيطانَ يُغري بينَ المؤمنينَ ما لم يَرجعْ أحدهُم عن دينهِ فاذا فعلوا ذلك استلقى على قِفاهُ وَتمَدَّدَ ثم قال: فُزتُ. فَرحِمَ الله امرأً ألّفَ بينَ وَليَّينِ لنا. يا معشَرَ المؤمنينَ تألّفُوا وَتعاطَفوا!»[٣].

ونقرأ في حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام قوله:

«لا يزالُ ابليسُ فرحاً ما اهتَجرَ المُسلمانِ فَاذا التَقَيا اصطكّتْ رُكبتاهُ وتخلّعَت أوصالُهُ ونادى يا وَيلهُ ما لقِيَ مِن الثُّبورِ»[٤].

لماذا كل هذا التأكيد؟

والسؤال الذي يُثار هنا هو: لماذا يؤكد الدين الاسلامي الى هذا الحد على اصلاح ذات البين بحيث لا يجيز الرسول محمد صلى الله عليه وآله التهاجر بين مسلم وآخر أكثر من ثلاثة أيام؟:

«ولا هجرةَ فوقَ ثلاثٍ»[٥].

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٩٨.
(٢) المائدة /٩١.
(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤٥، ح٦.
(٤) نفس المصدر، ح ٧.
(٥) نفس المصدر، ص ٣٤٤، ح ٤؛ صحيح مسلم، ج ٢، ص ٢٧٩.

ولماذا يستوجب المتهاجران لعنة الله تعالى؟ فقد قال المفضل انه سمع الامام الصادق عليه السلام يقول:

«لا يفترقُ رجُلانِ على الهِجرانِ إلّا استوجَبَ أحدُهُما البراءةَ واللعنَةَ، ورُبّما استحقَّ ذلكَ كلاهُما»[1].

ولماذا يضع الامام الصادق عليه السلام مالاً بين يدى المفضل لفضّ النزاعات بين أصحابه ومريديه والاصلاح فيما بينهم؟ ولماذا يُعدّ صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام؟ ولماذا ؟ ولماذا...؟.

ورغم انّ الاجابات على هذه التساؤلات ستُقدم ضمن موضوع «الانتصار في ظل الاتحاد»، ولكن لا بأس من الاشارة اليها هنا أيضاً. فلو فكّر أحد في العوامل التي تقف خلف عظمة امة من الامم ورفعتها وشموخها، لأدرك انّ حالة الوئام والصلح والانسجام السائدة بين افرادها، هي التي تقع خلف كل ذلك. أما اذا لم تسارع الامة الى حل النزاعات الجزئية والاختلافات البسيطة القائمة بين الافراد، ولم يبادر أحد الى الاصلاح فيما بين المتنازعين، فلابد أن تشتد تلك النزاعات وتأخذ طابع العداء، ثم يتجذر هذا العداء شيئاً فشيئاً مما يؤدي بالتالي الى تشتت افراد المجتمع وتمزقهم، وحينئذ يساوي ذلك التشتت والتمزق السقوط والشقاء والاندحار الكامل.

ومن هنا تبرز ضرورة احتواء أي مشكلة تبرز بين أيّ طرفين. وعلى طرفي الدعوى المبادرة الى الاعتذار ومدّ يد التصالح وعدم السماح للمشكلة بالتوسع والتعقد ابداً، اذ قال الامام الصادق عليه السلام: «لا يفترق رجلان على الهجران إلّا استوجب أحدهما البراءة واللعنة وربما استحق ذلك كلاهما» فقال له أحد اصحابه: «جعلني الله فداك هذا الظالم، فما بال المظلوم؟» فأجابه عليه السلام: «لانه لا يدعو أخاه الى صلته ولا يتغامسُ له عن كلامه»[2].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤٤، ح ١.

(٢) نفس المصدر.

وهكذا يجب على كل مسلم ان ينطلق لأخيه في الايمان ويصالحه، لأنّ الانقطاع بينهما لو زاد عن ثلاثة ايام لما شملتهما رحمة الله[١].

اذن ينبغي على المتخلّق بالأخلاق الحسنة ليس ان لا يعكّر صفو العلاقة بينه وبين اخيه المؤمن فحسب، وانما ان يسعى ايضاً لاستتباب العلاقات الحسنة بين الآخرين ايضاً، وأن يسأل الله تعالى كي يوفقه لمثل هذه المساعي الحميدة. ونتأسى نحن ايضاً بالامام زين العابدين عليه السلام فنرفع ايدينا الى الله وندعو متضرعين:

«اللهم صلِّ على محمد وآله وَحَلِّني بِحِلية الصالحين وَأَلبِسني زينةَ المُتَّقينَ في بسطِ العَدْلِ وكَظمِ الغيظِ واطفاءِ النّائرةِ وضمِّ أهلِ الفُرقَةِ واصلاحِ ذاتِ البينِ»[٢].

رعاية الأيتام وكفالتهم

تعد رعاية الأيتام وتفقدهم واحاطتهم بالحب والاهتمام، من المحاسن الاخلاقية في الاسلام. ففي الحياة الانسانية بعض الفراغات والنواقص التي لا تُملأ إلّا بالحب والحنان. ويُعدّ الأيتام لاسيما الأطفال منهم أكثر افراد المجتمع حاجةً للحب والعاطفة، لأنّ هؤلاء قد ابتعدوا عن ينبوع المحبة والرحمة بفقدان الأب أو الأُم، ولابد من ملء الحاجة الطبيعية الى هذه المحبة، ولابد لافراد المجتمع من تلبية هذا الشعور العاطفي والنفسي الذي لديهم.

---

(١) تجدر الاشارة الى ان الاهمية التي اولاها الاسلام للصلح والتوادد بين المسلمين وذمّه لحالة التهاجر والتشاحن فيما بينهم، يجب ان لا تدفع بالبعض الى تصور ضرورة التسالم والتلاحم مع اعداء الله والرسول والاسلام، اذ انّ مثل هذا التسالم والتلاحم مذموم في القرآن الى درجة انه عدّه من صفات غير المؤمنين، حتى وان كان مع أقرب المقربين اليهم:

﴿لا تجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ يوادّون مَن حادَّ الله ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهُم أو ابناءَهُم أو اخوانَهُم أو عشيرتَهُم...﴾ (المجادلة/ ٢٢).

(٢) الصحيفة السجادية، دعاؤه (ع) في مكارم الاخلاق.

وعلى صعيد آخر انّ وجود مثل هؤلاء الافراد في المجتمع، امر لا مهرب منه، لأنّ أي مجتمع لا يخلو من حادث، لاسيا المجتمع الاسلامي الذي يُعدّ فيه الجهاد والدفاع من اهم الواجبات، ومن الطبيعي ان يفقد الأبناء آباءهم أو امهاتهم بطريقة أو باخرى فيعيشون اليتم والحاجة الى الحنان.

وفي ظل مثل هذه الاوضاع لابد من اتخاذ الخطوات الضرورية المدروسة لاحتواء مشكلة الايتام. ولهذا السبب بالذات طرح الدين الاسلامي المقدس مشكلة اليتم كقضية أساسية ومهمة، وعدّ المسلمين مسؤولين عن مصيرهم على جميع الاصعدة اقتصادية كانت ام عاطفية ام تربوية ام تعليمية وما اليها.

ولا يقتصر البحث هنا على تأمين معاشهم وحاجاتهم المادية، لأنّ حاجات الانسان لا تتلخص في الماء والخبز، بل انه متعطش الى الحب والى من يلبي مشاعره وعواطفه. فالانسان كائن عاطفي ينزع نحو حب الآخرين ويتوق لرؤية حبّ الآخرين له. فالحب كامن في أعماقه. انه ليس مصنوعاً من الحجر أو الخشب كي يكون خالياً من الحب والمشاعر. فحينما يتأثر الكثير من الحيوانات بالحب وتعبّر عن هذا التأثر بردود فعل ايجابية، فكيف بامكان الانسان أن يعيش بعيداً عن الحب وهو الذي قد فُطر عليه وعُجن بطينته؟

مما لاشك فيه، ليس بامكان أي شيء ان يملأ فراغ الأب والام سوى الحب والحنان. وكم هو رائع لو تتكفل كل اسرة يتيماً أو يتيمين وتأخذ على عاتقها رعايتهما وتربيتهما وإغداق الحنان والعطف عليهما، لا أن تكتفي بتأمين معيشتهما.

يُعدّ تأسيس دور الايتام وتقديم المساعدات المالية لها أمراً محموداً وجميلاً، ولكن ليس بامكان هذه المؤسسات ان تكون بديلاً لمحيط الاسرة الدافئ، اذ ليس بامكان المعلم أو المربي المتقاضي للراتب، ان يحل محل الاب أو الام، في حين انّ الطفل بحاجة الى حنان الاب وعاطفة الام.

لذلك نجد الرسول الاكرمﷺ الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وذاق طعم اليتم المر، يؤكد كثيراً على احتضان الايتام ورعايتهم وتطويقهم بالحنان، ويحث

على تكفلهم وتربيتهم، وقد قام بنفسه بهذه المهمة العظيمة ايضاً.

ومن وصاياه ﷺ بهذا الشأن قوله:

«أحبُّ البيوتِ بيتٌ فيه يتيمٌ مُكرَّمٌ»[١].

ملاحظة ضرورية

على ضوء ما ذكرناه، ينبغي التنويه الى امر مهم على هذا الصعيد وهو انّ افضل الوسائل لملء الفراغ الذي يعاني منه اليتيم من وجهة نظر الثقافة الاسلامية، هو ان يُعدّ اليتيم جزءاً من أفراد الأسرة وأحد اعضائها وأبنائها، وان ينطلق دعمه واسداء العون اليه من منطلق الاحترام والتقدير بحيث يعيش وهو يشعر بالعزة والكرامة لا أن يعيش الذلة والامتهان والبؤس.

لهذا يُعدّ احتضان اليتيم ورعايته امراً مفيداً اذا كان التعامل خلال ذلك قائماً على أساس تأمين جميع الحاجات المادية والمعنوية والعاطفية، لا أن يقتصر على الجانب المادي. وفي غير هذه الحالة، ستبرز نتائج غير محمودة قد تخلق لدى اليتيم التعقيد والحقد.

ولكي نقف بشكل اوضح على أهمية هذا الواجب الديني والانساني والاخلاقي، من الأحرى ان نشير الى بعض الآيات والاحاديث الواردة بهذا الشأن.

القرآن واليتامى

نلاحظ في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تتحدث عن اليتامى. ومنها آيات تعتبر عدم الاهتمام بهم، من علامات الكفر والنفاق:

﴿أرَأيتَ الذي يُكذِّبُ بالدينِ فذلكَ الذي يدُعُّ اليتيمَ﴾[٢].

وقال تعالى في موضع آخر:

---

(١) تفسير المراغي، ج٣، ص١٤٩.

(٢) الماعون / ١ و٢.

﴿كلا بل لا تُكرِمونَ اليتيمَ ولا تَحاضّونَ على طعامِ المسكينِ﴾[١].

ومما اوصى به الله تعالى بعد العبادة والاحسان الى الوالدين وذي الاقرباء، هو الاحسان الى اليتامى:

﴿واذ أخَذَ الله ميثاقَ بني اسرائيلَ لا تعبُدونَ إلّا الله وبالوالِدينِ احساناً وذي القُربى واليتامى والمساكينِ...﴾[٢].

كما انه تعالى وحين استعراضه لمصاديق البرّ، ذكر ايتاء المال على حبّه لليتامى بعد الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، مما يدل على اهمية الاحسان الى اليتيم وأنه بمستوى هذه المصاديق:

﴿ليسَ البِرَّ أن تُولُّوا وُجوهكُم قِبلَ المَشرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ منْ آمَنَ بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيّين والمساكينَ...﴾[٣].

وحينما يشير القرآن الى يُتم الرسول محمدﷺ، ويخاطبه قائلاً:

﴿ألَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى﴾[٤].

ثم قال:

﴿فأمّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ﴾[٥].

في سورة الضحى، ذكّر الله تعالى رسوله الاكرم بيتمه، ثم أوصاه باليتامى خيراً، وذلك لأنهﷺ قد فقد والديه في صغره، ويدرك قبل غيره انّ اليتيم الذي حُرم من حنان الأبوين، بحاجة الى الحب والعاطفة أكثر من أي شيء آخر. ولهذا يخاطبه الباريً تعالى: مثلما كنت يتيماً فآويناك، فاعطف على اليتامى واغدق محبتك عليهم ولا تبعدهم عنك، لأنك قد ذقت لوعة اليتم وحرقة فقدان الابوين،

---

(١) الفجر / ١٧و ١٨.

(٢) البقرة / ٨٣.

(٣) البقرة / ١٧٧.

(٤) الضحى /٦.

(٥) الضحى / ٩.

وأنت اعرف بما يعانون.

وتتحدث هذه الآيات على العموم عن واجبين لابد من أدائهما تجاه الأيتام:

١ ـ تأمين حاجاتهم المالية.

٢ ـ ملء الفراغ العاطفي لديهم.

اليتم في الأحاديث

الأحاديث الواردة عن الرسول الاكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام والداعية الى رعاية الايتام والاحسان اليهم وتكفلهم، كثيرة جداً. وتؤكد هذه الاحاديث ايضاً على الأجر العظيم والنتائج الايجابية الكثيرة التي لابد وأن يحصل عليها المحسنون اليهم. وليس أمامنا سوى الاكتفاء ببعض هذه الأحاديث:

دخول الجنة

قال الرسول محمد ﷺ:

«من كفَّلَ يتيماً ونفقتَهُ كنتُ أنا وهو في الجنَّةِ كهاتينِ، وقرنَ بين اصبعَيهِ المسبِّحةِ والوسطى»[1].

وقال ﷺ ايضاً:

«من عالَ يتيماً حتى يستغنيَ عنهُ أوجَبَ الله عزَّ وجلَّ له بذلك الجنَّةَ كما أوجبَ لآكلِ مالِ اليتيمِ النارَ»[2].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«ومن أرادَ ان يُدخِلهُ الله عزَّ وجلَّ في رحمتهِ ويُسكنهُ جنَّتهُ فليُحسن خلقهُ ... وليرحمِ اليتيم»[3].

---

(١) قرب الاسناد، ص ٤٥.

(٢) أمالي الطوسي، ص ٣٣٢.

(٣) امالي الصدوق، ص ٣١٨، المجلس ٦١، ح ١٥.

لين القلب وادراك الحاجة

يعد لين قلب المرء وقضاء حاجته، من النتائج الاخرى المترتبة على الاحسان الى اليتيم والعطف عليه.

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«أيُحبُّ أن يلينَ قلبكَ وتُدركَ حاجتكَ؟ ارحمِ اليتيم، وامسح رأسه، وأطعِمهُ من طعامكَ يلينُ قلبكَ وتدركُ حاجتكَ»(١).

رفع الدرجات ومحو السيئات

نقرأ في الحديث النبوي التالي:

«والذي نفسي بيدهِ لا يلي مسلمٌ يتيماً فيحسنُ ولايتهُ ويضعُ يدهُ على رأسهِ إلّا رفعهُ الله عزّ وجل بكلِّ شعرةٍ درجةً وكتبَ لهُ بكُلِّ شعرةٍ حسنةً ومحا عنهُ بكلِّ شعرةٍ سيئةً»(٢).

وورد في أحد الأحاديث انّ أحد اصحاب رسول الله ﷺ ويدعى ابن أبي أوفى قال:

«كُنّا جُلوساً عند رسول الله ﷺ فأتاهُ غلامٌ فقال: غلامٌ يتيمٌ وأُختٌ لي يتيمةٌ وأُمٌّ لي أرملةٌ، أطعِمنا ممّا أطعمكَ الله، أعطاك الله ممّا عندهُ حتّى ترضى. قال: ما أحسنَ ما قلتَ يا غلامُ، اذهب يا بلالُ فأتِنا بما كان عندنا، فجاء بواحدةٍ وعشرينَ تمرةً. فقال: سبعٌ لك، وسبعٌ لأُختكَ، وسبعٌ لأُمّكَ. فقامَ اليهِ معاذُ بن جبَل فمسحَ رأسهُ وقال: جبَّرَ الله يُتمك وجعلكَ خلفاً من أبيكَ. وكان من أبناءِ المهاجرينَ. فقال رسولُ الله ﷺ: رأيتُكَ يا معاذُ وما صنعتَ؟ قال: رحمتهُ. قال: لا يليَ أحدُ منكُم يتيماً فيُحسنُ ولايتَهُ ويضع يدهُ على رأسهِ إلّا كتبَ الله لهُ بِكلِّ شعرةٍ حسنةً ومحا عنهُ بكُلِّ شعرةٍ سيئةً ورفعَ لهُ بكلِّ شعرةٍ درجةً»(٣).

---

(١) كنز العمال، ج ٣، ص ١٦٩، ح ٦٠٠٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٥، ح ٦٠٣٠.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٩٧.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من مسحَ على رأسِ يتيمٍ كان لهُ بكلِّ شعرةٍ تمرُّ على يدهِ نورٌ يومَ القيامةِ»[١].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«ما مِن مؤمنٍ ولا مؤمنةٍ يضعُ يدهُ على رأسِ يتيمٍ ترحُّماً له إلّا كتبَ الله لهُ بكلِّ شعرةٍ مرَّت يدُهُ عليها حسنةً»[٢].

ثواب ايواء اليتيم

السكن في الجنة:

ورد في هذا الحديث انّ جزاء إيواء اليتيم هو الجنة:

فقد قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«أربعٌ مَن كُنَّ فيه بنى الله لهُ بيتاً في الجنة: من آوى اليتيمَ، ورحِمَ الضعيف، وأشفقَ على والديهِ، ورفِقَ بمملوكهِ»[٣].

صرف العذاب:

من معطيات ايواء اليتيم، صرف عذاب القبر.

قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«مرّ عيسى بنُ مريم بقبرٍ يُعذَّبُ صاحبهُ، ثمَّ مرَّ بهِ من قابلٍ فاذا هو ليسَ يُعذَّبُ فقال: يا ربِّ مررتُ بهذا القبرِ عام أوَّلٍ فكان صاحبهُ يُعذَّبُ ثم مررتُ بهِ العامَ فاذا هو ليس يُعذَّبُ؟ فأوحى الله عزَّ وجلّ اليه، يا روحَ الله انَّهُ أدركَ لهُ ولدٌ صالحٌ فأصلحَ طريقاً وآوى يتيماً فغفرتُ لهُ بما عمِلَ ابنهُ»[٤].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦؛ ورد هذا الحديث بهذا المضمون في المحجة البيضاء (ج ٣، ص ٤٠٣) وتفسير نور الثقلين (ج ٥، ص ٥٩٧).

(٢) ثواب الأعمال، ص ٢٣٧.

(٣) خصال الصدوق، ج ١، ص ٢١١، ح ٤٦.

(٤) امالي الصدوق، ط بيروت، ص ٤١٤.

ثواب اسكات بكاء اليتيم

انّ بكاء اليتيم مؤثر الى درجة بحيث قال فيه الرسول الاكرمﷺ:

«... اذا بكى اليتيمُ وقعت دُموعهُ في كفِّ الرحمنِ ويقولُ تعالى: من أبكى هذا اليتيمَ الذي واريتُ والدهُ في التُّرابِ؟ من أسكتهُ فلهُ الجنَّةُ»[١].

وقالﷺ في حديث آخر:

«انَّ اليتيمَ اذا بكى اهتزَّ لبُكائهِ عرشُ الرحمنِ، فيقولُ للملائكتهِ: يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيمَ الذي غُيِّب أبوهُ في التراب؟ فيقول الملائكةُ: انت أعلمُ. فيقولُ الله تعالى: يا ملائكتي فانّي أُشهدُكم أنَّ لِمَن أسكتهُ وأرضاهُ أن أُرضيهُ يومَ القيامةِ»[٢].

وجاء في حديث نبوي آخر:

«انَّ اليتيمَ اذا بكى اهتزَّ لهُ العرشُ فيقولُ الربُّ تبارك وتعالى: من هذا الذي ابكى عبديَ الذي سلبتُهُ أبويهِ في صِغرهِ؟ فوعِزَّتي وجلالي لا يُسكِتهُ أحدٌ إلّا أوجبتُ لهُ الجنَّةَ»[٣].

فالمسلم الذي يدّعي انه متخلق بالاخلاق الحسنة، لابد لهُ من تحويل ادعائه هذا الى واقع عملي، وأن يفكر بالاطفال اليتامى والأُسر التي فقدت أولياء امورها، ويستقصي أوضاعهم ويقف على مجرى حياتهم، وأن يضع وصية أمير المؤمنين عليعليه السلام التي اوصى بها حين استشهاده، نصب عينيه، والقائلة: «الله الله في الأيتامِ فلا تغبّوا أفواههُم ولا يضيعوا بحضرتكُم ...»[٤].

وينبغي ان نؤكد مرة اخرى على ما اكدنا عليه في مطلع البحث وهو ضرورة

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٣١، ص ٢٢٠.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٦٠٦.

(٣) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٥. ورد هذا الحديث بهذا المضمون ايضاً في المحجة البيضاء (ج ٣، كتاب آداب الصحبة والمعاشرة).

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٤٢١، الوصية ٤٧.

التعامل مع الايتام بوجه طَلِق وعيون تفيض بالحب والحنان، كي لا يشعروا انهم قد فقدوا آباءهم وامهاتهم حقاً. فهؤلاء قد كانوا في يوم ما عائشين في ظلال الوالدين وقد ذاقوا طعم حنوّهما، وهم وبعد حرمانهم من نعمة الاب أو الام، بحاجة الى الشفقة والحب، ولابد من تلبية هذه الحاجة، كي لا يشعروا بين زملائهم وأقرانهم بالغربة والذلة، وكي لا تتولد لديهم بفعل ذلك العقد والامراض النفسية لا سمح الله، مما يشكل خطراً عليهم وعلى الآخرين فيما بعد.

(١٨)

التوكل على الله

يُعد التوكل على الله من نقاط البداية ومظاهر الايمان ومكارم الأخلاق. ووردت معلومات قيمة جداً عن التوكل في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ والائمة عليهم السلام، سنستعرض بعضها.

التوكل في القرآن

تحدث القرآن الكريم في الكثير من الآيات عن التوكل كسمة من سمات المؤمنين:

﴿... وعلى الله فتوكَّلُوا ان كنتُم مؤمنينَ﴾[1].

﴿... وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون﴾[2].

﴿انَّما المؤمنونَ الذينَ اذا ذُكِرَ الله وجِلَت قُلوبُهُم واذا تُلِيت عليهِم آياتهُ زادتُهم ايماناً وعلى ربِّهِم يتوكَّلونَ﴾[3].

---

(١) المائدة / ٢٣؛ التوبة / ٥١.

(٢) آل عمران / ١٢٢.

(٣) الانفال / ٢.

وبعد أن ادركنا اهمية التوكل من وجهة النظر القرآنية، لابد لنا من الوقوف على معنى التوكل.

ما هو التوكل؟

«سأل النبيُّ صلى الله عليه وآله جبرئيل: ما التوكّلُ على الله عزّ وجل؟ فقال: العلمُ بأنَّ المخلوقَ لا يضُرُّ ولا ينفعُ ولا يعطي ولا يمنعُ، واستعمالُ اليأسِ من الخلقِ، فاذا كان الخلقُ كذلك لم يعمل لأحدٍ سوى الله ولم يرجُ ولم يخف سوى الله، ولم يطمع في أحدٍ سوى الله، فهذا هو التَّوكلُ»[1].

وسأل شخص يُدعى الحسن بن الجهم الامام الرضا عليه السلام عن حدّ التوكل فأجابه:

«أن لا تخافَ مع الله أحداً ...»[2].

وسأل رجل آخر يُدعى علي بن سُويد الامام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام عن معنى الآية ﴿ومن يتوكّل على الله فهوَ حسبُهُ﴾[3] فأجابه:

«التوكلُ على الله درجاتٌ منها: أن تتوكَّلَ على الله في أُمورِكَ كُلِّها فما فعلَ بكَ كُنتَ عنهُ راضياً تعلمُ أنّهُ لا يألوكَ خيراً وفضلاً وتعلمُ أنَّ الحُكمَ في ذلك لهُ فتوكَّل على الله بِتفويضِ ذلكَ اليهِ وثِق بهِ فيها وفي غيرِها»[4].

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٨، ص ١٣٨، ح ٢٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٤.

(٣) الطلاق / ٣.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٥، ح ٥. وورد هذا الحديث بنفس هذا المضمون في مشكاة الأنوار (ص ١٦) وبحار الانوار (ج ٧٥، ص ٣٣٦، ح ١٨)، وقد نسب صاحب البحار هذا الحديث للامام الرضا (ع) وأضاف اليه العبارة التالية ايضاً «... ومن ذلك الايمانُ بغُيوبِ الله التي لم يُحِط علمُكَ بها فوكلتَ علمها اليه والى أُمنائِهِ عليها، ووثقتَ به فيها وفي غيرها».

أي لو اصطدمت في حياتك ببعض الحالات والأحداث التي لا يمكنك تفسيرها وفق الأسباب والعوامل المادية، فدع علمها لله واوليائه، وتحرر من وساوس الشيطان التي تؤدي الى القلق ←

وصفوة القول هي انّ على المرء ان يعلم بأنّ كل شيء من الله تعالى، وانه متصل بقدرته الأزلية، وانه كالقطرة المتصلة بالبحر، ولذا عليه أن يلقي بنفسه في خضم امواج البحر العاتية دون أن يخشى أي شيء، ذلك لأنّ:

القطرة التي تتصل بالبحر

لا تُسَمّها قطرة، انما هي بحر

وللعلامة الطباطبائي (صاحب تفسير الميزان) كلام في التوكل جاء فيه:

«وحقيقة الأمر انّ مضي الارادة والظفر بالمراد في نشأة المادة يحتاج الى أسباب طبيعية واخرى روحية. والانسان اذا أراد الورود في أمر يهمه وهيّأ من الاسباب الطبيعية ما يحتاج اليه، لم يحل بينه وبين ما يبتغيه إلّا اختلال الاسباب الروحية كوهن الارادة والخوف والحزن والطيش والشره والسفه وسوء الظن بتأثير العوامل والأسباب وغير ذلك، وهي امور هامة عامة. واذا توكل على الله سبحانه وفيه اتصال بسبب غير مغلوب البتة، وهو السبب الذي فوق كل سبب، قويت ارادته قوة لا يغلبها شيء من الأسباب الروحية المضادة المنافية فكان نيلاً وسعادة.

وفي التوكل على الله جهة اخرى يلحقه أثراً بخوارق العادة كما هو ظاهر قوله: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره﴾»[1].

فمن يتوكل على الله تصبه عناية من الله تعالى ويمده بما لا يحتسب من العوامل والاسباب الغير العادية. والآثار التي اشارت اليها أحاديث المعصومين عليهم السلام حول التوكل تؤيد ما ذهب اليه العلامة الطباطبائي، ومنها حديث امير المؤمنين علي عليه السلام:

«من توكَّلَ على الله ذلَّت لهُ الصعابُ وسهُلَت عليه الأسبابُ وتبوَّأ الخفضَ

← والاضطراب من خلال التوكل على الله. ويدل هذا المقطع على الجانب الغيبي والماورائي للتوكل، أي لابد للمتوكل ان ينطلق الى ماوراء العوامل المادية فيؤمن بالعوامل الغيبية المؤثرة في مصير الايمان.

(١) تفسير الميزان، ج ٤، ص ٦٧.

والكرامةَ»[١].

وقال ﷺ في حديث آخر:

«من توكَّلَ على الله سبحانهُ أضاءت لهُ الشُّبهاتُ، وكُفِيَ المؤونات، وأمِنَ التَّبعاتِ»[٢].

ويدل هذان الحديثان على موضوع العوامل الروحية التي اشار اليها العلامة الطباطبائي، ويشيران بصراحة الى غلبة المتوكل على مثل هذه العوامل والمشاكل. ولذلك لا تؤثر «الطِّيَرَة» على نفوس المتوكلين. والطيرة هي احدى الوساوس الروحية والعوامل السلبية التي تترك انعكاسات سيئة على نفس الكثير من الناس.

ولذلك قال الرسول الاكرم ﷺ:

«الطِّيَرَةُ شِركٌ وما مِنّا إلّا، ولكنَّ الله يُذهِبهُ بالتوكُّلِ»[٣].

قضية جوهرية

رغم ان العالم، عالم الاسباب، وأنّ الانسان ومن اجل الاستمرار في حياته، لا مفرّ له في انجاز أعماله من تسبيب الأسباب ومن خلال الاتصال بالآخرين، لكنّ القضية الجوهرية هي انه وفي ذات الوقت الذي يجب عليه الانطلاق خلف السبب والوسيلة، عليه ايضاً ان لا ينسى مسبب الأسباب، بل وعليه ان يعلم بأنّ هذه الوسائل والاسباب ليست سوى شعاع من ذات أحديته وارادته، وليس لها ان تجعل المخلوق قادراً، والخالق مقهوراً وغالباً، لأنَّ:

﴿... ومن يتوكّلْ على الله فهُوَ حسبُهُ انَّ الله بالغُ أمرهِ قد جعلَ اللهُ لكُلِّ شيءٍ قدراً﴾[٤].

---

(١) شرح الغرر، ج ٥، ص ٤٢٥.

(٢) فهرست الغرر، ص ٤١٨، ح ٨٩٨٥.

(٣) سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١١٧٠.

(٤) الطلاق / ٣.

فهو قاهر وغالب على الأسباب كلها فتأثير الأسباب بارادته وتسبيبه تعالى.

وقد وجّه القرآن الكريم وفي مواضع عديدة اهتمام الناس لهذه القضية وأكد على عدم التوكل على الآخرين، ودعا الى التوكل على الله والالتجاء اليه في الصعاب والشدائد، بل تفويض الامور جميعها اليه، والاستمرار في الحياة من خلال الوثوق به والاستناد اليه، اذ انّ كل شيء تحت تصرفه وفي قبضته:

﴿يا أيُّها الناسُ أنتُم الفُقراءُ الى اللهِ واللهُ هو الغنيُّ الحميدُ﴾[1].

﴿قُلْ أغيرَ اللهِ أتَّخِذُ وليّاً فاطِرِ السَّماواتِ والأرضِ﴾[2].

﴿وإن يمسسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ لهُ إلّا هوَ وان يُرِدْكَ بخيرٍ فهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ﴾[3].

﴿وان يمسسكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشِف لهُ إلّا هو وإن يُرِدك بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِهِ يُصيبُ بهِ من يشاءُ من عبادِهِ وهو الغفورُ الرَّحيمُ﴾[4].

آثار التوكل في القرآن

لاشك في أنّ للتوكل آثاراً عجيبة ومدهشة، تستوعب جميع شؤون الانسان الفردية والاجتماعية. وهذه الآثار من العظمة بحيث يعجز المرء عن ادراك كنهها ما لم يخطُ في وادي التوكل، ومن الآثار التي اشار اليها القرآن الكريم:

١ ـ العزيمة:

﴿... فاذا عزَمتَ فتوكَّل على اللهِ انَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكلينَ﴾[5].

﴿فتوكَّل على اللهِ انَّكَ على الحقِّ المبينِ﴾[6].

---

(١) فاطر / ١٥.

(٢) الانعام / ١٤.

(٣) الانعام / ١٧.

(٤) يونس / ١٠٧.

(٥) آل عمران / ١٥٩.

(٦) النمل / ٧٩.

٢ ـ الشجاعة:

﴿ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ودع أذاهُم وتوكَّل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾[١].

﴿فعلى اللهِ توكلتُ فأجمِعُوا أمركُم وشُركاءَكُم ثُمَّ لا يَكُنْ أمركُم عليكُم غُمَّةً ...﴾[٢].

أي: هاتوا كلَّ ما لديكم، وسآتيكم، أنتم وآلهتكم، وحدي متوكلاً على الله دون ان أخشى من أي شيء.

٣ ـ التحرر من سلطان الشيطان:

﴿انَّهُ ليس لهُ سُلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلُونَ﴾[٣].

﴿فقالُوا على الله توكَّلنا ربَّنا لا تجعلَنا فِتنةً للقومِ الظالمينَ﴾[٤].

اذن، ستخرج من هيمنة الشيطان وسلطانه، وبالتالي من الضلال والانحراف بمقدار ما لديك من ايمان بالله وتوكل عليه.

٤ ـ عدم التأثر بإقبال الناس وإدبارهم

﴿... فأعرِضْ عنهُم وتوكَّلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلاً﴾[٥].

﴿فإنْ تولَّوا فقُلْ حسبِيَ اللهُ لا اله إلّا هوَ عليهِ توكَّلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيمِ﴾[٦].

﴿... وما توفيقي إلّا باللهِ عليهِ توكَّلتُ واليهِ أُنيبُ﴾[٧].

---

(١) الاحزاب / ٤٨.

(٢) يونس / ٧١.

(٣) النحل / ٩٩.

(٤) يونس / ٨٥.

(٥) النساء / ٨١.

(٦) التوبة / ١٢٩.

(٧) هود / ٨٨.

﴿... واليه يُرجَعُ الأمرُ كُلُّهُ فاعبُدهُ وتوكَّل عليهِ ...﴾[١].

آثار التوكل في الأحاديث

تحدثت الاحاديث الواردة عن الرسول ﷺ والائمة عليهم السلام عن آثار عظيمة رائعة للتوكل على الله تعالى، منها:

١ ـ القوة والشجاعة:

قال الرسول محمد ﷺ:

«من أحبَّ أن يكونَ أقوى الناسِ فليتوكَّل على الله»[٢].

وقال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«من توَكَّلَ على الله لا يُغلبُ ومنِ اعتصمَ بالله لا يُهزَمُ»[٣].

وقال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام:

«أصلُ قُوَّةِ القلبِ التوكلُ على الله»[٤].

٢ ـ الهمة العالية:

قال الامام محمد الجواد عليه السلام:

«الثِّقةُ بالله تعالى ثمنٌ لِكلِّ غالٍ وسُلَّمٌ لكلِّ عالٍ»[٥].

٣ ـ العمل والنشاط:

ورد في الحديث:

«رأى رسولُ الله ﷺ قوماً لا يزرعونَ، قالَ: ما أنتُم؟ قالوا: نحنُ المتوكّلونَ، قال: لا، بل أنتُمُ المتَّكِلونَ»[٦].

---

(١) هود / ١٢٣.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ١٥١؛ مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٤) فهرست الغرر، ص ٤١٨، ح ٣٠٨٢.

(٥) بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣٦٤.

(٦) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٢٨٨.

أي انتم كَلٌّ على الناس تركتم زرعكم وسعيكم واتكلتم على الناس في امر معاشكم.

٤ ـ البذل والعطاء:

ورد في الحديث:

«... انه (الامام علياًعليه السلام) مرَّ يوماً على قومٍ فرآهُم أصِحّاءَ جالسين في زاويةِ المسجِدِ، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحنُ المتوكلونَ. قال: لا، بل انتم المُتأكِّلةُ فان كُنتُم متوكلينَ فما بلَغَ بِكُم توكلكُم؟ قالوا: اذا وجَدنا أكَلنا واذا فقدنا صبرنا. قال: هكذا تفعلُ الكلابُ عندنا. قالوا: فما نفعلُ؟ قال: كما نفعلُ. قالوا: كيف تفعلُ؟ قال: اذا وجدنا بذَلنا واذا فقدنا شكرنا»[١].

دعاء الامام السجادعليه السلام والتوكل

وهذا ما نراه واضحاً في دعاء الامام علي بن الحسين السجادعليه السلام حينما يقول:

«... وبِكَ أستغيثُ، وايّاكَ أرجو، ولكَ أدعو، واليكَ ألجأُ، وبِكَ أثِقُ، واياكَ استعينُ، وبِكَ اؤمنُ، وعليكَ اتوكَّلُ، وعلى جودِكَ وكرمِكَ أتَّكِلُ»[٢].

وكذلك حين يناجي الله تعالى:

«وهب لي صِدقَ التوكُّلِ عليكَ»[٣].

وصفوة القول هي ان المؤمن يتوكل على الله تعالى في جميع أعماله ويعتبره معيناً له ومسدّداً في جميع مراحل حياته.

ولو بلغ أحد هذه الدرجة من التوكل بحيث يتوكل على الله فقط ويرى انه مدبر الامور الوحيد، حتى في أحرج الظروف واكثرها تأزّماً وحتى حينما تبدو ابواب الفرج قد أُغلقت جميعاً، فلاشك في انه قد ارتقى الى اعلى درجات التوكل

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء ٥٢.

(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء ٥٤.

وأرفع مراحله.

ابراهيم الخليل والثقة بالله

يُعدّ توكل ابراهيم الخليل وثقته بالله من أروع نماذج التوكل، اذ انه وفي ظل تلك الظروف الحرجة التي قرروا فيها ان يلقوه في النار، لم يفقد ثقته بالله قط ولم يتزعزع توكله عليه.

ويتحدث القرآن الكريم عن ذلك الحدث قائلاً:

﴿قالوا حرِّقوهُ وانصُروا آلِهتكُم ان كُنتُم فاعِلينَ﴾(١).

وورد في التفاسير:

«... جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت، حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدّة وهجها ...»(٢).

وقد انهمكوا في جمع الحطب «حتى ان الرجل منهم ليمرض فيوصي بكذا وكذا من ماله فيشتري به الحطب وحتى ان المرأة لتغزل فتشتري به حطباً»(٣).

وكتب الفخر الرازي:

«حتى انّ المرأة لو مرضت قالت: إن عافاني الله لأجعلنّ حطباً لابراهيم. ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوماً»(٤).

اذن فقد بذلوا قصارى جهودهم لجمع الحطب، وحينما أشعلوا النار في ذلك الحطب العظيم، لم تسمح لهم شدة حرارة النار بالاقتراب منها والقاء ابراهيم فيها، فتوسّلوا بالمنجنيق، وقذفوه بواسطته فيها.

قال الامام الصادق عليه السلام:

---

(١) الانبياء / ٦٨.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١١، ص ٣٠٣.

(٣) تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ط صيدا، ج ٤، ص ٥٤.

(٤) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٢، ص ١٨٧.

«لمّا أُجلِسَ ابراهيمُ في المنجنيق وأرادوا أن يرموا بهِ في النار، أتاهُ جبرئيلعليه السلام فقال: السلام عليك يا ابراهيمُ ورحمةُ الله وبركاته، ألكَ حاجةٌ؟ فقال: أما اليكَ فلا»[١].

«فقال جبرئيل: فاسأل ربَّكَ»[٢].

«فقال: حسبي مِن سؤالي عِلمهُ بحالي»[٣].

فكان توكله على الله وثقته المطلقة به سبباً لكي تتحول تلك النار المرعبة الى روضة رائعة:

﴿وقُلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على ابراهيم﴾[٤].

وقد قيل: «لو لم يقُل سلاماً لأهلكَهُ بردُها»[٥].

نعم فمن كان توكله على الله الى هذه الدرجة، فلاشك في ان الله تعالى ينقذه من المحن والخطوب والبلايا مهما كانت شديدة ويحوّلها الى برد وسلام.

عقوبة السجن للتوسل بغير الله

رغم المكانة العظيمة التي كانت لنبي الله يوسفعليه السلام حتى انّ الله تعالى قال فيه ﴿انَّهُ مِن عبادِنا المُخلَصين﴾[٦]، إلّا انه حينما رأى انّ أحد السجينين اللذين كانا معه في السجن، سيُطلق سراحه، أوعز اليه أن يذكره لدى ملك مصر لعلّه يخرجه من السجن:

﴿وقال للَّذي ظَنَّ أنَّه ناجٍ منهما اذكُرني عندَ ربِّك فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّـهِ

---

(١) مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٥.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١١، ص ٣٠٣.

(٣) بحار الانوار، ج ٧١، ص ١٥٦.

(٤) الانبياء / ٦٩.

(٥) تفسير البيان، ط بيروت، ج ٧، ص ٢٦٣.

(٦) يوسف / ٤٢.

فلبِثَ في السِّجنِ بِضعَ سنينَ﴾[١].

﴿... وادَّكرَ بعدَ أُمَّةٍ﴾[٢].

وتحدث الامام الصادق عن ذلك الحدث ـ أي توسل يوسف عليه السلام بغير الله تعالى لاطلاق سراحه ـ فقال:

«جاء جبرئيلُ فقال: يا يوسفُ من جعلكَ أحسنَ الناسِ؟

قال: ربّي.

قال: فمن حبَّبَكَ الى ابيكَ دون اخوانِكَ؟

قال: ربّي.

قال: فمن ساقَ اليكَ السيّارةَ؟

قال: ربّي.

قال: فمن صرفَ عنكَ الحجارةَ؟

قال: ربّي.

قال: فمَن أنقذَكَ مِنَ الجُبِّ؟

قال: ربّي.

قال: فمَن صرفَ عنكَ كيدَ النِّسوةِ؟

قال: ربّي.

قال: فانَّ ربَّكَ يقولُ: ما دعاكَ الى أن تُنزِلَ حاجتكَ بمخلوقٍ دوني، إلبَثْ في السجنِ بما قلتَ بِضعَ سنينَ»[٣].

عاقبة عدم التوكل على الله

يتضح لنا مما سبق اهمية التوكل على الله والثقة به، ولكي نقف بشكل اوضح

---

(١) يوسف / ٤٢.

(٢) يوسف / ٤٥.

(٣) مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٣٥؛ ورد هذا الحديث في تفسير القرطبي (ج ٩، ص ١٩٦) وتفسير البرهان (ج ٢، ص ٢٥٥) مع شيء من الاختلاف.

على عاقبة التوكل على غير الله والتوسل بالناس والاعراض عنه تعالى، نورد الرواية التالية:

«... عن الحسين بن علوان قال: كنا في مجلس نطلب فيه العلم وقد نفِدت نفقتي في بعضِ الأسفارِ فقال لي بعضُ أصحابنا: مَن تُؤمِّلُ لما قد نزلَ بك؟ فقلتُ: فلاناً. فقال: اذاً والله لا تُسعَفُ حاجتُكَ ولا يبلُغُكَ أملُك ولا تُنجحُ طلبتُكَ. قلتُ: وما علمكَ رحمك الله؟ قال: انّ ابا عبد الله (الصادق)عليه السلام حدَّثني أنّهُ قرأ في بعضِ الكتُبِ أنَّ الله تباركَ وتعالى يقولُ: وعِزَّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعنَّ أملَ كُلِّ مُؤمِّلٍ غيري باليأس، ولاكسُونَّهُ ثوبَ المذلَّةِ عند الناسِ، ولأُنحِّيَنَّهُ من قُربي، ولأُبعدَنَّهُ من فضلي. أيُؤمِّلُ غيري في الشدائدِ، والشدائدُ بيدي، ويرجو غيري، ويقرَعُ بابَ غيري وبيدي مفاتيحُ الأبوابِ وهي مُغلقَةٌ وبابي مفتوحٌ لمن دعاني؟ فمن ذا الذي أمَّلني لنوائِبهِ فقطعتهُ دونها؟ ومن ذا الذي رجاني لعظيمةٍ فقطعتُ رجاءهُ مني؟ جعلتُ آمالَ عبادي عندي محفوظةً فلم يرضَوا بحفظي، وملأتُ سماواتي ممّن لا يملُّ من تسبيحي وأمرتُهم أن لا يُغلِقوا الأبوابَ بيني وبينَ عبادي فلم يثِقُوا بقولي. ألم يعلم أنَّ من طرقَتْهُ نائبةٌ من نوائبي أنّهُ لا يملكُ كشفها أحدٌ غيري إلّا مِن بعدِ اذني. فما لي أراهُ لاهياً عني أعطيتهُ بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعتُهُ عنهُ فلم يسألني ردَّهُ وسألَ غيري؟ أفيراني أبدأُ بالعطاءِ قبل المسألةِ ثم أُسألُ فلا أُجيبُ سائلي؟ أبخيلٌ أنا فيُبخِّلُني عبدي؟ أوليسَ الجودُ والكرمُ لي؟ أوليس العفوُ والرحمةُ بيدي؟ أوليس انا محلَّ الآمالِ فمن يقطعُها دوني؟ أفلا يخشى المؤمنونَ أن يؤمِّلوا غيري؟ فلو أنَّ أهل سماواتي وأهلَ أرضي أمَّلوا جميعاً ثم اعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم مثلَ ما أمَّلَ الجميعُ ما انتقصَ مِن مُلكي مثلَ عُضوِ ذرَّةٍ. وكيف ينقصُ مُلكٌ أنا قيِّمهُ؟! فيا بُؤساً لمن عصاني ولم يُراقِبني»[1].

وهكذا ينبغي للمرء ألا يتوكل إلّا على الله فحسب، وأن يغمض عينيه عن

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦، ح ٧؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ١٣٠.

الآخرين، فالأمر كما قال الامام عليﷺ:

«... من توكل عليه (أي على الله) كفاه ...»[١].

كما قالﷺ ايضاً:

«... وأتوكَّلُ على الله توكُّلَ الانابةِ اليهِ ...»[٢].



(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ٨٩.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١٦١.

(١٩)

حسن السلوك مع الناس

سبق وأن اشرنا الى انّ حسن السلوك مع الناس، يُعدّ من نقاط البداية في تهذيب النفس وتزكيتها. وتحتل هذه النقطة موقعاً حساساً في الأخلاق الاسلامية، اذ قال الرسول الاكرم محمد ﷺ:

«أفاضِلُكُم أحسنُكُم أخلاقاً المُوطَّئون أكنافاً الذين يألِفون ويُؤلَفُونَ»[1].

ومن المفيد أن نستعرض بعض النقاط بهذا الشأن:

١ ـ رغم أنّ حسن الخلق متصل بالفضائل النفسية كالعدل، والشجاعة، والتواضع، والجود، والايثار، والتضحية، وسلامة النفس، إلّا انه يُطلَق ايضاً على طلاقة الوجه وحسن التعامل مع الناس، فيُدعى من يتعامل مع الآخرين تعاملاً حسناً، حسن الأخلاق، لأنَّ هذه السمة ناشئة من الفضيلة النفسية وسلامة الروح، وتتميز برصيد خُلُقي. فحسن السلوك مع الناس دليل على رفعة الشخصية وسموها مثلما هو تعبير عن التواضع وروح الفداء والصفح، وترجمة لما في النفس من فضيلة وسلامة ونقاء.

٢ ـ وردت آداب وسنن كثيرة في الدين الاسلامي سواء كان في اطار الفقه، أو

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٢.

في الحقول الحقوقية، والسياسية والاخلاقية والوجدانية والعبادات والمعاملات، وبكلمة في جميع الشؤون الفردية والاجتماعية. وقد نُظِر الى جزء كبير من هذه السنن كسنن اخلاقية غير الزامية، في حين يجب تقسيم المسائل الأخلاقية ايضاً الى الزامية وغير الزامية، ولا ينبغي النظر الى مسألة ما على انها غير الزامية لمجرد وقوعها ضمن اطار السنن والأخلاقيات. فمسائل من قبيل الوفاء بالعهد، والايثار، والاحسان وما اليها، انما هي من المسائل التي تُعدّ بعض درجاتها، من الواجبات في ظل بعض الظروف الخاصة، رغم انّ موضوعها موضوع اخلاقي، بل انّ هذا النوع من السنن بمثابة رصيد لسائر الواجبات والفرائض. واذا كان الامر كذلك، كيف يمكن لرصيد الواجب ودعامته ان يكون امراً مستحباً وغير الزامي؟ واعتقد انّ مصدر هذا الخطأ نابع من كون المسائل الاخلاقية، من المسائل الوجدانية، وعدم خضوع المسائل الوجدانية للملاحقة القضائية، مما دفع بالبعض الى الاعتقاد بأنها من المستحبات.

فالله تعالى قد جعل العدل والاحسان في مستوى واحد حينما قال: ﴿انّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والاحسانِ﴾[1]، وأمر بهما معاً في كلمة واحدة وهي كلمة «يأمر». ولو افترضنا جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى عقلياً، غير انّ العرف لا يسمح باستنباط معنيين متباينين من كلمة واحدة، ومن المستبعد جداً ان يستوعب اللفظ الواحد مفهومي الوجوب وغير الوجوب في وقت واحد. ومن البديهي انّ القضايا اللفظية واللغوية لا يمكن قياسها بالمعايير العقلية والفلسفية، فالإحسان رصيد العدالة. فما لم تتوفر لدى الانسان روح الاحسان فليس بمقدوره أن يتحمل مسؤولية العدل، اذ تقف بدل الإحسان صفات مثل الغرور والتكبر والخسّة والاستبداد. ومن يتصف بمثل هذه الصفات، فلا يعترف بأي حقّ للآخرين كي يلزم نفسه باحترامه.

وانطلاقاً من ذلك يُعد الاحسان أساس العدل، بل اصولاً انّ كل قضية

---

(١) النحل / ٩٠.

حقوقية تعتمد على رصيد وجداني وأخلاقي. صحيح انّ القضايا الحقوقية قابلة للملاحقة القضائية في حين تفتقد القضايا الوجدانية والاخلاقية لمثل هذه الخصوصية، غير انّ المعيار الوحيد الذي يوزَن به كمال الانسان هو هذه الخصال الوجدانية والاخلاقية، أي سلامة الروح والوجدان والضمير، اذ قال تعالى:

﴿يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنُونَ إلّا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ﴾[1].

٣ ـ من الممكن ان لا تُعدّ بعض السنن واجبة اذا كانت ضمن الاطار الفردي، غير انها تأخذ طابع الالزام في اطار المجتمع وحينما يُنظر اليها على صعيد ازدهاره ورقيّه، أي بصفتها ثقافة المجتمع. فالمجتمع الذي يريد أن يحيا حياة اسلامية انسانية طافحة بالنقاء والصدق وعابقة بالنفحات الالهية، ينبغي ان يتأدّب بهذه الآداب ويعمل بها.

فاذا كانت الحياة الاسلامية الانسانية ضرورية ـ وهي كذلك ـ فلابد من الالتزام بآدابها ومثلها. بل انّ الثقافة الاجتماعية عجينة أساساً بالآداب والسنن، وليس من الصحيح ولا من المعقول الفصل بين الاثنين. فالمجتمع الذي لا ثقافة له، مجتمع حيواني تافه تتمزّق فيه الأواصر الانسانية والمعنوية والاجتماعية، ولا أساس ولا رصيد لسلوكيات افراده وتعاملهم الاخلاقي.

٤ ـ مثلما توجد آداب في الظاهر والباطن لعباداتٍ من قبيل الصلاة، والصيام، والحج، والخمس، والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفقد هذه العبادات محتواها بدون هذه الآداب وتبقى مجرد جسم بلا روح، كذلك هناك آداب وسنن للمعاملات والعقود الاجتماعية، تتحول بدونها الى مجرد معاملات وسلوكيات صورية وحركات نفعية صرفة. بتعبير آخر: بالغاء هذه الآداب والسنن لا يبقى من الانسان والمجتمع سوى ماكنة بلا روح ولا حياة، وتتحول الحياة الانسانية والخلافة الالهية الى حياة حيوانية آلية، وينمسخ الانسان الى وحش ضار أو آلة خالية من الحس والشعور والعاطفة.

---

(١) الشعراء / ٨٨و٨٩.

٥ ـ وبين جميع هذه الآداب الاخلاقية والسنن الاجتماعية، تحتل آداب المعاشرة والصحبة وحسن السلوك مع عامة الناس، مكانة خاصة في الاخلاق الاسلامية. وهذا ما تكشف عنه الآيات القرآنية والاحاديث، حيث تحظى فيها كرامة الانسان على الخصوص بقيمة رفيعة وأهمية خاصة، كما هو في الآية التالية:

﴿وَلَقَد كرَّمنا بَني آدمَ وَحَملناهُم في البرِّ والبَحرِ ورَزقناهُم مِنَ الطَّيباتِ وفضَّلناهُم على كثيرٍ ممَّن خَلقنا تَفضيلاً﴾[1].

٦ ـ رغم اعطاء أهمية اكبر في الاخلاق الاسلامية للآداب والسنن ذات الاتصال المباشر بتهذيب الروح وصقلها، ولكن وانطلاقاً من كون الاسلام دين الحياة، والحياة واسطة للتكامل النفسي، ولا تخلو بالتالي أي زاوية من حياة الانسان، من جانبه النفسي، فقد راح يُنظر للتهذيب النفسي من زاوية أوسع، بتعبير آخر: الاسلام في تعاليمه الاجتماعية لا يقذف الانسان في فضاء خال أو بمعزل عن حقائق الحياة الانسانية. ولهذا يُعدّ تصور انفصال بُعد الانسان الاجتماعي عن بُعده النفسي، تصوراً باطلاً لا حقيقة له. ولذلك تُعدّ آداب الحياة وحسن السلوك مع الناس وسنن المعاشرة، من سمات المسلم الحقيقي المتطبع بالطابع الالهي، ومن اسباب رقي وازدهار المجتمع الاسلامي: بتعبير أوضح: انّ كل حكم في الاسلام ذو بعدانٍ: بعد معنوي، وبعد اجتماعي. فالآداب والسنن الاجتماعية وفي ذات الوقت الذي تتميز بالبعد الاجتماعي، تتميز كذلك بالبعد المعنوي والعاطفي.

فالمسلم ذو الاخلاق الحسنة حينما يبدأ بالسلام ـ مثلاً ـ انما يعبّر عن احترامه للآخرين من جهة، ويصقل من خلال تواضعه نفسه ويهذّبها من الكبر والغرور من جهة اخرى. أي انه يضرب عصفورين بحجر واحد: انه يعمل على توثيق العلاقات الاجتماعية من جهة، ويحطم صنم الأنانية والغرور في نفسه من جهة اخرى. ويمكن ان نشاهد وعلى هذا الغرار كلا البعدين المعنوي والاجتماعي في

---

(١) الاسراء /٧٠.

سائر الآداب والسنن، ولكن بشرطها وشروطها. والشرط والشروط هي ان يعتقد الانسان بأنّ الاسلام عقيدة وأساس لجميع شؤونه ويعيش انطلاقاً من هذا الاعتقاد.

والجدير بالذكر انّ الآداب والسنن الاجتماعية واسعة جداً في الحقوق والاخلاق الاسلامية بحيث لو اردنا استعراضها والتوسع فيها لكنا بحاجة الى مؤلَّف مستقل. ولذلك ارتأينا الاشارة بايجاز الى أهمها:

١ ـ صلة الرحم.

٢ ـ حقوق الاخوان في الدين.

٣ ـ حقوق الجيران وآداب الجيرة (حُسن الجوار).

٤ ـ عيادة المريض وآدابها.

٥ ـ آداب الكلام وآفات اللسان.

٦ ـ آداب التحدث مع قادة وزعماء الدين.

٧ ـ آداب التعليم والتعلّم (آداب المتعلمين) وحقوق كل من المعلم والطالب.

٨ ـ آداب مجالس الشورى واتخاذ القرارات في القضايا الاجتماعية العامة.

٩ ـ آداب الدخول الى بيوت الآخرين.

١٠ ـ آداب الزيارات واللقاءات في المحافل العامة.

١١ ـ آداب الزي والتجمّل.

١٢ ـ العفو والصفح.

١٣ ـ الاتحاد والتضامن.

١٤ ـ الوفاء بالعهد.

صلة الرَّحِم

صلة الرحِم، والتي تعني تفقّد الأقرباء في النسب والاتصال المستمر بهم، تُعدّ من أمارات الاخلاق والسنن المرضية في الاسلام، وتعبيراً عن حسن السلوك والتعامل مع الناس. ولابد على هذا الصعيد من استعراض مايلي:

١ ـ ما المراد بالرحم، ومن هم الأرحام؟
٢ ـ ما هي صلة الرحم؟
٣ ـ صلة الرحم في القرآن.
٤ ـ صلة الرحم في الأحاديث.
٥ ـ النتائج الايجابية لصلة الرحم.
٦ ـ قطع الرحم ونتائجه السلبية.
٧ ـ قطع الرحم من منظار القرآن.
٨ ـ قطع الرحم في الاحاديث.

ما المراد بالرحِم؟

القرابة نوعان: قرابة نسبية، وتأتي عن طريق وحدة الدم والرحم، كالأب، والأم، والأخ، والعم، والعمة، والخال، والخالة، والجد، والجدة، والأبناء. ويدعى هؤلاء بالأقرباء النسبيين والأرحام، ويقال لكل منهم: «رحم». والقرابة الاخرى، قرابة سببية، وتأتي عن طريق الزواج كالقرابة بين الزوج والزوجة وأقرباء الجانبين.

ما هي صلة الرحم؟

والجواب هو: لابد للانسان من الاستمرار في علاقته العاطفية مع أرحامه، وألا يقطع هذه العلاقة قط. وعليه ان يلبي حاجة كل منهم على الصعيد الانساني والعاطفي بما ينسجم مع تلك الحاجة: فقد تُلبّى تلك الحاجة بتماس هاتفي أحياناً وقد لا تُلبّى حتى بمبلغ كبير من المال. ولكن الذي لاشك فيه انّ قطع الاتصال مع الارحام قطعاً نهائياً وكاملاً، يُعدّ من المعاصي الكبيرة. ومن هنا ندرك انّ صلة الرحم تعني ابداء الحب والحنان نحو الارحام وتفقد أحوالهم والاستفسار عن اوضاعهم لأنّ لهم حقوقاً اكبر من غيرهم. ولذلك أولى الفقه الاسلامي أهمية اكبر نحوهم حتى انه قدّم المحتاجين منهم على غيرهم حين تقسيم الفرد للحقوق المالية

التي عليه. وبما أنّ هذه القضايا، من القضايا الفطرية والسنن الاجتماعية فقد اكد عليها الاسلام، حتى عَدّ القرآن الكريم اعانة الارحام جزءاً مما على الأثرياء من حقوق مالية، وعبّر عنه بالحق الواجب، فقال:

﴿وآتِ ذا القُربى حقَّهُ والمسكينَ وابنَ السَّبيلِ ولا تُبذِّر تَبذيراً﴾(١).

وقال في آية اخرى:

﴿وَآتِ ذا القُربى حقَّهُ والمِسكينَ وابنَ السَّبيلِ ذلكَ خَيرٌ للذينَ يُريدونَ وجهَ الله واولئكَ هُمُ المُفلِحونَ﴾(٢).

وقال في موضع آخر حين استعراضه لصفات البار:

﴿وَآتى المالَ على حُبِّهِ ذَوي القُربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ...﴾(٣).

ويُستفاد من هذه الآيات انّ صلة الرحم لا تتحول من الشعار الى العمل إلّا حينما يلبي الانسان حاجات ذوي القربى بالحد الذي يستطيع، وان لا يتردد عن تقديم أي عون ومساعدة لهم. وهذا هو معنى صلة الرحم، في حين يتصور البعض انّ صله الارحام هي الذهاب لزيارتهم والسؤال عن احوالهم فقط، وانما يجب ان تبق رابطة القرابة قائمة على أساس الحب والحميمية. ولربما تسبب الزيارات الاحراج لبعض الاسر خاصة اذا كانت فقيرة ولا تملك ما تقدمه للضيوف.

صلة الرحم في القرآن

انّ صلة الرحم مهمة في القرآن بحيث جعلها الله بمستوى عبادته، مما يؤكد على عظمتها. ومن هذه الآيات:

﴿وَإذْ أَخذنا ميثاقَ بَني اسرائيلَ لا تَعبُدونَ إلّا اللهَ وبالوالدِينِ احساناً وذي

---

(١) الاسراء /٢٦.

(٢) الروم /٣٨.

(٣) البقرة /١٧٧.

القُربى واليتامى والمساكينِ...﴾[1].

وقال في موضع آخر:

﴿وَاعبُدوا اللهَ ولا تُشرِكُوا به شيئاً وبالوالِدَينِ احساناً وَبذي القُربى واليتامى والمساكينِ...﴾[2].

وأورد تعالى اسم الأرحام بعد اسمه في مقام الاتقاءِ والتَّساؤل:

﴿... واتَّقُوا اللهَ الذي تَساءَلُون بِهِ والأرحامَ انَّ اللهَ كانَ عليكُم رقيباً﴾[3].

وكل هذا التأكيد على صلة الارحام في القرآن الكريم ولزوم اتقائهم بعد الله سبحانه في الآية الاخيرة، يكشف عن أهمية صلة الرحم في الدين الاسلامي المقدس من جهة، ويبيّن انَّ ترك هذا الواجب يؤدي الى ظهور نتائج وخيمة.

صلة الرحم في الأحاديث

اكدت الاحاديث بدورها على هذه السنة المرضية وحثَّت عليها، ومنها هذا الحديث:

سأل شخص يدعى جميل بن درّاج الامام الصادقعليه السلام عن الآية ﴿واتَّقوا اللهَ الذي تساءَلونَ بِهِ والأرحامَ﴾، فقال: «يعني أرحامَ الناسِ، انَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمرَ بِصلتِها وَعَظَّمَها. ألم تَرَ أنَّ الله جَعَلها مَعَهُ؟»[4].

النتائج الايجابية لصلة الرحم

طول العمر:

قال الامام علي بن موسى الرضاعليه السلام:

«يكونُ الرجلُ يَصلُ رَحِمَهُ فيكونُ قد بقي من عُمرهِ ثلاثُ سنينَ فيُصيِّرُها الله

---

(١) البقرة / ٨٣.

(٢) النساء / ٣٦.

(٣) النساء / ١.

(٤) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٣٨، ح ١؛ تفسير الثقلين، ج ١، ص ٤٣٧، ح ٢٥؛ تفسير الصافي، ج ١، ص ٣٢٩.

ثلاثينَ سنةً ويفعلُ الله ما يشاءُ»[١].

وقال عليه السلام ايضاً:

«ما نَعلمُ شيئاً يزيدُ في العمرِ إلّا صلَةَ الرَّحِم، حتى أنَّ الرجلَ يكونُ أجلُهُ ثلاثَ سنينَ فيكونُ وصولاً للرحمِ فيزيدُ الله في عُمرهِ ثلاثينَ سنةً فَيجعلُها ثلاثاً وثلاثينَ سنةً. ويكونُ أجلَهُ ثلاثاً وثلاثين سنةً فيكونُ قاطعاً للرحمِ فينقُصُهُ الله ثلاثينَ سنةً ويجعلُ أجلهُ الى ثلاثِ سنينَ»[٢].

وعن الامام محمد الباقر عليه السلام أو الامام جعفر الصادق عليه السلام (الشك من الراوي) قال: قال لي: «يا مُيسِّر اني لأظنُّكَ وَصولاً لقرابتكَ. قلتُ: نعم جُعلتُ فداك، لقد كُنتُ في السوقِ وأنا غلامٌ وأُجرَتي دِرهمانِ وكنتُ أُعطي واحداً عَمّي وواحِداً خالتي، فقال: اما والله لقد حَضَرَ أَجلُكَ مرَّتينِ كُلُّ ذلكَ يُؤخَّرُ»[٣].

زيادة الرزق:

عن الامام السجاد عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«مَن سرَّهُ أن يمُدَّ الله في عُمرهِ وأنْ يبسُط في رزقِهِ فَليصِل رَحِمهُ...»[٤].

وورد في حديث نبوي آخر:

«صِلةُ الرَّحِم تزيدُ في العُمرِ وتنفي الفقر»[٥].

وورد أيضاً عنه صلى الله عليه وآله:

«مَن أحبَّ أنْ يُوسَّعَ لَهُ في رزقِهِ ويُنسأَ لهُ في أجلهِ فليصِلْ رَحِمهُ»[٦].

تزكية الأعمال:

قال الامام الباقر عليه السلام:

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٥٠، ح ٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٥٢، ح ١٧.

(٣) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ١٠٠.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٥٦، ح ٢٩.

(٥) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ٨٨.

(٦) مشكاة الانوار، ص ١٦٦.

«صلةُ الأرحامِ تُزكّي الأعمالَ، وتدفعُ البلوى، وتنسئ له في عُمرهِ، وتُوسّعُ لهُ في رِزقِهِ، وتُحبّبُ في أهلِ بيتهِ، فليتّقِ الله وليصلْ رحِمهُ»(١).

تهوين الحساب:

قال الامام الصادق عليه السلام:

«صلةُ الرَّحِمِ تُهوّنُ الحسابَ يومَ القيامةِ وَهيَ مَنسَأةٌ في العمرِ وتقي مصارعَ السُّوءِ»(٢).

عمران الديار:

قال الامام الصادق عليه السلام:

«صلةُ الرحمِ وحُسنُ الجوارِ يعمُرانِ الديارَ ويزيدانِ في الاعمارِ»(٣).

صلة الرحم من الدين:

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله:

«اوصي الشاهِدَ مِن أُمّتي والغائبَ منهم ومَن في أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ الى يومِ القيامةِ أن يصلَ الرَّحِمَ وان كانت مِنهُ على مسيرةَ سنةٍ فانَّ ذلكَ مِن الدِّينِ»(٤).

كان هذا بعض نتائج وآثار صلة الرحم. ونستعرض ادناه نتائج قطع الرحم وآثاره.

قطع الرحم ونتائجه السلبية من منظار القرآن

لاشك في انّ قطع الرحم، من المعاصي الكبيرة ويوجب العذاب الاخروي، ونهى عنه القرآن الكريم بشدة.

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٥٢، ح ١٣.

(٢) بحار الانوار، ج ٧١، ص ١٠٤ و ١٣٢؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٥٧.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٢، ح ١٤.

(٤) مشكاة الانوار، ص ١٦٥. بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ١٠٥؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٥١، ح ٥؛ المحجة البيضاء، ج ٣، ص ٤٣٠.

قاطع الرحم يستحق لعنة الله:

قال تعالى:

﴿فَهَل عَسيتُم إنْ توليتُم أنْ تُفسدوا في الأرضِ وَتُقطّعُوا أرحامكُم اولئك الذينَ لعنهُمُ الله...﴾(١).

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿والَّذينَ ينقُضُونَ عهَدَ اللهِ مِن بعدِ ميثاقِهِ ويقطعونَ ما أمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَل ويُفسدونَ في الارضِ اولئكَ لهُم اللعنةُ ولهُم سُوءُ الدّارِ﴾(٢).

قاطع الرحم مفسدٌ وخاسر:

قال تعالى:

﴿الّذينَ ينقُضونَ عهدَ اللهِ مِن بعدِ ميثاقِهِ ويقطعُونَ ما أمرَ اللهُ بهِ أن يُوصَلْ ويُفسدونَ في الأرضِ اولئك هُمُ الخاسرونَ﴾(٣).

تنويه ضروري

ربما يتصور البعض انّ كل هذا التأكيد على صلة الرحم، يتعلق فقط بالأغنياء والموسرين الذين بامكانهم تقديم الدعم المالي لذوي قرباهم، ولذلك لا تجب صلة الرحم على الفقراء الذين لا يستطيعون تقديم الاعانة المالية! ولاشك في خطأ هذا التصور، لأنّ من يود صلة ارحامه ليس من الضروري ان يكون ثرياً أو مستطيعاً مالياً، بل لما كان الهدف من هذه الصلة توثيق رابطة القرابة فقد أوصى الاسلام بأداء هذا الواجب حتى من خلال تقديم جرعة ماء، وعدم الحاق الأذى، وسلام البعض على البعض الآخر، وهي اعمال تستحق المثوبة الالهية رغم بساطتها. وهذا ما دعا اليه الرسول الاكرمﷺ حين قال:

«صِلْ رَحمَكَ وَلَو بِشَربةٍ مِن ماءٍ. وأفضلُ ما يوصلُ بِهِ الرَّحِم كفُّ الأذى

---

(١) محمد / ٢٢و ٢٣.

(٢) الرعد / ٢٥.

(٣) البقرة / ٢٧.

عنهُ»[1].

وقال ﷺ ايضاً:

«بِلُّوا أرحامكُم وَلو بالسَّلامِ»[2].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«صِلُوا أرحامكُم ولو بالتَّسليمِ»[3].

أحاديث قطع الرحم

حذَّرت الاحاديث من مغبة قطع الرحم وهددت اولئك الذين يقطعون الارحام تهديداً شديد اللهجة.

قطع الرحم بمستوى الشرك بالله:

« قالَ رجُلٌ للنبي ﷺ: أيُّ الأعمالِ أبغضُ الى الله عَزَّ وَجلَّ؟ فقال: الشِّركُ بالله. قال: ثُمَّ ماذا؟ قال: قطيعةُ الرَّحِمِ....»[4].

قطع الرحم واستحقاق لعنة الله:

أوصى الامام السجاد عليه السلام ولده الامام الباقر عليه السلام قائلاً: «... واياكَ ومصاحَبَةَ القاطِعِ لِرحِمِهِ فانّي وَجدتُهُ ملعوناً في كتاب الله عزّ وجل في ثلاثةِ مواضع) ثم تلا عليه السلام الآيتين ٢٤ و ٢٥ من سورة محمد ﷺ والآية ٢٥ من سورة الرعد، والآية ٢٧ من سورة البقرة)»[5].

قاطع الرحم محروم من الجنة:

قال الرسول الاكرم ﷺ:

---

(١) بحار الانوار، ج ٧١، ص ٨٨؛ مشكاة الانوار، ص ١٦٦.

(٢) المجازات النبوية، ص ٨٠.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٥٥، ح ٢٢. وورد هذا الحديث في تحف العقول (ص ٤٠) عن الرسول (ص) وكما يلي: «صلوا أرحامَكم ولَو بالسّلامِ».

(٤) سفينة البحار، ج ١، ص ٥١٦.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤١، ح ٧.

« ثلاثةٌ لا يدخلونَ الجنّةَ: مُدمنُ خمرٍ، ومُدمنُ سِحرٍ، وقاطعُ رحمٍ»[١].

باختصار ينبغي على من يزعم التخلق بالأخلاق الحسنة، أن يولي صلة الارحام اهتماماً جاداً، اذ انّ قطع الارحام يوجب الفناء والزوال.

قال حذيفة بن منصور أنّ الامام الصادق عليه السلام قال:

«اتّقُوا الحالِقَةَ فإنّها تُميتُ الرّجال. قلتُ: وما الحالقةُ؟ قال: قطيعةُ الرَّحِمِ»[٢].

عيادة المريض

تُعدّ عيادة المريض من آيات الاخلاق الحسنة وعلامات حسن السلوك مع الناس، والتي اكد عليها الدين الاسلامي الحنيف كثيراً. فعيادة المريض، من الحقوق التي للمسلم على اخيه المسلم.

قال علي عليه السلام انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«للمسلم على أخيهِ ثلاثونَ حقّاً لا براءةَ لهُ منها إلّا بالأداءِ أو العفوِ: يغفرُ زَلّتهُ، ويرحمُ عبرتهُ... ويعودُ مرضَهُ...»[٣].

عن المعلى بن خنيس عن الامام الصادق عليه السلام قال: قلتُ له: ما حقّ المسلم على المسلم؟ قال عليه السلام:

«لهُ سبعةُ حقوقٍ واجباتٍ ما مِنهُنّ حقٌّ إلّا وهُوَ واجبٌ عليهِ، ان ضيّعَ منها شيئاً خرجَ من ولايةِ الله وطاعتِه ولم يكُن لله فيهِ مِن نصيبٍ، قلتُ له: جُعلتُ فداكَ وما هي؟ قال: يا مُعلّى انّي عليكَ شفيقٌ أخافُ أن تُضيّعَ ولا تَحفظَ وتعلمَ ولا تعملَ. قال: قلتُ له: لا قُوّةَ إلّا بالله. قال: أيسرُ حقٍّ مِنها أن تُحبَّ لهُ ما تُحبُّ لِنفسكَ وَتكرهَ لهُ ما تكرهُ لِنفسكَ... والحقُّ السابعُ... وتعودَ مريضهُ»[٤].

---

(١) خصال الصدوق، ج ١، ص ١٧٧، ح ٢٠٨.

(٢) مشكاة الانوار، ص ١٦٥؛ المحجة البيضاء، ج ٣، ص ٤٣١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٣٦.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٩، ح ٢.

وفي حديث آخر، عن الامام الصادقعليه السلام عن آبائه قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله:

«وللمؤمنِ على المؤمِنِ سبعةُ حقوقٍ واجِبةٍ مِنَ الله عَزَّ وَجل... وَأن يعودَهُ في مرضِهِ»(١).

وعن معاوية بن وهب قال: قلت للامام الصادقعليه السلام: كيف ينبغي لنا أن نَصنعَ فيما بينَنا وبينَ قَومِنا وفيما بيننا وبين خُلطائِنا من الناس؟ قال: فقال:

«... وتعودون مرضاهم»(٢).

وقال الرسول الاكرمصلى الله عليه وآله:

«مِن حقِّ المسلمِ على المسلمِ اذا لقيهُ أن يُسلِّم علَيهِ، واذا مَرض أن يـعودَهُ، واذا ماتَ أن يُشيِّعَ جِنازَتَهُ»(٣).

ثواب عيادة المريض

هناك العديد من الاحاديث في ثواب عيادة المريض، نشير الى بعضها:

قال الامام علي بن موسى الرضاعليه السلام:

«أيُّما مُؤمِنٍ عادَ أخاهُ في مرضِهِ فانْ كانَ حينَ يُصبحُ شيَّعهُ سبعونَ ألفَ ملكٍ، فاذا قَعَدَ عِندهُ غَمرتْهُ الرحمةُ واستغفَروا لهُ حتّى يُمسيَ، وانْ كانَ مساءً كانَ لهُ مِثلُ ذلكَ حتّى يُصبحَ»(٤).

وقال الرسول الاكرمصلى الله عليه وآله:

«أيُّما مؤمنٍ عادَ مريضاً خاضَ في الرَّحمةِ فاذا قَعَدَ عِندهُ استَشفعَ فيها فاذا عادهُ غُدوَةً صلّى عليه سبعونَ ألفَ ملكٍ الى أن يُمسيَ وان عادهُ عَشـيَّةً صـلى عـليه

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧١، ص ٢٢٢؛ امالي الصدوق، ص ٣٦، المجلس ٩، ح ٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٣٩٨؛ المحجة البيضاء، ج ٣، ص ٤٠١، كتاب آداب الصحبة والمعاشرة.

(٣) مكارم الاخلاق، ط بيروت، ص ٣٥٩.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٦١.

سبعونَ ألفَ ملكٍ حتى يُصبحَ»[١].

وورد في حديث نبوي آخر:

«اذا عادَ الرجلُ أخاهُ المسلمَ مشى في خُرافةَ الجنّة حتى يجلسَ فاذا جَلسَ غَمَرَتهُ الرحمةُ فَان كانَ غُدوةً صلّى عليه سبعونَ ألفَ ملكٍ حتى يُصبحَ»[٢].

ونقل السيد الرضي حديثاً نبوياً يقول:

«مَن عادَ مريضاً لم يَزَل يخوضُ الرحمةَ حتى يَجلس فاذا جلسَ أُغتُمِسَ فيها»[٣].

عيادة المريض المؤمن عيادة الله وقضاء للحاجة

تفيد بعض الأحاديث ان عيادة المؤمن بمنزلة عيادة الله وزيارته سبحانه وان الدعاء عند سرير المريض أقرب الى الاجابة، لأنّ اللطف الالهي مع القلوب الكسيرة، والمريض المؤمن يتميز بهذه الكرامة.

قال الرسول الاكرم محمدﷺ:

«يُعيّرُ الله عزَّ وَجَل عَبداً مِن عبادِهِ يومَ القيامةِ فيقولُ: عبدي! ما مَنَعَكَ اذا مَرضتُ أن تَعودَني؟ فيقولُ: سُبحانَكَ أنتَ ربُّ العبادِ لا تألَمُ ولا تمرضُ. فيقولُ: مرضَ أخوكَ المؤمنُ فلَمْ تَعُدهُ، وَعِزَّتي وجَلالي لَو عُدتَهُ لوجَدتَني عِندهُ ثُمَّ لَتكفَّلتُ بحوائِجِكَ فَقضيتُها لَكَ، وذلك مِن كرامةِ عبديَ المؤمنِ وأنا الرحمنُ الرحيم»[٤].

دعاء من الصحيفة السجادية

ونظراً لأهمية هذه الوظيفة الثقيلة والحقّ الواجب، نجد الامام السجادعليه السلام وحين ذكره لجيرانه والموالين له، يتضرع الى الله تعالى ويسأله ان يوفق هؤلاء

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٨، ص ٢٢٥.

(٢) كنز العمال، ج ٩، ص ٩١، ح ٢٥١٢٥.

(٣) المجازات النبوية، ص ٢٥٠.

(٤) سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٣٤ و٥٣٥؛ مكارم الاخلاق، ص ٣٦٠ مع تفاوت يسير.

لعيادة مريضهم ويقول:

«اللهم صلِّ على محمد وآله وَتولَّني في جيراني ومَوالِيَّ والعارفينَ بحقِّنا والمُنابِذينَ لأعدائِنا بأفضلِ وَلايتكَ وَوَفِّقهم لاقامةِ سُنَّتكَ والأخذِ بمحاسنِ أدبكَ في إرفاقِ ضعيفِهم وَسَدِّ خَلَّتِهم وعيادةِ مريضِهم»[١].

آداب عيادة المريض

لعيادة المريض آداب لابد من مراعاتها، ومن بينها تقديم هدية له.

«عن مولى لجعفر بن محمد قال: مَرِض بعضُ مواليه فخرجنا اليه نعودُهُ ونحنُ عدَّةٌ مِن موالي جعفرٍ فاستقبلنا جعفرٌ في بعض الطريق فقال لنا: أينَ تُريدون؟ فقُلنا: نُريدُ فُلاناً نعودُهُ. فقال لنا: قِفوا! فوقَفنا. فقال: مع احدكم تفاحةٌ أو سَفرجَلةٌ أو أُترُجةٌ أو لعقَةٌ من طيبٍ أو قطعةٌ من عودِ بُخورٍ؟ فقُلنا ما معنا شيءٌ مِن هذا. فقال: أما تعلمونَ أنَّ المريضَ يستريحُ الى كُل ما أُدخِل بِهِ عليه»[٢].

وأشار الرسول ﷺ الى هدية المريض فقال:

«مَن أَطعمَ مريضاً شَهْوَتهُ أطعمهُ الله مِن ثمارِ الجنَّةِ»[٣].

آداب الجلوس عند المريض

على من يعود المريض، الالتزام بما يلي:

الدعاء للمريض:

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«عودوا المرضى، واتَّبعوا الجنائزَ يُذكِّركُم الآخرة. وتدعو للمريض فتقولُ

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٦٤٣، الباب ١٧؛ مكارم الاخلاق، ط بيروت، ص ٣٦١.

(٣) بحار الانوار، ج ٧٨، ص ٢٢٤؛ كنز العمال، ج ٩، ص ٩٧، ح ٢٥١٥٧.

اللهم اشفِهِ بشفائك وداوِهِ بدوائِك وعافِهِ مِن بلائِكَ»[١].

وقال ﷺ أيضاً:

«اذا دَخَلَ أحدُكُم على أخيهِ عائداً لهُ فَليدعُ لهُ وَليطلُب منهُ الدعاء فانّ دُعاءَهُ مِثلُ دُعاءِ الملائكةِ»[٢].

زرع التفاؤل:

من آداب عيادة المريض الاخرى تعزيز جانبه المعنوي وزرع الأمل بالشفاء في نفسه من خلال القول له: «ستتشفى عن قريب ان شاء الله، سيُلبسك الله ثوب الصحة والعافية وتمارس حياتك العادية قريباً... الخ». وهذا النوع من التعامل مع المريض ضروري جداً لاسيما وأنّ البعض يهبط لديه الجانب المعنوي خلال المرض، بل ويشعر البعض الآخر باليأس من الحياة، ولذلك لابد من زرع التفاؤل بالشفاء والحياة في نفسه.

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«اذا دخلتُم على المريض فَنفِّسُوا لهُ في الأجلِ فانَّ ذلكَ لا يردُّ شيئاً وهُوَ يطيِّبُ النفسَ»[٣].

وحينما عاد ﷺ سلمان الفارسي، قال حينما اراد الانصراف: «يا سلمانُ كَشَفَ الله ضُرَّكَ وَغَفرَ ذنبكَ وَحَفظكَ في دينكَ وَبدَنكَ الى مُنتَهى أجلكَ»[٤].

قصر الزيارة:

من الآداب الاخرى، ضرورة ان تكون الزيارة للمريض قصيرة، إلّا اذا رغب المريض بالمكث عنده.

---

(١) بحار الانوار، ج ٧٨، ص ٢٢٤.

(٢) مكارم الاخلاق، ص ٣٦١.

(٣) بحار الانوار، ج ٧٨، ص ٢٢٥.

(٤) مكارم الاخلاق، ص ٣٦١.

قال الامام علي‌عليه‌السلام:

«انَّ مِن أعظم العُوّادِ أجراً عند الله لَمَن اذا عادَ أخاهُ، خفَّفَ الجلوس إلّا أن يكونَ المريضُ يُحبُّ ذلكَ ويُريدُهُ»(١).

فقد يزور بعضهم المريض إلّا انهم وانطلاقاً مما لديهم من جهل، بدلاً من أن يدخلوا عليه البهجة، يثيرون لديه الاستياء والملل، بحيث تصبح عيادتهم له أشدّ وطأة عليه من مرضه.

قال الامام الصادق‌عليه‌السلام:

«... فانّ عيادةَ النَّوكي أشدُّ على المريض مِن وَجَعِهِ»(٢).

كما قال في حديث آخر:

«أعظمُكُم أجراً في العيادةِ أخَفُّكُم جُلوساً»(٣).

تمام العيادة

ما يجب رعايته في عيادة المريض أيضاً هو معرفة كيفية التصرف معه وطريقة التعبير عن التعاطف والحب. وهناك أحاديث عديدة بهذا الشأن ومنها:

قال رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله:

«تمامُ عيادةِ المريضِ أن يَضعَ يدهُ عليهِ ويسألهُ كيف هُوَ»(٤).

وقال‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ايضاً:

«تمامُ عيادةِ المريضِ أن يَضعَ أحدكُم يَدهُ عليهِ ويسألهُ كيف أنت؟ كيفَ أصبحتَ وكيف أمسيتَ؟ وتَمامُ تَحيّتِكُم المُصافَحةُ»(٥).

وقال علي‌عليه‌السلام:

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٦٤٢؛ مكارم الاخلاق، ص ٣٦٠مع اختلاف يسير.

(٢) نفس المصدرين.

(٣) مكارم الاخلاق، ص ٣٦١.

(٤) ميزان الاعتدال، الذهبي، ج ٣، ص ٧.

(٥) مكارم الأخلاق، ص ٣٥٩.

«مِن تمامِ العيادةِ أن يَضعَ العائدُ احدى يَديهِ على يدِ المريضِ أو على جَبهتهِ»[١].

وقال عليه السلام

«تَمامُ العيادةِ للمريضِ أن تَضعَ يدَكَ على ذِراعِهِ وَتُعجِّلَ القيامَ مِن عِندهِ»[٢].

عدم توقع الضيافة من المريض:

بما أنّ الهدف من عيادة المريض التعبير عن الحب وأداء حقوق الاخوة والحصول على الأجر والثواب، ينبغي على العائد للمريض ان لا يتوقع الضيافة منه، لأنّ المريض مشغول بمرضه، وأسرته مشغولة به. ولذا على العائدين ان يهبوا لاعانة اسرة المريض لا أن يكونوا عبأً عليها. ولذلك:

«نهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أن يأكُل العائدُ عِند العليلِ فيُحبطُ الله أجر عيادَتِهِ»[٣].

طلاقة الوجه

تُعدّ طلاقة الوجه والبشر علامة اخرى من علائم حسن السلوك. فالمسلم ذو الاخلاق الحسنة لا يُظهِر حزنه على وجهه خلال تعامله مع الآخرين وانما يحتفظ به في قلبه. وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين علي عليه السلام حين قال:

«المؤمنُ بِشرُهُ في وجهِهِ وَحُزنُهُ في قلبِهِ...»[٤].

وقال الرسول محمد صلى الله عليه وآله:

«... انَّكُم لن تَسعُوا النـاسَ بـاموالكُـم فـالقوهُم بـطلاقةِ الوجـهِ وحُسـنِ

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٦٠.

(٢) مكارم الاخلاق، ص ٣٦٠؛ وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٦٤٢ مع اختلاف يسير.

(٣) دعائم الاسلام، ج ١، ص ٢١٨؛ بحار الانوار، ج ٧٨، ص ٢٢٨.

(٤) نهج البلاغة، فيض الاسلام، ص ١٢٤٣، ح ٣٢٥.

البِشرِ»(١).

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«ثلاثٌ مَن أتى الله بواحدةٍ منهُنَّ أوجَبَ الله لهُ الجنَّةَ: الانفاقُ مِن اقتار، والبِشرُ لجميعِ العالمِ، والانصافُ مِن نفسِهِ»(٢).

وقال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«أتى رسولَ الله رجُلٌ فقالَ: يا رسولَ الله أوْصِني، فكانَ فيما أوصاهُ أنْ قال: إلْقَ أخاكَ بوجهٍ مُنبسِطٍ»(٣).

البِشر يكسب حبّ الناس ويقرب من الله

قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«البِشرُ الحسنُ وطلاقةُ الوجهِ مَكسبةٌ للمحبّةِ وَقُربةٌ مِنَ الله عَزَّ وجلَّ، وعبوسُ الوجهِ وسوءُ البشرِ مكسبةٌ للمقتِ وبُعد مِن الله»(٤).

المزاح

المزاح، من مفردات حسن السلوك، إلّا انه من آفات اللسان ايضاً، ومن الممكن ان يفرز كباقي الآفات نتائج وخيمة وآثاراً سلبية كثيرة. ولذلك وُضعت له على صعيد الآداب الدينية حدود لو تجاوزها لأعطى تلك النتائج غير المحمودة. ولذلك ينبغي على المرء السيطرة على لسانه خلال المزاح، وأن يأخذ بنظر

---

(١) مشكاة الانوار، ص ١٨٠؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٣، ح ١. ورد هذا الحديث في عيون اخبار الرضا (ج ٢، ص ٥٣) وأمالي الصدوق (ص ٢٠، ح ٩ وص ٣٦٢، ح ٩) وبحار الانوار (ج ٧١، ص ١٥٩، ح ١٣) باختلاف «فسموهم» بدلاً من «فالقوهم».

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٣؛ مشكاة الانوار، ص ١٧٩.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٣، ح ٣.

(٤) مشكاة الانوار، ص ١٧٩.

الاعتبار جانبيه الايجابي والسلبي، بل وتجنب الدعابة قدر الامكان، وأن يعلم بأنّ لكل مقام مقالاً.

فلو أمضى المرء حياته بالمزاح وأفرط فيه لتحول ذلك الى عادة لديه، وحينئذ لن يتعامل بجد حتى مع القضايا التي تستدعي الجد والحزم. ومن لا يشعر بالمسؤولية والتعامل بجد مع واجباته والتزاماته، فليس بامكانه أن يكون مفيداً لا لنفسه ولا لمجتمعه.

من الطبيعي انّ المرء الذي تستولي عليه روح الدعابة والمزاح، يفقد الشعور الواقعي، فلا يدرك الحقائق كما هي، ولا يتلقى الآخرون كلامه على انه جد أو حقيقة.

وعلى ضوء هذه المقدمة، لابد من اثارة التساؤلات التالية:

١ ـ هل المزاح غير مستحسن مطلقاً؟

٢ ـ كيف كان اسلوب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام؟

٣ ـ هل هناك بعد ايجابي للمزاح في التعاليم الدينية؟

وللاجابة، لابد من القول أنّ بالامكان الاستشفاف من مجموع الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام انّ المزاح مطلوب الى حد ما، ولم ينه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والائمة عليهم السلام عنه بشكل مطلق، وانما اثنوا عليه بشكل نسبي وضمن شروط خاصة، بل كانوا يمزحون في بعض الأحيان أيضاً.

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«انّي لأمزَحُ ولا أقولُ إلّا حقاً»[1].

قال شخص يدعى معمّر بن خلّاد:

«سألتُ أبا الحسن (الرضا) عليه السلام فقلتُ: جُعلتُ فداكَ الرجلُ يكونُ مع القومِ فيجري بينهُم كلامٌ يمزحونَ ويضحكون فقال: لا بأسَ ما لم يكُن، فظنَنتُ أنَهُ عَني

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٢؛ الذريعة الى مكارم الشريعة، ص ١٥٧.

الفُحشَ، ثم قال: انّ رسولَ اللهﷺ كانَ يأتيهِ الاعرابيُّ فيأتي اليهِ الهديَّةَ ثُمَّ يقولُ مكانهُ: أعطِنا ثمنَ هديتنا فيضحكُ رسولُ اللهﷺ. وكان اذا اغتمَّ يقولُ: ما فَعَلَ الاعرابيُّ ليتَهُ أتانا»[١].

عن أحدهم عن الامام الصادق قال:

«ما من مؤمنٍ إلّا وفيه دُعابة. قلتُ: وما الدعابةُ؟ قال: المِزاحُ»[٢].

وقال الامام الباقرؑ:

«انَّ الله عزّ وجلّ يُحبُّ المداعبةَ في الجماعَةِ بلا رَفثٍ»[٣].

اسلوب الرسولﷺ والأئمة المعصومينؑ

كان الرسولﷺ والأئمة المعصومونؑ يمزحون ويدعون الناس الى المزاح. وقد اوردنا قول الرسولﷺ في ذلك. كما قال الامام الصادقؑ لأحدهم:

«كيفَ مُداعبةُ بَعضِكُم بَعضاً؟ قُلتُ قليلٌ. قال: فلا تفعلوا، فانّ المداعبةَ مِن حُسنِ الخُلقِ، وانّك لتُدخلُ بها السُّرورَ على أخيكَ. ولقد كان رسولُ اللهﷺ يُداعبُ الرَّجُلَ يُريدُ أن يَسُرَّهُ»[٤].

ومن الواضح انّ قول الامام الصادق «فلا تفعلوا» معناه لا تكن مداعبة بعضكم بعضاً قليلة.

وقال عليؑ:

«وكان رسولُ اللهﷺ لَيسُرُّ الرجُلَ من أصحابه اذا رآهُ مغموماً بالمُداعبةِ»[٥].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٧٧؛ اصول الكافي، ص ٦٦٣، ح ١، مع اختلاف «فيهدي له الهدية» بدلاً من «فيأتي اليه الهدية».

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٧٧؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٣، ح ٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٧٨؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٣، ح ٤.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٣، ح ٣؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٧٨.

(٥) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٧٦.

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يُداعبُ ولا يقولُ إلّا حَقّاً»[١].

وسأل أحدهم ابنَ عباس:

«أكانَ النبي صلى الله عليه وآله يمزحُ؟ فقال: كانَ النبي صلى الله عليه وآله يمزحُ»[٢].

اذن كان أئمة الدين يمزحون ولكن ضمن اطار الاعتدال لا التطرف. وكانت الاحاديث التي اوردناها أعلاه تشير الى الجانب الايجابي للمزاح.

الجانب السلبي للمزاح

هناك أحاديث اخرى تكشف عن الوجه الآخر للمزاح، أي الجانب السلبي منه. ومن هذه الأحاديث:

المزاح يحطّم الشخصية:

أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام:

«يا عليُّ لا تَمزَح فَيذهبُ بهاؤكَ»[٣].

وأوصى الامام الصادق عليه السلام حمران بن أعين بالتقوى ثم قال:

«... واياكَ والمزاحَ فانَّهُ يُذهبُ هيبةَ الرجلِ وماءَ وجهِهِ»[٤].

وأوصى الامام الصادق عليه السلام شخصاً آخر قائلاً:

«اوصيكَ بتقوى الله واياكَ والمزاحَ فانَّهُ يذهبُ بالبهاءِ»[٥].

وقال الرسول صلى الله عليه وآله:

---

(١) نفس المصدر.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٧٧. للاطلاع على بعض النماذج من مزاح الرسول (ص) راجع: مستدرك الوسائل (ج ٢، ص ٧٦ ـ ٧٧)، والمحجة البيضاء، (ج ٥، ص ٢٣٣)، ومناقب ابن شهرآشوب (ج ١، ص ١٤٧).

(٣) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٤، ص ٤٨.

(٤) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٧٨.

(٥) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٧٧.

«كَثرةُ المِزاحِ تَذهبُ بماءِ الوجهِ»[١].

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«اياكُم والمِزاحَ فانَّهُ يَذهبُ بماءِ الوجهِ»[٢].

المزاح يُجرّئ الآخرين

من سلبيات المزاح الاخرى انه يحرض الآخرين على الاجتراء على المازح، فيفقد الاحترام والتقدير.

قال الامام الصادقعليه السلام:

«لا تُمازح فيُجترأ عليكَ»[٣].

المزاح يفجّر العداء:

قال الامام عليعليه السلام:

«اياكُم والمِزاحَ فانَّهُ يجُرُّ السَّخيمةَ ويورثُ الضغينةَ وهُوَ السَّبُّ الأصغرُ»[٤].

المزاح يبدد نور الايمان:

قال امير المؤمنين عليعليه السلام:

«ايّاك والمِزاحَ فانّهُ يذهبُ بنورِ ايمانِكَ ويستخِفُّ بِمُروَّتِكَ»[٥].

المزاح يقلل العقل:

قال عليعليه السلام:

« ما مَزَحَ امروٌ مزحةً إلّا مَجَّ مِن عَقلِهِ مجّةً»[٦].

---

(١) امالي الصدوق، ص ٢٢٣، ح ٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢، ح ١ و٧ و١٠ و١٢؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٤، ح ٨.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٨١، ح ٦ و١١؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٥. روي هذا الحديث عن الإمام الحسن العسكري في بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣٧٠.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٤، ح ١٢؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٨٢. روي هذا الحديث عن الامام الصادق (ع) في تحف العقول، ص ٢٨٣.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٥، ح ١٩.

(٦) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ح ٤٥٠.

وقال الامام الهادي عليه السلام:

«الهزلُ فُكاهةُ السُّفهاءِ وصناعةُ الجُهّالِ»[(١)].

الاستنتاج

نستنتج من مجمل الأحاديث التي اوردناها انّ حسن المزاح وقبحه امر نسبي وليس بالامكان اعطاء رأي مطلق في المزاح. وعلى صعيد آخر لابد للمسلم ان يكون بشوش الوجه وطلق المحيا خلال تعامله ومعاشرته للآخرين، كما لابد له ان يكون مؤدَّباً وجاداً ايضاً. ومراعاة هذين الامرين عملية سهلة وممتنعة في ذات الوقت، لأنّ المؤدب بالآداب الدينية والعارف بحدود الكلام، يجب ألا يكون جامداً في علاقاته بحيث يبعث على سأم الآخرين واستيائهم من جهة، ولا مازحاً بحيث يسحق بمزاحه غير الحميد ولا المؤدب وكلماته الركيكة شخصيته ويسيء الى الآخرين من جهة اخرى.

لابد للمؤمن أن يكون بشوشاً طلق الوجه، كما لابد له ان لا يخرج عن حدود الأدب والاتزان. وقد قلنا بأنّ مراعاة كلا الجانبين أمر فيه شيء من الصعوبة، إلّا انه عمل سهل ولذيذ لاولئك الذين يراقبون انفسهم دائماً ويسيطرون عليها. اما اولئك الذين لا يلتزمون بعملية المراقبة، فيخرجون عادة عن خط الاعتدال ويصابون بالافراط والتفريط. أي يبدو بعضهم عبوساً مكفهر الوجه الى درجة بحيث لا يجرؤ أحد على التحدث معهم، ويتصرف البعض الآخر بلا حدود ولا قيود ويبالغون في المزاح والهزل بحيث ينظرون الى كل شيء بعين الدعابة والمزاح، فيسيئون الى غيرهم أحياناً لعدم مراعاة الأدب والخروج بالكلام عن عفّته، الأمر الذي يدفع بهم لاقتراف الآثام واجتراح السيئات.

ينبغي اذن على المؤمن المتقي ان يضع نفسه تحت مجهر المراقبة والاشراف كي لا يخرج عن إطار الاعتدال، وان يضع كلام رسولنا الاكرم صلى الله عليه وآله نصب عينيه دائماً:

---

(١) بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣٦٩.

«انّي لأمزحُ ولا أقولُ إلّا حقّاً».

الانصاف

الانصاف، من أمارات الاخلاق الحسنة وآداب المعاشرة. وما أكثر الناس الذين يراعون الانصاف في مرحلة الادّعاء والشعار، اما حينما تحلّ مرحلة العمل والتطبيق، نجدهم قليلين وللأسف.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«... فالحقُّ أوسعُ الاشياء في التواصُفِ وأضيقُها في التناصُفِ...»[١].

والمراد بهذا الحديث انّ اغلب الناس يصف الحق ويعرّفه ويتحدث عنه جيداً، إلّا انه يضيق به في العمل وغير مستعد لإعطاء الحقّ لأهل الحق. أو المراد أنّ دائرة الحقّ في مقام الادعاء والوصف أوسع الأشياء وأسهلها واما في مقام العمل والأداء فأضيقها وأصعبها، فالمدّعون كثير والعاملون قليل.

ما هو الانصاف؟

رغم ان مفوم الانصاف واضح للجميع، لكن لابد من الاشارة الى انّ مفردة «انصاف» مشتقة من «نَصْف» و «نُصْف»، أي تقسيم الشيء نصفين، أو البلوغ الى نصفه، وتعني في العلاقات الاجتماعية تناصف النفع والضرر، وفي التحكيم مراعاة حقوق الجانبين.

فالانصاف عموماً ناشئ من روح احترام حقوق الآخرين. والمنصف هو الذي يقول بحقوق متساوية للآخرين ويقسم مزايا الحياة بينه وبين الناس.

فالانصاف صفة الأنبياء والصالحين ومن تبعهم بايمان واحسان. إلّا ان البعض يوصي الآخرين بالانصاف ولا يكون منصفاً في تعامله معهم. ولذلك اكدت بعض

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ٢١٦.

الاحاديث على ضرورة الانصاف من النفس ودعت الى :«أن انصف الناس من نفسك»، أي حينما تجلس لتقضي بينك وبين الناس، اعطِ لهم الحقوق التي لهم عليك لا أن تتجاهلها أو تغمطها.

القرآن والانصاف

بعض الناس وحينما يرون مصالحهم أو مصالح اقربائهم وأصدقائهم معرضة للخطر، نراهم غير مستعدين لقول الحقيقة بسهولة حين الكلام أو عند أداء الشهادة. ولذلك يخاطب القرآن الكريم هؤلاء:

﴿... واذا قُلتُم فاعدِلوا ولو كان ذا قُربى وبعهدِ اللهِ اوفوا ذلكُم وصّاكُم بهِ لعلَّكُم تذكَّرون﴾[1].

وقال في موضع آخر:

﴿يا أيُّها الذين آمنُوا كونُوا قوّامين بالقِسطِ شُهداءَ للهِ ولو على انفُسِكُم أو الوالدَينِ والأقربينَ إنْ يكُنْ غنيّاً أو فقيراً فاللهُ أولى بهِما فلا تتَّبِعُوا الهوى أن تعدِلُوا وإنْ تَلْوُوا أو تُعرِضُوا فانَّ اللهَ كان بِما تعملون خبيراً﴾[2].

الانصاف في الاحاديث

أكدت الروايات على الانصاف ودعت الى مراعاته والالتزام به، نشير الى بعضها.

الانصاف من مكارم الأخلاق

سأل احدهم رسول الله ﷺ: خبِّرني عن مكارم الأخلاق.

قال ﷺ: «العفوُ عمَّن ظلمكَ، وصلَةُ من قطعكَ، واعطاءُ من حرمكَ، وقولُ

---

(١) الأنعام / ١٥٢.

(٢) النساء / ١٣٥.

الحقَّ ولو على نفسِكَ»[١].

الانصاف علامة الايمان

عدّ الرسول ﷺ الانصاف علامة من علامات الايمان، فقال:

«من واسى الفقير وأنصفَ الناس من نفسهِ فذاكَ المؤمنُ حقّاً»[٢].

الانصاف يجلب العزة

قال علي عليه السلام:

«... من يُنصِف الناسَ مِن نفسهِ لم يزدهُ الله إلّا عزّةً»[٣].

الانصاف أفضل الأعمال:

قال الامام الصادق عليه السلام:

«سيّدُ الأعمالِ ثلاثةٌ: انصافُ الناسِ من نفسكَ حتى لا ترضى بشيءٍ إلّا رضيتَ لهُم مِثلهُ، ومُواساتك الأخ في المالِ، وذِكرُ الله على كلِّ حالٍ، ليس سُبحانَ الله والحمد لله ولا اله إلّا الله والله اكبر فقط، ولكن اذا وردَ عليكَ شيءُ أمرَ الله عزَّ وجلَّ بهِ، أخذتَ بهِ، واذا وردَ عليك شيءُ نهى الله عزّ وجلّ عنه تركتهُ»[٤].

الانصاف يقرّب من الله

قال الامام الصادق عليه السلام:

«ثلاثةٌ هُم أقربُ الخلقِ الى الله عزّ وجلّ يومَ القيامةِ حتّى يفرغَ من الحساب: رجلٌ لم تدعهُ قُدرةٌ في حالِ غضبهِ الى أن يحيفَ على من تحت يديهِ، ورجلٌ مشى بين اثنينِ فلم يَمِلْ مع أحدِهما على الآخر بشعيرةٍ، ورجلٌ قال الحقَّ فيما عليه

---

(١) مشكاة الانوار، ص ٢١٨. ورد هذا الحديث في امالي الصدوق ايضاً مع هذا الاختلاف: وردت كلمة «اخبرني» بدلاً من «خبرني». مع نسبته الى الامام الصادق (ع) بدلاً من الرسول (ص).

(٢) الخصال. الصدوق. ج ١، ص ٨٧، ح ٤٢.

(٣) اصول الكافي. ج ٢، ص ١٤٤، ح ٤.

(٤) نفس المصدر، ح ٣؛ خصال الصدوق. ج ١، ص ١٤٠ مع اختلاف طفيف.

ولهُ»(١).

أيسر الحقوق

عن المعلى بن خنيس عن الامام الصادق(ع) قال: قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال:

«له سبعةُ حقوقٍ واجباتٍ ما منهُنَّ حقٌّ إلّا وهوَ واجِبٌ عليه، ان ضيَّعَ منها شيئاً خرجَ من ولاية الله وطاعتهِ، ولم يكن لله فيه من نصيبٍ.

قلتُ له: لا قوَّةَ إلّا بالله.

قال: أيسرُ حقٍّ منها أن تُحِبَّ لهُ ما تُحِبُّ لنفسكَ، وتكرهَ لهُ ما تكرهُ لنفسكَ ...»(٢).

عهد الامام علي(ع) الى مالك الأشتر

كتب امير المؤمنين علي(ع) الى مالك الاشتر:

«... أنصِفِ اللهَ وأنصفِ الناسَ من نفسكَ ومن خاصَّةِ أهلكَ ومنَ لك فيهِ هوىً من رعيَّتكَ فانَّكَ إلّا تفعلْ تظلِمْ. ومن خاصمهُ الله أدحضَ حُجَّتهُ، وكان لله حرباً حتّى ينزِعَ أو يتوبَ ...»(٣).

أصعب الفروض

انّ مراعاة الانصاف، عمل صعب وليس من السهل الالتزام به، ولكنه يبقى فرضاً لا يمكن التنصل منه، اذ به تستقيم الحياة وتشيع العدالة الاجتماعية.

ونشير على هذا الصعيد الى حديثين:ـ

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ٢٦؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٤٥، ح ٥؛ خصال الصدوق، ج ١، ص ١١٠.

(٢) اصول الكافي، ج٢، ص١٦٩، ح٢.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٥٣.

١ ـ عن الامام الصادقعليه السلام قال في حديث له:

«ألا أُخبرُكُم بأشدِّ ما فرضَ الله على خلقهِ. فذكرَ ثلاثةَ أشياءٍ أولُها: انصافُ الناسِ من نفسكَ»[١].

٢ ـ ... عن عبد الأعلى بن أعين قال: «كتب بعضُ اصحابنا يسألون ابا عبد الله (الصادق)عليه السلام عن أشياء وأمروني أن أسألهُ عن حقِّ المسلمِ على أخيهِ فسألتهُ فلم يُجِبني. فلمّا جئتُ لأُودِّعهُ قلتُ: سألتُكَ فلم تُجِبني؟ فقال: انّي أخافُ أن تكفُروا. انَّ من أشدِّ ما افترضَ الله على خلقهِ ثلاثاً: انصافَ المرءِ من نفسهِ حتى لا يرضى لأخيهِ من نفسهِ إلّا بِما يرضى لنفسهِ منهُ. ومواساةَ الأخِ في المالِ. وذكرَ الله على كُلِّ حالٍ. ليس سبحانَ الله والحمد لله ولكن عندما حرَّمَ الله عليهِ فيدعهُ»[٢].

الانصاف في القضاء

مراعاة الانصاف في حياة الانسان، لها العديد من المراحل. وينبغي للمرء مراعاته بما يتناسب مع ما لديه من مسؤولية وموقع اجتماعي. فعدم الانصاف يدمّر دنياه وآخرته. ومن اهم الأصعدة التي لابد وأن يتجلى فيها الانصاف، هو الصعيد القضائي. فذلك الذي يعتلي دكة القضاء وكرسي الحكم، يجب ان لا يأخذ بنظر الاعتبار أي شيء سوى الحق والحقيقة. فلو وقع تحت تأثير الآخرين، أو مال لأحد طرفي الدعوى بدافع القرابة أو الصداقة. فلا شك في خروجه عن دائرة الانصاف والعدل. وحكمه بغير ما انزل الله. ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون والفاسقون والكافرون بصريح القرآن الكريم:

﴿... ومن لم يحكُم بما أنزلَ الله فأولئكَ همُ الظالمونَ﴾[٣].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٤٥، ح ٦.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٠، ح ٣.

(٣) المائدة / ٤٥.

﴿... ومن لم يحكُم بما أنزلَ الله فأولئكَ همُ الفاسقونَ﴾[١].

﴿... ومن لم يحكُم بما أنزلَ الله فأولئكَ همُ الكافرونَ﴾[٢].

ومع انّ الحديث عن القضاء وأهميته في الاسلام وضرورة التزام القاضي بالانصاف، يصرف الذهن الى المراحل العليا من القضاء، ولكن القضاء لا يقتصر على القاضي الرسمي أو القاضي المعيّن من قبل الامام أو نائبه، لأنّ القضاء أو التحكيم يشمل حتى الحالات التي ربما نتصور انها بسيطة أو لا أهمية لها، ومنها الحالة التالية التي أوردها الطبرسي في تفسيره:

«انّ صبيّين ارتفعا الى الحسن بن علي عليه السلام في خطٍّ كتباه وحكّماه في ذلك ليحكم أيّ الخطين أجود. فبصر به علي عليه السلام فقال: يا بنيّ انظر كيف تحكم فانّ هذا حكم، والله سائِلُكَ عنه يومَ القيامةِ»[٣].

احترام حدود الآخرين

تُعدّ مراعاة شؤون الناس واحترام حدودهم وشخصيتهم، من سمات المسلم المتخلق بالأخلاق الحسنة، وأدباً من آداب المعاشرة.

ولابد أن نعلم بأنّ هتك حدود الغير، وعدم مراعاة شؤونه، ليس مجرد قضية حقوقية وفقهية تُبحث على صعيد الحلال والحرام، وانما هي قضية اخلاقية وانسانية واجتماعية لها بعد أوسع من بعد الحقوق المدنية وترتبط بكرامة الانسان وحريته اللتين لابد وان تظلا مصونتين من الانتهاك، ولابد ان نعلم بأنّ جريمة عدم رعاية هذه القاعدة الاخلاقية اكبر من عدم رعاية الحكم الفقهي والحقوقي.

ولذلك يعد احترام حرمة مساكن وبيوت الآخرين أمراً بالغ الاهمية في

---

(١) المائدة / ٤٧.

(٢) المائدة / ٤٤.

(٣) تفسير مجمع البيان، ط بيروت، ج ٣، ص ٦٤، تفسير الآية ٥٨ من سورة النساء.

الاسلام ليس من منطلق الملكية فحسب، وانما ايضاً من منطلق احترام ما لدى الافراد من شؤون معنوية وشخصية انسانية، ولذلك يُعدّ هتك حرمة البيوت هتكاً لحدود الانسان واعتداءً عليه لا لمجرد كونه اعتداءً على ممتلكاته وأمواله. أي انّ المهم هنا، هو شرف الانسان وكرامته، لا قيمة الاموال المتعلقة به.

وفي سورة النور التي تتحدث اغلب آياتها عن الشؤون المعنوية للانسان وكرامته، تعاليم رائعة بهذا الشأن منها:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخُلوا بيوتاً غير بيُوتِكُم حتّى تستأنِسوا وتُسلِّموا على أهلِها ذلكُم خيرٌ لكُم لعلَّكُم تذكَّرونَ فإنْ لم تجِدوا فيها أحداً فلا تدخُلوها حتّى يُؤذنَ لكُم وإن قيلَ لكُم ارجِعُوا فارجِعوا هو أزكى لكُم واللهُ بِما تعملون عليمٌ﴾[1].

وبيّن الله تعالى في هذه الآيات بعض آداب المعاشرة التي لابد من التأدب بها، لأنّ عدم رعاية هذه التعاليم الاجتماعية يلحق الضرر بالعفّة العامة ويؤدي الى التدخل والتجسس في الحياة الخاصة لأفراد المجتمع وهو ما يُعدّ خلافاً للأخلاق الاسلامية. فالاسلام حريص على هذا الجانب الى درجة انه يأمر من يدقّ باب بيت من البيوت ان ينتحي جانباً ثم يدق. وهذا ما نشاهده في قول الرسول لأحد أصحابه ويدعى ابا سعيد:

«لا تستأذِن وأنتَ مُستقبلُ الباب»[2].

وورد ايضاً:

«انه عليه الصلاة والسلام كان اذا اتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء

---

(١) النور / ٢٧ و٢٨. تبدأ سورة النور بذكر حد الزنا، والقذف، واللعان، وتحريم الاشاعة، ووجوب الحجاب، والنهي عن النظر الى غير المحارم، والنهي عن الدخول الى حدود الحياة الشخصية للناس، ومنع اكراه الاماء على البغاء والفحشاء، وآداب دخول وخروج الابناء على الآباء والامهات، وتنتهي بتعاليم احترام مقام الرسالة وشؤون النبوة. ورغم انّ هذه التعاليم تشتمل على احكام حقوقية وفقهية، ولكن طابعها العام والدافع الاساسي لها أوسع من ذلك، وعلى علاقة باحترام انسانية الانسان.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٣، ص ١٩٨.

وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السلامُ عليكم، وذلك لأنَّ الدور لم يكن عليها حينئذٍ ستور»[١].

والاسلام يعير أهمية لهذه الآداب بحيث لو اراد أحد الدخول الى بيت والديه فعليه ان يستأذن اولاً ثم يدخل، وقد ورد:

«انَّ رجُلاً قال للنبيﷺ: أستأذِنُ على أُمي؟ فقال: نعم! قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري أفأستأذِنُ عليها كُلَّما دخلتُ؟ قال: أتُحِبُّ أن تراها عُريانةً؟ قال الرجل: لا! قال: فاستأذِن عليها»[٢].

وورد في رواية ان الرسولﷺ حينما اراد دخول بيت ابنته فاطمة الزهراءؑ، استأذن اولاً ثم دخل: يقول جابر بن عبد الله الانصاري:

«خرج رسولُ اللهﷺ يريدُ فاطمةَؑ وأنا معهُ، فلما انتهيتُ الى البابِ وضعَ يدهُ فدفعهُ، ثم قال: السلام عليكُم، فقالت فاطمةؑ: عليك السلامُ يا رسول الله، قال: أأدخُلُ؟ قالت: أُدخل يا رسول الله ...»[٣].

ما سبق، يكشف لنا كيف كان رسول اللهﷺ وهو اسوتنا وقدوتنا، يلتزم بهذه الآداب ويعمل بها ويحترمها. فعلينا اذن ان نتأسى به ونقتدي بآدابه وأن لا نتجاهل هذه النقاط الدقيقة الحساسة أولاً.

وظيفة الابناء الأخلاقية

سلّط القرآن الكريم الضوء على ما للأبناء من وظيفة داخل البيت. اذ لا ينبغي لهم دخول الموضع الذي يخلد فيه الوالدان الى الراحة إلّا بعد الاستئذان. وهذا ما يكشف عن اهمية الجانب الاخلاقي لهذه المسألة من وجهة نظر الاسلام. فالقرآن عموماً لم يفرد آية للحديث عن القضايا الجزئية. ولكن اهمية الأبوين وقضايا

---

(١) نفس المصدر.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٣٥؛ تفسير الصافي، ج ٢، ص ١٦٤؛ تفسير الميزان، ج ١٥، ص ١٢٤.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٨٧، رواية طويلة، اوردنا منها ما يلزم.

الاسرة وضرورة احترام حدود العفة والاخلاق من قبل الابناء، اقتضت نزول آية خاصة بهذا الشأن:

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا لِيستأذِنْكُمُ الذينَ ملكتْ أيمانُكُم والذينَ لم يبلُغُوا الحُلُمَ منكُم ثلاثَ مرّاتٍ من قبلِ صلاةِ الفجرِ وحينَ تضعُونَ ثيابَكُم من الظَّهيرَةِ ومن بعدِ صلاةِ العشاءِ ثلاثُ عوراتٍ لكُم ليسَ عليكُم ولا عليهِم جُناحٌ بعدهُنَّ طوّافُون عليكُم بعضُكُم على بعضٍ كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ لكُمُ الآياتِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ. واذا بلغَ الأطفالُ منكُمُ الحُلُمَ فليستأذِنوا كما استأذنَ الذينَ مِن قبلِهم كذلكَ يُبيِّنُ الله لكُم آياتهِ والله عليمٌ حكيمٌ﴾[1].

وصفوة القول هي ان التأدب بهذه الآداب والالتزام بها، لدليل على الاخلاق الحسنة. ويجدر بالآباء والامهات تعليم ابنائهم على هذه الآداب وان لا يتجاهلوها قط، فقد يؤدي تجاهلها وعدم الاهتمام بها الى تغيير مسار حياة ابنائهم في المستقبل ووقوعهم في شرك الانحرافات الخلقية والامراض النفسية. وقد يتقوض وجودهم الانساني بأسره.

حُبّ الجمال

حب الجمال والميل اليه، من النوازع الفطرية لدى الانسان، ويؤلف مع نزعة حُبّ الخير، وحس البحث والتعلم، والشعور الديني، الأبعاد المعنوية الأربعة للانسان. وقد اكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة وهي ان الانسان محبّ للجمالات، وهي تؤلف اهم بواعثه على العمل والحركة في الحياة.

قال تعالى:

﴿زُيِّن للناسِ حُبُّ الشَّهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقنطرَةِ من الذَّهبِ

---

(١) النور / ٥٨ و٥٩.

والفِضةِ ...﴾[١].

وقال أيضاً:

﴿ولكُم فيها جمالٌ حين تُريحونَ وحين تسرحُونَ﴾[٢].

ويتضح في الآيتين اعلاه البعد الفطري لحبّ الجمال.

وقال تعالى في الكواكب:

﴿انّا زيَّنا السَّماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكبِ ...﴾[٣].

وقال تعالى في المال والبنين:

﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّكَ ...﴾[٤].

فالقرآن الكريم لم يقمع هذا الحس قط ولم يمنع استخدامه، بل اعلن وبشكل صريح انّ زينة الله خاصة بعباده المؤمنين الصالحين، وان شاركهم الآخرون فيها.

طبعاً هناك بعض الشروط في كمية وكيفية التمتع بالنعم الالهية والمواهب الطبيعية، لابد للانسان الملتزم من التقيد بها، وتُعد مراعاتها من شرائط السلوك. ويُعدّ الاعتدال على أي حال من ضروريات الأخلاق الاسلامية.

قال الله تعالى:

﴿قُل من حرَّمَ زينةَ الله التي أخرجَ لعبادهِ والطيِّباتِ من الرِّزقِ قل هي للذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا خالصةً يومَ القيامةِ كذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمونَ﴾[٥].

الزينة في العبادة

قال تعالى:

﴿يا بَني آدمَ خُذوا زينتكُم عندَ كُلِّ مسجدٍ ...﴾[٦].

---

(١) آل عمران / ١٤.

(٢) النحل / ٦.

(٣) الصافات / ٦.

(٤) الكهف / ٤٦.

(٥) الأعراف / ٣٢.

(٦) الاعراف / ٣١.

الثياب من مصاديق الزينة

رغم انّ الزينة الحقيقية هي زينة النفس بالكمالات والفضائل المعنوية، ولكن لابد ان نعلم بأنّ الزينة لا تتلخص في الفضائل المعنوية وانما تستوعب الزينة الظاهرية والجسمية ايضاً. وتُعدّ الثياب أحد مظاهر الزينة ومن مصاديقها، ووردت حولها تعليمات من قبل المعصومين عليهم السلام.

أورد المرحوم البحراني صاحب تفسير البرهان في ذيل آية «خذوا زينتكم ...»:

«كان الحسن بن علي عليه السلام اذا قام الى الصلاةِ لبِسَ أجوَدَ ثيابه فقيل له: يابن رسول الله لم تلبس اجودَ ثيابِكَ؟ فقال: انّ الله تعالى جميلٌ يُحبُّ الجمالَ فأتجمَّلُ لِربّي وهو يقولُ: ﴿خُذوا زينتكُم عند كُلِّ مسجدٍ﴾ فأحبّ أن ألبسَ أجودَ ثيابي»[1].

وأورد البحراني أيضاً انّ أحدهم ويدعى عبّاد بن كثير قد اعترض على الامام الصادق عليه السلام: يا أبا عبد الله انك من أهل بيت النبوة وكان أبوك وكان. فما لهذه الثيابِ المزينة عليك، فلو لبست دون هذه الثياب؟ فأجابه الامام عليه السلام:

«ويلكَ يا عبّاد، من حرّمَ زينةَ الله التي أخرج لعبادهِ والطيّباتِ من الرِّزقِ؟ ان الله عزَّ وجلَّ اذا أنعمَ على عبدٍ نِعمةً أحبَّ أن يراها عليه ليس بها بأسٌ»[2].

طريقة الرسول لدى استقبال الآخرين

اورد المرحوم الطبرسي بهذا الشأن رواية عن الامام الصادق عليه السلام عن ابيه الامام محمد الباقر عليه السلام تقول:

«وقفَ رجلٌ على بابِ النبيّ صلى الله عليه وآله يستأذِنُ عليه، قال: فخرج النبيّ صلى الله عليه وآله فوجدَ في حُجرتهِ رُكوةً فيها ماءٌ، فوقف يُسوّي لحيتهُ وينظرُ اليها، فلما رجع داخلاً قالت

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٠. وورد هذا الحديث في تفسير نور الثقلين (ج ٢، ص ١٩) ايضاً.

(٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١١، ح ٤؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٣٤٧.

لهُ عائشة: يا رسول الله، أنتَ سيّدُ ولدِ آدم ورسولُ ربِّ العالمينَ، وقفتَ على الرُّكوةِ تُسوّي لحيتكَ ورأسكَ؟ قال: يا عائشةُ انَّ الله يُحبُّ اذا خرجَ عبدهُ المؤمِنُ الى أخيهِ أن يتهيَّأ لهُ وأن يتجمَّلَ»(١).

وكان الرسولﷺ يدعو الآخرين الى النظافة وحُسن الهندام. قال أحدهم: «أتيتُ النبيَّﷺ وأنا قَشِفُ الهيئة، قال: هل لكَ من مالٍ؟ قلتُ: نعم. قال: من أيِّ المال؟ قلت: مِن كُلِّ المال، من الابلِ والرقيقِ والخيلِ والغنمِ، قال: فاذا آتاكَ الله مالاً فليُرَ عليكَ»(٢).

ووردت عن الأئمةعليهم السلام تعاليم مماثلة. فقد قال أمير المؤمنين عليعليه السلام:

«ليتزَيَّن أحدُكُم لأخيهِ المسلمِ كما يتزيَّنُ للغريبِ الذي يُحبُّ أن يراهُ في أحسنِ الهيئةِ»(٣).

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«اذا أنعمَ الله على عبدِهِ بنعمةٍ أحبَّ أن يراها عليه لأنَّهُ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ»(٤).

وقالعليه السلام أيضاً:

«انّي لأكرَهُ للرجُلِ أن يكونَ عليه نعمةٌ من نعمِ الله فلا يُظهرُها»(٥).

ملاحظات

لابد من الاشارة هنا الى بعض الملاحظات:

الاعتدال:

يُستشف من القرآن الكريم أن على المرء مراعاة الاعتدال في جميع الأحوال،

---

(١) مكارم الاخلاق، ط بيروت، ص ٩٦.

(٢) المستدرك على الصحيحين، ج ٤، ص ١٨١.

(٣) فروع الكافي، ج ٦، ص ٤٣٨؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٦، ص ٢٩٨؛ مكارم الاخلاق، ط بيروت، ص ٩٨.

(٤) فروع الكافي، ج ٦، ص ٤٣٨. وردت هذه الرواية في عيون الاخبار لابن قتيبة (ط ٢، ص ١٠٥).

(٥) فروع الكافي، ج ٦، ص ٤٣٩.

ولا يسرف في التجمل والتزين بذريعة العمل بسنن الله. اذ قال الله تعالى:

﴿كُلُوا واشرَبُوا ولا تُسرِفُوا انَّهُ لا يُحبُّ المسرفينَ﴾[١].

مراعاة الحلال والحرام:

قال الامام الصادقعليه السلام:

«فالبس وتجمَّل فانَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمالَ وليكُن من حلالٍ»[٢].

دعاء البركة:

قال عليعليه السلام

«علَّمني رسولُ اللهصلى الله عليه وآله اذا لبِستُ ثوباً جديداً أن اقول: الحمدُ لله الذي كَساني منَ اللباسِ ما أتجمَّلُ بهِ في النّاسِ. اللهُمَّ اجعلها ثيابَ بركَةٍ أسعى فيها لمرضاتِكَ وأعمُرُ فيها مساجِدكَ»[٣].

تجنّب ثوب الشهرة:

قال الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله:

«من لبِسَ في الدنيا ثوبَ شُهرةٍ ألبسَهُ الله ثوبَ مذلَّةٍ»[٤].

وقال الامام الحسينعليه السلام:

«من لبِسَ ثوباً يشهَرُهُ كساهُ الله يومَ القيامةِ ثوباً من النارِ»[٥].

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«انّ الله تباركَ وتعالى يُبغِضُ شُهرةَ اللباسِ»[٦].

وقال الرسول الاكرمصلى الله عليه وآله:

---

(١) الأعراف / ٣١. وهناك آيات اخرى بهذا المضمون.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٦، ص ٣٠٦.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٣٧٣.

(٤) المجازات النبوية، ص ١١٩.

(٥) فروع الكافي، ج ٦، ص ٤٤٥؛ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٣٥٤.

(٦) نفس المصدرين.

«من لبِسَ ثوباً فاختالَ فيهِ، خسفَ الله بهِ من شفيرِ جهنَّم يتخلخلُ فيها مادامتِ السماواتُ والأرضُ»[1].

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«كفى بالمرءِ خِزياً أن يلبسَ ثوباً يشهرُهُ أو يركبَ دابَّةً تشهرُهُ»[2].

العفو والصفح

العفو والصفح عن الآخرين، خصلة اخرى من مكارم الاخلاق وآداب المعاشرة، لأنّه قلما يُلاحظ في الحياة الاجتماعية من لم يضع حقّه ومن لم يتطاول الآخرون عليه. ولو تشدّد هؤلاء جميعاً في استيفاء حقوقهم وأصروا على عدم التنازل عن اقل غمط لحقهم أو ضرر يلحق بهم من قبل الآخرين، لأصبحت الحياة مريرة جداً واختفت روح التوادد والتآخي من اجواء المجتمع، وتعذّر التعاون والانسجام فيما بين افراده.

العفو في القرآن

دعا القرآن الكريم في العديد من آياته الى اتخاذ اسلوب العفو، وتجاهل ما يصدر عن الاخوة في الدين من خطأ وزلل:

﴿خُذِ العفوَ وأمُر بالعُرفِ وأعرِض عن الجاهلينَ﴾[3].

العفو من سمات المتقين

عدّ القرآن الكريم في موضع آخر العفو من سمات وخصال المتقين فقال:

﴿وسارِعُوا الى مغفرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضها السماواتُ والأرضُ أُعِدَّت

(١) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٣٦٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٥٤.

(٣) الاعراف / ١٩٩.

للمتَّقينَ الذينَ يُنفقُونَ في السَّراءِ والضَّراءِ والكاظِمينَ الغيظَ والعافينَ عنِ النّـاسِ والله يُحِبُّ المحسنينَ﴾[١].

وقال تعالى أيضاً:

﴿... وليعفُوا وليصفحوا ألا تُحِبُّونَ أن يغفِرَ الله لكُم والله غفورٌ رحيمٌ﴾[٢].

﴿... وإنْ تعفُوا وتصفحوا وتغفِروا فانَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾[٣].

التفاتة أدبية

لابد من إلفات النظر الى نقطة ادبية وهي انّ الجمع بـين العـفو والصـفح في الآيتين السابقتين وان كان يبدو وكأنه ذكر لمفردتين مترادفتين تدليلاً على التأكيد، غير انّ الراغب الاصفهاني يقول في مفرداته انّ مفردة «الصـفح» ابـلغ في افـادة المعنى اذ ليست تحمل معنى العفو فحسب وانما تحمل الإعراض عن ذنب المذنب ايضاً. فقد يُعفى عن شخص بعد الحكم عليه بعقوبة مـا، غـير انّ الصـفح هـو الاعراض عن ذنبه وتجاهله. ولو اقبل المذنب طالباً الاعتذار لتعامل معه الصفوح وكأنَّ ذنباً لم يصدر عنه قط. فالعفو بمعنى الستر والتغطية في حين انّ الصفح يعني الإعراض والتجاهل. في العفو يتم ستر الذنب والتغطية عليه، بينما يتم تجـاهله والاعراض عنه تماماً في الصفح.

قال القرآن الكريم في العفو:

﴿وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مـثلُها فـمن عـفا وأصـلحَ فأجـرُهُ عـلى الله انّـهُ لا يُحبُّ الظالمينَ﴾[٤].

وهنا مع فرض صدور الذنب فان الذي يعفو ويصلح فأجره على الله.

واما بشأن الصفح فقد قال تعالى:

---

(١) آل عمران / ١٣٤.

(٢) النور / ٢٢.

(٣) التغابن / ١٤.

(٤) الشورى / ٤٠.

﴿فاصفَح عنهُم وقُل سلامٌ ...﴾[١].

كما قال:

﴿... فاصفَحِ الصَّفحَ الجميلَ﴾[٢].

أي لا تلم المشركين على جهالاتهم، وتجاهل اوزارهم وذنوبهم. فالصفح محفوف بالسلام والجمال وكأنّ ذنباً لم يقع.

يقول الراغب الاصفهاني: «الصفح ترك التثريب».

مثلما قال يوسف عليه السلام لاخوته:

﴿... لا تثريبَ عليكُم اليومَ يغفرُ الله لكُم ...﴾[٣].

فيوسف لا يرى لنفسه حقاً ليهبه لهم، وانما يبشّرهم بالغفران الالهي[٤].

وعلق الامام الرضا عليه السلام على الآية الكريمة: ﴿فاصفحِ الصَّفحَ الجميلَ﴾ قائلاً: «العفوُ مِن غيرِ عتاب»[٥].

اذن مرتبة الصفح أعلى من مرتبة العفو، أي بين العفو والصفح عموم وخصوص مطلق على حد تعبير المناطقة، أي انّ كل صفح عفو، ولكن ليس كل عفو صفحاً.

أحاديث العفو

حول الآية الكريمة ﴿خُذِ العفوَ وأمُر بالعُرفِ وأعرِض عنِ الجاهلين﴾[٦]، نقرأ الرواية التالية:

«سأل رسولُ الله صلى الله عليه وآله جبرائيلَ عن ذلك فقال لا أدري حتى أسألَ العالِمَ.

---

(١) الزخرف / ٨٩.

(٢) الحجر / ٨٥.

(٣) يوسف / ٩٢.

(٤) بتصرف عن مفردات الفاظ القرآن، ذيل مفردتي العفو والصفح.

(٥) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٥٣.

(٦) الاعراف / ١٩٩.

ثمّ أتاهُ فقال: يا محمدُ! انّ الله يأمُرُكَ أن تعفُو عمَّن ظلمَكَ وتُعطي من حرمَكَ وتصِلَ من قطعكَ»[١].

خَيرُ الأخلاق

قال رسول الله ﷺ:

«ألا أدُلُّكُم على خيرِ أخلاقِ الدنيا والآخرةِ؟ تصِلُ من قطعكَ، وتُعطي من حرمَكَ، وتعفو عمَّن ظلمكَ»[٢].

العفو مصدر العزّة

جاء في الحديث النبوي:

«عليكُم بالعفوِ فانَّ العفوَ لا يزيدُ العبدَ إلّا عِزّاً فتعافَوا يُعِزّكُمُ الله»[٣].

وقال الرسول ﷺ أيضاً:

«ما عفا رجلٌ عن مظلَمَةٍ قطُّ إلّا زادهُ الله بها عِزّاً»[٤].

وقال ﷺ ايضاً:

«مُرُوَّتُنا أهلَ البيتِ العفوُ عمَّن ظلمنا واعطاءُ من حرمَنا»[٥].

وورد عنه ﷺ قوله:

«أوصاني ربّي بتسع ... وأن أعفو عمَّن ظلمني ...»[٦].

ويكفي للتعبير عن أهمية العفو، انّ من أسماء الله الحسنى، العفُوّ، وقد وصف به الامام السجاد الباريَ تعالى حين الثناء عليه قائلاً:

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥١٢، ذيل الآية ١٩٩، سورة الاعراف.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٨، ص ٣٩٩.

(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٨، ح ٥؛ الحقائق في محاسن الأخلاق، ص ٧٥.

(٤) تفسير مجمع البيان، ط صيدا، ج ١، ص ٥٠٥، ذيل الآية ١٣٣، سورة آل عمران.

(٥) تحف العقول، ص ٢٧. نقل هذا الحديث بهذا المضمون عن الامام الصادق (ع) في وسائل الشيعة (ج ٨، ص ٥٢٣) وأمالي الصدوق (ص ٢٣٨، ح ٧).

(٦) تحف العقول، ص ٢٥.

«... وأنتَ الذي سمَّيتَ نفسكَ بالعَفُوِّ فاعفُ عنّي ...»[١].

فينبغي للانسان ان يُعرِض عن أخطاء الآخرين، ولو تقدم اليه أحدهم معتذراً، فمن الأولى به قبول اعتذاره والصفح عنه وأن لا يلجأ الى توبيخه وتقريعه.

وما اروع ما قال الشاعر:

اذا اعتذر الصديقُ اليك يوماً من التقصيرِ عُذرَ أخٍ مُقِرٍّ
فصُنهُ عن عتابِكَ واعفُ عنهُ فانَّ الصَّفحَ شيمةُ كُلِّ حُرِّ

ملاحظات

الملاحظة الاولى:

لاشك في انّ العفو والصفح من الاخلاق الحميدة، وقد قال الرسول ﷺ في وصيته للامام علي عليه السلام:

«يا عليُّ ثلاثٌ من مكارمِ الأخلاقِ في الدنيا والآخرة: أن تعفُوَ عمَّن ظلمَكَ ...»[٢].

لكن يجب ان لا تعزب الحقيقة التالية عن أذهاننا وهي: انّ العفو حميد ومستحسن في القضايا الفردية والشخصية، ولكنه على صعيد القضايا العامة والحقوق الالهية ليس غير حميد فحسب وانما مذموم أيضاً. فلا يجب استخدام العفو مع من ينتهك الحقوق العامة والالهية، وكانت هكذا سنة رسول الله ﷺ، فكان يُجري القانون الالهي في حقّ المنتهك مهما كان، ولا يقبل شفاعة أي أحد فيه، ومن ذلك:

جارية ام سلمة

قال الامام الباقر عليه السلام:

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ١٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٢٥٧.

«كان لام سلمة زوج النبيﷺ أمة فسرقت من قوم فأُتي بها النبيﷺ فكلمته ام سلمة فيها، فقال النبيﷺ: يا ام سلمة هذا حدٌّ من حدود الله لا يضيع. فقطعها رسول الله ﷺ»[١].

فاطمة المخزومية كفاطمة المحمدية

ورد انّ قريشاً أهمهم شأن امرأة مخزومية سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلّا أُسامة حبّ رسول الله ﷺ؟ فكلمه اسامة فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس انما أُهلك الذين قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[٢].

وهكذا كان عليﷺ الذي تربى في حجر الرسولﷺ، غير مستعد قط للتنازل عن الحق الالهي مهما كلّفه من ثمن، ولا يتردد ابداً عن اجراء الحد الالهي حتى ولو مع أقرب المقربين اليه.

ونقرأ في كتابه الذي بعثه الى عامل له اختلس شيئاً من بيت المال:

«... فاتَّقِ الله وارْدُد الى هؤلاءِ القومِ أموالَهُم فانَّكَ ان لم تفعل ثُمَّ أمكنَني الله مِنكَ لأُعذِرَنَّ الى الله فيكَ ولأَضرِبنَّكَ بسيفي الذي ما ضربتُ بهِ أحداً إلّا دخل النارَ! واللهِ لو أنَّ الحسنَ والحسينَ فعَلا مِثلَ الذي فعلتَ ما كانت لهُما عندي هوادَةٌ ولا ظَفِرا مِنّي بارادَةٍ حتّى آخُذَ الحقَّ منهما وأُزيحَ الباطلَ عن مظلمَتِهِما ...»[٣].

الملاحظة الثانية:

لابد من التذكير بأنّ العفو لا يتحقق إلّا اذا كانت لدى المرء المقدرة على الأخذ

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٣٢.

(٢) صحيح مسلم، ج ٥، ص ١١٤. وردت هذه الرواية في خراج ابي يوسف، ط القاهرة باختلاف طفيف.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٤١.

بحقه والانتقام من المسيء. وفي غير هذه الحالة لا يعد صمت المرء من مصاديق العفو، وانما من مصاديق كظم الغيظ، ولاشك في أنّ كظم الغيظ حينما يكون من منطلق الاضطرار، يؤدي الى ظهور الحقد والضغينة، وهما سبب نشوء كثير من المعاصي كسوء الظن، والحسد، والغيبة، والتهمة، والنميمة... الخ. ولابد في مثل هذه الاحوال من الالتجاء الى الله تعالى والتوسل به لازالة آثار السوء الناجمة عن كظم الغيظ، ولهذا يدعو الاسلام لنجدة المظلومين ومطالبة الظالمين باعادة حقوقهم اليهم كي لا تتراكم الأحقاد في القلوب فتحلّ محل الود والحب والنقاء.

وهناك العديد من الأحاديث التي تتحدث عن العفو عند المقدرة، ومنها:

قال الرسول الاكرمﷺ:

«قال موسى يا ربِّ أيُّ عبادِكَ أعزُّ عليك؟ قال: الذي اذا قدرَ عفا»[١].

وقال عليعليه السلام:

«اذا قدرتَ على عدوِّكَ فاجعلِ العفوَ عنه شُكراً للقُدرَةِ عليه»[٢].

وقال أيضاً:

«أولى النّاسِ بالعفوِ أقدرُهُم على العقوبةِ»[٣].

وقال الامام الصادقعليه السلام:

«العفوُ عند القُدرةِ من سُننِ المرسلينَ والمُتّقينَ»[٤].

فتح مكة والعفو العام

اتسمت سيرة الانبياء بالعفو والصفح. ويمكن مشاهدة هذا التعامل النبوي عند الرسول محمدﷺ، لا سيما في فتح مكة حينما كان في ذروة المقدرة والقوة والنصر. فحينما أبدى أبو سفيان وعبدالله بن امية ندمهما عما بدر منهما تجاه الرسولﷺ

---

(١) احياء علوم الدين، الغزالي، ط بيروت، ج ٣، ص ١٨٢.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط بيروت، ح ١١.

(٣) نفس المصدر، ح ٥٢.

(٤) سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٠٧.

والمسلمين من معارضة وأذى، اقترح عليهما الامام عليﷺ ان يقدما على الرسولﷺ ويعتذرا منه بنفس العبارة التي اعتذر بها اخوة يوسف من يوسف. فأقبلا على الرسولﷺ وقالا له:

﴿تالله لقد آثركَ اللهُ علينا وإن كنّا لخاطئينَ﴾[١].

ثم سألاه العفو، فتلاﷺ الآية التالية:

﴿لا تثريبَ عليكُم اليومَ يغفرُ الله لكُم وهوَ أرحمُ الراحمينَ﴾[٢].

كذلك حينما كان الجيش الاسلامي على مشارف الدخول الى مكة أخذ سعد بن عبادة يردد:

اليوم يومُ الملحَمة

اليوم تُستحَلُّ الحُرْمة

وحينما سمع الرسولﷺ شعاره، تأثر كثيراً وأمر علياًﷺ ان يأخذ اللواء من يده، عازله بذلك عن امرة العسكر[٣].

ثم قال الرسولﷺ:

«بل اليوم يومُ المرحمة»[٤].

الملاحظة الثالثة:

كثير من الناس حينما يرتكبون الأخطاء ويزلّون، يتوقعون من الآخرين العفو عنهم وتجاهل اخطائهم، بينما لا يتعاملون هم مع الآخرين بهذا المنطق. ومن

---

(١) يوسف / ٩١.

(٢) يوسف / ٩٢.

لمزيد من الاطلاع راجع: بحار الانوار، ط بيروت، ج ٢١، ص ١٣٢؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ط مصر، ج ١٧، ص ٢٧٢ ـ ٢٨١؛ سيرة ابن هشام، ط بيروت، ج ٤، ص ٥٥؛ احياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٨٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٤٩. ورد كلام سعد بن عبادة في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج ١٧، ص ٢٧٢) وبحار الانوار (ط بيروت، ج ٢١، ص ١٠٥ و ١٣٠) بالشكل التالي: اليوم يوم الملحمة / اليوم تُسبى الحرمة.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ١٧، ص ٢٧٢.

الطبيعي انّ الذي يتوقع من غيره تجاهل أخطائه فلابد له ان يتجاهل اخطاء غيره. ولو ردّ أحد على سيئات الآخرين بالعمل السيئ انتقاماً منهم، فلابد أن يؤدي هذا النوع من التعامل الى ترسيخ روح البغض والحقد. اما اذا ردّ على العمل السيئ بالجميل والتصرف الحسن، فبامكانه ان يكسب الجانب المقابل ويحوّل عداءه الى حب وبغضه الى مودة. وقد قال القرآن الكريم في ذلك:

﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السَّيِّئةُ ادفع بالتي هي أحسنُ فاذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنّهُ وليٌّ حميم﴾[1].

وقال علي عليه السلام:

«عاتِب أخاكَ بالاحسانِ اليهِ واردُدْ شرَّهُ بالإنعامِ عليهِ»[2].

سؤال:

لابد لنا أن نتساءل كيف بمقدور المرء تحمل ظلم الآخرين وتجاهل زلاتهم، في حين يُعدّ انتقامياً بالطبع؟

الجواب:

لاشك في ان الانسان متى ما ألحق به أحد الظلم، يدفعه الشعور بالانتقام للثأر من الظالم والاقتصاص لنفسه منه. ولكن ينبغي للانسان ـ وكما سبق أن قلنا ـ ألا يقع اسيراً في قبضة الاهواء والغرائز الحيوانية، بل لابد له من محاربتها وقمع الوساوس الشيطانية، لأنّ الانسان أرفع من أن يخضع لسيطرة الغرائز الحيوانية والغضبيّة.

ولاشك في صعوبة مجابهة العمل السيئ بالعمل الحسن، ولذلك فقد عدّ القرآن الكريم أصحاب مثل هذا السلوك بأولي الالباب وبشّرهم بجنات عدن فقال:

﴿والذينَ صبروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ وأنفقوا مِمّا رزقناهُم سِرّاً وعلانِيَةً ويدرؤونَ بالحسنةِ السيِّئةَ اولئكَ لَهُم عُقبى الدارِ جناتُ عدنٍ يدخلُونَها

---

(١) فصلت / ٣٤.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ١٥٨.

ومن صلَحَ مِن آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّياتِهِم والملائكةُ يدخُلونَ عليهِم مِن كُلِّ بابٍ سلامٌ عليكُم بما صبرتُم فنِعمَ عُقبى الدارِ﴾[1].

ونظراً لعظمة مثل هذا السلوك، فقد قال القرآن الكريم في ذلك:

﴿... وما يُلقّاها إلّا الذينَ صبروا وما يُلقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيمٍ﴾[2].

اذن، حينما يفكر المرء في العفو والصفح، ويحاول ان يقابل سيئات الآخرين بالاحسان، يندفع الشيطان كي يوسوس في نفسه ويحاول ان يمنعه من ممارسة هذا السلوك الحميد. ولابد له في هذه الحال من الاستعانة بالله والاستغاثة به كي يوفقه للعفو عن زلل أخيه والصفح عنه، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم ايضاً بالآية التالية:

﴿وإمّا ينزَغنَّكَ مِنَ الشيطانِ نزغٌ فاستعِذْ باللهِ انّه هو السَّميعُ العليمُ﴾[3].

والخلاصة هي انّ كلا العفو والصفح، من آثار الايمان ومكارم الأخلاق، فمن يُعرِض عن أخطاء الآخرين وذنوبهم، يُعرِض الله تعالى عن أخطائه وذنوبه ويشمله برحمته:

﴿... وإن تعفُوا وتصفحُوا وتغفِروا فانَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾[4].

الاتحاد والتضامن

ومن آداب المعاشرة وحُسن السلوك، روح التضامن والاتحاد باعتبارهما من الحقائق المسلم بها التي لا ينكر أحد ضرورتها في المجتمع. فلو أراد الناس أن

---

(١) الرعد / ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) فصلت / ٣٥.

(٣) فصلت / ٣٦.

وردت آية اخرى شبيهة بهذه في سورة الاعراف (الآية / ٢٠٠): ﴿وإمّا ينزغنّك من الشيطانِ نزغٌ فاستعذ بالله انه سميعٌ عليمٌ﴾.

(٤) التغابن / ١٤.

تكون لديهم حياة جيدة وأن تحدث في حياتهم تحولات عظيمة فلابد ان يعيشوا حياة اجتماعية ويفكروا تفكيراً اجتماعياً ويتخذوا قرارات اجتماعية، وان تكون لديهم ممارسات وأعمال اجتماعية. أي لابد لقواهم المبعثرة المشتتة من الالتحام والتمركز، كي يتسنى لهم في ظل الوحدة وتبادل الآراء وتلاقح الأفكار، ان يقطعوا خطوات مهمة في حلّ مشاكلهم والتغلب على المصاعب التي تواجههم.

ورغم وجود تباين في وجهات النظر حول هل انّ الانسان اجتماعي بالطبع ام انّ الضرورة هي التي أملت عليه نمط الحياة الاجتماعية، ولكن الامر المتفق عليه هو انّ الانسان لا يستطيع الاستمرار في حياته بعيداً عن التعاون المشترك والتضامن الجماعي. وما لم يتحد افراد المجتمع ولا تتعاضد جهودهم، فلن يحققوا النجاح الذي يصبون اليه.

وقد تحدث الامام علي عليه السلام وفي العديد من خطبه عن عوامل انتصار الامم وسقوطها، واشار الى الوحدة كعامل اساسي من عوامل الانتصار، والى التفرقة والنزاع كعامل اساسي من عوامل السقوط والهزيمة، واكد ان مجرد الوقوف الى جانب الحق لا يؤدي الى النصر، ووصف اصحاب معاوية بانهم مجتمعون على الباطل واصحابه بأنهم متفرقون عن الحق: «اجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم».

القرآن والدعوة الى الاتحاد

نظراً لما يلعبه الاتحاد والتضامن والتلاحم من دور مصيري بنّاء في تحقيق التطور الاجتماعي والأهداف والتطلعات، فقد دعا القرآن الكريم وفي العديد من آياته المسلمين الى الوحدة والتكاتف وحذّرهم من مغبة الفرقة والاختلاف. فقال في احدى آياته:

﴿واعتَصِمُوا بِحبلِ الله جميعاً ولا تفرَّقُوا واذكُروا نِعمةَ الله عليكُم اذ كُنتُم أعداءً فألَّفَ بينَ قُلوبِكُم فأصبحتُم بِنِعمتِهِ اخواناً وكُنتُم على شفا حُفرةٍ من النّارِ فأنقذَكُم

منها كذلكَ يُبيِّنُ الله لكُم آياتِهِ لعلَّكُم تهتدونَ﴾[١].

ويحذّر الله تعالى المسلمين من التفرقة والنزاع لما ينجم عن ذلك من فقدان العزّة والقوة والمنعة:

﴿وأطيعوا الله ورسولَهُ ولا تنازَعوا فتفشَلُوا وتذهبَ ريحُكُم واصبِروا انّ الله مع الصابِرينَ﴾[٢].

الاختلاف، لون من العذاب الالهي

عدّ القرآن الكريم في احدى آياته النزاع والاختلاف والتشتت لوناً من ألوان العذاب الالهي، فقال:

﴿قُل هوَ القادِرُ على أن يبعثَ عليكُم عذاباً مِن فوقِكُم أو مِن تحتِ أرجُلِكُم أو يلبِسَكُم شِيعاً ويُذيقَ بعضَكُم بأسَ بعضٍ أُنظُرْ كيفَ نُصرِّفُ الآياتِ لعلَّهُم يفقهونَ﴾[٣].

ويُستشف من هذه الآية انّ الاختلاف بين الناس من الخطورة بحيث يُعدّ بمستوى العذابات السماوية والصواعق والهزّات الأرضية. ولذلك تلجأ القوى المستكبرة لبث الفرقة والانشقاق بين الامم من اجل تحقيق اهدافها الخبيثة وتفرض هيمنتها على العالم وتعتدي على ارواح الناس وأموالهم وابنائهم وشرفهم. وهو نفس الاسلوب التي قام به فرعون وتحدث عنه القرآن الكريم قائلاً:

﴿انَّ فِرعَونَ علا في الأرضِ وجعلَ أهلَها شِيعاً يستضعِفُ طائفةً منهُم يُذبِّحُ أبناءَهُم ويستحيي نِساءَهُم انَّهُ كان مِنَ المفسدينَ﴾[٤].

ويتضح من هذه الآية انّ فرعون ومن أجل تعزيز قواعد حكمه المستبد

---

(١) الانفال / ٤٦.

(٢) الانفال / ٤٦.

(٣) الأنعام / ٦٥.

(٤) القصص / ٤.

الجائر، لجأ الى اسلوب بث الفرقة والشقاق بين ابناء مصر، وهي ذات السياسة الاستعمارية التي تقول: «فرّقْ تَسُدْ».

الفرقة، حربة شيطانية

بما أنّ عمل الشيطان يتلخص في تضليل الناس وخداعهم واقصائهم عن مسار السعادة والفلاح، لهذا يتخذ من حربة الفرقة والاختلاف واسطة لبلوغ هذا الهدف. وتحدث القرآن الكريم عن ذلك بقوله:

﴿انّما يريدُ الشيطانُ أن يوقعَ بينكُمُ العداوةَ والبغضاء...﴾[1].

الاسلام دين الوحدة

الاسلام دين الوحدة والتلاحم والتكاتف. ولذلك يحذّر دائماً المسلمين من التفرق والتشرذم والتمزق لما ينجم عنها من عواقب وخيمة ونتائج غير محمودة. وقد خاطب القرآن الكريم الرسول الاكرمﷺ قائلاً: ﴿انَّ الذينَ فرَّقوا دينهُم وكانوا شِيَعاً لَستَ منهُم في شيءٍ انّما أمرُهُم الى الله ثُمَّ يُنبّئُهُم بما كانوا يفعلونَ﴾[2].

الانتصار في ظل الاتحاد

من الطبيعي انّ الامة المتحدة المتماسكة قادرة على تحقيق النصر في شتى المجالات. ولذلك خاطب الرسولﷺ المسلمين في حجة الوداع[3] بعد ان حمد الله تعالى وأثنى عيه قائلاً:

«نَضّرَ الله عبداً سَمِعَ مقالتي فوَعاها ثُمَّ بَلَّغَها مَن لم يَسمَعها... ثلاثٌ لا يَغُلُّ علَيهنّ قلبُ امرئٍ مُسلمٍ: اخلاص العمل لله، والنصيحةُ لأئمةِ المسلمينَ، واللزومُ

---

(١) المائدة / ٩١.

(٢) الأنعام / ١٥٩.

(٣) في مسجد الخيف بمنى.

لجماعتهم»[١].

---

(١) تحف العقول، ص ٣٠؛ خصال الصدوق، ج ١، ص ١٥٧، ح ١٥٤، مع شيء من الاختلاف.

ولابد هنا من استعراض بعض النقاط الضرورية على صعيد النصيحة:

ـ الاولى: النصيحة من حيث المفهوم ليست بمعنى الوعظ والارشاد، وانما هي بمعنى حب الخير للآخرين في مقابل الغش والخدعة والخيانة. وعرّف الراغب الاصفهاني في مفرداته النصح بأنه «تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه». أي لابد أن تكون النصيحة عجينة بالصدق والاخلاص ولهذا يُقال للعسل الخالص: «ناصح العسل». وورد في المنجد: نصح لفلان: أخلص له في المودة.

ـ الثانية: رغم انّ النصيحة ذات معنى واحد من وجهة نظر اللغويين، إلّا انها تظهر في اشكال مختلفة تبعاً لموارد استعمالها. فالنصيحة لله تختلف من حيث المصداق عن النصيحة للرسول (ص)، وأئمة الدين (ع) أو للمؤمنين. كما تختلف نصيحة الأب للابن عن نصيحة الابن للأب. ويعتقد المرحوم المحدث القمي انّ النصيحة للكتاب الالهي هي التصديق والعمل به. والنصيحة لرسول الله (ص) والأئمة عليهم السلام بمعنى تصديقهم والانصياع لأوامرهم واجتناب نواهيهم. ونصيحة الناس تعني ارشادهم الى مصالح ومفاسد دنياهم وآخرتهم. (سفينة البحار، ج ٢، ص ٥٩٥).

وأعتقد انّ دائرة النصيحة أوسع مما ذهب اليه المحدث القمي. اذ لا يمكن قصر النصيحة لله والرسول والأئمة على التصديق والاتباع، بل يدخل ضمن دائرة النصيحة كل مفهوم يستوعبه اطار حبّ الخير والاخلاص والصدق. فعلى سبيل المثال اذا كان إبلاغ القيادة بأوضاع البلاد وما يجري فيها من احداث أو بطبيعة عمل الحكومة والمسؤولين، امراً مفيداً وعلى جانب من الاهمية، يُعدّ هذا الابلاغ من مصاديق «النصيحة لأئمة المسلمين»، وإن لم تكن لدى المبلغ مسؤوليّة رسميّة على هذا الصعيد.

اذن يُعدّ كل كلام يراد به الخير والصلاح ويُقال بصراحة وبدون لفّ أو دوران، نصيحةً، وعلى العكس من ذلك يُعدّ الكتمان لأيّ سبب من الأسباب، خيانةً وخدعة وظلماً للإمام والأمة. حيث يتم هنا التمييز بين الأصدقاء الظاهريين المتملقين وبين الأصدقاء الناصحين المشفقين.

لذلك ينبغي عدم حصر النصح في دائرة خاصة أو ان نرسم له شكلاً خاصاً، بل انه يعتمد على الحالة وعلى تشخيص الناصح المشفق.

ومن المناسب استعراض بعض الأحاديث النبوية التي تؤكد على اهمية النصيحة:

١ ـ «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحةُ له في المشهَدِ والمغيبِ» (اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨، ح ٢).

٢ ـ «انّ أعظم الناس منزلةً عند الله يومَ القيامةِ أمشاهُم في أرضه بالنصيحة لخَلقِهِ». (المصدر السابق، ح ٥).

←

والسبب الذي حدا بالاسلام الى التأكيد على الاتحاد والتآلف الى هذا الحد هو انّ الناس اذا ارادوا القيام بعمل ما أو انجاز مهمة ما، فباستطاعتهم ومن خلال الاتحاد والتآصر ازاحة جميع العقبات التي تعترض طريقهم وبلوغ الهدف بسهولة.

قال الامام عليعليه السلام:

«انَّهُ لم يجتمعْ قومٌ قطُّ على أمرٍ واحدٍ إلّا اشتد أمرُهُم واستحكَمَتْ عُقدتُهُم... لم يتمتّعْ[1]. قومٌ قطّ إلّا رَفعَ الله عنهم العلَّةَ وكفاهُم جَوائحَ الذّلةَ وهداهُمْ الى معالِمِ الملَّةِ»[2].

ولذلك بذل الرسول الاكرمصلى الله عليه وآله جهوداً مضنيةً جبارة وتحمل المشاقّ والصعاب من اجل ايجاد الاتحاد والتآلف بين المسلمين. واستطاع ان يوحد بين الآراء والأفكار المتباينة رغم المحاولات المناهضة التي كانت تقوم بها القبائل المتعصبة الجاهلة، حتى انه استطاع وببركة الاسلام التأليف بين اكبر قبيلتين في المدينة المنورة وهما الاوس والخزرج بعد أن كانتا تعيشان الصراع والتناحر لفترة طويلة من الزمن.

مخاطر الفرقة من وجهة نظر الأحاديث

بعد أن اتضحت لنا العواقب السيئة الوخيمة التي تنتهي اليها الفرقة والتمزق من وجهة النظر القرآنية، لابد لنا ان نستعرض بعض الاحاديث التي تحذر هي الاخرى من مغبة الفرقة والتشرذم:

قال امير المؤمنين عليعليه السلام:

«... واحذروا ما نزلَ بالامم قبلكُم مِنَ المَثُلاتِ بسوءِ الأفعال وذميمِ الأعمال،

← ٣ـ «مَن يَضمنْ لي خمساً أضمنْ لهُ الجنّةَ. قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: النصيحةُ لله عزّ وجل، والنصيحةُ لرسولِهِ، والنصيحةُ لكتابِ الله، والنصيحةُ لدينِ الله، والنصيحةُ لجماعةِ المسلمينَ». (خصال الصدوق، ج ١، ص ٢٦٥؛ بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٦٥).

(١) ورد في نسخة ابن ابي الحديد ونقلاً عن كتاب «صفين»: «لم يتمتعْ»، أي بمعنى عزة النفس.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ط مصر، ج ٣، ص ١٨٥.

فتذكَّروا في الخير والشرّ أحوالَهُم واحذَروا أنْ تكونوا أمثالَهُم...»[١].

ثم يمضي قائلاً بعد ذلك:

«فاذا تفكّرتُم في تفاوُتِ حالَيْهِم فالزموا كُلَّ أمرٍ لزِمَتِ العزَّةُ بِهِ شأنَهُم وزاحتِ الأعداءُ لهُ عنهُم ومُدَّتِ العافيةُ بِهِ عَليهِم وانقادَتِ النِّعمةُ لهُ معهُمْ ووَصلتِ الكرامةُ عليهِ حبلهُم من الاجتنابِ للفُرقَةِ واللزومِ للالفَة والتَّحاضِّ عليها والتَّواصي بها، واجتنبوا كُلَّ أمرٍ كَسَرَ فِقرتَهُم وأَوهنَ مُنَّتَهُم مِن تضاغُنِ القُلوبِ وتشاحُنِ الصدورِ وتدابُرِ النفوسِ وتخاذُل الأيدي...»[٢].

الى أن يقول عليه السلام في وصف اوضاع المؤمنين السابقين:

«... فانظُروا كيف كانوا حيثُ كانتِ الأملاءُ مجتمعةً والأهواءُ مؤتلِفةً والقلوبُ معتدلةً والأيدي مترادفةً والسيوفُ متناصرةً والبصائرُ نافذةً والعزائمُ واحدةً. ألم يكونوا أرباباً في أقطارِ الأرضينَ ومُلوكاً على رِقابِ العالمينِ؟! فانظُروا الى ما صاروا اليه في آخر أمورِهِم حينَ وقَعتِ الفُرقةُ وتشتَّتتِ الأُلفةُ واختلفتِ الكلمةُ والأفئدةُ، وتشعَّبُوا مختلفين وتفرَّقوا متحاربينَ، خَلعَ الله عنهُمْ لباسَ كرامتِهِ، وسَلبهُم غضارةَ نِعمتهِ، وبقيَ قصصُ أخبارِهِم فيكُم عِبراً للمُعتَبرينَ...»[٣].

وقال عليه السلام في خطبة اخرى:

«... فإيّاكُم والتَّلوُّنَ في دينِ الله فانَّ جماعةً فيما تكرهونَ مِنَ الحقِّ خيرٌ مِن فُرقَةٍ فيما تُحبونَ مِنَ الباطلِ، وانَّ الله سُبحانهُ لم يُعطِ أحداً بِفرقَةٍ خَيراً مِمَّن مضى ولا مِمَّن بَقِي...»[٤].

ووصف في خطبة اخرى الخروج عن الجماعة بأنه وقوع في فخّ الشيطان، فقال:

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١٩٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الخطبة السابقة.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١٢٦.

«والزمُوا السَّوادَ الأعظمَ فإنّ يَدَ الله مع الجماعةِ وايّاكُم والفُرقةَ فانَّ الشّاذَّ مِنَ الناسِ للشيطانِ كما أنّ الشّاذَّ مِنَ الغَنَمِ للذِّئبِ...»(١).

وقال في خطبة اخرى محذّراً من مغبة الاستجابة لنزغات الشيطان الداعية الى الفرقة:

«انّ الشيطانَ يُسنِّي لكُم طُرُقَهُ، ويُريدُ أن يحُلَّ دينكُم عُقدةً عُقدةً، ويُعطيكُم بالجماعةِ الفُرقَةَ وبالفُرقَةِ الفتنةَ، فاصدفُوا عن نزَغاتِهِ ونَفثاتِهِ واقبلُوا النصيحةَ ممَّن أهداها اليكُم، واعقلُوها على أنفُسكُم»(٢).

وقال ايضاً:

«... واعلموا أنّ الشَّيطانَ يُسنِّي لكُم طُرُقَهُ لِتتَّبِعُوا عَقبهُ»(٣).؟

الانحدار في ظلّ الفرقة

حينما تسود الفرقة بين افراد المجتمع الواحد ويحل العداء والبغض محل الحب والتوادد، سيتنصل كلّ منهم من المسؤولية ويتخاذل عن العمل ويلقي به على عاتق غيره، وهي ظاهرة تقود الى الانحدار والفشل، اذ قال الامام عليعليه السلام:

«غُلِبَ واللهِ المتخاذِلونَ...»(٤).

وحينما تُدحر أمة من الامم، فسيستولي عليها عدوّها وينهب أموالها وثرواتها ويعيث في بلادها فساداً. وقد قال عليعليه السلام في ذمّ أصحابه:

«فَتَواكَلتُم وتَخاذَلتُم حتّى شُنّت عليكُم الغاراتُ وَمُلكَتْ عليكُمُ الأوطانُ...»(٥).

ولم يكن ليقع ذلك إلّا بسبب الفرقة التي نشبت بين أصحاب الامام عليعليه السلام.

---

(١) نفس المصدر، خ ١٢٧.

(٢) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٢٠.

(٣) نفس المصدر، خ ١٣٨.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ٣٤.

(٥) نفس المصدر، خ ٢٧.

الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد، فضلاً عن كونه فريضة، ومن آداب المعاشرة وحسن السلوك مع الناس يُعَدُّ من اهم آداب النفس ايضاً ولابد للسالك من الالتزام به وأخذه بنظر الاعتبار دائماً.

الوفاء بالعهد في القرآن

الوفاء بالعهد علامة الايمان:

عدّ القرآن الكريم الوفاء بالعهد سمةً من سمات المؤمنين:

﴿والذينَ هُم لأماناتِهِم وَعَهدِهِم راعونَ﴾[1].

الوفاء بالعهد علامة الابرار:

عدّ القرآن الكريم الوفاء بالأمانة والعهد من علامات البِرّ اذ قال:

﴿والذينَ هُم لأماناتِهِم وَعَهدِهِم راعونَ﴾[2].

اسماعيل صادق الوعد:

انّ الوفاء بالعهد من الأهمية بحيث انّ الله تعالى وصف به نبيه اسماعيل عليه السلام وعرّفه بهذه الخصلة خاصة فقال:

﴿واذكُر في الكتاب اسماعيلَ انّهُ كانَ صادقَ الوعدِ وكانَ رسولاً نبيّاً﴾[3].

والمدهش في الأمر انّ الله تعالى قدّم صفة الصدق بالوعد على مقام الرسالة والنبوة مما يوحي بأنّه أساس لهما.

والقرآن الكريم قد اكد على الوفاء بالعهد بأنه مما يُسأل عنه يوم القيامة فقال:

---

(١) المؤمنون / ٨؛ المعارج / ٣٢.

(٢) البقرة / ١٧٧.

(٣) مريم / ٥٤.

﴿وأوفُوا بالعَهدِ انَّ العَهدَ كانَ مسؤولاً﴾(١).

أهمية الوفاء بالعهد في الأحاديث

أوصت الأحاديث كثيراً بالوفاء بالعهد، ومنها الأحاديث التالية:

الوفاء بالعهد من سمات المؤمنين:

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«مَن كانَ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ فَليفِ اذا وَعدَ»(٢).

وقال الامام علي عليه السلام:

«انَّ الوفاءَ بالعهدِ من علاماتِ أهلِ الدينِ»(٣).

وقال رسول الله ﷺ:

«لا دينَ لِمن لا عهدَ لهُ»(٤).

خُلف الوعد، علامة النفاق:

قال الرسول الاكرم ﷺ:

«آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: اذا حدَّثَ كذبَ، واذا وعَدَ أخلفَ، واذا ائتُمنَ خانَ»(٥).

الوفاء بالعهد كالنذر:

قال الامام الصادق عليه السلام:

«عِدَةُ المؤمنِ أخاهُ نَذرٌ لا كفّارة له، فَمَن أخلفَ فبخُلفِ الله بَدأَ وَلِمقتِهِ تَعرضَ وذلك قولُهُ:

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوُا لِمَ تقولونَ ما لا تفعلونَ كَبُرَ مَقتاً عِندَ الله أنْ تقولوا ما لا

---

(١) الاسراء / ٣٤.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٤، ح ٢.

(٣) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٧٥.

(٤) بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٩٦.

(٥) المستطرف، ج ١، ص ١٩٨.

تفعلونَ﴾[١].

خُلف الوعد مَقْتٌ عند الله:

أوصى امير المؤمنين علي(ع) مالكاً الاشتر في عهده اليه:

«اياكَ... أنْ تَعِدَهُم فَتُتبِعَ موعِدَكَ بخُلفِكَ .... والخُلفُ يوجبُ المقتَ عِندَ الله والنّاسِ. قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مقتاً عند الله أنْ تقولوا مالا تفعلونَ﴾...»[٢].

الوفاء بالعهد من حقوق الايمان:

قال الامام الصادق(ع):

«المُؤمنُ أخو المؤمنِ عينُهُ ودليلُهُ لا يخونُهُ ولا يظلمُهُ ولا يَغُشُّهُ ولا يعدهُ عِدةً فيُخلفُهُ»[٣].

تنويه ضروري

وهكذا نلاحظ من خلال الآيات والأحاديث انّ الوفاء بالعهد والأمانة، من القضايا الأساسية التي حظيت باهتمام الاسلام لأنّ عدم الاهتمام بها يؤدي الى اضطراب حياة الناس وفقدان الثقة فيما بينهم مما يعمل بالتالي على هشاشة الأساس الذي تقوم عليه العلاقات الاجتماعية. ولم يقتصر اهتمام الاسلام بالوفاء بالعهود والمواثيق على العهود فيما بين المسلمين انفسهم، وانما اوجبه ايضاً على المسلمين حتى في عهودهم ومواثيقهم مع الاعداء وغير المؤمنين.

قال الامام الصادق(ع):

«ثلاثٌ لم يجعلِ الله عزَّ وجل لأحدٍ فيهنّ رُخصةً: أداءُ الأمانةِ الى البَرِّ والفاجرِ، والوفاءُ بالعهدِ للبرِّ والفاجرِ، وبرُّ الوالدينِ بَرَّينِ كانا أو فاجِرَينِ»[٤].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٤، ح ١.
(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٥٣.
(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٦، ح ٣.
(٤) اصول الكافي، ط اسلامية، ج ٢، ص ١٦٢، ح ١٥؛ بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٩٢.

وأوصى أمير المؤمنينعليه السلام مالكاً الاشتر في عهده اليه انه لو عاهد عدوّه عهداً أو أمضى ميثاقاً فلابد له من الالتزام به وعدم انتهاكه:

«وانْ عَقَدتَ بينَكَ وبينَ عدُوِّكَ عُقدَةً أو ألبستَهُ مِنكَ ذمّةً فحُطْ عهدَكَ بالوفاءِ وارعَ ذِمَّتَكَ بالأمانةِ واجعل نفسكَ جُنَّةً دونَ ما أُعطيتَ. فانَّهُ ليسَ مِن فرائِضِ الله شيءٌ النّاسُ أشدُّ عليهِ اجتماعاً مَعَ تَفرُّقِ أهوائِهِم وَتشتُّتِ آرائِهِم مِن تعظيمِ الوفاءِ بالعُهودِ وقد لَزِم ذلك المشركونَ فيما بينهُم دونَ المسلمينَ لِما استوبَلوا مِن عواقِبِ الغَدرِ فلا تَغدرنَّ بذِمّتكَ ولا تَخيسنَّ بِعهدكَ ولا تَختلنَّ عدُوكَ فانَّهُ لا يجترئ على الله إلّا جاهلٌ شقيٌّ، وقد جَعلَ الله عَهدهُ وذِمّتهُ أَمناً أفضاهُ بينَ العبادِ بَرحمتِهِ وحَريماً يسكُنونَ الى مَنعَتِهِ...»[1].

فالوفاء بالعهد، وظيفة لابد للمسلمين من الالتزام بها سواء كان ذلك في وقت السلم أو الحرب، وسواء كان الجانب الآخر مسلماً أو غير مسلم. وهذا امر اكدت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

قال الله تعالى:

﴿إلّا الذينَ عاهدتُم مِنَ المشركينَ ثُمَّ لم يَنقُصوكُم شيئاً ولم يُظاهِروا عليكُم أحداً فَأتِمُّوا إليهم عَهدهُم الى مُدَّتِهم انّ الله يُحبُّ المُتّقينَ﴾[2].

وقال الرسول الاكرمصلى الله عليه وآله:

«المسلمونَ اخوةٌ تتكافى دِماؤُهُم ويسعى بِذمّتِهم أدناهُم هُم يدٌ على مَن سِواهُم»[3].

وفاء الرسولصلى الله عليه وآله بعهده في الحرب

«لما فتح عليعليه السلام حصن خيبر الأعلى بقيت لهم قلعة فيها جميع اموالهم

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٥٣.

(٢) التوبة / ٤.

(٣) وسائل الشيعة، ط بيروت، ج ١٩، ص ٥٥.

ومأكولاتهم ولم يكن عليها حرب بوجه من الوجوه، نزل رسول الله ﷺ محاصراً لمن فيها فصار اليه يهودي منهم فقال: يا محمد تؤمنّي على نفسي وأهلي ومالي وولدي حتى أدلّك على فتح القلعة. فقال له النبي ﷺ: أنتَ آمن فماذا دلالتك؟ فقال: تأمر أن يحفر هذا الموضع فانهم يصيرون الى ماء أهل القلعة فيخرج ويبقون بلا ماء ويسلمون اليك القلعة طوعاً. فقال رسول الله ﷺ: أو يحدث الله غير هذا، وقد أمّنّاك. فلمّا كان من الغد ركب رسول الله ﷺ بغلته وقال للمسلمين: اتبعوني، وسار نحو القلعة فأقبلت السهام والحجارة نحوه وهي تمر عن يمنته ويسرته فلا تصيبه ولا أحداً من المسلمين شيء منها حتى وصل رسول الله ﷺ الى باب القلعة فأشار بيده الى حائطها فانخفض الحائط حتى صار من الارض وقال للناس: ادخلوا القلعة من رأس الحائط بغير كلفة»[1].

وهكذا نرى انّ الرسول ﷺ ورغم عدم عمله باقتراح اليهودي، وانه فتح الحصن بطريقة اخرى، إلّا انه لم ينقض عهده معه وأوفى بعهده له.

اذن يعد الوفاء بالعهد ـ مع الصديق والعدو ـ من اهم ركائز النظام الاجتماعي الانساني، ويحتل موقعاً مهماً في التعاليم الاسلامية بحيث قال رسول الله ﷺ:

«أقربُكُم مني غداً في الموقفِ أصدقُكُم للحديثِ وآداكُم للأمانةِ وأوفاكُم بالعهدِ»[2].

تقويم القابلية على الوفاء بالعهد

نظراً للأهمية التي يحظى بها العهد في التعاليم الاسلامية، لابد لمن يعهد عهداً أو يعد عدةً ان يقوم قابليته على الوفاء بذلك العهد وتلك العدة، فاذا وجد نفسه عاجزاً عن الوفاء، فلا يقدم على ذلك قط.

قال امير المؤمنين علي عليه السلام:

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٢١، ص ٣٠.

(٢) نفس المصدر، ج ٧٢، ص ٩٤؛ تحف العقول، ص ٣٢.

«لا تَعِد بِما تَعجزُ عَنِ الوفاء»[1].

وقال عليه السلام ايضاً:

«لا تَعدنَّ عدةً لا تَثِقُ مِن نَفسكَ بانجازِها»[2].



(١) فهرست الغرر، ص ٤٠٧، ح ١٠١٧٧.

(٢) نفس المصدر، ح ١٠٢٩٧.

(٢٠)

الزهد

الزهد عبارة عن عدم الميل والرغبة في شيء يمتلك بطبعه عوامل الاغراء والجاذبية. ويرغب المرء عن ذلك الشيء بفعل بعض العوامل الاختيارية، ولا يرى في جمالاته وقيمه شيئاً ذا بال. وقد عبّر القرآن الكريم عن موقف اخوة يوسف من يوسف حينما باعوه بثمن بخس على انه غلام قائلاً:

﴿... وكانوا فيهِ من الزاهدين﴾[١].

أي انهم زهدوا في اخيهم يوسف الى درجة انهم باعوه بثمن قليل. والحسد هو الذي أملى عليهم أن لا يروا يوسف بينهم ويفرّقوا بينه وبين ابيه لسنين متمادية.

وهذا المعنى للزهد، معنى عرفي ولغوي يستخدم في التعبير اليومي عادةً. اما الزهد كفضيلة اخلاقية ومعنوية، فله معنى رفيع يعد في لغة العرفاء من منازل العبودية. أي انّ الزهد عبارة عن الإعراض عن الدنيا والانطلاق نحو منازل الآخرة. وليس بامكان الكلمات ان تفسّر هذا المفهوم الدقيق، ولذلك نلاحظ حوله العديد من التعابير والتعاريف في كلمات العرفاء وعلماء الاخلاق والتي يشير

---

(١) يوسف / ٢٠.

كل منها الى بعد من أبعاده.

ونظراً لدلالة مفردة الزهد على مفهوم عرفاني وديني دقيق، فمن الأُولى ان نستعين في تعريفها بكلام الوحي وأئمة الدين والعرفان، ونوضح حدوده ومعالمه.

قدّم القرآن الكريم تعريفاً جامعاً وشاملاً للزهد في جملتين موجزتين تحملان عالماً من الحكمة:

﴿... لِكيلا تأسَوا على ما فاتَكُم ولا تَفرحُوا بِما آتاكُم...﴾[1].

أي انّ الزهد هو أن يتساوى لديكم إقبال الدنيا وإدبارها بحيث لا تأسفون على ما يفوتكم منها ولا تفرحون بما تحصلون عليه منها.

ونفهم من هذه الآية أنّ الزهد أمر قلبي يمكن تشخيصه من خلال علامتين: عدم التأسف على ما فات، وعدم الفرح على ما أتى. ومن هنا فالزاهد الحقيقي هو الشخص الذي لا تخدعه مظاهر الدنيا وبهارجها الخادعة، وانصراف اهتمامه عن الدنيا ومادياتها كهدف مطلوب واتجاهه نحو أهداف أسمى.

ويمكن على هذا الضوء التكهن بأنّ هناك ثلاثة شروط لتحقق الزهد الحقيقي:

ـ الشرط الأول، أنْ تكون لدى المرء غريزة الميل والرغبة بشكل طبيعي. فالمريض الذي لا يشعر بالرغبة نحو الطعام والفاكهة والمشروبات السائغة بفعل المرض، لا تعد عدم رغبته هذه زهداً.

ـ الشرط الثاني، توافر امكانية حصول المرء على الوسائل المادية. فاذا كان تركه للدنيا واعراضه عنها منبعثاً عن العجز، فلا يُعدّ هذا الترك من مصاديق الزهد.

ـ الشرط الثالث، إعراض المرء عن الدنيا وعزوفه عن بهارجها الخادعة، رغم وجود جميع الجاذبيات والامكانات المادية والشهوانية، تطلعاً الى الأهداف الأسمى.

في ظل هذه الشروط، يصدق الزهد، ويكتسب معناه الحقيقي. ويتضح من

---

(١) الحديد / ٢٣.

خلال هذا التوضيح انّ الزهد يقوم على أساس التحرر من الالتصاقات المادية لا فقدانها. ومن هنا لو نجح المرء في تحرير نفسه من التعلق بالدنيا والانشداد اليها، كان زاهداً وان حظي ببعض الامكانات المادية الى حد ما.

اذن لو كان ترك الدنيا والاشاحة عنها بسبب العجز أو بدافع التظاهر والرياء، لما كان ذلك من الزهد، بل ان الشرع المقدس ذمّ مثل هذا الفقر والفقدان وعدّه موجباً للكفر والالحاد، واعتبر مظاهر الرياء من مصاديق الشرك وفاقدة لأية قيمة أخلاقية.

وصفوة القول هي انّ الزاهد الحقيقي هو ذلك الذي طلّق الدنيا قلبياً، لا ذلك الذي ترك الدنيا عن اضطرار أو ترك الدنيا للدنيا.

ومن المناسب أن ننعم النظر في كلمات الرسولﷺ في وصف الزاهدين أدناه:

«يا أُسامةُ تركَ القومُ الحلالَ من الطَّعامِ والشَّرابِ طَلَباً للفضلِ والآخرةِ، ولم يتكالَبوا على الدنيا كتكالُبِ الكلابِ على الجيفِ، أكلوا العَلَقَ ولَبِسُوا الخَلَقَ، شُعثاً غُبراً اذا نَظَر الناسُ اليهِم ظَنُّوا أنَّ بِهِم داءٌ وما بِهِم مِنْ داءٍ، وظنّوا أنَّهُم خولِطوا وما خولِطوا ولكن خالَطَ القومَ حُزنٌ عظيمٌ تخَيَّلَ الناسُ أنَّهُ ذَهَبَ عُقُولُهُم وما ذَهَبَ عقولُهُم ولكن نَظَروا بقلوبِهِم الى أمرٍ ذَهَبت بعقولهم عنِ الدنيا فهُم في الدنيا عند أهلها يمشون بِلا عقولٍ. يا أُسامة عَقلُوا حينَ ذَهبتْ عقولُ الناسِ، لهُم الشَّرفُ الاعلى والمحلُّ الأسنى والأسمى»[١].

ولعليّ عليه السلام كلام كثير بهذا الشأن ورد بعضه في نهج البلاغة. ولو أردنا تناول كلماته واستعراض هذا الموضوع من جميع ابعاده انطلاقاً من وجهة نظر الامام، كان علينا كتابة رسالة مستقلة في ذلك. وليس أمامنا هنا سوى نقل فقرات من كلامه، ونُرجع من يتوق التفصيل الى كتابات أساتذة الفن سيما كتاب «سير في نهج البلاغة» للمرحوم الاستاذ الشهيد المطهري قدس سره[٢].

---

(١) بحر المعارف، ملا عبد الصمد الهمداني، نقلاً عن كتاب التحصين، ص ٣٥.

(٢) في كتاب الشهيد المطهري هذا فصل رائع ووافٍ حول الزهد الاسلامي والرهبانية المسيحية وأوجه

لعلي عليه السلام كلام يخاطب به الدنيا يقول:

«يا دُنيا يا دُنيا اليكِ عنّي أبي تَعرضتِ أم اليّ تَشوقتِ لا حانَ حينُكِ، هيهاتَ غُرّي غَيري لا حاجةَ لي فيكِ قد طَلّقتُكِ ثلاثاً لا رَجعَةَ فيها. فَعَيشُكِ قصيرٌ وخَطرُكِ يسيرٌ وَأملُكِ حقيرٌ»[1].

وقال في موضع آخر:

«وَلو شِئتُ لاهتديتُ الطريقَ الى مُصفّى هذا العَسلِ ولُبابِ هذا القَمحِ ونسائِجِ هذا القزِّ، ولكنْ هَيهاتَ أنْ يَغلبَني هوايَ ويقودَني جَشَعي الى تَخَيُّرِ الأطعمةِ... فَما خُلِقتُ لِيشغَلني أكلُ الطَّيِّباتِ كالبهيمةِ المربوطةِ هَمُّها عَلفُها...»[2].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«ليسَ الزُّهدُ في الدنيا باضاعَةِ المالِ ولا تحريمِ الحلالِ، بلِ الزُّهدُ في الدنيا أنْ لا تكونَ بما في يدكَ أوثقَ منكَ بِما عِندَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ»[3].

علائم الزهد

للزهد آثار وعلائم تحدث عنها العرفاء وكبار رجال السير والسلوك انطلاقاً مما لدى كل منهم من ذوق. ولذلك من الأجدر بنا الرجوع بهذا الشأن الى كلمات الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام التي تُعدّ بعد القرآن الكريم افضل الكلام وأجمله وأفصحه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَن زَهدَ في الدنيا أدخَلَ اللهُ الحكمَةَ في قَلبهِ فأنطقَ بِها لسانَهُ وَعرَّفهُ داءَ

= الاشتراك والاختلاف فيما بينهما، ويتناول بالبحث الفقرات التالية: قواعد الزهد الثلاث، الزاهد والراهب، الزهد والايثار والتعاطف، الزهد والتحررية، الزهد والمعنوية، الزهد والحب والعبادة، عبارة ابن سينا، تعارض الدنيا والآخرة، الزهد اقتطاع قليل لمردود كبير.

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، ح ٧٤.

(٢) نفس المصدر، ك ٤٥.

(٣) فروع الكافي، ج ٥، ص ٧٠.

الدنيا ودواءَها وأخرَجهُ مِنها سالِماً الى دارِ السَّلامِ»[١].

ونرى الزهد في الحديث النبوي هذا مزيجاً بالحكمة والمعرفة وسلامة القلب، وأُشير اليه مع هذا العلائم.

وورد في حديث نبوي آخر:

«مَنِ اشتاقَ الى الجنَّةِ سارعَ الى الخيراتِ، وَمَن خافَ مِنَ النّارِ لَهَا عنِ الشَّهواتِ، وَمَن ترَقَّبَ الموتَ ترك اللذّاتِ، وَمَن زهَدَ في الدنيا هانت عليه المُصيباتُ»[٢].

ونُقل عن امير المؤمنين علي عليه السلام قوله:

«أيُّها الناسُ الزهادةُ: قِصَرُ الأملِ، والشُّكرُ عندَ النِّعمِ، والتَّوَرُّعُ عِندَ المحارمِ. فإنْ عَزَبَ ذلكَ عنكُم فلا يَغلبِ الحرامُ صبرَكُم ولا تَنسوا عِندَ النِّعمِ شُكركُم، فقَد أعذرَ اللهُ اليكُم بِحُجج مُسفِرةٍ ظاهرةٍ وكُتبٍ بارزةِ العذرِ واضِحةٍ»[٣].

وقال عليه السلام ايضاً:

«انَّ الزاهدينَ في الدنيا تَبكي قُلوبُهُم وَإن ضَحكُوا ويشتدُّ حُزنُهُم وان فَرِحوا ويكثُرُ مَقتُهُم أنفُسَهُم وانِ اغتبطوا بما رُزِقوا...»[٤].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«انَّ شيعةَ عليٍّ كانوا خُمُصَ البُطونِ، ذُبُلَ الشِّفاهِ أهلَ رَأفةٍ وعِلمٍ وَحلمٍ، يُعرفونَ بالرَّهبانيَّةِ فأعينُوا على ما أنتُمْ عليهِ بالوَرعِ والاجتهادِ»[٥].

ولا يخلو من فائدة لو قلنا انّ الزهد بالمعنى الذي أشرنا اليه وسلطنا الضوء عليه غير ملازم للتنحي المطلق عن اللذائذ المادية، غير ان الرغبة عن مظاهر

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٧، ص ٣٥٣؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٤، ص ٨٠؛ اصول الكافي، ج ٢٠، ص ١٢٨.

(٢) المحجة البيضاء، ج ٧، ص ٣٥٦؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٤، ص ٩٤ مع تفاوت يسير.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ٨١.

(٤) نفس المصدر، خ ١١٣.

(٥) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٥، ص ١٨٨.

الدنيا بالاختيار مصحوبة بالقناعة وعفّة النفس. فكما قلنا من الممكن ان يتحقق الزهد مع وجود المال والثروة والمنصب، كما هو الحال بالنسبة للرسول الاكرمﷺ وسليمان وداود وعلي وخديجة عليهم السلام والكثير من اولياء الله الذين كانوا من ازهد عباد الله رغم ما كان لديهم من ملك وحكم ومال، غير انّ روح الزهد تدفع المرء للقناعة بحد الكفاف والعفاف، ولا يورّط الزهّاد انفسهم بأكثر من هذا الحد. ولو كان لديهم شيء فانهم يقنعون منه بما يكفيهم، وقلما يستخدمونه شخصياً وانما ينفقونه في سبيل الله وقضاء حوائج الآخرين، ويقدمون غيرهم على انفسهم، كما قال القرآن الكريم:

﴿ويؤثِرونَ على انفُسِهِم ولَوْ كانَ بِهِم خَصاصةٌ...﴾[1].

والقناعة احدى مراتب الزهد ثم تليها مرتبة الاحسان والايثار، وآخرها مرتبة ترك ما سوى الله.

رباه! اهدنا نحو هذاه المراتب والمنازل. آمين!

---

(١) الحشر / ٩.

(٢١)

القناعة

القناعة خصوصية اخرى من خصوصيات المؤمنين وميزة من ميزات الفاضلين. فهؤلاء يتمتعون بروح العزة والقناعة ولا يمدون في ظلها أعين الطمع الى ما لدى غيرهم من ثروة، ولا يهبطون بمستوى شخصياتهم من اجل الحصول على مال أو مقام.

القانعون، يكتفون في حياتهم بما هو في حد الكفاف والضرورة، ويحتفظون بهذه القناعة حتى بما هو أقل من ذلك. وأهم ما يتميزون به هو طيب الخاطر وروح الرضا العالية ازاء مقدرات العالم.

القناعة من خصال الرسول الاكرمﷺ ومن مكارم أخلاقه. ولابد لنا ان نسعى للاتصاف بها تأسياً برسولنا الكريم.

وقد قال الامام الصادقعليه السلام في ذلك:

«انّ الله خصَّ رسوله بمكارمِ الأخلاقِ فامتحِنُوا أنفُسَكُم، فان كانت فيكُم فاحمدوا اللهَ وارغَبوا اليهِ في الزّيادةِ منها. فذكَرَها عشرةً: اليقينَ، والقناعةَ، والصبرَ، والشكرَ، والحِلم، وحُسنَ الخُلقِ، والسخاءَ، والغيرةَ، والشجاعةَ،

والمروءة»[١].

والقناعة لها مرتبتان: عليا وأعلى. فالاولى هي الرضا بحد الضرورة والكفاف، والثانية هي الرضا بأقل من ذلك.

يقول الراغب الاصفهاني:

«القناعة الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج اليها»[٢].

ويقول في موضع آخر:

«القناعة الرضا بما دون الكفاف»[٣].

والكفاف من وجهة نظر الطريحي هو:

«الكفاف ما يكف عن المسألة ويستغني»[٤].

والقناعة في كلا المعنيين، تُعد من الصفات الانسانية العليا ومن صفات الأنبياء والأولياء والصالحين، وان كانت المرتبة الثانية أفضل، لانّ القانع يتصف فيها بصفة الايثار ايضاً فضلاً عن القناعة:

﴿... ويُؤثِرون على أنفُسِهم ولو كانَ بِهِم خصاصةٌ﴾[٥].

ولابد أن نبحث الايثار في موضع آخر. والذي يهمنا هو المعنى الاول والذي يتعلق بكافة المؤمنين دون استثناء، وقد اكدت عليه التعاليم الدينية والمعارف الاسلامية وسلّطت الضوء عليه كفضيلة من الفضائل ودعت الى الاتصاف به. وكان الرسول ﷺ يتضرع الى الله تعالى في أن يرزقه ومحبيه صفة القناعة في حد الكفاف.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١؛ ص ١٣٩؛ خصال الصدوق، ج ٢، ص ١٩٨، ح ٨؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٦٦، ص ٣٦٨، ح ٥؛ أمالي الصدوق، ص ١٨٤، ح ٨، المجلس ٣٩.

(٢) مفردات الراغب، مفردة «قنع».

(٣) الذريعة الى أحكام الشريعة، ص ١٧٠.

(٤) مجمع البحرين، مادة «كفف».

وسنوضح فيما بعد أن القناعة غير الكسل والوهن وروح الخنوع.

(٥) الحشر / ٩.

دعاء الرسول ﷺ

قال الامام الصادق عليه السلام ان الرسول ﷺ كان يدعو:

«اللهم ارزُق محمداً وآلَ محمدٍ ومن أحبَّ محمداً وآلَ محمدٍ العَفافَ والكفافَ وارزُق من أبغضَ محمداً وآلَ محمدٍ المالَ والولَدَ»[1].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٤٠، ح ٣؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٩، ص ٥٩. لابد من الاشارة هنا الى انّ الأدعية والمناجيات الواردة عن المعصومين (ع) ذات أبعاد عديدة، أي فضلاً عن جوانب التحميد والتسبيح والذكر والدعاء والتضرع وعرض الحاجة، هناك جوانب تعليمية وعرفانية وتربوية ايضاً.

وفي العديد من الادعية نلاحظ تفوق الجانب التربوي على سائر الجوانب. بتعبير آخر: توجد هناك رسالة في هذه الادعية، والهدف من الدعاء ابلاغ هذه الرسالة وايصالها الى الآخرين. فحينما ندعو في تعقيبات الصلاة في شهر رمضان المبارك: «اللهم اغنِ كلَّ فقير، اللهم اشبع كلَّ جائع، اللهم اكسُ كُلَّ عُريان، اللهم اقضِ دينَ كلِّ مدين، اللهم فرِّج عن كُلِّ مكروب، اللهم رُدَّ كُلَّ غريبٍ، اللهم فُكَّ كُلَّ أسيرٍ ...»، نجد هناك رسالة في هذه الادعية وهي: ايها المسلم! ينبغي أن لا تكون غير مهتم بآلام الآخرين ومعاناتهم ومشاكلهم. ولذلك ينفخ تكرار هذه الجمل والمفاهيم روح مجابهة الفقر والحرمان في جسم المسلم، أي ان يكون هدفه: ألا يبقى فقير في هذا العالم، وألا يبقى مريض بدون دواء، وألا يعيش مدين مطأطئ الرأس، وألا يبقى أسير في أغلال الأسر ... الخ.

كذلك حينما ندعو بدعاء السحر قائلين: «اللهم انّي أعوذ بك من الكسل والفشل والجُبن والنعاس ...»، نجد في هذا الدعاء الرسالة التالية: على المؤمن تجنب الكسل والفشل والجبن والنعاس. وحينما نقرأ في زيارة الامام الحسين (ع) عبارة: «يا ليتني كنت معكم فأفوز معكم»، فهذه العبارة ليست مجرد تمن فارغ لا معنى له، وانما هي تأكيد على رسالة الاستشهاد والتأسي بالامام الحسين (ع) وأصحابه المضحين، أي ان الهدف منها خلق روح الاستشهاد في سبيل الله لدى زائري الامام الحسين (ع).

في عام ١٩٦٨ ـ على ما اتذكر ـ وخلال الفترة التي كان الامام الخميني رضوان الله عليه منفياً في العراق، وفقني الله لزيارة العتبات المقدسة. وفي ليلة من ليالي الجمعة كنت في الحائر الحسيني مشغولاً بقراءة الزيارة الجامعة الكبيرة، وكنت اردد بتفاعل وجدٍّ العبارات التالية: «موالٍ لأوليائكم، مبغضٌ لأعدائكم ومعادٍ لهم، سلمٌ لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، محقق لما حققتم، مبطل لما أبطلتم، مطيع لكم، عارف بحقكم، مقر بفضلكم، محتمل لعلمكم، محتجب بذمتكم ... وقلبي لكم مُسلِّمٌ ورأيي لكُم تبعٌ ونُصرتي لكُم مُعدَّةٌ ...» والى آخر الفقرات ذات المضامين العالية. وكان الى

←

وقال الامام السجاد عليه السلام:

«مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله براعي إبلٍ فبعثَ يستسقيهِ فقال: أمّا ما في ضُروعِها فصبُوحُ الحيِّ وأما في آنيتِنا فغبُوقُهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهُمّ أكثِر مالَهُ وولدَهُ، ثمّ مرَّ براعي غنمٍ فبعثَ اليهِ يستسقيهِ فحلَبَ ما في ضُروعِها وأكفأ ما في انائهِ في اناءِ رسول الله صلى الله عليه وآله وبعثَ اليهِ بشاةٍ وقال: هذا ما عندنا وإنْ أحببتَ أن نزيدكَ زِدناكَ، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهُمَّ ارزُقهُ الكفافَ. فقال له بعض

← جانبي أحد الاخوة في الاسلام، فكان يعبّر عن استيائه من ذلك ويكذّبني فيما يشبه الهمس، ثم بلغ عنده الغضب ذروته حين استمراري في الدعاء، فقال لي بعصبية: هل انت صادق في ما تقول؟ وهل تقوم بهذه المزاعم الكبرى؟! ليس بمقدور حتى من هو اكبر منك ان يزعم هذه المزاعم. فلماذا تكذب مثل هذه الأكاذيب في محضر الامام؟ وشعرتُ بالدهشة وأنا في تلك الحال التي كانت لي اثناء الزيارة، ولم ادر بماذا اجيبه؟ فقد كان كلامه صحيحاً. اذ انّ ادعاءاتي كانت كبيرة جداً. غير انّ هذه الزيارة تُعدّ من الزيارات المعتبرة المأثورة، وأوصى أئمة الدين بقراءتها في جميع العتبات المقدسة. وانقدح في ذهني فجأة جواب استلهمته من الامام الحسين (ع) فقلت له: انّ هذه الكلمات وان كانت في صيغة الإخبار إلّا انها في الحقيقة من مقولة الانشاء. فحينما اقول هذه الكلمات لا اقصد انني هكذا وانما يجب ان اكون هكذا. ثم اقبلت على الزيارة ثانية ولم يقل صاحبي بعد ذلك شيئاً، ويبدو انه ادرك بعد توضيحي انّ هؤلاء الزائرين لا يمكن ان يكونوا كاذبين جميعاً.

وهكذا ندرك كيف كان الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) يبلغ رسائله الى شيعته ومواليه عن طريق الدعاء، وندرك ايضاً لماذا نكرر قراءة سورة الفاتحة في كل صلاة لاسيما عبارة ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾، فاذا كان تكرار هذه الجملة من سورة الفاتحة على سبيل الاخبار وشرح الحال، فسيصدق الكذب على اغلب الافراد. فمن بمقدوره ان يدعي انه يعبد الله وحده ولا يستعين بغيره؟ اذن لابد ان تكون هناك رسالة في قالب الاخبار، وهذه الرسالة ذات طابع انشائي وايجابي، وهي: ايها المصلي! لابد أن تكون هكذا، وعليك ان تسعى للوصول الى هذه الدرجة من العبودية.

وعلى هذا الضوء، فحينما يدعو الرسول (ص): «اللهم ارزق محمداً وآل محمد ومن احبَّ محمداً وآلَ محمدٍ العفاف والكفاف»، فهي تحمل لأحباء محمد وآل محمد رسالة تقول: ايها المؤمنون! انّ ما هو مهم لديّ روح الاستغناء لا مال الدنيا وحطامها، ولكن ليس لأنّ مال الدنيا قبيح بل لأن الذي يحظى بالقيمة هو استغناء الروح، كي يصبح بمقدور المرء ان يطلب باعتزاز كلّ شيء لله تعالى ويضحي بكل شيء من أجله، حيث قال: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ (الكهف / ٤٦).

أصحابه: يا رسول الله! دعوتَ لِلّذي ردَّكَ بدعاءٍ عامَّتنا نُحِبُّهُ ودعوتَ للذي أسعفكَ بحاجتِكَ بدُعاءٍ كُلُّنا نكرهُهُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: انَّ ما قلَّ وكفى خيرٌ مِمّا كثُرَ وألهى. اللهم ارزُق محمداً وآلَ محمدٍ الكفافَ»[١].

وقال رسول الله ﷺ ايضاً:

«... فانَّ ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُرَ وألهى»[٢].

وقال ايضاً:

«خيرُ الرزقِ ما يكفي»[٣].

وقال ايضاً:

«طوبى لِمَن أسلَمَ وكان عيشُه كفافاً»[٤].

رسالة من الامام علي عليه السلام

من الصفات التي وصف بها علي عليه السلام أحدَ أصحاب رسول الله ﷺ ويدعى «خباب بن الأرت»، هي القناعة بالكفاف، فقال:

«يرحمُ الله خَبّاب بن الأرتِ، فلقد أسلَمَ راغباً وهاجرَ طائعاً، وقنعَ بالكفافِ ورضيَ عنِ الله وعاش مجاهداً ...»[٥].

ثم قال بعد ذلك:

«طوبى لِمَن ذكر المعادَ وعمِل للحسابِ وقنعَ بالكفافِ ورضي عن الله»[٦].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٤٠، ح ٤.

(٢) الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٥٣٧؛ امالي الصدوق، ص ٣٩٥، المجلس ٧٤.

(٣) الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٥٣٧.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٤، ح ٢. ورد هذا الحديث في مجمع البحرين (مفردة «كفف») هكذا: «طوبى لمن كان عيشه كفافاً».

(٥) نهج البلاغة، فيض الاسلام، ح ٤١.

(٦) نفس المصدر.

ايجابيات القناعة

لو هيمنت روح القناعة على المرء فلاشك في انها ستفرز الكثير من الايجابيات على الفرد وبالتالي على المجتمع، على العكس من روح الجشع والطمع التي لابد وان تنعكس عنها نتائج معاكسة تماماً لروح القناعة.

ومن ايجابيات القناعة:

العزّة:

لاشك في انّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بصراحة:

﴿... ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنينَ ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمونَ﴾[1].

وهذه العزة من الأهمية للمؤمن وقيّمة الى درجة بحيث لا يحق له أن يذلّ نفسه أمام الآخرين، ولذلك قال الامام الصادقعليه السلام:

«انّ الله تباركَ وتعالى فوَّضَ الى المؤمنِ أُمورهُ كُلَّها ولم يُفوِّضْ اليه أن يُـذِلَّ نفسهُ. الم ترَ قول الله سبحانه وتعالى ها هنا: ﴿ولله العِزَّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ﴾ والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً ولا يكونَ ذليلاً»[2].

وقال رسول اللهصلى الله عليه وآله:

«لا ينبغي للمؤمنِ أن يُذِلَّ نفسهُ»[3].

ولاشك في انّ القناعة هي من العوامل التي تبعث على عزة المرء ونجاته من الذلة.

قال امير المؤمنين عليعليه السلام:

«لا أعزّ مِن قانع»[4].

---

(١) المنافقون / ٨.

(٢) تفسير البرهان، ج ٤، ص ٣٣٩؛ تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٣٣٢.

(٣) الذريعة الى مكارم الشريعة، ص ١٧٠.

(٤) فهرست الغرر، ص ٣٣٠، ح ١٠٥٩٢.

«القناعةُ عِزّ»[١].

«القناعةُ عِزّ وغنى»[٢].

«القناعةُ أبقى عِزّ»[٣].

اذن، على من يريد الاحتفاظ بعزة نفسه، أن يلجأ الى القناعة، اذ بها يحافظ على كرامته في المجتمع.

وما أروع ما قال الشاعر:

عزيزُ النفسِ مَنْ لزِمَ القناعه   ولم يكشف لمخلوقٍ قِناعَه[٤]

كنز لا يفنى

قال الرسول الأكرم محمد ﷺ:

«القناعةُ كنزٌ لا يفنى»[٥].

وقال ﷺ ايضاً:

«القناعة مالٌ لا ينفدُ»[٦].

وقال علي عليه السلام بهذا الشأن:

«لا كنزَ أغنى مِنَ القناعة»[٧].

القناعة والاستغناء:

هناك احاديث اخرى تؤكد على انّ القانع بما أعطاه الله، من اغنى الناس، اذ المهم في حقيقة الأمر هو روح الاستغناء وعدم الحاجة، لا المال والثروة. فما أكثر الاغنياء الذين يتسمون بطابع الاستجداء.

---

(١) نفس المصدر، ح ٦٦.

(٢) نفس المصدر، ح ٦٨٩.

(٣) نفس المصدر، ح ٦١٨.

(٤) كشكول الشيخ البهائي، ج ٢، ص ٦٧.

(٥) مشكاة الأنوار، ص ١٣٢.

(٦) نفس المصدر.

(٧) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ح ٣٧١.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ليس الغنى عن كثرةِ العرَضِ، انّما الغِنى غِنى النفس»[1].

وورد عن الامام الصادق عليه السلام قوله:

«من قنعَ بما رزقَهُ الله فهُوَ مِن أغنى الناسِ»[2].

وقال أيضاً:

«أغنى الغنى القناعة»[3].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«القناعةُ رأسُ الغِنى»[4].

سلبيات عدم القناعة

الذلّة:

من لم يقنع بما قدّر الله له، فلابد ان يطمع بما في أيدي الآخرين شاء ذلك أم أبى، مما يدفعه لمد يده اليهم الأمر الذي يعمل على اذلاله والحطّ من مكانته الاجتماعية. قال الامام الصادق عليه السلام:

«ما أقبحَ بالمؤمنِ أن تكون لهُ رغبةٌ تُذِلُّهُ»[5].

ويعلق العلامة المجلسي على ذلك بقوله:

«والمُراد الرغبة الى الناس بالسؤال اليهم وهي التي تصير سبباً للمذلة. وأما الرغبة الى الله فهي عين العزّة»[6].

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٦، ص ٥١.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٩، ح ٩.

(٣) مشكاة الأنوار، ص ١٣٠.

(٤) فهرست الغرر، ص ٣٢٦، ح ١١٠٦.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٢٠، ح ١.

(٦) مرآة العقول، ج ١٠، ص ٢٥٨.

القلق الدائم:

عدم القناعة والطمع يؤديان الى ظهور القلق والاضطراب. قال الامام الصادقعليه السلام في شأن نزول الآية ﴿ولا تمدَّنَّ عينيكَ الى ما متَّعنا بهِ أزواجاً منهُم زهرَةَ الحياةِ الدنيا لِنفتِنَهُم فيه ورِزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبقى﴾[1]: «استوى رسولُ اللهصلى الله عليه وآله جالساً ثُمَّ قال: مَنْ لم يتعزَّ بِعزاءِ الله تقطَّعت نفسهُ على الدنيا حسراتٍ ومن أتبَعَ بصرَهُ ما في أيدي الناسِ طالَ همُّهُ ولم يشفِ غيظَهُ، ومن لم يعرِف أنّ لله عليهِ نِعمَةً إلّا في مطعمٍ ومشربٍ قصُرَ أجلُهُ ودنا عذابُهُ»[2].

وقال الله تعالى في آية مماثلة:

﴿لا تمُدَّنَّ عينيكَ الى ما متَّعنا بهِ أزواجاً مِنهُم ولا تحزن عليهِم واخفِض جناحكَ للمؤمنينَ﴾[3].

لذا ينبغي للمرء اتخاذ الاعتدال نهجاً في حياته والعمل على أساس القناعة، وإلّا فانه لن يبصر وجه السعادة.

قال الامام علي بن الحسين السجاد(ع):

«رأيتُ الخيرَ كُلَّهُ قدِ اجتمعَ في قطعِ الطَّمعِ عمّا في أيدي الناس»[4].

وهكذا يقلل مدّ اليد نحو الآخرين من قيمة المرء وشرفه وعظمته، أي انه يجعل بعمله هذا نفسه مديناً والآخرين غرماء. في حين يبعث عدم اهتمامه بما في أيدي الناس على عزته ورفعته.

قال الامام الصادقعليه السلام:

«شرفُ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزُّهُ استغناؤهُ عنِ الناسِ»[5].

---

(١) طه / ١٣١.

(٢) التفسير الصافي، ط اسلامية، ج ٢، ص ٨٣.

(٣) الحجر / ٨٨.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٤٨، ح ٣.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٤٨.

النهج الأفضل في الحياة

بعد أن علمنا بأنّ الطمع في حطام الدنيا وما في ايدي الناس يوجب الذلّة، والقناعة توجب العزة وعلو الشأن ورفعة المقام، من الافضل ان نرضى بما قدّر الله تعالى لنا وبما أعطانا وأن لا نمدّ أعيننا الى ما أعطى لغيرنا. ولنسأله تعالى كما سأله الامام السجاد عليه السلام:

«... واجعل ذلك سبباً لقناعتي بما قضيتَ»[١].

ولنتضرع اليه قائلين:

«... اللهُمَّ انّي أعوذُ بكَ من هَيجانِ الحِرصِ وسَورَةِ الغضبِ وغَلبَةِ الحسَدِ وضَعْفِ الصَّبرِ وقلَّةِ القناعةِ»[٢].

الحياة الطيّبة

سُئل امير المؤمنين علي عليه السلام عن «الحياة الطيبة» في الآية الكريمة ﴿من عمِل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهُوَ مُؤمنٌ فلنُحيينَّهُ حياةً طيِّبةً﴾[٣]، فقال: القناعة[٤].

وبعد هذه الأحاديث التي تحدثت عن أهمية القناعة وقيمتها، لابد من الاشارة الى بعض الملاحظات المهمة:

الملاحظة الاولى: تأمين الرزق

نظراً للاشارة الى الرزق وتقديره خلال الحديث عن القناعة، فمن المناسب ان نتحدث عنه بايجاز، فالقرآن الكريم قد أشار الى تأمين الرزق كأصل مسلَّم به من اصول الخلق، أي يُستنبط من القرآن الكريم أنّ لجميع الكائنات الحية رزقاً مقدَّراً عند الله، ولم يسقط من السجل الالهي اسم أي أحد انساناً وغير انسان، ومن الآيات التي تتحدث عن ذلك:

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ١٤.

(٢) نفس المصدر، الدعاء ٨.

(٣) النحل / ٩٧.

(٤) نهج البلاغة، فيض الاسلام، ح ٢٢١.

﴿وما مِن دابَّةٍ في الأرضِ إلّا على اللهِ رزقُها ...﴾[1].

﴿وكأَيِّن مِن دابَّةٍ لا تحمِلُ رِزقَها اللهُ يرزُقُها وايّاكُم ...﴾[2].

﴿انَّ اللهَ هوَ الرزّاقُ ذو القُوَّةِ المتينُ﴾[3].

﴿... ولا تقتُلُوا أولادَكُم من املاقٍ نحنُ نرزُقُكُم وايّاهُم ...﴾[4].

﴿ولا تقتُلُوا أولادَكُم خَشيةَ املاقٍ نحنُ نرزُقُهُم وايّاكُم ...﴾[5].

وتؤكد هذه الآيات بشكل صريح على انّ الله تعالى هو الرزّاق الوحيد، وهو الذي قد تعهد برزق المخلوقات الحية. أي انّ انعام النظر في هذه الآيات وغيرها يكشف عن انّ موضوع تأمين رزق الموجودات الحيّة حقيقة تكوينية لا غبار عليها.

الملاحظة الثانية: السعي والجهد

مع انّ الله تعالى قد تكفل برزق العباد، لكن يجب ألا يعزب عن البال بأنّ هذا لا يعني انّ الرزق يأتي للمرء وهو جالس في بيته، أو انّ مائدةً تنزل اليه من السماء، بل المقصود أنّ مصادر تأمين رزق الكائنات الحية أمر مأخوذ بنظر الاعتبار في عالم الطبيعة، كما في قوله تعالى:

﴿... وقدَّرَ فيها أقواتَها ...﴾[6].

لذلك لابد من السعي لتحصيل الرزق من المصادر الالهية الواسعة المتنوعة، اذ:

﴿وأنْ ليس للانسانِ إلّا ما سعى﴾[7].

---

(١) هود / ٦.

(٢) العنكبوت / ٦٠.

(٣) الذاريات / ٥٨.

(٤) الانعام / ١٥١.

(٥) الاسراء / ٣١.

(٦) فصلت / ١٠.

(٧) النجم / ٣٩.

وهكذا، ينال كل انسان مما هو مُقدَّر له بمقدار سعيه وحركته. اما ذلك الذي يقعد في بيته بانتظار الرزق، فلن يصل اليه رزقه، واذا مات جوعاً يُعدّ موته طريقة من طرق الانتحار ويتحمل بنفسه وزر خطيئته. ولذلك ذمّت التعاليم الاسلامية اولئك الذين لا يطلبون الرزق ولا يسعون للحصول عليه.

ومن الأحاديث الواردة بهذا الشأن ما يلي:

قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

«انّي لأبغضُ الرجلَ فاغِراً فاهُ الى ربِّهِ فيقولُ ارزُقني ويترُكُ الطَّلبَ»(١).

وقال عليه السلام أيضاً:

«انّي أجِدُني أمقُتُ الرجلَ مُتعذِّرَ المكاسِبَ فيستلقي على قِفاهُ ويقولُ: اللهُمَّ ارزُقني، ويدعُ أن ينتشِرَ في الأرضِ ويلتمِسَ مِن فضلِ الله. فالذرَّةُ تخرُجُ من جُحرِها تلتمسُ رزقها»(٢).

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«... انَّ قوماً مِن أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله لما نزلت ﴿ومن يتَّقِ الله يجْعل لهُ مَخرجاً ويرزُقْهُ من حيثُ لا يحتسِبُ﴾(٣)، أغلقُوا الأبوابَ وأقبلُوا على العبادةِ وقالوا قد كُفينا. فبلغَ ذلكَ النبيَّ صلى الله عليه وآله فأرسلَ اليهِم فقال: ما حملَكُم على ما صنعتُم؟ فقالوا: يا رسولَ الله تكفَّلَ الله لنا بأرزاقِنا فأقبلنا على العبادة. فقال: انَّه من فعلَ ذلكَ لم يُستجب لهُ، عليكُم بالطَّلبِ»(٤).

فكما كان ائمة ديننا يعملون ويسعون من اجل استحصال الرزق، ينبغي لنا ان نعمل ونسعى لاستحصال الرزق(٥).

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٥، ح ٨.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧، ح ٤.

(٣) الطلاق / ٣.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٥، ح ٧.

(٥) هناك قصة معروفة بهذا الشأن وردت في وسائل الشيعة (ج ١٢، ص ٩، الباب ٤، ح ١) حول

الملاحظة الثالثة: الشعور بالمسؤولية والانسانية

ينبغي ألا يبعث الايمان بمبدأ ضمان الرزق على تقاعسنا عن أداء حق المحرومين بذريعة انّ كل أحد يصل اليه رزقه بمقدار ما هو مقدَّر له، فنتخلى بذلك عن الانفاق في سبيل الله وننسى الفقراء والبؤساء. ووصف الله تعالى هذا المنطق بمنطق الكافرين، فقال:

﴿واذا قيلَ لهُم أنفِقُوا مما رزَقكُم الله قال الذينَ كفروا للَّذينَ آمنُوا أنُطعِمُ من لو يشاءُ الله أطعمَهُ إن أنتمُ إلّا في ضلالٍ مبينٍ﴾[١].

وعلى صعيد آخر فقد عيّن الله تعالى حقوقاً كالخمس والزكاة وغيرهما في اموال الأغنياء والأثرياء لابد من دفعها للمحتاجين:

﴿وفي أموالهِم حقٌّ للسائِلِ والمحرومِ﴾[٢].

وقال الله تعالى في موضع آخر:

﴿والذين في أموالِهِم حقٌّ معلومٌ للسائِلِ والمحرومِ﴾[٣].

اذن الاغنياء مكلَّفون باعانة الفقراء والمعوزين بصورة تحفظ لهم كرامتهم، لاسيما المتعففين منهم الذين لديهم من عزة النفس ما يبعث على التصور بأنهم غير محتاجين قط.

وقال القرآن الكريم في وصف هؤلاء:

﴿... يحسبُهُم الجاهِلُ أغنياءَ منَ التَّعفُّفِ تـعرِفُهُم بسيـ هُم لا يسألونَ النّاس الحافاً ...﴾[٤].

وحثّت الأحاديث على تفقد الفقراء واعانتهم، منها:

← شخص يدعى محمد بن منكدر قد اعترض على الامام الباقر (ع) لأنه يعمل.

(١) يس / ٤٧.

(٢) الذاريات / ١٩.

(٣) المعارج / ٢٤ و٢٥.

(٤) البقرة / ٢٧٣.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما آمنَ بي من باتَ شبعانَ وجارُهُ جائعٌ ... وما من أهلِ قريةٍ يبيتُ فيهم جائِعٌ ينظُرُ الله اليهم يومَ القيامةِ»[١].

وقال علي عليه السلام:

«انَّ الله سبحانهُ فرضَ في أموالِ الأغنياءِ أقواتَ الفُقراءِ فما جاعَ فقيرٌ إلّا بِما مُتِّعَ بهِ غنيٌّ والله تعالى سائِلُهُم عن ذلكَ»[٢].

وقال عليه السلام في كتاب بعثه الى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري:

«... ولو شِئتُ لاهتديتُ الى مُصَفَّى هذا العسَلِ ولُبابِ هذا القمحِ ونسائِجِ هذا القزِّ ولكن هيهاتَ أن يغلبني هوايَ ويقودَني جشعي الى تخيُّرِ الأطعمةِ ولعلَّ بالحجازِ أو اليمامَة من لا طمعَ لهُ في القُرصِ ولا عهدَ لهُ بالشِّبَعِ أبيتَ مِبطاناً وحولي بُطونٌ غرثى وأكبادٌ حرّى أو أكونَ كما قال القائل:

وحسبُكَ داءً أن تبيتَ ببِطنةٍ

وحولكَ أكبادٌ تحِنُّ الى القَدِّ

أأقنعُ مِن نفسي بأن يُقالَ هذا أميرُ المؤمنينَ ولا أُشارِكُهم في مكارِهِ الدَّهرِ أو أكونُ أُسوةً لهم في جُشوبَةِ العيشِ! فما خُلِقت ليشغلَني أكلُ الطَّيِّباتِ كالبهيمةِ المربوطَةِ، همُّها علفُها أو المُرسَلةِ شُغلُها تقمُّمُها تكترِشُ مِن أعلافِها وتلهُو عمّا يُرادُ بها ...»[٣].

وعلى ضوء هذه المقدمات ندرك ان ضمان الرزق لا يعني ان ينصرف الأثرياء وأصحاب الامكانات التي تفوق حاجتهم، عن اعانة الضعفاء والبائسين، لأنّ ما لديهم من امكانات وثروات انما هي أمانات الهية في أيديهم ولابد من اعادتها الى

---

(١) الوافي، ج ١، ص ٩٦.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ح ٣٢٨.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ك ٤٥.

أهلها. بل انّ هذا العالم بالأساس عالم الأسباب، ويُعدّ الناس أحد مجاري الفيض الالهي وايصال الرزق.

الملاحظة الرابعة: الابتلاء والتمحيص

مع انّ الله تعالى قد ضمن أرزاق الجميع، إلّا انّ الناس ليسوا بمستوى واحد في الانتفاع بعطاءات الخلقة وذلك لاختلافهم من حيث القوة البدنية، والاستعداد، والذكاء، والتعلّم، وغط التفكير، والجانب الوراثي، والامكانات المادية، والظروف الجغرافية وما اليها، غير انّ هذا الاختلاف عموماً من السنن الحتمية لعالم الخلقة تقدَّرَ من قبل الله الحكيم العالم بموجب الحكمة والمصلحة كي يشعر الناس بحاجة بعضهم الى البعض الآخر، وكي يساعد بعضهم البعض الآخر ويخدمه في هذه الحياة، ولولا هذه الاختلافات والتباينات لما تيسرت الحياة الاجتماعية ولتمزقت وشائج المجتمع وتبدل النشاط والعمل والحركة الى خمول وكسل وكآبة. اضف الى ذلك، أنّ من أسرار هذه التباينات هو ابتلاء الناس وتمحيصهم، وهو ما يُعدّ أرضية لتكاملهم وبناء أنفسهم، وقد قال الله تعالى:

﴿... ولو شاءَ الله لجعلَكُم أُمَّةً واحدةً ولكن ليبلُوَكُم فيما آتاكُم ...﴾[1].

فالهدف من هذه الاختلافات أن يتّضح كيف ينتفع المرء بالامكانات التي أعطاها الله تعالى للانسان وأسبغها عليه، فلولا هذه الاختلافات لما وُجِدت أرضية الابتلاء والتمحيص، ولما تميّز الخبيث من الطيّب:

﴿ليميزَ اللهُ الخبيثَ مِنَ الطيِّب ...﴾[2].

وهناك العديد من الآيات التي تتحدث عن التباين بين الناس في الرزق المقدر، ومنها:

---

(١) المائدة / ٤٨.

(٢) الانفال / ٣٧.

﴿اللهُ يبسُطُ الرِّزقَ لِمن يشاءُ مِن عبادهِ ويَقْدِرُ لهُ ...﴾[١].

﴿لهُ مقاليدُ السَّماواتِ والأرضِ يبسُطُ الرِّزقَ لِمن يشاءُ ويقدِرُ ...﴾[٢].

﴿واللهُ فضَّلَ بعضَكُم على بعضٍ في الرِّزقِ فما الذينَ فُضِّلوا بِرادِّي رزقِهِم على ما ملكَت أيمانُهُم فهُم فيهِ سواءٌ أفبِنعمَةِ الله يجحدونَ﴾[٣].

﴿وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتينِ عظيمٍ، أهم يقسِمونَ رحمةَ ربِّكَ نحنُ قَسَمنا بينهُم معيشتَهُم في الحياةِ الدنيا ورفعنا بعضَهُم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتَّخِذَ بعضُهُم بعضاً سِخرياً ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ مِمّا يجمعونَ﴾.

فالعرب في الجاهلية كانوا يتصورون انّ معيار العزة والفضيلة يتمثل في الثروة والجاه والشخصية المادية والظاهرية، وقد دفعهم هذا النمط من التفكير الى التساؤل عن سبب عدم نزول القرآن على احدى اكبر شخصيتي مكة والطائف. وكان هدفهم من وراء هذا السؤال الاستنكاري هو نفي عملية نزول القرآن، اذ أنّ ادعاء الرسول غير منطبق مع معاييرهم!

وقد ردّ القرآن الكريم على هؤلاء بأنّ الله تعالى هو الذي يقسّم الارزاق والمعيشة وأنّ ذلك التفاوت قائم على أساس ملاك المصلحة لا ملاك الفضيلة والكرامة، والهدف منه ان ينخرط البعض في خدمة البعض الآخر من اجل ان تسير شؤون الحياة كما ينبغي، وقد يكون الخادم في ظل نظام التسخير والاستخدام هذا افضل من المخدوم عند الله وأحبّ وأعزّ، اذ انّ اكرم الناس عنده أتقاهم.

أضف الى ذلك ان الدنيا لا قيمة لها عند الله تعالى حتى انه سبحانه قال:

﴿ولولا أنْ يكونَ الناسُ أُمَّةً واحدةً لجعلنا لِمَن يكفُرُ بالرحمنِ لِبُيوتِهِم سُقُفاً مِن

---

(١) الشورى / ١٢.

(٢) النحل / ٧١.

(٣) الزخرف / ٣١و ٣٢.

فِضَّةٍ ومعارِجَ عليها يظهرون﴾[١].

غير انّ هذه الاختلافات والتفاضلات انما هي بفعل الضرورات التي توجبها الحياة الدنيا.

والجدير بالذكر انّ هذه التفاضلات ليست بدون حدود، مثلما انّ الرزق ليس بدون حدود ايضاً، لأنّ ازالة الحد في كليهما يؤدي الى الفساد والانحراف.

وهذه التفاضلات ليست قائمة على أساس الفضيلة وانما على أساس الضرورات الطبيعية والتكوينية، ولا علاقة لها بالقيم المعنوية والأخلاقية. ولذلك قد يكون المؤمن المخلص فقيراً، والكافر المختال غنياً، كما قال الشاعر:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيَتْ مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقا
هذا الذي تركَ الأوهامَ حائرةً وصيَّرَ العالِمَ النِّحريرَ زنديقا

ونستشف مما سبق من آيات انّ الغنى لا يدل على السعادة والفضيلة كما انّ الفقر لا يدل على البؤس والرذيلة، بل لا علاقة بين الاثنين أساساً، وقد يمنح الله تعالى الثروة والقوة للمسلم الصالح أيضاً كما هو الحال بالنسبة لنبي الله سليمان عليه السلام الذي دعا الله قائلاً:

﴿وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدي انَّكَ أنت الوهّابُ﴾[٢].

وقد استجاب الله دعوته فسلّطه على الجن و الانس والوحش والطير، حتى قال سبحانه:

﴿فسخَّرنا لهُ الريحَ تجري بِأمرِهِ رُخاءً حيثُ أصابَ﴾[٣].

﴿والشَّياطينَ كُلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ﴾[٤].

---

(١) الزخرف / ٣٣.
(٢) ص / ٣٥.
(٣) ص / ٣٦.
(٤) ص / ٣٧.

﴿وَآخرينَ مُقرّنين في الأصفادِ﴾[1].
﴿هذا عطاؤنا فامنُنْ أو أمسِكْ بغَيرِ حسابٍ﴾[2].
﴿وَانّ لهُ عِندنا لَزُلفَى وَحُسنَ مآبٍ﴾[3].

وعلى صعيد آخر، ما أكثر المؤمنين المخلصين الذين يعانون من الفقر والعوز والحرمان، وما أكثر المكذبين بالله واليوم الآخر الذين يعيشون حياة الرخاء والترف. وهذا ما يمكن ملاحظته بشكل واضح في فرعون الذي كان يمتلك أعلى مظاهر القوة والنعمة والغنى والمُلك، بينما نرى في قباله نبي الله موسى، في وضع معاكس تماماً اذ خرج هارباً الى مدين خائفاً من فرعون وزبانيته، وأفضى هناك الى ربه تعالى بما يعانيه من فقر وجوع قائلاً:

﴿... ربِّ انّي لما أَنزَلتَ اليَّ مِنْ خيرٍ فقيرٌ﴾[4].

استنتاج وسؤال

نستنتج مما سبق انّ الأمر الذي يحظى بالأهمية على الصعيد الحقوقي هو أن تكون الظروف الحياتية والعلاقات الاجتماعية سليمة من جميع الجهات من اجل ان تتوفر أرضية معقولة وعادلة ومناسبة لنمو الاستعدادات والطاقات ونضجها، وكي يصبح بمقدور الجميع استخدام ما لديهم من قابليات ومواهب والانطلاق للحركة والعمل. اما اولئك الذين لا قدرة لهم على العمل أو يعانون من عجز مالي لسبب أو لآخر فينبغي على الحكومة والشعب تأمين حياتهم بالمستوى المطلوب.

اما السؤال الذي لابد من اثارته فهو: اذا كان الله تعالى قد تكفل برزق الناس جميعاً، فلماذا لا تتحسن اوضاع البعض رغم كل ما يبذلونه من جهد وسعي، ولم

---

(١) ص / ٣٨.
(٢) ص / ٣٩.
(٣) ص / ٤٠.
(٤) ص / ٢٤.

لا ينالون ما يصبون اليه؟

والاجابة على هذا السؤال يمكن التوصل إليها من خلال ما سبق ان اشرنا اليه، إلّا اننا ومن أجل ازالة أي غموض نقدم الايضاحات التالية:

اولاً، هناك شطر كبير من الحرمان والفقر ناجم عن الظلم الذي يلحقه بعض الناس بالبعض الآخر. ولاشك في أنّ الظالم والمظلوم مقصران على هذا الصعيد: الظالم لما وقع منه من ظلم واعتداء على حقوق غيره، والمظلوم لقبوله للظلم وعدم مبادرته لدفع الجور عن نفسه. اما اولئك الذين لا تتوفر لديهم القابلية على الدفاع عن حقوقهم وصد الظلم، فبامكانهم تخليص أنفسهم من خلال الهجرة من ارض الظلم الى محل آمن على الأقل والعمل بما عليهم من واجبات قدر المستطاع، وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿إنَّ الذينَ تتوفاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفُسِهِم قالوا فيمَ كُنتُم قالوا كُنّا مُستضعفينَ في الارضِ، قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتُهاجِروا فيها...﴾[١].

ثانياً، مع افتراض استئصال جذور الظلم من العالم، فلن تكون نتيجة مساعي الناس وأعمالهم واحدة، لأنّ السعي وان كان شرطاً غير أنه لا يكفي بمفرده. بتعبير آخر: مع انّ السعي والمثابرة والعمل من العوامل الضرورية لتحقيق النجاح ورغم تأكيد القرآن عليها كقوله ﴿وأنْ ليس للانسانِ إلّا ما سعى﴾[٢]، لكن يجب عدم تجاهل العوامل الاخرى الواقعة خارج دائرة نفوذ الانسان واختياره، لأنّ السعي لا يمكن ان يكون مؤثراً بلا حدود ضمن اطار العلل والشروط الخاصة بهذا العالم، ولذلك لا يتسنّى للانسان الحصول على كل ما يريد بدون قيد وشرط.

ثالثاً، لاشك في ان الله تعالى أعلم بمصلحة عباده منهم. فما أكثر اولئك الذين يرغبون في حياة الرخاء، ولكن الله تعالى لا يرى صلاحهم فيها، وهذا ما أشار اليه قوله تعالى:

---

(١) النساء / ٩٧.

(٢) النجم / ٣٩.

﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهُو خيرٌ لكُم وعسى أنْ تُحبُّوا شيئاً وهُوَ شرٌّ لكُم واللهُ يعلمُ وأنتُم لا تعلمونَ﴾[1].

ولا تُستثنى قضية الرزق والتي هي بيد الله تعالى، من هذه القاعدة، فما أكثر اولئك الذين تغيروا كثيراً بمجرد أنْ خرجوا من حالة الفقر والعوز الى حالة الغنى والرخاء. وما أكثر الذين كانوا مكثرين لذكر الله وحريصين على اداء الفرائض والواجبات الدينية والاجتماعية والأخلاقية في أيام الحرمان، إلّا انهم نسوا الله تعالى في أيام الغنى. ولذلك قال القرآن الكريم:

﴿وَلَو بَسَط الله الرِّزقَ لعبادِهِ لَبغَوا في الأرضِ ولكنْ يُنزِّلُ بِقدرٍ ما يشاءُ انّه بعبادِهِ خبيرٌ بصيرٌ﴾[2].

وقال تعالى أيضاً:

﴿... انّ الانسانَ لَيطغى أنْ رآهُ استغنى﴾[3].

ثعلبة الانصاري

يُعدّ ثعلبة بن حاطب الانصاري نموذجاً بارزاً لهذا النمط من الناس. وقد نزلت فيه الآيات القرآنية التالية:

﴿وَمِنهُم مَن عاهَدَ اللهَ لَئِن آتانا مِن فَضلِهِ لنصَّدَّقنَّ ولَنكونَنَّ مِنَ الصّالحينَ. فلما آتاهُم مِنْ فضلِهِ بَخلُوا بِهِ وَتولَّوا وهُم مُعرضونَ. فأعقَبهُم نِفاقاً في قلوبِهِم الى يومِ يَلقَونهُ بِما أخلَفُوا الله ما وَعدوهُ وَبِما كانوا يكذِبونَ. ألَمْ يَعلموا أنَّ الله يَعْلمُ سِرَّهُم ونَجواهُم وَأنَّ الله عَلّامُ الغُيوبِ﴾[4].

وقيل في شأن نزول هذه الآيات انّ ثعلبة بن حاطب وكان من فقراء الانصار، قال للنبي ﷺ: ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال ﷺ: يا ثعلبة أما لكَ في رسول الله

---

(١) البقرة / ٢١٦.

(٢) الشورى / ٢٧.

(٣) العلق / ٦و٧.

(٤) التوبة / ٧٥ـ٧٨.

اسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لسارت. ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسولَ الله ادعُ الله أنْ يرزقني مالاً! والذي بعثك بالحقِّ لَئن رَزَقَني الله مالاً لأعطيَّن كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فقال ﷺ: اللهمَّ ارزق ثعلبةً مالاً.

فاتخذ غنماً كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنزل وادياً من أوديتها. ثم كثُرت نموّاً حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عَنِ الجمعة والجماعة.

وبعث رسول الله ﷺ اليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال: ما هذه إلّا أخت الجزية. فقال رسول الله ﷺ: يا ويحَ ثعلبة يا ويح ثعلبة! وأنزل الله الآيات[1].

بايجاز، الله تعالى أدرى بمصلحة عباده ويعطي كلَّ أحد وفق ما يراه صلاحاً.

الملاحظة الخامسة الرزق تقدير الهي

مع انّ على المرء ان يسعى للحصول على الرزق الحلال ويعمل لكي يعيش حياة كريمة، يجب عليه ايضاً انْ لا يغفل عن هذه الحقيقة وهي: انه مهما سعى وعمل فلن يحصل إلّا على نصيبه ولن يقطف من الرزق إلّا ما هو مقدّر له، ولابد ان يصل اليه ما قدّره الله له في أي مكان كان.

قال امير المؤمنين علي ؑ:

«يا ابنَ آدمَ الرزقُ رزقانِ: رزقٌ تطلبهُ ورزقٌ يطلبُكَ، فإنْ لم تأتِهِ أتاك...»[2].

وقال ؑ في وصيته لابنه الامام الحسن المجتبى ؑ:

«واعلَمْ يا بُنيَّ أنّ الرزقَ رزقانِ: رزقٌ تطلُبُهُ ورِزقٌ يطلُبُكَ فَإنْ أنتَ لم تأتِهِ أتاكَ...»[3].

اذن فالله تعالى قد ضمن رزق الانسان، وهذا ما اشار اليه الامام علي ؑ

---

(١) تفسير مجمع البيان، ط بيروت، ج ٣، ص ٥٣.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٣٧٩.

(٣) نفس المصدر، ك ٣١.

بصراحة:

«... قد تكفَّلَ لكم بالرزقِ»[١].

وهناك علل وعوامل تلعب دوراً كبيراً في زيادة أو قلة رزق الانسان، نكتفي بالاشارة الى بعضها:

عوامل زيادة الرزق

١ ـ التقوىٰ:

قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَلوْ أنّ أهلَ القُرى آمنُوا واتَّقُوا لَفَتحْنا عَلَيهم بـركاتٍ مـن السَّماءِ والأرضِ ولكنْ كذَّبوا فَأَخذناهُمْ بما كانوا يكسبونَ﴾[٢].

كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجعلْ لهُ مَخرجاً وَيرزقْهُ مِنْ حَيثُ لا يَحْتسِبُ...﴾[٣].

فالآية الاولى تتحدث عن التقوى الجماعية، فحينما يوجد في المجتمع التقي وغير التقي لا يمكن وصف هذا المجتمع بصفة التقوى. ومعنى هذا انّ المجتمع أو البلد الذي تنطبق عليه هذه الآية هو ذلك المجتمع أو البلد الذي يتصف افراده نوعاً بالتقوى، وحينما يكون كذلك لابد وأن تتدفق عليه البركات الالهية من السماء والارض.

أما الآية الثانية فتتحدث عن التقوى الفردية وما ينعكس عنها على المتقي من خير وبركة وحلول لمشاكله.

٢ ـ الاستغفار:

ويُعدّ الاستغفار عاملاً من عوامل الرزق ايضاً. وقد قال الامام علي عليه السلام:

«... وقـد جعـل الله الاستغفارَ سَـبَبَاً لِـدُرورِ الرزقِ ورحمـةِ الخـلقِ فـقـال

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ ١١٤.

(٢) الاعراف / ٩٦.

(٣) الطلاق / ٢و ٣.

سبحانه: ﴿استغفروا ربَّكُم انَّهُ كانَ غَفاراً يُرسلِ السّماءَ عليكُم مِدراراً﴾»[١].

عوامل قلة الرزق

١ ـ الكفران بالنعمة:

قال الله تعالى:

﴿وَضَربَ اللهُ مثلاً قَريةً كانت آمِنةً مُطمئِنَّةً يأتيها رِزقُها رَغداً مِن كُلِّ مكانٍ فَكَفَرتْ بِأنعُمِ اللهِ فَأذاقَها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعونَ﴾[٢].

وأشارت هذه الآية الى ثلاث نقاط مهمة وهي:

أ ـ الأمن الحقيقي يبعث على استقدام الثروات من كل مكان «يأتيها رزقها رغداً من كل مكان». ومن البديهي أنَّ استقدام الثروات يبعث على كثرة النعم والرخاء العام.

ب ـ الأمن نوعان: الأمن المصحوب بالاطمئنان والهدوء، والأمن المجرد من الاطمئنان. ويظهر النوع الأول في ظل الايمان والتقوى وهيمنة القانون، في حين يظهر النوع الثاني في ظل الاستبداد الفردي والحكومي. ويُسمى النوع الاول بالأمن الحقيقي والنوع الثاني بأمن القهر والمقابر. فمن الممكن ان يستتب الأمن بفعل الخوف من الحاكم الجائر المستبد، ولكنه أمن شبيه بالأمن السائد في المقبرة حيث ليس بمقدور أحد أن يتنفس. والأمن المصحوب بالاطمئنان والثقة والهدوء هو الذي يجذب الثروات والنعم.

ج ـ النعم الالهية نوعان: فردية واجتماعية. ويتصل عامل الشكر والكفر في النعم الفردية بالفرد نفسه، وفي النعم الاجتماعية بأفراد المجتمع أو البلد بأجمعهم. كما تعمّ الانعكاسات الناجمة عن شكر النعمة أو الكفران بها نفس العامل المسبب لها: الفرد اذا كان هو العامل، والمجتمع اذا كان هو العامل.

---

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، خ ١٤٣.

(٢) النحل / ١١٢.

ويرى القرآن الكريم انّ المجتمع بمثابة جسد واحد، وكما انّ هناك انعكاسات فردية للأعمال الفردية، كذلك هناك انعكاسات اجتماعية للاعمال الاجتماعية. فالايمان والتقوى الاجتماعيتان تؤديان الى نزول البركات الاجتماعية وهطول الخير العام، بينما يوجب الكفران والجحود الاجتماعيان الفقر الاجتماعي وحالة اللاأمن العام.

الآية السابقة تطرح موضوع الأمن الاجتماعي، أي الأمن الخاص بأُمة من الامم. وقد نسب البارئ تعالى الكفر في هذه الآية الى القرية حينما قال: «فكفرتْ بِأنعُم الله» ولم ينسبه الى الافراد، وهو ما يعبّر عن اشتراك مجموع أهل القرية فيه، ولذلك نزل العذاب الالهي على القرية فأذاقها الله طعم الجوع والخوف وجعلها هدفاً للبلاء فشمل ذلك العذاب الالهي جميع أهلها دون استثناء.

ونلاحظ ما يماثل هذا المضمون في آية اخرى تقول: ﴿ذلكَ بأنّ اللهَ لم يكُ مُغيِّراً نِعمةً أنعَمَها على قَومٍ حتّى يُغيِّروا ما بأنفُسِهِم...﴾[1]، فهذه الآية تتحدث هي الاخرى عن النعمة الجماعية، النعمة الخاصة بقوم من الأقوام وأُمة من الامم. فلو غيّرت امة ما موقفها فسيغير الله تعامله معها ويبدل تلك النعمة الى نقمة .فالذي يؤثر على مصير المجتمع، هو ما يطرأ على المجتمع من تغير وتحول ايجابي، اما التحول الفردي فليس بامكانه ان يلعب دوراً كبيراً وحاسماً على صعيد القضايا الاجتماعية المتعلقة بالمجتمع كوحدة واحدة وكيان واحد.

٢ ـ الذنب:

سبق ان ذكرنا خلال بحث آثار الذنب والمعصية، انّ قلة الرزق أثر من آثار اقتراف الذنب وارتكاب المعصية. وهذا ما أشار اليه الامام الباقر عليه السلام حين قال:

«انَّ العبدَ ليُذنبُ الذنبَ فيُزوى عنهُ الرزقُ»[2].

---

(١) الانفال / ٥٣.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٠، ح ٨. قد يقول قائل: هناك الكثير من المذنبين والمتحللين خلقياً ←

(٢٢)

رعاية الآداب والسنن الدينية والعرفية والاجتماعية

التواضع

التواضع، من الآداب والسنن ومن سمات الانسان المتخلق بالأخلاق الحسنة. وقد أكد الدين الاسلامي المقدس على صفة التواضع كثيراً من خلال الآيات والأحاديث.

التواضع في القرآن

عدّ القرآن الكريم التواضع صفةً من صفات عباد الرحمن خلال استعراضه

← يرفلون في النعم ويعيشون في ظل الرخاء ولا يعانون من أي نقص في حياتهم، فكيف يُعد الذنب من عوامل قلة الرزق؟ والاجابة على هذا التساؤل بحاجة الى ايضاح وتفصيل لا مجال له هنا. وانما نشير الى نقطة قرآنية واحدة. فقد اشار القرآن الى قضية الاملاء للكافرين واستدراجهم فقال ﴿.. انما نُملي لهم ليزدادوا اثماً﴾ (آل عمران / ١٧٨)، وهو ما يُعدّ نوعاً من العقوبة لا جائزة. كما قال: ﴿.. سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ (الاعراف / ١٨٢)، أي اننا نجرهم من خلال الثروة والامكانات المادية الى نقطة السقوط وإن تصوروا انها خير لهم، بل انما هي شرّ لهم ووزر ووبال عليهم، نعوذ بالله من سوء العاقبة.

لمجمل صفاتهم وميزانهم الخلقية فقال:

﴿وعبادُ الرحمنِ الذينَ يمشُونَ على الأرضِ هَوناً واذا خاطَبَهُمُ الجاهلونَ قالوا سلاماً﴾[1].

وهكذا نرى انّ الصفة الاولى التي وصف الله تعالى بها خاصّة عباد الرحمن هي أنهم يمشون بهدوء ووقار بعيداً عن الحركات التي تعبّر عن الخيلاء والغرور. فاسلوب المشي يُعبّر ولاشك عن حقيقة الانسان ويكشف عن باطنه. فالمغرور ينعكس غروره على تصرفاته وسلوكه، وبالامكان استشفاف هذا الغرور من الطريقة التي يمشي بها. ولذلك نهى الله تعالى عن المشي بخيلاء فقال:

﴿ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً انَّكَ لَنْ تَخرقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طُولاً﴾[2].

وتحدث القرآن الكريم عن لسان لقمان الحكيم وهو يوصي ابنه قائلاً:

﴿وَلا تُصعِّر خدَّكَ للنّاسِ ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً انّ اللهَ لا يُحبُّ كُلَّ مُختالٍ فَخُورٍ﴾[3].

التواضع في الأحاديث

أثنت الاحاديث بدورها على التواضع وأوصت به وأشارت الى انعكاساته الايجابية:

التواضع في المشي

قال عليعليه السلام في وصف المتقين:

«... وَمَشيُهُمُ التواضُعُ...»[4].

التواضعُ رفعةٌ وعزّةٌ:

وصف الرسول الاكرمصلى الله عليه وآله وسلم التواضع بأنه يعمل على رفع مكانة المرء، فقال:

---

(١) الفرقان / ٦٣.

(٢) الإسراء / ٣٧.

(٣) لقمان / ١٨.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط بيروت، خ ١٩٣.

«... انّ التواضُعَ يزيدُ صاحِبَهُ رِفعَةً فتواضَعوا يرفَعكُمُ الله...»(١).

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«... قال لقمانُ لابنه: لا عِزَّ إلّا لِمَنْ تَذَلَّلَ لله ولا رِفعةَ إلّا لِمَن تواضَعَ لله...»(٢).

وقال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله:

«مَن تواضعَ لله رَفَعَهُ الله فَهُوَ في نفسِهِ ضعيفٌ وفي أعيُنِ النّاسِ عظيم»(٣).

التواضع علامة كمال العقل

قال الامام الصادق عليه السلام:

«كمالُ العقلِ في ثلاثٍ: التواضع لله...»(٤).

التواضع من أفضل العبادة

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصيته للامام الحسن المجتبى عليه السلام:

«...والتواضعُ فانَّهُ مِن أفضلِ العبادةِ»(٥).

التواضع يكسب المحبة

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثمرةُ التواضع المحبّةُ»(٦).

التواضع ينمّي العقل

قال الامام الكاظم عليه السلام:

«كذلكَ الحكمةُ تُعمرُ في قلبِ المتواضِعِ ولا تُعمرُ في قلبِ المتكبِّرِ الجبّارِ لأنّ الله

---

(١) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١١٩؛ أمالي الطوسي، ص ٩؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢١، ح ١.

(٢) مشكاة الانوار، ط النجف، ص ٢٢٦.

(٣) كنز العمال، ج ٣، ص ١١٣. وهناك احاديث اخرى بهذا المضمون، راجع: كنز العمال، ج ٣، ص ١١٠، ح ٥٧١٩ و ص ١١٣، ح ٩٧٣٥ و٥٧٤٦؛ بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٢، ص ١٢٠، ح ٨.

(٤) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٥) امالي الطوسي، ص ٥.

(٦) دار السلام، المحدث النوري، ط حجرية، ١٣٠٥هـ، ج ٢، ص ١٧٢.

جعلَ التواضُعَ آلةَ العقلِ وجعَلَ التَّكَبُّرَ آلةَ الجهلِ»[١].

التواضع يُكمل النعمة

قال الامام علي عليه السلام:

«... وبالتواضُعِ تَتِمُّ النعمةُ...»[٢].

التواضع من سمات محبّي الله

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«أربعٌ لا يُعطيهِنَّ اللهُ إلّا مَن يُحبُّهُ، الصَّمتُ وهُوَ أوَّلُ العبادةِ، والتوكُّلُ على الله، والتواضعُ، والزهدُ في الدنيا»[٣].

علائم التواضع وآثاره

بعض الناس يدّعون التواضع إلّا أنّ هناك اختلافاً فاحشاً بين سلوكهم وادعائهم.

ولابد لنا من استعراض بعض علائم التواضع وسمات المتواضعين علّنا نتخذها في سلوكنا ونقتدي بها في حياتنا، وندعو الله كما دعاه الامام السجاد:

«... وأَلِنْ جانبي لهم تواضُعاً»[٤].

ويُعدّ القاء السلام والتحية على الآخرين من علائم التواضع، اذ قال الامام جعفر الصادق عليه السلام:

«مِنَ التَّواضُعِ أنْ تُسلِّمَ على مَن لقيتَ»[٥].

وقال الامام الحسن العسكري عليه السلام:

---

(١) بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣١٢.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ح ٢٢٤.

(٣) جامع السعادات، ج ١، ص ٣٥؛ احياء علوم الدين، الغزالي، ط بيروت، ج ٣، ص ٣٤١.

(٤) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٦.

(٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٦، ح ١٢.

«مِنَ التواضُعِ السلامُ على كُلِّ مَن تَمُرُّ بِهِ»[١].

وهذه السنّة من الأهمية بحيث أمر القرآن الكريم بها في العديد من آياته. كما اكدت عليها أحاديث أهل البيت عليهم السلام وتحدثت عن الأجر العظيم الذي يُكتَب للمسلّمين، وعبّرت عن انتقادها وذمها لمن يترك السلام.

ومن هذه الأحاديث:

أجر السلام

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله:

«انَّ في الجنّةِ غُرَفاً يُرى ظاهِرُها مِن باطنِها يسكُنُها مِنْ أُمَّتي مَنْ أطابَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وأفشى السلامَ، وصلى بالليلِ والناسُ نيامٌ»[٢].

ونُقِل عن الامام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعا ابناء عبد المطلب وقال لهم:

«يا بَني عَبدِ المُطَّلبِ أفشُوا السلامَ، وَصِلُوا الأرحامَ، وتَهَجَّدوا والناسُ نيامٌ، وأطعموا الطعامَ، وأطيبُوا الكلامَ تدخُلوا الجنَّةَ بسلامٍ»[٣].

وقال الامام الصادق عليه السلام ايضاً:

«اذا سلَّمَ أحَدُكُم فَليجهَرْ بسلامِهِ لا يقولُ: سَلَّمتُ فلم يَرُدّوا عَلَيَّ وَلَعلَّهُ يكونُ قد سَلَّمَ ولم يُسمِعْهم فاذا ردَّ احَدُكُم فَليجهَرْ بِرَدِّهِ ولا يقولُ المسلمُ: سَلَّمتُ فلم يَرُدّوا عَلَيَّ... كانَ عليٌّ عليه السلام يقول: لا تَغضبُوا ولا تُغضِبُوا أفشُوا السَّلامَ وَأطيبوا الكلامَ وَصَلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ تدخُلوا الجنَّةَ بسلامٍ. ثم تلا عليه السلام قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿السلامُ المؤمنُ المُهَيمِنُ..﴾»[٤].

---

(١) تحف العقول، ص ٣٦٦.

(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٣، ص ٢؛ امالي الصدوق، ص ٢٦٩، ح ٥، المجلس ٥٣.

(٣) محاسن البرقي، ص ٨٧.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٥، ح ٧.

وقال الامام موسى بن جعفر عليه السلام:

«أطعموا الطّعامَ وأفشوا السّلامَ وصلّوا والناسُ نيامٌ وادخلوا الجنّةَ بسلامٍ»[١].

ما هي التحيّة؟

وردت كلمة التحية في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وقد فسّرتها بعض الروايات بالسلام، نشير الى موضعين:

قال الله تعالى في موضع:

﴿واذا حُيّيتم بتحيّةٍ فحيّوا بأحسنَ منها أو رُدّوها انّ الله كان على كُلِّ شيءٍ حسيباً﴾[٢].

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿... فاذا دخلتُم بيُوتاً فسلِّمُوا على أنفُسِكُم تحيّةً من عندِ الله مباركةً طيّبَةً...﴾[٣].

أي حتى اذا لم يكن أحد في البيت فسلّموا على انفسكم. وهذا ما يدل على أهمية السلام في الاسلام.

نُقل عن الامامين الباقر والصادق عليهما السلام انهما قالا:

«انّ المرادَ بالتحيّةِ في الآية السلامُ وغيرهُ منَ البِرّ»[٤].

ورغم ورود معان أخرى لهذه الآية[٥] لا تتعلق بموضوع بحثنا، ولكن وكما

---

(١) الاختصاص، الشيخ المفيد، ص ٢٥٣.

(٢) النساء / ٨٦.

(٣) النور / ٦١.

(٤) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٩٩؛ التفسير الصافي، ج ١، ص ٣٧٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٢٤.

(٥) لمزيد من المعلومات راجع: التفسير الصافي، ج ١، ص ٣٧٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٥٤. والذي يستقطب الاهتمام في هذه الآية هو انّ الله يأمر ان نسلّم على انفسنا اذا دخلنا البيوت. وربما المقصود بذلك ان نسلّم على انفسنا حينما يكون البيت خالياً من كل أحد وأن لا نترك السلام قط في جميع الأحوال. وربما المراد ان يسلّم البعض على البعض الآخر أيضاً.

ذهب الى ذلك المفسرون يُعدّ السلام مصداقاً من مصاديق التحية. وهذا ما يسلط الضوء على أهمية هذا الواجب الاسلامي والانساني. فالالتزام بهذه السنّة الاسلامية يحظى بأهمية كبيرة بحيث قال الرسول الاكرم محمدﷺ:

«من بدأ بالكلامِ قبلَ السلامِ فلا تُجيبُوهُ»[1].

وقال الامام الصادقعليه‌السلام انّ الله تعالى يقول:

«انَّ البخيلَ من يبخلُ بالسَّلامِ»[2].

افشاء السلام

يسلّم البعض على معارفهم وأصدقائهم فقط، في حين يرفض الاسلام هذا النمط من التفكير وهذا الفهم للسلام، وأكّد على المسلمين السلام على كل من يلقونه.

وأورد سيد قطب في تفسيره:

«وقد سُئِلَ رسول اللهﷺ: أيُّ العملِ خيرٌ؟ قال: تُطعِمُ الطعامَ وتقرأُ السلامَ على مَن عرفتَ ومن لم تعرف»[3].

السلام تحية أهل الجنة

قال القرآن الكريم:

﴿اولئك يُجزَونَ الغُرفةَ بما صبروا ويُلقَّون فيها تحيَّةً وسلاماً﴾[4].

وقال في آية اخرى:

﴿... وتحيَّتُهُم فيها سلامٌ ...﴾[5].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٤؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٩٩، ح ٥.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٥، ح ٦.

(٣) في ظلال القرآن، ج ٢، ص ١٧٦.

(٤) الفرقان / ٧٥.

(٥) يونس / ١٠.

وقال: ﴿ادخلوها بسلام آمنين ...﴾[١].

اسلوب الرسول الاكرم ﷺ:

كان الرسول الاكرم ﷺ يولي السلام أهمية كبيرة وفائقة. وقد كتب ابن شهرآشوب في مناقبه:

«... ويبدأ من لقِيَهُ بالسلامِ»[٢].

فكان ﷺ يسلّم حتى على الاطفال وذلك لكي يصبح السلام سنّة من بعده، ويتخذ المسلمون السبق بالسلام اسلوباً لهم كما كان اسلوباً لرسولهم ﷺ. ولذلك قال ﷺ:

«خمسٌ لا أدعُهُنَّ حتّى المماتِ ... والتسليمُ على الصِّبيانِ لتكونَ سُنَّةً من بعدي»[٣].

السَّبق بالسلام

بعد وضوح حُسن السلام وأهميته، فلاشك في انّ السبق بالسلام أمر مطلوب وممدوح ايضاً، اذ قال القرآن الكريم:

﴿فاستبِقُوا الخيراتِ﴾[٤].

وطالما أُوصي بالسبق في السلام، اذ لو كان السلام وردّه مصحوبين بالمودة والحميمية، لانعكست عن ذلك الكثير من المردودات المعنوية والدينية فضلاً عن المردودات الاجتماعية.

قال الامام الصادق عليه السلام:

---

(١) الحجر / ٤٦.

(٢) مناقب آل ابي طالب، ج ١، ص ١٤٧.

(٣) بحار الانوار، ط بيروت، ج ١٦، ص ٢٢٠؛ خصال الصدوق، ج ١، ص ٢٤٦، ح ١١؛ أمالي الصدوق، المجلس ١٧، ص ١٨ مع قليل من الاختلاف.

(٤) المائدة / ٤٨.

«البادئ بالسلامِ أولى بالله وبرسوله»[١].

وقال عليﷺ:

«للسلام سبعونَ حسنةً، تسعةٌ وستّونَ للمبتدئ وواحدةٌ للرّادّ»[٢].

توقع باطل

يتجاهل المغرورون والمتكبرون هذه السنّة الالهية وللأسف، ويتوقعون ان يبادر الآخرون الى السلام عليهم. وقد يصل التكبر لدى بعضهم الى درجة بحيث يتوقعون حتى من الجالسين ان ينهضوا احتراماً لهم ويسلّموا عليهم. فهؤلاء ومن خلال توقعهم الباطل هذا يتجاهلون سنّتين اسلاميتين: الاولى هي السلام، والثانية آداب السلام. فللسلام آداب خاصة أوضحها الدين الاسلامي بشكل دقيق.

آداب السلام

من الذي يبدأ بالسلام؟

هناك تعاليم رائعة وواضحة ودقيقة في أحاديث المعصومين عليهم السلام بهذا الشأن:

قال الامام الصادقﷺ:

«يُسلِّمُ الصغيرُ على الكبيرِ والمارُّ على القاعِدِ والقليلُ على الكثيرِ»[٣].

وقالﷺ أيضاً:

«يُسلِّمُ الراكبُ على الماشي، والماشي على القاعدِ، واذا لقِيَت جماعةٌ جماعةً سلَّمَ الأقلُّ على الأكثرِ، واذا لقيَ واحدٌ جماعةً سلَّمَ الواحدُ على الجماعةِ»[٤].

---

(١) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٥، ح ٨؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٢٦.
(٢) بحار الانوار، ط بيروت، ج ٧٣، ص ١١.
(٣) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٦، ح ١؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٢٦.
(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٤٧، ح ٣؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٠٠.

وأورد الفخر الرازي في تفسيره حديثاً نبوياً حول آداب السلام يقول:

«السُنَّةُ أن يُسلِّمَ الراكبُ على الماشي، وراكبُ الفرسِ على راكب الحمارِ، والصغيرُ على الكبيرِ، والأقلُّ على الأكثرِ، والقائمُ على القاعدِ»[1].

وعلّق الفخر الرازي على هذا الحديث بعد نقله قائلاً:

«وأقول: اما الأول فلوجهين: أحدهما: انّ الراكب أكثر هيبةً فسلامه يفيد زوال الخوف. والثاني انّ التكبّر به أليق، فأُمر بالابتداء بالتسليم كسراً لذلك التكبّر»[2].

فقد يتصور البعض بما أنهم أصحاب ثروة طائلة فلابد للآخرين أن ينظروا اليهم بعين الاحترام، في حين يرى الاسلام انّ هؤلاء أولى بالسلام على الآخرين، متوخياً بهذه الطريقة تحطيم ما لدى هؤلاء من غرور وتكبّر.

ردّ السلام وآدابه

كما ذُكر، الابتداء بالسلام مستحب، وردّه واجب، بحيث لو سلَّم عليك أحد وأنت في الصلاة يجب عليك ان تردَّ على سلامه.

اما آداب جواب السلام فهي ان يكون الردّ أحسن من السلام نفسه، عدا في الصلاة حيث يجب ان يساوي السلام، لأنّ الزيادة فيه تبطل الصلاة.

قال القرآن الكريم بهذا الشأن:

﴿... اذا حُيِّيتُم بتحيَّةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدّوها﴾[3].

وهكذا نرى انّ القرآن الكريم يقدّم التحية بالأحسن على التحية المساوية، حيث نفهم من ذلك انّ التحية بالأحسن هي التي يطلبها الله تعالى، وتعني ان

...

(١) التفسير الكبير، ط حديثة، ج ١٠، ص ٢١٣. راجع: التفسير الصافي، ط اسلامية، ج ١، ص ٣٧٦؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٠٠؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٢٦؛ تفسير الميزان، ج ٥، ص ٣٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ١٠، ص ٢١٣.

(٣) النساء / ٨٦.

يكون الردّ بعبارة اكمل ومحتوى افضل.

اورد الطبرسي في تفسيره:

«... انّ رجلاً دخلَ على النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: السلامُ عليكَ. فقال النبي صلى الله عليه وآله: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله. فجاءهُ آخرُ فقالَ: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله. فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله وبركاتهُ. فجاءَهُ آخرُ فقالَ: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله وبركاتُهُ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله وبركاتهُ. فقيل: يا رسولَ الله! زِدتَ للأولِ والثاني في التحيةِ ولم تزِد في الثالثِ؟ فقال: انَّهُ لم يُبقِ لي من التحيّةِ شيئاً فرددتُ عليهِ مثلَهُ»[1].

ومن آداب السلام الاخرى الردّ مباشرةً وأن يكون بالشكل الذي يسمعه المسلِّم. كما يجب ان يكون باللسان وبنفس العبارات المتداولة. ولو ردّ أحدهم على السلام بالرأس أو اليد، فانه لم يعمل بما يجب ان يعمل به. ولكن لو كان المبتدئ قد سلّم وفق الآداب المتعارفة لديهم من خلال رفع اليد أو رفع القبعة عن الرأس تعبيراً عن الاحترام، فبالامكان الرد عليه بمثل هذا النوع من السلام طبقاً لما جاء في الآية الكريمة: «أو رُدُّوها».

ترك الجدال والمراء

من علائم التواضع الاخرى: ترك الجدال والمراء.

قال الامام الصادق عليه السلام:

«... التواضعُ .. وأن تترك المِراءَ وان كنتَ مُحِقّاً، ورأسُ الخيرِ التواضعُ»[2].

ما هو الجدال؟

قال الراغب الاصفهاني في المفهوم اللغوي للجدال:

---

(١) تفسير مجمع البيان، ط بيروت، ج ٣، ص ٨٥؛ ورد حديث بهذا المضمون في تفسير الفخر الرازي (ج ١٠، ص ٢١٢).

(٢) بحار الانوار، ج ٧٢، ص ١٢٣.

«الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلتُ الحبل أي أحكمتُ فتله»[١].

وأما معناه الاصطلاحي فهو أن يستخدم المرء مسلّمات الجانب الآخر ضدّه. أي يستخدم حين الاستدلال نفس المقدمات التي يأخذ بها الجانب الآخر. ويُعد هذا الاسلوب مؤثراً جداً في الاقناع أو الافحام. واذا كانت طبيعة التعامل في هذا النمط من الاستدلال رصينة وجيدة، عُدّ هذا الجدال من نوع الجدال بالتي هي احسن، والذي دعا اليه القرآن.

الجدال، من الأعراض التي ابتُلي بها عدد كبير من الناس، وهو موضوع بحاجة الى دراسة مسهبة، لكننا نكتفي بالاشارة اليه بايجاز خشية الخروج عن صلب الموضوع.

البعد الايجابي للجدال

لم ينه الاسلام عن الجدال عموماً، بل وأمر القرآن في بعض آياته الرسول الاكرم أن يجادل الناس، اذ من الضروري التباحث والنقاش من اجل ارشاد الناس وهدايتهم وايقافهم على الحقائق، وما أكثر من اهتدى الى الخير والسعادة ونجا من الضلال والانحراف عن هذا الطريق.

قال القرآن الكريم:

﴿أُدعُ الى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعِظَةِ الحسنَةِ وجادِلْهُم بالَّتِي هي أحسَنُ انَّ ربَّكَ هوَ أعلمُ بِمَن ضلَّ عن سبيلهِ وهو أعلمُ بالمهتدينَ﴾[٢].

وقال أيضاً:

﴿ولا تُجادِلُوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتي هي أحسنُ إلّا الذينَ ظلموا منهُم وقولوا

---

(١) مفردات الراغب، مفردة «جدل».

(٢) النحل / ١٢٥.

آمنّا بالذي أُنزِلَ الينا وأُنزِلَ اليكُم والهُنا والهُكُم واحدٌ ونحنُ لهُ مسلمونَ﴾[١].

اذن فالجدال ليس مذموماً بشكل مطلق، ولم ينه القرآن الكريم عن النقاش المنطقي. والجدال المذموم هو ذلك الذي يحمل طابع القمع والمصحوب بالضوضاء والعربدة والعنف، ويؤدي في آخر المطاف الى هتك الحرمة واراقة ماء الوجه والاساءة الى الآخرين. اما اذا كان الهدف من الجدال والبحث خيّراً وانسانياً، ولا يستهدف الاستعلاء على الغير، فهو الطريق الأمثل لايضاح الحقائق.

وتحمل الروايات الاسلامية الكثير من المناظرات التي جرت بين الرسول الاكرمﷺ والائمة المعصومين عليهم السلام وبين معارضيهم وأصحاب الافكار المغايرة، يمكن الرجوع اليها في كتب الاحتجاج والتي لابد وأن تفصح عن هذه الحقيقة. اضف الى ذلك انّ الأئمة المعصومينعليهم السلام كانوا يوعزون الى أصحاب القابليات الفكرية والعلمية من أصحابهم الى مناظرة المعارضين. وهو ما يشير بدوره أيضاً الى عدم ذم الجدال ككل في الاسلام.

هشام بن الحكم وجه معروف في المناظرة

يُعدّ هشام بن الحكم من الوجوه الاسلامية المعروفة وأحد أبرز تلامذة الامام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام. وكان يتميز ببراعة خاصة وقدرة فائقة في علم الكلام، ولا تخفى خلفيته الطويلة في هذا المجال على الباحثين والدارسين. وكان ينطلق الى المناظرات والنقاشات الفكرية والعقائدية بقوة خاصة ويديرها بقابلية مذهلة فيخرج منها منتصراً انتصاراً باهراً. وكان لديه الكثير من المناظرات ومنه مناظرته المعروفة مع عمرو بن عبيد المعتزلي والتي تكشف عمّا اشرنا اليه من براعة ولباقة وقوة استدلال.

نريد ان نقول من خلال ذلك انّ هشاماً كان كثيراً ما يخوض غمار المناظرات والمساجلات، ولو كان ذلك ممنوعاً أو حراماً في الاسلام، لمنعه الامام الصادقعليه السلام

(١) العنكبوت / ٤٦.

ولما قال له:

«يا هِشامُ لا تكادُ تقعُ تلوي رِجليكَ اذا هممتَ بالارضِ طِرتَ. مثلُكَ فليُكلِّمِ الناس، فاتَّقِ الزلَّة، والشفاعةُ من ورائِها ان شاءَ الله»(١).

وقد وصفه الامام الصادق لأجل مناظراته قائلاً:

«... ناصِرُنا بقلبِهِ ولسانِهِ ويدِهِ»(٢).

كما قال فيه:

«هِشامُ بن الحكم رائِدُ حقِّنا وسائِقُ قولِنا المُؤيِّدُ لصدقِنا والدافِعُ لباطِلِ أعدائِنا. من تبِعَهُ واتَّبعَ أثرهُ تبِعنا ومن خالفهُ وألحدَ فيهِ فقد عادانا وألحدَ فينا»(٣).

وهكذا لو كان الجدال أو المناظرة امراً غير جائز في الاسلام لما أمر الامام الصادقعليه السلام بعض أصحابه من ذوي القابلية على النقاش والبحث بجدال المعارضين وخوض المناظرة معهم.

لذلك حينما قدم على الامام الصادق رجل من الشام ودعا الامام الى مناظرته، أمر الامام أحد أتباعه ويدعى زرارة بن أعين بمناظرته(٤).

البعد السلبي للجدال

اذا كان الجدال منطلقاً من روح العداء ويرمي الى التبجح بالفضل والكمال، فلا يجوز من وجهة النظر القرآنية، لأنّ الذي يخوض مثل هذا الجدال لا يُعَدّ قد زكّى نفسه ولا هذّبها، ولا يزال على صلة بالعلائق المادية والدنيوية. وقد حُرِّم الجدال في إحرام الحج والعمرة، لتعارضه مع فلسفة الاحرام والتي تتمثل في تمزيق

---

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٧٣، ح ٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٢.

(٣) هشام بن الحكم، تأليف عبد الله نعيمة، ص ٦٦؛ تنقيح المقال، ط النجف، ج ٣، ص ٢٩٥ بشيء من الاختلاف.

(٤) تنقيح المقال، ط النجف، ج ١، ص ٤٣٩.

الانشدادات المادية والتفاخر الدنيوي.

قال القرآن الكريم:

﴿... فلا رفثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ ...﴾[١].

ولاشك في انّ الجدال اذا كان يهدف الى اثارة العداء وحب الاستعلاء والتفوق، فلابد أن تنجم عنه الكثير من المردودات السلبية ومنها:

انتهاك الكرامة:

الجدال بجانبه السلبي يؤدي الى انتهاك الكرامة والعرض، لاسيا اذا كان الجانب الآخر سبّاباً وبذيء اللسان، فانه لن يجادل حينئذ بأدب ولا يراعي الاخلاق، وسيطلق كلّ ما يرد على لسانه من كلمات، الأمر الذي يؤدي الى انتهاك الحرمة والشرف.

قال الامام علي عليه السلام:

«من ضنَّ بعِرضهِ فليدَعِ المِراءَ»[٢].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

«لا تُمارِيَنَّ حليماً ولا سفيهاً فانَّ الحليم يغلبُكَ والسفيهَ يؤذيكَ»[٣].

الجدال، يوجب العداء:

نهى أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الجدال لأنه يزرع العداء، فقال:

«ايّاكُم والمِراءَ والخُصومَةَ فانَّهُما يُمرِضانِ القلوبَ على الاخوانِ وينبُتُ عليهما النفاقُ»[٤].

---

(١) البقرة / ١٩٧.

(٢) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٣٥٤.

(٣) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٨٥؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٠ باختلاف طفيف.

(٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٠، ح ١.

لابد ان يكون الجدال بعيداً عن المراء والخصومة عموماً، أي ان بيان الحقيقة يلزم ويجوز اذا كان

←

اذن فالذي يدّعي التواضع لابد وأن تُشاهَد في سلوكه وعمله علائم التواضع وسماته، ولاشك في انّ من يعلم بأنّ الحق ليس معه وانما يصر على الجدال من اجل اثبات فكرته وفرض آرائه على الآخرين، فهو انسان قد تغلّب عليه حب الاستعلاء والتفوق ولابد أن تطاله مردودات الجدال التي لا تحمد عقباها. فالتواضع سلوك وعمل لا كلام وشعار. ولن يكون لمثل هؤلاء أية جماهيرية ولن يميل اليهم أي أحد من الناس. هذا في الدنيا، اما في الآخرة فسيحشرون في زمرة المستكبرين.

الاستثناءات

رغم أنّ التواضع من صفات الانسان الحميدة، لكن يجب ان نعلم ايضاً بأنّه ليس محموداً دائماً وبشكل مطلق، فقد تكون له مردودات سلبية في بعض الأحيان، ولذلك نلاحظ حينما نبحث في آداب المعاشرة بعض الحالات التي نُهي فيها عن التواضع، مثل:

التواضع أمام المتكبر:

التكبر صفة ذميمة ومعصية كبيرة، ولذلك ليس من اللائق التواضع للمتكبر، لأنّ التواضع يحمل معه معنى الحب والتعاطف، واذا ما عبّرنا عن حبنا وتعاطفنا مع المتكبر نكون قد أيّدنا تكبره وعزّزنا مكانة المتكبر في المجتمع، في حين لا يحبّ الله المتكبرين.

قال الامام الصادقعليه السلام:

«أوحى الله الى داوُدَ كما أنَّ أقربَ الناسِ الى الله المتواضعونَ كذلك أبعدُ الناسِ

← الجانب الآخر مستعداً لسماعها، أما اذا كان غير مستعد لذلك فلا يجب الاصرار عليه، اذ لو كان الهدف هو بيان الحقيقة، فلن يكون ذلك مجدياً مع عدم استعداد الجانب الآخر لسماعها، واذا كان الهدف هو الغلبة والقمع، فهذا هو الجدال المذموم الذي يؤدي الى الخصومة والعداء.

من الله المتكبّرون»[١].

ولذلك يأمر الاسلام بالتكبر على المتكبر كي يسقط من ذروة الغرور ويصغر في عين الناس.

قال رسول الله ﷺ:

«اذا رأيتم المتواضعينَ من أُمّتي فتواضَعوا لهُم واذا رأيتُم المستكبرينَ فتكبّروا عليهِمُ فانَّ ذلك لهُم مذلَّةٌ وصغارٌ»[٢].

التواضع من أجل الثروة:

انّ التواضع للأغنياء من أجل ثروتهم ومالهم، تواضع مذموم ايضاً، فالذي يتواضع للغني من أجل غناه انما يعمل على زعزعة ايمانه بالله تعالى، وبالمقابل فقد امتدح الاسلام تواضع الاغنياء للفقراء اذ انه يدل على انسانية الغني وايمانه.

قال الامام علي عليه السلام بهذا الشأن:

«ما أحسنَ تواضُعَ الأغنياءِ للفقراءِ طلباً لما عند الله وأحسَنُ منهُ تِيهُ الفقراءِ على الأغنياءِ اتّكالاً على الله»[٣].

كما قال عليه السلام:

«... ومن أتى غنياً فتواضعَ لهُ لِغناهُ ذهبَ ثُلثا دينهِ»[٤].

وجاء في التوراة:

«من تواضعَ لِغنيٍّ من أجل غناهُ ذهبَ ثُلثا دينهِ»[٥].

---

(١) الجواهر السنية، ص ٦٩؛ اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٣، ح ١١ مع التفاوت التالي «اقرب الناس من الله ...».

(٢) جامع السعادات، ط بيروت، ج ١، ص ٣٦٣؛ احياء علوم الدين للغزالي، ط بيروت، ج ٣، ص ٣٤١.

(٣) بحار الانوار، ج ٧٢، ص ١٢٣؛ نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٤٠٦.

(٤) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ٢١٩.

(٥) الجواهر السنية، ص ٦٦.

التواضع للكافرين:

لا ينبغي للمؤمن ان يتواضع للكافر[1] والمعاند لأنه سيعمل بذلك على اذلال نفسه. ولذلك لابد للمؤمن ان يتواضع للمؤمنين المتواضعين فقط، ويتكبّر على الكافرين، اذ قال القرآن الكريم:

﴿محمدٌ رسولُ الله والذينَ معهُ أشِدّاءُ على الكفّارِ رُحماءُ بينهُم تراهُم رُكّعاً سُجَّداً يبتغُونَ فضلاً منَ الله ورِضواناً سيماهُم في وجوهِهِم من أثرِ السُّجُودِ ذلكَ مثلُهُم في التوراةِ ومثلهُم في الانجيلِ كزرعٍ أخرجَ شطأَهُ فآزرَهُ فاستغلظَ فاستوى على سوقِهِ يُعجِبُ الزُّرّاعَ ليغيظَ بِهِمُ الكفّارَ وعدَ الله الذينَ آمنوا وعمِلوا الصّالحاتِ منهُم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[2].

وقال تعالى أيضاً:

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا من يرتدَّ مِنكُم عن دينهِ فسوفَ يأتي الله بِقومٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونهُ أذِلَّةٍ على المؤمنينَ أعِزَّةٍ على الكافرينَ يجاهدونَ في سبيلِ الله ولا يخافُونَ لومةَ لائمٍ ذلكَ فضلُ الله يؤتيهِ من يشاءُ والله واسعٌ عليمٌ﴾[3].

التواضع للمتجاهر بالفسق وتارك الصلاة:

يُعدّ التواضع للمتجاهر بالفسق وتارك الصلاة، من الحالات التي يُذَمُّ عليها.

فالاسلام لا يسمح بالتواضع لمن يتجاهر بالفسق كشارب الخمر والمرابي وتارك الصلاة وغيرهم، اذ انّ ذلك يبعث على تماديهم في المعصية واصرارهم على الخطيئة والتمرد على التعاليم الالهية. ولذلك نهى الاسلام حتى عن السلام على

---

(١) المراد بالكافر هنا ذلك الذي يتخذ موقف العناد والمحاربة ازاء الاسلام والمسلمين ويدعو ضد الاسلام ويعمل على مناهضته. اما اولئك الذين يتخذون مواقف سلمية ازاء المسلمين فلا مانع من ابداء الحب لهم والاحسان اليهم، اذ قال تعالى:

﴿لا ينهاكُمُ الله عنِ الذينَ لم يقاتلوكُم في الدينِ ولم يُخرجوكُم من ديارِكُم أن تبرّوهُم وتُقسِطوا اليهم انَّ الله يُحبُّ المقسطينَ﴾. (الممتحنة / ٨).

(٢) الفتح / ٢٩.

(٣) المائدة / ٥٤.

هؤلاء[١].

خلاصة البحث

وصفوة الكلام هي انّ التواضع صفة حميدة اذا كانت لله وفي سبيل الله وناشئة من البواعث الالهية والأهداف السماوية العليا. اما اذا لم يكن هذا التواضع لله ومن اجل الله، فانه ذلّة ومهانة، ولا يحق للمؤمن المتخلق بـالأخلاق الحسـنة اذلال نفسه أو التفريط بكرامته. ولذلك تُعَدّ المطلقية في القضايا الأخلاقية العمليّة امراً غير صحيح، والشرائط متفاوتة اذ لِكلّ مقالٍ مجال، ولكل نكتةٍ مقام.

ربنا آمنّا بما انزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

(١) لمزيد من المعلومات راجع: تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٢٦ و٥٢٧؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٣١ و٤٣٢، الباب ٢٨.

الفهرس